الشخصية المصرية

من خلال دراسة بعض مظاهر الفولكلور المصرى

دراسة نفسية تحليلية أنثروبولوچية

د. فاطمة حسين المصرى





الشخصية المصرية

من خلال دراسة الفولكلور المصرى

تأليف : د. فاطمة حسين المصرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٤

الاخراج الفنى : زهور السلام شاكر

تصميم الغلاف : رشيدة محمد رشاد

تصدير بقلم مصطفى زيور

يسعدني أن أقدم للقارىء العربي اطروحة في موضوع نالت مؤلفتها درجة الدكتوراه في الآداب (تخصص علم النفس) مع درجة الشرف من جامعة عين شمس عام ١٩٧٤ ـ وانجزت اطروحتها تحت اشرافي وقد سبق للسيدة فاطمة المصرى مؤلفة هذه الاطروحة أن قامت ببحث تحت اشرافي أعدته في موضوع الزار دراسة سيكوتحليلية انثروبولوجية نال استحسان وثناء أعضاء لجنة المناقشة وذلك لأنها كانت رائدة في بحث موضوع الزار من المنظور الاكاديمي العلمي واستخدمت منهجا مألوفا لدى الانثروبولوجيين أعني الملاحظة بالمشاركة مما اقتضاها مجهودا شاقا في البحث في الأصول التاريخية لهذا الطقس ٠

أما اطروحتها الحالية : الشخصية القومية من خلال المادة الفلكلورية فقد كانت اسهاما له وزنه في موضوع لا يزال يثير الجدل حول امكانية العثور على ما يميز الشخصية المصرية ـ والشخصية القومية من سمات مستقرة ٠ غير انني لا أرى في هذا الجدل سببا حاسما للامتناع عن محاولة بحث اكاديمي نستطيع أن نفحص نتائجه حتى يتاح لنا الحكم على امكان أو عدم امكان الوصول الى سمات متميزة في الشخصية القومية أما الجدل النظرى في الامكان أو عدم الامكان فهو اجتهاد فكرى مكتبي لا يمكن أن يصل بنا الى قرار حاسم طالما لم يستخدم منهجا علميا تطبيقيا تبحث من خلاله مصادراته وفروضه الأولية العلمية وأعني بها منهج الاستنباط ومنهج الاستقراء ٠

هذا وقد عالجت المؤلفة جوانب هامة في بناء الشخصية من حيث التكوين والتميز من الجانبين السلبي والايجابي عن طريق الدراسة النفسية التحليلية الانثروبولوجية باستخدام المنهج الهرمنيطيقي ٠٠٠ مما جعل للموضوع وزنا خاصا بين دراسات الشخصية ٠ وان كنت لا أعتبر هذا البحث ايصادا لباب الاجتهاد في بحوث تالية ٠

والخلاصة أن الدكتورة فاطمة المصرى في هذا الكتاب قد فتحت أبواب الاجتهاد لبحوث تالية تساعد على اثراء المكتبة العربية ٠

أ٠ د٠ مصطفى زيور

مقدمة

(أ) العوامل التى أدت الى اختيار الموضوع :

« يا هذا كلمنى لكى أراك » ، هكذا قال سقراط لجليس بجانبه صامت لا يعرفه ، وعلى أساس هذا المبدأ السقراطى فى أن النفس تكشف عن حقيقتها فى الحديث من حيث موضوعه واتجاهه .. كما تعبر عن ذاتهـا فى طريقة السلوك وأسلوب العمل ، على أساس هذا المبدأ السقراطى يقوم بحث الشخصية المصرية على دراسة لبعض مظاهر الفلولكلور المصرى من خلالها تتضح الشخصية المصرية .

انها دراسة انثروبولوجية لبعض مظـاهر الفولكلور المصرى يتضـح من خلالها تحليل للشخصية المصرية .

وقد اخترت هذه الدراسة بناء على تأثرى بعوامل مختلفة هى :

١ ـ طرافة الموضوع وجدته .. فهو لم يبحث من قبل ـ حقيقة أن دراسة الفنون الشـعبية ـ الفولكلورية قد تقدمت كثيرا فى مصر على أيدى الأدبـاء ، واهتمت هيئات رسمية كالمركز القومي للبحوث وغيره بهذه الدراسات ، الا أنها لم تعد أن تكون اما دراسة ترمى الى التقدم فى المجالات الأدبية أو دراسـة لا تتعدى الوصف ، وحتى لو وصلت الى مستوى الدراسة الانثروبولوجية فهى تظل غير موفية بالغرض الذى دفعنى الى معالجة هذا الموضوع ، وهو الدراسـة الانثروبولوجية التى تتجه الى التحليل النفسى . فهى اذن دراسة ذات أعماق لا تقف عند مشاهدة الظواهر وسردها .. بل تتعدى تلك المرحلة الى التفسير والتحليل .

٢ ـ ان هذه الدراسة تعتبر اتصالا لدراسة الماجستير ، وكان موضوعها الزار دراسـة أنثروبولوجية سـيكوتحليلية ، وكلا الموضوعين يعـالج الفكر الشعبى ، ويفسر الاتجاه الشعبى ، حيـال ظواهر شعبية أو خرافية . فالزار كعلاج شعبى وممارسات شعبية تعتمد على طقوس وأساليب خرافية تعتمد على معتقدات شعبية توضحها الدراسة الأنثروبولوجية وتكشف خباياها الدراسـة النفسية .

ومن هنا كان الشبه كبيرا بين الدراسة السابقة ، والدراسة التى نقدمها الآن ٠٠ فهى دراسة أنثروبولوجية لبعض مظاهر الفلكلور المصرى ، كالسيرة الشعبية ، والموال ، والنكتة ، والمثل الشعبى ـ ثم نتناولها بالتفسير والتحليل ٠٠ لذلك كان الباب الخاص بالدراسة السيكلوجية ذا أهمية خاصة فى الموضوع على اعتبار أن التفسير السيكلوجي يعتمد على أسس اجتماعية وتربوية تؤثر فى حياة الطفل ، وفى عمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع وأنها ذات أثر قد يمتد طوال حياة الانسان ٠

٣ ـ كذلك رأينا أن نقوم بمحاولة جادة لا يضاح الحقيقة بالنسبة للخلاف الذى ظهر وما يزال لدى بعض البحاث بصدد الشخصية المصرية ، وهل هى امتداد للشخصية الفرعونية أم الشخصية العربية أم هى مزيج متكامل من كل منهما ، ومن عناصر أخرى متفاوتة التأثير ٠

فهناك من يقولون بأن الشخصية المصرية شخصية فرعونية ، وهم بذلك يهملون حياتنا الراهنة برمتها ، وما حصلته من مؤثرات ثقافية خلال العصور ، وخاصة منذ فتح العرب لمصر وأثر الاسلام على المصرى منذ ذلك التاريخ ، ممتزجا متفاعلا مع تأثيرات ثقافية أخرى كثيرة أفادها المصرى من خلال الزمن ، وطوال سير التاريخ ٠

كذلك لا ينبغى القول بأن الشخصية المصرية شخصية عربية خالصة ، وانما هى مزيج متكامل من الثقافة الفرعونية ، وما تلاها من ثقافات ، أهمها اليونانية ثم العربية ذات الأثر الكبير فى تشكيلها ، بما حوته من تعاليم سماوية ، تتمثل فى دين محمد عليه السلام ، وما يتيح ذلك من تشريعات وأوامر ونواه مصدرها الأساسى عقيدة الاسلام ٠

وبعبارة أخرى أقول أن الشخصية المصرية شخصية عربية ذات ذاكرة تاريخية (١) تجعلنا نحتفظ ضمن اللاشعور بماضينا السحيق فتحدد لنا الكثير من سلوكنا وقيمنا وآدابنا الاجتماعية ٠ على أننى لا أقف بالذاكرة التاريخية عند الحد الذى أوضحه لها هالفاكس من ارتباط بالماضى القريب بل أتعدى ذلك الى ماضى البشرية برمتها الى الماضى السحيق ٠ أليست النظرية التلخيصية ذات دلالة بالنسبة لتفسير جزء هام من سلوك الانسان وهو اللعب ٠

اذن فماضينا يغلب علينا ويرسمنا بصفات تميزنا عن غيرنا ، حتى ولو تشابهنا ٠٠ فها هم العرب جميعا يتفقون فى صفات جوهرية رئيسية ،

---

(١) شارل بلوندل ، ترجمة حكمة هاشم ، علم النفس الجماعى ، منشورات جماعة علم النفس التكاملى ، دار المعارف ١٩٦٢ ٠

الذاكرة التاريخية ، « هلفاكس »

(Les cadres Sociaux de la mèmoire, p. 120.

ولكنهم مع ذلك يختلفون من بلد الى آخر في تفاصيل تلك الصفات ، وذلك يبدو بجلاء بين المصرى والسعودى النجدى ، والســـورى الصميم ، والأمثلة على ذلك كثيرة معروفة لنا جميعا ٠

٤ ــ ولعل من الدوافع الهامة عند اختيـار هذا الموضـوع ، هو محاولة الوقوف على عوامل :

(أ) الرتابة والثبات التى يتصف بها مجتمعنا المصرى ٠

(ب) التغير والتقدم الذى يجب أن يسعى اليه مجتمعنا المصرى ٠

وقد دعا بعض كبار الكتاب في اللحظة الراهنة الى الجزء الثانى من هذه المحاولة أى العمل على تطوير السلوك الاجتماعى ، وتغيير القيم والمبادىء ، التى تحتاج الى تغيير ، حتى يمكن النهوض بالشعب المصرى ، والشخصية المصرية ٠ الا أننا نرى أن عملية التغيير لابد أن يسبقها دراســة لحقيقة الموقف النفسى ، والاجتماعى ، وايضـــاح لهذا الموقف ككل ٠٠ ثم تبدأ عمليات تغيير الاتجاهات عن طريق الاقناع ، والمناقشة ، والتفهم مع تغيير الاطار المرجعى بما يحويه من عنــاصر لا تتفق والتطور الزمنى ، وما فرضته الحضـــارة من أســـاليب عملية سلوكية ، أصبحت تتعارض مع بعض عناصر القديم ، وأصبح من الضرورى أن ينحى القديم لا لقدمه ، ولكن لأنه استنفد أهدافه ، وأصبح حجر عثرة فى سبيل التقدم والتطور والحق أننا بحاجة ماسة الى اعادة النظر ، فى قيمنا ومبادئنا ، عن طريق دراسة واعية تتعاون فيها الجهود لكى تصل الى هذا الهدف ، وقد لا نكون مغالين ان قلنا أن ما نقدمه من دراسة أنثروبولوجية تعتمد على البحث التاريخى والاستقصاء الجغرافى والمسح الاجتماعى ثم التفسير النفسى ٠٠ هذه الدراســة تؤدى الى ايضـــاح كثير من الاتجاهات الاجتماعية التى يتبعها الفرد والجماعة متأثرا فيها بثقافات متعددة ، ظلت تناضــل فى الأعماق وتتشـبث بالحياة حتى طفت الى السطح فتلقفها المجتمع ، واستمسك بها فكونت جزءا من فكره وسلوكه وحياته ٠

وعلينا بعد ذلك ان كنا جادين فى اصــلاح المجتمع ، أن نوضح القيمة الحقيقية لتلك العناصر التاريخية ، عن طريق التحليل ، حتى يتضح لنا الأمر فى جلاء ، وتميز ، بحيث نستبقى الصالح ، ونستبعد ما لم يعد مجتمعنا بحاجة اليه ٠٠ ثم تأتى مرحلة التركيب عن طريق عمليـــات تغيير الاتجاهات كما هو معروف فى الدراسات السيكوانثروبولوجية (وكما ســـنشـير اليه فيما بعد) ولعلنــــا اذ نتبع هـــذا الأسلوب نكون قد اتبعنا خطوات المنهج الديكارتى فى كماله وقوته ٠

وعملية تغيير الاتجاهات لا تتم فى يسر وهواده ، فهناك معوقات تعطل عمليات التغيير تتضح عند دراســـتنا لعمليات المطاوعة والتصلب ، وتنبنى على

تأثيرات نفسية بعضها خاص بالفرد فى تنشئته الاجتماعية ، والبعض الآخر مستمد من المجتمع ذاته Laudatio temporis act أى الثناء على العهد السالف والتغنى بالأيام الماضية (١) وتلك كلها معوقات للتقدم الاجتماعى الذى نسعى اليه فى الوقت الحاضر حتى نضع قدمينا على جادة الطريق الذى يؤدى بنا الى عتبة الباب ٠

٥ ـ وأخيرا ، وهذا هو العامل الخامس من العوامل التى جعلتنى أختار هذا الموضوع ، ولعله العامل السيكلوجى فى الموضوع ، وهو نشأتى الريفية ٠

فقد نشأت فى مدينة طنطا على مقربة من قريتنا ، وكنت أقضى كل عطلة صيفية مناصفة بين القرية وبين الاسكندرية ، ومن المؤكد أننى استمعت الى كثير من الأقوال الشعبية ، تتردد فى كل لحظة ، على السنة الناس فى طنطا ، وفى القرية ، وشاهدت فى طفولتى الاحتفال بمولد السيد البدوى سنوات متتالية ، وتأثرت بانفعالات الجماهير ، ورسخت فى نفسى أصداء موسيقاهم البدائية الساذجة ، وأحببت لغتهم ، وأساليبهم الاجتماعية فى الضيافة والترحيب ، والكرم والمجاملة تكشف عن صفاء فى القلب ، ورقة فى الشعور ٠٠ مع روحانية وتدين يعبران عن قوة ايمانهم وعظيم تمسكهم بالدين ٠

كذلك أحببت ما ينطقون به من أقوال حكيمة يتخذونها قانونا عاما لهم ، فى الحياة فيسيرون على هديها ولا يحيدون عنها حولا ٠

وقد كان لتأثير تلك الأمثال العامية على نفسى من القوة ما جعلنى أحفظ منها الكثير فى طفولتى ، وأنصت الى الكبار يرددونها فى المناسبات المختلفة طوال حياتنا اليومية فى حب وشغف ٠٠ فصياغتها بلفظها وجرسها جعلانى لا أمل البحث للحصول على المزيد منها ، كلما سنحت لى سانحة ، ولقد تبينت منذ وقت بعيد عندما درست التاريخ الفرعونى ، أى عندما التحقت بالتعليم الثانوى أن بعض المصريين القدماء أمثال (بتاح حوتب) قد جاء بحكم وأمثال شبيهة أشد الشبه بما يردده الناس حتى الوقت الحاضر ٠٠ مما دعم اعتقادى بأن تلك القوانين الخالدة تعتبر خلقا عاما للجماعة ، يجب الحفاظ عليها وتقديسها ، وهكذا أقمت لنفسى اطارا مرجعيا تبرز فيه خصائص تلك القيم والمبادىء الأصيلة فى صورة واقعية مترفعة ٠

وهكذا تتضح العوامل التى أدت الى اختيار هذا الموضوع ٠

---

(١) عبارة مأخوذة من ديوان الفن الشعرى الذى نظمه هوراس ـ البيت الثالث والسبعين بعد المائة ، ذهبت مثلا فى التعريض بالشيوخ الذين لا يفتأون ينتقدون الحياة بامتداح الماضى ٠

(ب) طرح المشكلة والدراسات السابقة :

هل يمكن وجود شخصية قومية لبلد ما ؟

هل هناك صفات متميزة لكل شعب من الشعوب ، ينفرد بها دون غيره ، وينضاف بعضها الى بعض فيتكون من مجموعها خلق عـام أو خلق قومى أو شخصية قومية ؟

تلك هى المشـكلة التى تعرض لهـا بالبـحث كثير من المشـتغلين بالأنثروبولوجيا ، وغيرهم من الأدباء والمؤرخين ، وقد اعترض الكثيرون على امكان وجود مثل هذه الشخصية لأن الدراسات التى قدمت فى هـذا المجال ، قد استخدمت المنهج الاستبطانى الذى يعتمد على تصورات فردية خاصة ، وبذلك لا يكون منهجا علميا يعتد بنتائجه ، ولا يؤدى الى دراسة علمية صحيحة ذلك أن هنـاك وجهات نظر متعارضـة ، يتخذها كل باحث تبعا لما يدور حوله من أحـداث ، وكلما تقـدم المجتمع فى مدارج الحضـارة ازدادت حياته تعقيدا ، وتعارضت مصالح الأفراد ، واختلفت اتجاهاتهم ، وبذلك يتعذر اصـدار حكم واحد فى موضوع ما يتفق عليه الجميع بعكس الحال فى المجتمعات البدائية ، بسيطة التركيب ، تتضح فيها مصالح الأفراد بصورة شـبه موحدة ومشـتركة بينهم جميعا ، فيسهل اصدار أحكام أقرب الى العمومية والشمول ٠

كذلك لا يمكن لنا أن نغفل العوامل النفسية التى تميز بين فرد واخر ، من حيث ادراك المواقف المختلفة والانفعال بها أو الاستجابة لها بما يطبع سلوك الفرد بطابع خاص ، وأخيرا فهم يرون أن حياة الانسان مترابطة فيما بينها ، بحيث أنها لا تخص الحاضر فحسب ٠٠ بل والماضى والمسـتقبل ، مما يجعـل اصدار حكم أو تحديد وصف معين للشخصية ليس من الأمور الهينة فى مجال البحث العلمى ، وان كان من الممكن أن يستعان فى مثل هذه الدراسات بالمنهج الاحصائى ٠

ورغم تلك الصعوبات التى يعترض بها البعض ، الا أن هناك فريقا من البحاث يرى امكان دراسة الشخصية القومية ، وذلك عن طريق دراسة عمليات التنشئة والتطبيع فى المجتمع ٠٠ فهناك أساليب مختلفة تتبعها الجماعات لتنشئة صغارها ، وتربيتهم ، وتطبيعهم ، وأكسابهم الخلق القومى ، الا أنه تبعا لاختلاف المستويات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والبيئة التى ينشـأ فيها الفرد ، تظهر اختلافات واضحة فى عمليات التنشئة والتطبيع ، ذلك بالاضافة الى العوامل السيكلوجية ذات الأثر الكبير على الطفل ، والتى تطبعه باستجابات تختلف من واحد الى آخر ، وقد اهتم كثير من البحاث بدراسة التنشئة والتطبيع أمثـال كازدنر ومارجريت ميد وروث بنديكيت وحامد عمار ، وغيرهم كما عرض آخرون لدراسة الشـخصية المصرية دراسـة وصفية ٠٠ كما هو عند الهادى

عفيفى ، وغيره متبعين منهج الملاحظة المباشرة والاستقراء للوصول الى جملة صفات تتصف بها الشخصية المصرية (١) ٠

كذلك قام د٠ محمد عماد الدين اسماعيل (٢) ، وآخرون بدراسة هامة تهدف الى تفسير الشخصية عن طريق القيم والاتجاهات فانتقوا من الأسئلة ما يعكس جانب القيم التى ترتبط بعملية التطبيع الاجتماعى ، ثم صنفوها فى ثلاثة أجزاء أولها يتعلق بوظائف واختصاصات أفراد الأسرة وثانيها ما يتصل بالمفاضلة بين أفراد الأسرة ، وثالثها موضوع توزيع السلطة بين أفراد الأسرة مراعين فى ذلك البعد الطبقى والبعد الريفى المدنى والبعد الجنسى ٠

الا أننا نرى أن دراسة الشخصية المصرية لا تتوقف على ادراك تلك الاتجاهات فحسب ٠٠ بل هناك فى حياة الجماعة ما هو أكثر عمقا وتعقيدا ، وارتباطا بالتركيب الجوهرى البنيانى للحياة ٠ ولكن لعلها بداية طيبة يستطيع الباحث أن يفيد منها ويضيف اليها ، وقد رأينا أنه يمكن دراسة الشخصية المصرية عن طريق دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصرى ٠ وهذه المحاولة ليست بمنأى عن المحاولات السابقة ٠٠ فقد استعرضنا الدراسات التى سبقتنا فى هذا المجال ، قبل ان نقوم بدراسة مماثلة لعمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع فى مصر مع اهتمام خاص بمراحل النمو فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، وكيف أنها تؤدى الى طبعه بخلق يختلف من فرد الى آخر وفقا لتلك العوامل السيكلوجية ، وما يرتبط بها من تأثيرات بيولوجية ، وأثر ذلك من اكساب الطفل خلقا معينا قد يتأثر به طوال حياته ، على أن تكون تلك الدراسة مرتبطة بالدراسة الانثروبولوجية للأسرة المصرية وفقا لظروفها وما يحيط بها من مؤثرات تتغير من جماعة الى أخرى ــ **تلك المؤثرات هى**

١ ــ الدين ٠

٢ ــ البيئة (المدينة أو القرية ــ أو ما بينهما) ٠

٣ ــ المستوى التعليمى ٠

٤ ــ المستوى الاجتماعى ٠

٥ ــ المستوى الاقتصادى ٠

ثم نورد دراسة ميدانية لقرية من قرى الوجه البحرى فى مقابل دراسة قرية سلوا بحرى بأسوان ٠

---

(١) د٠ الهادى عفيفى ٠ د٠ عبد الفتاح جلال ٠ د٠ سعيد اسماعيل ، التربية ومشكلات المجتمع ، الانجلو ١٩٧٣ ٠

(٢) د٠ محمد عماد الدين اسماعيل ٠ د٠ نجيب اسكندر ٠ د٠ رشدى فام ، قيمنا الاجتماعية وأثرها فى تكوين الشخصية ، النهضة المصرية ١٩٦٢ ٠

ولم يكن هدفنا منذ البداية دراسة الشخصية القومية عن طريق التنشئة والتطبيع ـ بل هو دراسة مؤثرات ثقافية ذات طابع خاص هي بعض مظاهر الأدب الشعبي . **واخترنا منها :**

١ ـ الموال والأغنية الشعبية .

٢ ـ القصة الشعبية .

٣ ـ الحكم والأمثال .

٤ ـ الفكاهة وغير ذلك من مظاهر الفلكلور المصرية .

اننا نحاول عن طريق هذه الدراسة ايضاح الآثار النفسية والاجتماعية ، التي تلقيها تلك الفنون الشتبية على الشخصية المصرية ، وهي في الوقت ذاته نتاج تلك الشخصية ، فقد أثرت عوامل ثقافية ، وحضارية ، واجتماعية في حياة المصري وشخصيته ، جعلته يصوغ لنفسه قيما ومبادىء واتجاهات تعبر عن ذاته وتبرز شخصيته ، تلك الاتجاهات العامة تعتبر محصلة للشخصية المصرية وهي تعكس صورة واضحة لها ذات سمات متقاربة بصرف النظر عن درجة الاختلاف في العوامل المؤثرة الا أن هناك من داخل كل فرد وبين طيات نفسه ذات مرهفة الحس تستجيب لتلك الفنون الشعبية ، وتعبر عن ذلك بالاشارة أو الايماءة أو الاستحسان والاعجاب أو الترديد .

ان ميراثا هائلا في طبقات اللاشعور يتردد صداه بين كل أفراد الشعب فيدعوهم الى الوحدة والتآلف . ومن هنا كان من الممكن العثور على صفات مشتركة ، بين أفراد الشعب تحقق وجود شخصية قومية الى حد ما .. الا أننا لا ننسى أن هذه الوحدة التي قد تستوقفنا الى افتراض وجود شخصية قومية ، لا يمكن أن تكون وحدة صماء .. بل انها ذات أوجه منشورية بارزة تعبر عن التفاوت بين أعضاء هذا المجتمع ، فمن العسير أن نحكم بأن ما أصابه الأفراد من تقدم في مجالات علمية مختلفة وما تشربوه من تأثيرات فنية وحضارية وغيرها ، قد مضى دون أن يترك آثارا على شخصية كل فرد ـ اذن فهناك اختلاف واضح بين الأفراد ، فهذا صفته طبيب ، والآخر فلاح ، والثالث مهندس ، وهكذا ، ولكن هناك اتفاق في جزء دقيق من شخصية كل فرد ـ في اللاشعور ـ يحيل كل تلك الاختلافات الى تقارب وانسجام ، هما أساس انتقال الميراث الثقافي والقيمي من جيل الى جيل ـ أساس الوحدة والترابط والتماسك بين أبناء الجيل الواحد ، ثم التتابع والاستمرار بالنسبة لكافة الأجيال .

هذا ويضم الباب الخامس تفصيلا كاملا للدراسات السابقة الأجنبية والمصرية .. مما قام به البحاث في اليابان وأمريكا وروسيا ـ ثم الدراسات العربية التي أجراها حامد عمار ، ومورووبرجر ، والهادى عفيفي ، وآخرون ثم دراسة أجرتها الباحثة في قرية بالوجه البحري في مقابل الدراسة التي أجراها حامد عمار في قرية بالصعيد .

(ج) المنهج الذى اتبع فى الدراسة :

من أجل المضى فى هذا البحث ٠٠ سنستخدم أسلوب التنشئة الاجتماعية والتطبيع ، وما وصل اليه هذا المنهج من نتائج لنقابلها بنتائج منهجنا وهو أسلوب الفحص الهرمونيطيقى اذا صح استخدام هذا المصطلح الأرسطى ٠ أى محاولة تفسير سمنطيقى ٠٠ أى علم المعنى والدلالة للمادة الفولكلورية التى اعتبرها فى هذا البحث اللوغوس لمختلف فئات الشعب لأنها تستطيع من خلال خطابات (Discours) هذا اللوغوس وتحليله بالأسلوب السابق الذكر آن تصل الى نتائج نناقشها من حيث دلالتها على وجود اتجاهات عامة مميزة يمكن أن نعتبرها محصلة للشخصية المصرية ٠

وعندما نقابل الأسلوب الخاص بالتنشئة الاجتماعية كما ورد عند مارجريت ميد ، وروث بنديكت ، وغيرهم ، بأسلوبنا السابق ذكره نستطيع فى النهاية أن نثبت أو ننفى امكان وجود اتجاهات مميزة لأفراد الشعب المصرى من خلال هذا البحث ٠

واذا كان هناك اختــلاف فى المضمون فاننا نرى أن المنهج الهرمونيطيقى وهو البحث عن المعنى العميق اللاشعورى ، والشعورى فى هذا المضمون ، سيؤدى الى مزيد من التقدم فى هذا البحث ، وسيتضح ذلك فيما بعد ٠

وينبغى الاشارة الى أننى لا أفترض أن الاتجاهات المختلفة فى ميادين النشاط النفسى المتعددة ، واحدة متطابقة بين أفراد الفئات المختلفة للمجتمع المصرى ٠ والمثال الواضح لذلك أنه لايمكن أن تكون الاتجاهات السائدة فى مجتمع الفلاحين مطابقة تماما للاتجاهات التى يمكن أن نجدها فى المجتمع الحضرى العالى الثقافة ، وليكن مثلا المجتمع المكون من أفراد ذوى ثقافة جامعية أكاديمية عليا ٠

ومع ذلك فاننى أفترض أن التراث القديم فى اللاشعور منذ أحقاب موغلة فى القدم مازال متشابها بين أفراد الفئات المختلفة ثقافيا واقتصاديا وبيئيا ، أى بيئة الحضر وبيئة الريف ٠

أقول اننا نستخدم المنهج الهرمونيطيقى فى دراسة هذا الموضوع ، عن طريق التفسير السيمنطيقى للمادة الفولكلورية ٠ وأوضح خطوات هذا المنهج وما اتخذ من أساليب علمية تتمثل فى :ـ

١ ـ الملاحظة العلمية غير المباشرة :

كثيرا ما كنت أوجه اهتماما خاصا الى دراسة التصورات التى تؤثر فى الأفراد ، وعن طريقها يتخذون لهم أساليب سلوكية مختلفة ومتباينة فيما بينهم ٠٠ فالقيم والمبادىء التى يدين بها الأفراد هى ـ فيما نرى ـ الدوافع

الحقيقية لهم في حياتهم العملية ، كذلك كان التوزيع الجغرافي لهم أو ما يسميه سوروكين (١) بالمكان الهندسي من العوامل التي تؤثر في خلق هذه القيم والمبادىء أو تعديلها ، وجعلها مناسبة لذلك المكان الهندسي ، وعلى أساس هذا المكان يظهر البعد البنائي ، أي مدى التقارب والتباعد في العلاقات الاجتماعية الناشئة بين الجماعات ـ فتظهر قيم اجتماعية تختلف تبعا للمكان ، من حيث تفاصيلها وجزئياتها ، ولو أنها في النهاية كثيرا ما تتفق مع المبادىء العامة التي يتبعها المجتمع ٠

ومن هنا قرأت كثيرا من الأمثال العامية ، والأقوال الشعبية التي يرددها الناس ووجدت مجموعة كثيرة منها في كتابات الكثيرين من الأدباء ٠ كذلك وجدت أنه عن طريق كثير من الأغاني الشعبية ، وما يعرف بالموال تتضح آثار نفسية تعبر عن مشاعر فنية قد صاغها الأديب الشعبي ، فجاءت ناطقة بما ترمي اليه مكنونات نفوس الجماعة ، وما يدور بأفكارها لا كجماعة صقلتها التربية وتأثرت بالحضارات الأجنبية على مستويات مختلفة ٠٠ بل كأمة تعيش على الفطرة والبساطة ، شأنها في ذلك شأن آبائها وأجدادها منذ عصر غير قريب ٠ وعجبت اذ وجدت أن هذه الأقوال الشعبية قد نطق بها الناس لا في القرن التاسع عشر ثم وصلت الينا في القرن العشرين فحسب ٠٠ بل انها وليدة عهود طويلة الأمد وأن بعضها قد جمعه الأبشيهي في القرن التاسع الهجري ، وأنها ما زالت جميعا ذات قيمة وأثر حقيقي حتى اللحظة الراهنة ٠٠ بل زاد عجبي عندما درست الموضوع وفقا للمنهج التاريخي ـ كما سيبدو بعد قليل ـ فتبينت أن كثيرا من تلك الأمثال قد نطق به حكماء الفراعنة أمثال أمحوتب ، وجاءت على ألسنة آلهتهم وكهانهم ٠

٢ ـ الملاحظة العلمية المباشرة :

وتتضح فيما قمت به من ملاحظة للمخلفات الثقافية على نفسية الفرد وسلوكه ، وما يؤدي اليه ذلك من آثار على الجماعة بوجه عام ، ومع أن مالينوفسكي (١) قد أنكر أثر تلك الرواسب أو تلك المخلفات الثقافية التي لا تؤدي وظيفة معينة في الثقافة الراهنة ، ويرى البعض أن دراسة الواقع يجب أن تخضع للملاحظة المباشرة مع محاولة الكشف عن العلاقات المتبادلة بين الظواهر الموجودة بالفعل ـ الا أنني أرى أن تلك الرواسب الثقافية لابد أنها ارتبطت بطرز أخرى من الثقافة ، وأقامت جميعها بناء ثقافيا متكاملا لا يسهل هدم بعض أجزائه ، والابقاء على بقيتها فمن مجموعها تتألف عقلية الأفراد والجماعة ، وتنتقل من جيل الى جيل بما يحفظ لها الاستمرار والبقاء ، وعنها تنشأ الشخصية القومية لا وليدة للحظة الراهنة ، أو الجيل الحالي فقط بل أجيال وأجيال ٠ فتراثنا الثقافي يعبر

---

(١) Sorocin. P., Social and cultural Mobility, Free Press, Minious, 1939.

(٢) B. Malinowiski, «Culture» Encyclopidia of Social Science».

عن كل متكامل مستقل بذاته٠كما أن كل عنصر فيه يؤدى دورا معينا ويساعد على اشباع رغبة بشرية معينة ٠

ومن هنا كانت الصلة وثيقة بين الفكر والسلوك ، وكان من الضرورى أن نهتم بدراسة مكونات وعناصر الثقافة البشرية التى نلاحظها بالفعل ، بقصد الوصول الى القوانين التى تتعلق بها ، وبخاصة تلك التى تتصل بالعلاقة بين حاجات الأفراد ، والنظم السائدة فى المجتمع ، فما من شك أن خلود تلك المفاهيم ، وتمسك غالبية الأفراد بها ، معناه أنها تحقق لهم استجابات صالحة تؤدى الى اشباع رغبات معينة ، أى أن هناك اتجاهات وظيفية لتلك القيم تبرز آثارها فى الحياة الاجتماعية ، ولا يمكن للفرد ولا للجماعة أن يتجاهل وجودها ، وآثارها ٠

٣ ـ المقابلة الشخصية :

وقد أتيحت لى فرصة المقابلة الشخصية لا فى الحياة العامة العادية ، بل على نطاق أدق وأعمق ـ فى الريف ـ فى القرية المصرية ، حيث يوجد المنبع الأصيل للقيم الشعبية ، والمبادىء الشعبية ، فى أغانى الريف ، وما يردده أهله ، من موال وقصة ٠ وأتيحت لى فرصة حضور اجتماعات ريفية فى قريتنا بالغربية فأدركت ـ ولم يكن ذلك بالنسبة لى أمرا مستحدثا ـ أن للناس فى القرية قانونهم العام هو الحكمة الشعبية ، أما القول المأثور فهو دستورهم ومبدأهم العام الذى لا يحيدون عنه ، والا ضاقت بهم الجماعة ، ورمتهم بالتمرد والخروج على آدابها ومبادئها ٠ ولما كانت الجماعة الريفية أكثر تماسكا نظرا لتقاربها الفكرى والثقافى، فان قوانينها مازالت ذات فعالية كبيرة تزيد كثيرا عما يسود مجتمع المدينة ٠ وقد أوضح ذلك بعض البحاث مما سنعرض لدراساتهم فى ايجاد الفارق بين البعد الحضارى والبعد الريفى ٠

كذلك استمعت الى ما ينشده المغنى الشعبى فى أسمار الريف من موال وأغنية ، وما يستخدمه من نمط موسيقى ذى أثر خاص على الواحد منهم لما يفيض به من حزن وألم ومخاطبة صريحة للوجدان ٠ كذلك أتيحت لى فرص حضور حفلات مماثلة فى قرى أخرى من الوجه البحرى (فى مديرية الدقهلية) وفى الوجه القبلى (نبا والأقصر) وتبينت أن الخلافات الثقافية ترتبط بالبعد المكانى أو المكان الهندسى كما يقول سوروكين ٠ ولكنها فى النهاية تؤدى الى وحدة وانسجام بين أفراد المجتمع بوجه عام ٠

٤ ـ المنهج التاريخى :

فليس عامل الزمن أقل أثرا من بقية العوامل التى تؤلف الثقافة لذلك تبينت أنه يجب دراسة تاريخ مصر منذ عهد الفراعنة الى العصر الحديث لكى يتضح أثر التاريخ الفرعونى ثم الاحتلال الفارسى ـ ثم الغزو اليونانى ـ والرومانى ـ

ثم الفتح الاسلامى ـ والاحتلال العثمانى ـ ثم البريطانى ـ على أنماط الثقافة المصرية عامة ، والشعبية بوجه خاص •

وقد أفردت لهذه الدراسة التاريخية فصلا خاصا فى الباب الثالث •

٥ ـ دراسة التأثير الحضارى والاجتماعى :

كذلك قمت بدراسة للاطارين الحضارى والاجتماعى بالنسبة للثقافة الشعبية •• فكثير من الاتجاهات الحضارية ، والاجتماعية الحديثة أو المستوردة تؤدى الى آثار ثقافية واضحة فى الفرد ، فى قيمه وخلقه ، ومبادئه ، وتؤدى بالتالى الى أساليب سلوكية مغايرة لما تتبعه الجماعة ، وقد ينشأ عن ذلك فى نهاية الأمر ما يعرف بالتغير الاجتماعى • فعامل الهجرة من القرية الى المدينة ذو أثر على الأفراد يؤدى الى نتائج واضحة فى البناء الاجتماعى مع أنه فى المجتمع البدائى يؤلف جزءا من الحياة الاجتماعية ، ولا يتعارض معها ـ بل أنه يعتبر عاملا من عوامل المحافظة على البناء الاجتماعى التقليدى كما هو فى مجتمع البدو •

ومن هنا كانت دراسة الفولكلور فى الاطارين الحضارى والاجتماعى ذات أهمية بالنسبة للموضوع •

٦ ـ المنهج السيكولوجى :

وقد قدمت دراسة سيكوتحليلية للآثار النفسية التى تؤدى بالفرد الى التعبير عن آلامه وآماله من خلال خطابات اللوغوس Logos فيظهر ذلك فى أغنية حزينة أو مبهجة سارة أو يعبر عن ذاته بالقول الحكيم الذى يسرى مسرى القانون •

واذا كان الفرد يصدر عن آثار داخلية عند اتباعه هذا الأسلوب التعبيرى اللفظى فهو فى الوقت ذاته يتأثر بتلك التعبيرات والألفاظ ، أى أن هناك علاقة متبادلة بين الانسان والثقافة تجعل كل واحد منهما مؤثرا ومتأثرا معا •

ويبدو ذلك واضحا فى تلك الثقافة التى يتخذها الفرد مبدأ عاما له فى الحياة •

وقد أوردنا من قبل أن أكثر الدراسات السابقة قد اعتمدت على منهج الاستبطان ، وأوضحت ان استخدام منهج الاستبطان وحده لا يخلو من خطورة تبدو فى نزعة طبيعية عند الفرد عندما يسعى الى اصدار تعميمات بناء على مشاعره الخاصة وميوله الذاتية ، لذلك تجنبت الاعتماد على هذا المنهج منفردا ، بل كنت أستعين دائما بالمنهج المقارن كضمان للابتعاد عن اصدار أحكام غير موضوعية أو التورط فى الوصول الى قوانين عامة غير مقطوع بصحتها ، وقد أوضحت هذه الدراسة فى خاتمة الباب الثانى من البحث ـ (ب) وفى الباب الخامس •

٧ ـ الدراسة الميدانية :

أما الدراسة الميدانية فقد قدمناها فى مواضع متفرقة من البحث • ذلك أننا قمنا بتلك الدراسة الميدانية فى مجالات عدة هى :-

١ ـ ايضاح مدى ارتباط الطبقة المثقفة بالثقافة الشعبية فأوردنا بعض الأمثلة الشعبية ، ومدى استجابة الأفراد لها معتمدين فى ذلك على منهج المقابلة الشخصية مع مراعاة اختلافهم من حيث الثقافة والمستوى الاجتماعى والحضارى ، وغير ذلك من العناصر التى تؤثر فى البناء الثقافى بالنسبة للأفراد ٠

٢ ـ كذلك قدمنا دراسة ميدانية لايضاح أثر الفنون الشعبية على تشكيل شخصية سكان قرية « كفر حجازى ـ غربية » مع مقارنتها بقرية أخرى مجاورة ٠

٣ ـ وأخيرا قدمنا دراسة ميدانية ثالثة لقرية « كفر حجازى » لتوضيح أثر التنشئة الاجتماعية والتطبيع على سكان القرية فى مقابل دراسة حامد عمار لقرية سلوا بحرى ٠

وهكذا قد استخدمنا فى هذا البحث مناهج متعددة استوجبتها ضرورة القيام بعمل علمى قد يتيسر لنا عن طريقه أن نصل الى نتائج تفتح الباب لدراسات أخرى قد تؤدى الى نتائج علمية هامة ٠

وسيكون تناولنا للموضوع على النحو التالى :

خطة الدراسة :

نبدأ بدراسة الفولكلور لنقدم فكرة موجزة عن نشأته ، ومدارسه ، ونظرياته ، مع ابراز الاتجاهين الأساسيين فى الدراسة ، وهما الاتجاه السيكولوجى ، والاتجاه السيكولوجى ٠ ثم نتكلم عن خصائص الفولكلور المصرى فى دراسة موجزة ، ثم نقدم المادة الفولكلورية ، ونناقشها مناقشة تفسيرية هيومنيطيقية على أن تكون مهمتنا هى فحص هذا اللوغوس للدخول فى الدلالة السيمنطيقية ٠

ثم نعرض لدراسة الشخصية موضحين أثر الثقافة فى نموها ، والاتجاهات التى تتحقق معها شخصية قومية ٠

وننتقل بعد ذلك الى دراسة الشخصية المصرية ، على اعتبار أن الفولكلور معبر عنها ومتأثر بالحضارة المصرية والتراث العربى ٠٠ ثم نعرض لكل من الاطار الحضارى والاطار الاجتماعى للأدب الشعبى المصرى كمؤثرات على الشخصية المصرية ، وننتهى الى العوامل النفسية التى أدت الى ظهور سمات عامة فيها من خلال عمليتى التنشئة الاجتماعية والتطبيع ٠٠ ثم نعقد مقارنة بين النتائج التى وصل اليها من سبقنا فى دراسة الشخصية المصرية ، والنتائج التى وصلنا اليها عن طريق دراسة الفولكلور ٠

الباب
الأول

● الفصل الأول

ما هو الفولكلور ؟

يرى بعض العلماء أن الفولكلور هو الثقافة التى انتقلت مشنافهة بشكل عام (هو التراث الشعبى) وهنا نجد أن علماء الانثروبولوجيا قد وسعوا دائرة الفولكلور بحيث أنها لم تصبح منصبة على الأدب وحده ، لكنها شملت كل ما يتصل بالثقافة الشعبية من عادات شعبية وتقاليد شعبية وعرف سائد وطقوس الدين أى هى المأثورات والممارسات والمعتقدات الخرافية ، وكان بوتكين Botkin واسبينوزا ، وهرزج (١) ، ممن أيدوا هذا الرأى فقرروا أن الفلولكلور يختلف عن بقية الوان الثقافة فى المجتمع الحديث من حيث أننا نجده يتألف من عناصر منقولة وليست مكتسبة بالتعلم • فهناك تفاعل متبادل بين الخيال الشعبى ، والتراث الشعبى •

أما رأى سبينوزا فهو يعبر صراحة عن أن الفولكلور أو المعرفة الشعبية هو الرصيد المتراكم لما جربه النوع الانسانى وما تعلمه وما قام بممارسته عبر العصور فى شكل معرفة شعبية وموروثة تمييزا لها عما يمكن أن يسمى بالمعرفة العلمية •

أما هرزج فيرى أن الفولكلور بالمعنى الدارج فى الولايات المتحدة يعبر عن الأطوار الثقافية التى مرت بالتراث الشفوى وتشمل الأساطير والحكايات والأغانى الشعبية ، وبعض أشكال الأدب الشفوى المأثور والموسيقى الشعبية والرقص الشعبى بالاضافة الى الممارسات •

الفولكلور هو الثقافة الشعبية :

أى أن الفولكلور يدرس المظاهر المختلفة للثقافة التى ياخذ بها العامة مع وجود ثقافات متحضرة يعيش كلاهما جنبا الى جنب مع امكان وجود ارتباطات فكرية بين كل منها اذ لا يمكن أن يكون هناك انفصال تام فى ثقافة الشعب

(١) من قاموس الفولكلور ــ مادة الفولكلور ــ لندن ١٩٢٠ ط ٥ •

الواحد • ويرى البعض أن الفولكلور يهتم بالفلاحين وبالحياة الريفية وبما ظل باقيا منها فى الهيئات الصناعية وبيئة المدينة •

وهذا التعريف يقربنا مما ذكره البعض من أن الفولكلور يتعلق بمأثورات الطبقات الدنيـا ، وبذلك يمـكن القول أن المجتمع الأوربى والمجتمع اليابانى وكلاهما تظهر فيه الطبقات على نحو أكثر تحديدا ، هذان المجتمعان يمكن أن ينصب عليهما التعريف السابق من حيث أن هذه المجتمعات تتميز فى شكلها الطبقى وتتركب من مجموعات متفاوتة من الدرجات الثقافية بحيث تظهر ثقافة دنيا تختص بطبقات الشعب الدنيا حيث تنتشر ممارسات وفنون لا نستطيع أن نجد لها تربة صالحة فى غير تلك الطبقة الدنيا •• بينما يوجد فى نفس المجتمع ثقافات علمية يأخذ بها غير تلك الطبقة الدنيا ، ومع ذلك تعيش الثقافة الشـعبية على مقربة من الثقافة الراقية أو العـامية دون أن تقضى الأخيرة على الأولى ، وقد ظهر اتجاه يدعو الى جعل الفولكلور ليس خاصا بالجانب الثقافى الشعبى ، ولكنه يشمل أيضا الناحية المادية فى حياة الشعب •

وبذلك لا تقتصر دراسة الفولكلور على دراسة الثقافة الشفهية أو المأثورات الشعبية أو الممارسات الثقافية ، وانما تمتد وتتسع لتلم بكل ما يؤديه العـامة من أعمال لم تتم على أساس علمى أو دراسة تجريبية ، وانما تعتمد أولا وآخرا على النقل من جيل الى جيل فى شتى مجالات الحياة العملية كالحرف والصناعات اليدوية التى تميز شعبا عن آخر ، وتنطبع بطابع خاص بهذا الشعب فلا تماثل ما يوجد عند غيره من شعوب أخرى •

فصانع القرية الحرفى كالحداد ، والنجار ، والنقاش ، وصانع السلال وصانع الحصـير ، والنسـاج ، والغزال (القزاز) •• كلهم يأخذون بأصول الحرف البدائية من جيل الى جيل محتفظة بشكلها ومظهرها وأصولها بالاضافة الى ما يستخدم فيها من أدوات ووسائل وأساليب وطرق معينة ، ويعد كل ذلك بما يعرف باسم (سر الصنعة) •

كذلك تنتقل الخبرات المنزليـة من الأم الى ابنتها عن طريق الممارسة فى شتى مجالات العمـل فى المنزل من طبخ ، وحيـاكة ، وادارة ، وكذلك الحبـك والتطريز •

والفلاح يلقن ابنه كيف يستخدم النورج ، والمحراث ، والشـادوف ، والقصبة ، وغيرها من الأدوات التى تسـتخدم فى الحقل كمـا يلقنه معـارف متوازنة عن الظواهر الجوية ، والفلكية •• مما يساعده على معرفة أفضل الأوقات والمواسم للعمل فى الحقل ، وفى المحاصيل المختلفة •

كذلك تلقن الريفية ابنتها كيف توقد الفرن ، وكيف تعد الخبز ، وكيف

تطهو الطعام ، وكيف تعلف الماشية ، وكيف تحصل منها على اللبن ، وغير ذلك من الأعمال التى تتطلبها حياة الريف ، ولا يتعلمها الناس الا نقلا عن الآخرين عبر العصور من جيل الى جيل عن طريق التلقين ٠٠ أو اعطاء المثل أو المشافهة ٠

هذا الاتجاه الذى وسع دائرة الفولكلور وجعلها تشمل العناصر المادية بجانب الثقافة ٠٠ نادى به طومسون عام ١٩٥٠ ، وأخذ به بعض العلماء فى أمريكا اللاتينية ٠

بدء ظهور دراسة الفولكلور :

ظهرت الدراسة الفولكلورية فى بداية القرن التاسع عشر عندما ظهرت الحركة الرومانسية ، وما اشتملت عليه من اتجاهات هامة فى مجال الفلسفة والعلم والتاريخ ، وما تضمنته من اتجاه الى ابراز الوحدة القومية بتأكيد وجود عقلية شعبية حتى يقضى على مظهر الطبقية فى الأمة الواحدة وما يتبعه من خلافات ومشاكل اجتماعية ، واتضح ذلك عند البرجوازيين الذين اتخذوا من هذه الفكرة دعامة للحديث باسم الأمة كلها ، وما يتبع ذلك من وحدة فى الفكر وفى الاتجاه ٠

ومن هنا اتضحت فى بداية القرن التاسع عشر اتجاهات فكرية من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والأدباء ، وحتى رجال القانون واللغويين لدراسة الروح القومية ونفسية الشعب مما أدى بالبعض الى التفكير فى دراسة الأدب الشعبى كنتاج فكرى أدبى شعبى يتفق والاتجاه السائد ، وكان ذلك ايذانا بمولد علم الفولكلور كدراسة للأدب الشعبى تكشف عن عمق نفسية الشعب أو روح الشعب متأثرة فى ذلك بالفلسفة المثالية التى عاصرت تلك الحركة عند مفكرى الألمان ٠

وقد أوضح تيلر فى كتابه دراسات فى تاريخ البشرية القديم والثقافة البدائية أن هناك تشابها كبيرا فى أساليب حياة الشعوب وعاداتها وابداعها للتصورات الدينية والأدبية ٠ وفسر هذا بالوحدة الجوهرية للطبيعة البشرية والعقل والتفكير البشرى ، وكذلك تشابه مراحل التطور فى الثقافة الانسانية مما أدى الى ظهور تقارب كبير بين حضارة الشعوب البدائية والطبقات المتخلفة فى الشعوب المتحضرة ٠ كذلك رأى تيلر أن من ثقافة الشعوب المتحضرة توجد رواسب دينية وثقافية مما ورثته تلك الشعوب عن الأجيال السابقة واستخدم فى دراسة الفولكلور منهجين أساسيين ـ أولهما : المنهج السيكولوجى ، والثانى : هو المنهج السسيولوجى ٠

أما المنهج السيكلوجى ، فهو الموقف العقلى النفسى للانسان كحامل للتراث الشعبى ، وهذا المنهج السيكولوجى لدراسة الفنون الشعبية يعتمد على فكرة

أساسية هى أن الانسان الذى يبدع آدابه وفنونه ، انما يدفعه ميل خاص الى ابداع هذه الآداب ، والفنون ـ هذا الميل تسبقه انفعالات معينة ، هى أساس التوتر والصراع فى النفس ·· فالانسان يبدع هذه الفنون ليتخلص من كثير من مشكلاته النفسية كأن يعبر عنها بصورة أو بأخرى وهو يردد هذه الفنون لتكون تعبيرا عما لا يستطيع أن يصرح به من مكنونات لا شعورية · وهذه الفنون تبقى وتخلد فى الجماعة وتنتقل من جيل الى جيل لأنها من صنع الجماعة لا تتصل بالفردية أو الذاتية بل هى ملك الجماعة ، ونتاج عقل جمعى ومشاعر جمعية لذلك تتمسك بها الجماعة كجزء من كيانها وذاتياتها · ولا يمكن لظاهرة أيا كانت أن تدرس دون تعاون وثيق بين المنهجين ، والا فان الدراسة تعتبر ناقصة غير مطابقة للواقع ، ولا هى معبرة عن الحياة بوجه عام ·

أما المنهج السسيولوجى فهو يهتم بتحديد البعد الاجتماعى لعناصر التراث موضوع الدراسة ، وأيضا للانسان لحامل للتراث الشعبى فما من شك فى أن المجتمع البشرى الذى يبدع آدابه الشعبية يمتاز بمقومات معينة تجعل تلك الآداب مختلفة عن آداب مجتمع آخر فى كثير من الوجوه ، حتى ولو تشابهت فى بعض الوجوه الأخرى فهناك كثير من القصص الشعبى منتشر فى أجزاء كثيرة من المعمورة ، ولكن يتضح فارق بارز بين القصة الواحدة الموجودة فى مجتمعين مختلفين ·· أن كل مجتمع قد أضفى عليها من صفاته الخاصة ومميزاته وخصائصه الذاتية ما جعلها مغايرة بدرجة معينة للقصة المماثلة لها التى وجدت فى مجتمع آخر ، ومعنى هذا أن الدراسة السسيولوجية للفولكلور تعبر عن عادات الجماعة وآدابها وتقاليدها وطقوسها ، وكل ما يرتبط بحياة الانسان فيها ، ومن ناحية أخرى تؤثر تلك الآداب الشعبية فى الانسان فتعطى له قيما ومعايير يسير عليها ، ويتبعها سواء عن قصد منه أو عن غير قصد ·· فهو يتشرب آداب بلده كما يتنسم هواءها ·

مدارس الفولكلور :

اهتمت بدراسة الفولكلور عدة مدارس منها المدرسة الفنلندية ، وعلى رأسها فون سيدوف « سويدى » ، و زدينك اولرخ « تشيكى » ، والمدرسة الانثروبولوجية ويتزعمها تيلر · والمدرسة السيكلوجية فى المانيا وقد أسسها فيلهلم فونت ، والمدرسة التاريخية فى روسيا ، وأسسها ميلر ، والمدرسة الفرويدية ، وسنعرض باختصار للمدرسة الانثروبولوجية والمدرسة الفرويدية ·

وقد فسر تيلر ولانج مشكلة تشابه الموضوعات القصصية بين مختلف الأمم وفقا للنظرية الانثروبولوجية بما يعرف بنظرية التوالد الذاتى للموضوعات·

هذا وتعتبر النظرية الأنثروبولوجية فكرة تقدمية فى مجال البحث جعلت

للملاحظة أهميتها الخاصـة ، يسرت امكان الدراسـة العملية لهذه الظواهر الاجتماعية ، بحيث يتبنى على ذلك امكان دراسة الآداب الشعبية دراسة علمية صحيحة ، وكذلك أظهرت خطأ فكرة القرابة العنصرية وفكرة العلاقة التاريخية المباشرة • **الا أن النظرية الأنثروبولوجية لا تخلو من نقاط ضعف منها :**

١ ـ الاعتقاد بوحدة العقل البشرى •

٢ ـ وحدة قوانين تطور الثقافة البشرية •

٣ ـ الجوهر الروحى المنفرد للمعتقدات الدينية •

٤ ـ مبدأ الأنيميزم •

٥ ـ وجود رواسب ثقافية فى حياة الشعوب المتحضرة وفى ابداعاتها •

هذه الاتجاهات فى النظرية الأنثروبولوجية يؤخذ عليها أنها مبادىء نظرية بعيدة عن الأسس المادية •• ذلك أن التطور البشرى مثلا يتبع نظاما معينا ، ويتشكل على نحو خاص فما الذى يحكم انتظام التطور البشرى ، وكيف يتشكل ماديا هـذا النظام فى عملية التطور البشرى ، وما طبيعة نتاج مراحـل النمو الثقافى للانسـان ؟ ـ مثل هذه الموضوعات لم تحظ بتفسـير فى النظرية الانثروبولوجية التى جاء بها كل من تيلر ولانج ، ويرى الماركسيون فى نقدهم لهذه النظرية أنه لا تفسـير لبعض الظواهر الاجتماعية التى وردت فى هـذه النظرية الا على أسـاس المادية التاريخية وتفسـيرها للتكوينات الاجتماعيـة الاقتصادية ، مثل الحتمية ، والتاريخ الانسانى خلال العصور •

ثم جاءت بعد ذلك المدرسـة الفرويدية التى أرجعت أصل الخيال الدينى والأدبى الى المبادىء العامة لمذهب فرويد ، أى الى العوامل الجنسية الطبيعية ذلك أن الرغبات المرتبطة بالجنس التى يكبتها الشعور خلال ساعات اليقظة ، تنطلق خلال النوم أو فى الأحلام والخيال الحر أو حالات الهلوسـة ، وتتخذ اللغة أساليب مختلفة للتعبير عنهـا ، وقد اتضـح ذلك لفرويد فى تفسير الأساطير والحكايات القديمة والنتاج الأدبى عامة •• طبقا لأساليب التحليل النفسى التى وضع أصولها ، ومن هذه الأعمال تحليله لقصة أوديب التى أرجعها الى ما يسمى باسـمها وهى عقدة أوديب التى تعتبر من وجهة نظر فرويد هى أسـاس كل المشكلات النفسية فى مرحلة الطفولة الأولى •

وأخيرا نذكر المدرسة البنيوية « كلود ليفى شتراوس » فى فرنسا التى جمعت بين التحليل النفسى ، والدراسة الأنثروبولوجية على نحو تحليلى تفسيرى يعتمد أساسا على فكرة البنيوية كما هى فى اللغات •

هل هناك علاقة بين الفولكلور والواقع الزمنى ؟

واذا حاولنا أن نضع هذا السؤال فى تعبير آخر ــ نقول :

لابد أن نعتبر الفولكلور أفكارا وتطبيقات أو ممارسات :

(أ) من حيث هو أفكار فهو قيم ومبادىء وخلق وسمات تنشأ فى المجتمع وتنتقل من جيل الى جيل .

(ب) ومن حيث هو تطبيقات أو ممارسات تتدرج من المشافهة أو الكلمة المنطوقة الى التطبيق العملى فى شتى ضروب الحياة واتجاهاتها .

ان العلاقة بين الفولكلور والتاريخ هى العلاقة بين الفكر والواقع الزمنى المتدرج . ومن الواضح أنه لا يمكن دراسة الأفكار دراسة مجدية اذا انعزلت عن غيرها من الأفكار مادامت تؤلف جزءا لا ينفصل عن نشاط الأفراد والجماعات ومادامت لا تتسم بالمعقولية الا اذا نظر اليها على أنها جانب من النشـــاط الكلى للانسان . ولا يمكن أن نعتبر الأفكار شيئا منفصلا عن التطبيق فآراء الناس ودوافعهم وتصوراتهم الحقيقية تتمثل فى أفعالهم ، وفى ســـلوكهم التلقائى ، تمثلها فى معتقداتهم الصريحة أو المقنعة .

ان الأفكار هى الأساس الأول لتفهم روح الحضارة ، وهى تتطور على أساس شخصية الجماعة فقد ينادى بعض المصلحين الاجتماعيين بفكرة معينة بين أفراد جماعة ما ولكنها لا تلقى قبولا ولا تجدى بينهم ، ونقيض ذلك يحدث بين جماعة أفرادها مؤمنون بالفكرة لأنهم بلغوا من التطور والتقدم ما يسمح لهم بتقديرها والاستجابة لها ، وكأنما الفكرة تكون اذ ذاك نابعة من ذاتهم حتى لو كانت واردة اليهم من الخارج عن طريق ذلك المصلح الاجتماعى أو غيره . وقد تقبل جماعة معينة فكرة ما ، ولكنها لا تتأثر بها على أساس خصائصها المميزة لشخصيتها الاجتماعية ، ومثل هذه الأفكار تظل رصـــيدا للمعتقدات الشـــعورية ــ الا أن الجماعة تفشل فى التصرف بمقتضاها عند الحاجة اليها ، وذلك لأنها لا تلبى حاجاتها السيكلوجية ، ولا ترضى اتجاهاتها الحقيقية .. فمع أنها تطابق العقل والمنطق .. الا أنها لا تحقق الحاجات النفسية للجماعة فتظل دفينة صامتة حتى تتهيأ لها فرص الحياة بما تنـــاله الجماعة من تغير وتطور يجعلهـــا تقدر تلك الأفكار ، وتعرف لها قيمتها ، فتسعى اليها ، وتبعث فيها الحياة . وكم من مفكر نبذته الجماعة ، وسخرت من أفكاره لأنها لم تصل بعد الى المستوى الذى يسمح لها بقبول تلك الأفكار وتفهمها والافادة منها ، فاذا ما ارتقت الى ذلك المســـتوى قبلتها ودانت بها ، ومجدت صاحبها فأقامت له نصبا بعد أن واراه التراب .

● الفصل الثانى

خصائص الأدب الشعبى المصرى

يمتاز الأدب الشعبى المصرى بأربعة صفات جوهرية هى :

١ ـ الصراحة ·

٢ ـ الواقعية ·

٣ ـ الجماعية ·

٤ التداخل مع فروع المعارف والفنون الشعبية الأخرى ·

ذلك أن الأدب الشعبى كنتاج للتعبير عن مشاعر الانسان يعتمد على اللغة والنطق ·· فلا شك أنه ظهــر بمجــرد ظهور اللغة ، وقبل أن تخترع الكتابة ـ ذلك أنه قول شفهى ـ وكما أن اللغة نتاج اجتماعى فكذلك الأدب الشعبى نتاج اجتماعى · يقول جورذون تشايلد ، « أن حياة الانسان الاجتماعية ومقدرته العضوية من حيث وجود جهاز صوتى راق لديه يمكنه من أن يعبر عن الحوادث والأشياء بأصوات مختلفة ، وارتبطت أصوات معينة بحوادث وأشياء معينة وكانت تلك الأصوات التى ارتبطت بالأشــياء هى الكلمة ـ بيد أن كل هــذه الأصوات (الكلمات) الرامزة الى الأشياء والحوادث يحكمها الاتفاق بين أفراد الجماعة البشرية ، فمن غير المستطاع أن يكون للكلمات أى معنى أو أن تدل على أشــياء أو حوادث الا فى مجتمع بشرى ، وبالاتفاق الضمنى بين أعضائه . وهكذا تكون اللغات قد نشأت نتاجا اجتماعيا ·

كذلك يقول « ادوارد ســـابير » لم توجد أية جماعة بشرية بغير لغة . فحقيقة الأمر أن اللغة وسيلة تعبير وتفاهم ضرورية وحتمية عنــد كل مجموعة بشرية معروفة لنا ·

والصلة بين اللغة العامة فى المجتمع البشرى الأول وبين الأدب الشعبى العام يوضحها يوســلاييف بقوله « ان مجال الفكر عند أســـلافنا الأقدمين

لم يقتصر على ايجاد اللغة وسيلة للتعبير والتفاهم فحسب ــ بل كان ذلك جزءاً لا يتجزأ من حيوية الجماعة الانسانية الروحية والفنية والأدبية على السواء (١)»

ويرى « سير جيمس فريزر » (٢) أن الآداب الشعبية فى عراقتها تؤاخى السحر فقد كان السحر والأسطورة يكونان وحدة متماثلة ، وكان السحر يؤدى بلغة أسطورية أى أدبية ، ثم ما لبثت طقوسه أن انفصلت عن الأساطير بحيث أصبحنا نلتمس معرفتها من الأساطير الموجودة بين أيدينا » .

ويذهب هيرودوت الى أن هومير وهزيود هما اللذان رتبا للاغريق آلهتهم وسمياها بأسمائها وخصاها بمجالاتها ووصفا قواها الذاتية وصورا هيئاتها .

ومعنى ذلك أن أدب الملاحم الشعبية سابق على الدين ، وأن هذه الملاحم قد سبقتها ضروب من الفنون الشعبية كقصص الجان ، وأغانى العمل ، وغيرها، من هنا يتبين لنــا مدى عراقة الأدب الشعبى بالنســبة لأوجه النشاط الروحية والفنية الأخرى .

صفات الأدب الشعبى :

١ ــ والأدب الشعبى يمتاز بالعراقة (٣) ، فهو يحفظ لنا تراثا نستطيع بدراسته أن نتعرف على الحياة الفكرية ، والروحية ، والاجتماعية لأســـلافنا الأقدمين ، الا أنه من ناحية أخرى يطلعنا على الخلفية التاريخية لآدابنا الشعبية المعاصرة ، وما تحتوى من تضمينات أسطورية شائعة فيها ، ترجع فى صميمها الى تلك الآداب الشعبية التاريخية .

ولما كان الأدب الشعبى يتضـــمن الخــرافة والأســطورة فقد ظن البعض أنه لابد أن يكون أدبا محافظا خلوا من الحيوية ، والواقع أن الآداب الشعبية تتبنى الكثير من الألفاظ والتعبيرات التى تظهر فى أوقات مختلفة مقتبسة من اللغات الأخرى أو معبرة عن اتجاهات واردة من الخارج ، ويظهر ذلك فى كثير من الأقوال الشائعة ، والأغانى الشعبية التى تظهر متأثرة بظروف معينة ، وناتجة عن حوادث بالذات فتشتمل على ألفاظ ذات أصل غريب عن بيئة واردة اليها من الخارج ولكنها تتبناها وتحيلها الى أسلوب شعبى ، شأنه شأن أساليب الكلام المعروفة هناك ، كذلك تظهر فى العامية مقدرة فائقة على التعبير عن أدق المشاعر والأحاسيس مما كتب للأغانى والمواويل الانتشار والخلود ، ومما جعل الأدب

---

(١) G. Child Man. makes his self. London 1924.

(٢) جين هاريسون : أساطير بلاد الاغريق وروما ص ١٢ ــ ١٣ . New Yrok, 1950.

(٣) أحمد رشدى صالح ، الأدب الشعبى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ .

الشعبى ينتقل من جيل الى جيل ، حتى أنه يمكن لنا أن نسـميه أدب الماضى والحاضر والمستقبل ٠

ويرى البعض أن الأدب الشعبى لا يلتزم بالواقع بل انه يحوى الكثير من الرمزية والتضمين ، وأن قصصه وأغانيه تنصب فى كثير من موضوعاتها عـلى الخيال ٠ ونقيض لهذا الرأى ما يدعيه البعض بأن الأدب الشعبى قوالب جامدة صماء تنقصها الخبرة والحيوية حتى تكون واقعية وذلك لما يتسم به الأدب الشعبى من السذاجة والبدائية ـ فهو لذلك لا يعتبر أدبا واقعيا بالمعنى المعروف فى النقد الأدبى ٠ أى أنه لا يعبر الا عن حيز ضيق من حياة الانسان ، ولا ينفرج لكل ما تحويه الحياة من مدركات ومشاعر واقعية ٠ ويبـدو أن أصحاب هذا الرأى قد تجاهلوا كثيرا من خصائص الأدب الشعبى ومحتوياته ـ فالأدب الشعبى يتناول كثيرا من الحقائق سواء منها الطبيعى أو الانسانى أو الاجتماعى المرتبط بالفرد وبالجماعة من عناصر مادية ٠ كما أنه يتناول أيضا العناصر الثقافية من أفكار ومبادىء وقيم ، ذلك بالاضافة الى ما يحتاج الانسان من مشاعر وأفكار وخيالات وأوهام وظنون ، وكل ذلك لا يمكن الا أن يكون أدبا واقعيا لأنه مرتبط بحقيقة الوجود الانسانى ، وتأثير مختلف العوامل السالفة فى مبدع هذا الفن وخالقه ـ فلم يكن الأديب الشعبى لاهيا ولا عابثا ولا راغبا فى شغل وقت فراغه ، على نحو أجوف خال من المشاعر والقيم ، بل كان معبرا عن حاجات نفسية واجتماعية يعيشها بذاته ، وتعيشها الجماعة التى ينتمى اليها ، ومن هنا كان انتشار الأدب الشعبى وتداوله بين أفراد الجيل الواحد ، ثم انتقاله من جيل الى جيل ، معبرا عن وحدة الفكر فى الجماعة وتشـابه الميـول ، والاتجاهات ، مع وحدة الآمال والآلام ـ ومن ناحية أخرى معبرا عن العقلية الجمعية التى تسود أبناء الجماعة الواحدة ، وتنتقل من جيل الى جيل ٠ كما يرى ديركايم ، ومن هنا كانت الجماعية سمة بارزة من سمات الأدب الشعبى ، حتى أننا نرى أنه مجهول المؤلف فهو نتاج جماعة مهما كان مبدعه فى الأصل فردا ، كما أنه لا يتخذ صورة نهائية عند ظهوره ، بل ينمو ويتغير مع الأجيال ، ذلك أن كل جيل يضيف اليه من ذاته ، وظروفه ، ومشكلاته ما يجعله متمشيا معبرا عنها ـ فقطعة الشعر من الأدب الشعبى تكون قد ظهرت على نحو ما فى فترة معينة ، ثم بقيام ثورة ، أو وقوع حادث ذى أثر فى نفس الجماعة يتحور بعض ما بتلك المقطوعة الشعرية من ألفاظ ومعان حتى تعبر عما يشغـل الجماعة ، وما يكون صدى لمشكلاتها ، ان كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك ٠ كذلك كانت وسيلة نقله وتداوله ، وهى الشفاهـة والسماع من أهم أسباب التغير فيه ، فالنقل الشفهى لأى موضوع يعرضه لبعض التغيير بالاضافة أو الحذف ـ أو انتقال عناصره من موضوع الى آخر ، حسب أهميتها كما تبدو للناقل ـ فهو ملك مشاع بين الجميع ، يستمعون اليه فى مجالسهم وأفراحهم وأحزانهم وشتى المناسبات عندهم ، فيطربون له أو يصغون اليه ، أو ينتفضون

منه أو يعدلون في ألفاظه وتراكيبه ، على اعتبار أنه ملك لهم وجزء من ذاتهم ، وتعبير عن مشاعرهم وانفعالاتهم ٠

٢ ـ وهناك سمة أخرى تظهر بوضوح فى الأدب الشعبى ، ذلك أنه لا يختص بالأدب كما هو معروف في القصص ، ولكنه يشمل معارف وعلوما شعبية بما تتضمنه من تعاويذ سحرية ، وتنجيم ، ووصفات علاجية ـ ذلك بالاضافة الى ما يحتويه من معلومات تتصل بالحرف الشعبية بكل تفاصيلها العملية ـ أنه أدب الحياة ـ أدب العمل ـ أدب المشاعر وخلجات القلوب ، ولا يمكن أن يعيش الانسان فى فراغ ، فلا تمضى به لحظة الا وهو يمارس حياته على أى نحو من الأنحاء ، فهو يفكر ، ويعمل ، ويفرح ، ويحزن ، ويستحسن ، ويستهجن ، وينقد ، ويسخر أو يمدح ، ثم هو من خلال كل ذلك لا ينسى روح المرح ، فكثيرا ما أظهر الأدب الشعبى المصرى ـ كسمة من سماته البارزة ـ ميله الكبير الى المرح عن طريق التشبيه أو النكتة أو التورية أو غير ذلك من ضروب التعبير التى تؤكد هذا الاتجاه ، وتشير الى جانب عام من جوانب الشخصية المصرية ٠

٣ ـ هذا الأدب الشعبى ذو أثر فى نفوسنا لأننا ننفعل به ، فيرضى بنا جانب الوجدان ، ويعبر عن قيم فنية واتجاهات جمالية ضمن أحاسيسنا الشعبية ، وان فى ذلك ، توحيداً للذوق العام للمجال فى الأسلوب ، وفى المعنى ، وفى استثارة نوازعنا الشعورية ، كما أنه تعبير عن حاجاتنا الاجتماعية ، والفنية ، والروحية ـ كأفراد لمجتمع يعيش فى ظروف موحدة وفى فترة معينة من الزمان ، ولا يعنى ذلك أننا لا نقبل على الآداب الشعبية التى انتجتها الجماعة فى الماضى ، وان هذه الآداب قد فقدت فاعليتها ، وأثرها بالنسبة لنا فى الوقت الحاضر ، ذلك أننا مازلنا نطرب لآداب أنتجها المجتمع منذ وقت بعيد لا نعرف له تاريخا ولا يمكن تحديده بزمان ، وما زالت هناك الآداب تضرب على أوتار مرهفة فى نفوسنا ، وتدفعنا الى ترديدها ، واننا كثيرا ما نعمل على الاقتباس منها فى مجتمعنا الحالى ، ونعيد توزيع ألحانها ونتغنى بها ، وقد تعدل بعض ألفاظها بما يناسب ظروف مجتمعنا ، وتطور لغتنا ، وثقافتنا ٠

رأى ابن خلدون فى الآداب الشعبية :

يقول ابن خلدون فى مقدمته « والكثيرون من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم اذا سمعها ويمج نظمهم اذا أنشد ويعتقد أن ذوقه انما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الاعراب فيها ٠

وهذا انما أتى من فقدان الملكة فى لغتهم ، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها اذا كان سليما من الآفات فى فطرته ، ونظره ،

والا فالاعراب لا مدخل له في البلاغة ، وانما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود ـ وأعلم أن الأذواق في معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخالطته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها ـ ومعنى ذلك أنه يجب لتقدير الأدب الشعبي حق قدره أن يلم الباحث بمزاج أهل العامية » ومعاني مصطلحاتهم في مختلف القضايا ، وفهم نفسيتهم ، وذلك لا يتأتى الا بدراسة حياتهم الاجتماعية والمهنية ، وما مر بهم من تطور تاريخي » .

خصائص الأسلوب الفني في الأدب الشعبي :

(أ) التركيب :

يلاحظ أن الأدب الشعبي يتركب من مقاطع اما تتكرر بعض ألفاظها ، بحيث يسهل حفظه وترديده ، كما أنه يحوي موسيقى لفظية ، وجرسا مستساغا ، وصورا لفظية تعبر عن المعنى صراحة أو تلميحا ـ كما أن الشاعر الشعبي كثير ما يستخدم اللفظ الواحد بمعان عدة كما يستعمل الكلمة في أوضاع مختلفة ، وبمعان مختلفة ، وسنورد أمثلة لكل ذلك .

وهذه أغنية تتردد في العرس ، ويتضح فيها ترديد بعض الكلمات كما أنها تحوي القليل من المعاني :

ومليت له الجلة من لبن البجـــــر	ولا عايز الجلـــة ولا لبن البجـــــر
ولا عايز الجلة ولا لبن البجــــر	ولا عايز الا أنت يا ضي الجمــــر
ومليت له الجلة من لبن الجــاموس	ما عـــايز الا نت يا ضي الفانوس
ومليت له الجلة من لبن الجمـــال	ما عايز الجلـة ولا لبن الجمـــال
ما عايز الا أنت يا ضي الهـــلال	
وحيـــاتك يـــابا ما تاخـــد الا ها	دا الجدع شـــملول كيـــاد العـــدا

هذه أغنية تتردد في العمل :

جـــرحي من ألمي مكـــران عـــلي	مكتوب ياناس من الجـــدع للراس
كتبـــو سيدي ونا أيش بيـــدي	جـــرحي من ألمي مكران عـــلي
جـــرحي من ألمي مكران عـــلي	كواني البين بـــدل الـــكي اثنين

جـــرح الجيـــاد عيـــان يـــاولاد

ومن الملاحظ في هذه الأغاني ، وغيرها ، مما سنورده فيما بعد ـ انه هناك :

(أ) تكرار فى الألفاظ أو فى المقاطع ، وذلك يرجع الى عدة أسباب :

ـ أن التكرار يوحى بالرغبة فى التوكيد .. فالفنان الشعبى عندما يعبر عن جرحه العميق فهو انما يؤكد هذا المعنى بتكرار بعض العبارات ، والألفاظ التى تؤكد ذلك .

ـ أن التكرار فى القول الشفاهى يعيد اثباته فى الذهن ، وخاصة انه يتناقل من فرد الى آخر ، فتكرار بعض أجزاء القصيدة ضرورة تقتضيها طريقة النقل ورغبة الحفاظ عليها من النسيان .

ـ ان التكرار يساعد على وجود انسجام بين النغم واللفظ من ناحية ، وحركة العامل الذى يشتغل فى أشق الأعمال من جهة أخرى ، ذلك أن كثيرا من هذا الأدب وضع للعمل ـ أى أن العامل يستعين بالموسيقى التى يحويها هذا الشعر الشعبى وغيره على المضى فى عمله الشاق دون أن يناله الخور من شدة الجهد .

٢ ـ ومن الملاحظ بوجه عام أن عمال البناء كثيرا ما يرددون الأغانى وقت عملهم ، وكذلك الحمالون ، والمشتغلون بحفر الترع أو الجسور ، وغير ذلك من الأعمال الشاقة ، يخففون عن أنفسهم حدة التعب بترديد الغناء بما فيه من نغم وجرس .

ـ كذلك فسر علماء النفس هذا التكرار بأنه تعبير عن حاجات شخصية يفتقر اليها صاحبها .

ـ أما علماء اللغة فيرون أن هذا التكرار ناتج عن افتقار الى مزيد من المعانى والتصورات التى يمكن أن تحويها كل قصيدة شعرية من قصائد الأدب الشعبى ، وذلك مرده فقر الحصيلة الفنية عند الأديب الشعبى مما يجعله يردد الكلام على نحو يؤدى الى شىء من الملل فى كثير من نتاجه .

(ب) وهناك خاصية أخرى فى الأدب الشعبى :

هى أن الكلمة تستخدم بمعناها وبشكلها المعروفين أو تحور فتخرج عن أصلها حتى فى اللغة العامية ذاتها ، وهى أما كلمة واحدة محورة أو كلمتين تعطيان نفس الصوت ، كما هو فى الموال التالى حيث تستخدم كلمة شافانى بمعنى العلاج ، والرؤية .

وكان جرى أيه لو الطبيب جه لحـــد البيت وشافانى
ونا كنت خفيف ورديت مثل عـــاداتى وشافـــانى
الا طبيب نـــدل جالحـــد البيت واتخفى ما شافانى
دنا جدع جـــد فى وســـط الرجـــال معـــدود

وآدى طبيب لجــــراح نــــكر الدوا المعـــدود
والرب موجـــــود عــــــالم بحالاتى وشــــافانى

وشاعر آخر يستخدم كلمة « مر » فى أربعة معان متوالية ـ بمعنى المضنى ، والمرارة ، والمر ، والعمران :

ليه يا زمـــــان الصـــــفا جـــــولنى عليش مـــريت
من بعـــــد ما كنت حـــــلو الطـــعم ليه مـــريت
ياما رأينـــــا صـــــفا يا دهـــــر ما مـــريت
كانت الأحبــــة لهـــــم فى حينـــــا نــــادى
أخـــــذت الاســـــود والـــلى خـــدهم نادى
وأصـــــبحت مفـــــرد عليل الجلب وأنــــادى
يا دهـــــر عمر جمـــــوع نادى ومعمـــــريت

ذلك التحوير فى الألفاظ وشكل الكلمات يعبر عن ابتداع ومقدرة فائقة من جانب الفنان الشعبى مما هو منتشر فى كثير من المواويل التى تتردد فى الريف ، وفى الصعيد ، وفى الأناشيد الدينية ، ولا يدانيه الا الأسلوب الذى توضع به الألغاز ، وهى نوع من الأدب الشعبى أيضا ٠ هـذه البراعة فى استخدام الألفاظ قد يصاحبها بيان رفيع فى كثير من الأقوال الشعبية فيظهر فيها الرمز والتشبيه والكناية والمجاز حتى لا تبدو أقوالهم مكشوفة واضحة ـ وتلك علامة ذات دلالة من علامات الأدب الشعبى والفن الشعبى الذى عاش أجيالا وقرونا طـوالا يرزح تحت عبء حـكام ظالمين واقطاعيين وملتزمين حتى اعتاد التستر والمداراه فلا يتنبه اليه ذوو السلطان المستبدون ٠

كذلك اشتملت تشبيهاتهم على كثير من الصور التى تعبر عن الفكـر بكثير من المغالاة فيقولون عن الجبان (اداري فى ظل صباعه) أى أنه تضاءل من فرط جبنه حتى أصبح أقل من أصبعه ٠ ويشيرون الى قوة العادة بقولهم (حمار الغازية يرقص ديله) ـ أى أن الحمار قد أجاد الرقص من تقليده لصاحبته حتى أنه لا يكف عن تأديته ولو بهـز ذيله ، وللتنـاقض الشـديد يقولون (زبال وفى أيده وردة) ، (أخرس وعامل قاضى) ، (أعمى وعامل صراف) ، ويكتبون عن الماكر (يوديك البحر ويرجعك عطشان) وللقاضى الظالم (يغنى على الابْرة ويبلع المدرة) ، ويسخرون من الجهلاء بقولهم (أبرد من اللى يستخدم النحو فى الحساب) ٠

(ح) والخاصية الثالثة :

هى وفرة الاشارات الأسطورية والقصصية التى يشيرون اليها فى حكمهم وأمثالهم وفى مواويلهم وأشعارهم ، فتعبر عن محفوظات من التاريخ الأسطورى، والاجتماعى ففى الصبر يقولون (أصبر صبر أيوب لما وفى المكتوب — أصبر صبر أيوب على مبتلاه — وأصبر صبر الأنبياء) وقصة أيوب فيما أصابه من مرض معروفة — تتردد دائما — فقد صبر على جراحه التى لم تندمل سنوات طوالا ، وكان يعالجها بالصبر أو برعرع أيوب ، وهو نبات مازال معروفا فى الوقت الحاضر ، ويعتقد العامة ضمن معتقداتهم العلاجية الشعبية بأنه اذا غلى واغتسل بمائه فانه مفيد للجسم •

يقولون :

غريب يا ولداه عن أهلى وخــــــلانى	راح ليه حبيبى وليه يا رب خــلانى
كم شب شملول رماه البين من جبلى	أيوب لما ابتلى واحـــــد وأنا التانى

ويقولون :

فى القــــدر وانه منــذ القـــــدم	من أيــام ثمــود وعــاد
الصـــبر طيب وان كـــان تصبر له	وعلى كل حلو أو كل مر تصبر لـــه
والرزق ماهوش بكتر الجرى دا أوعاد	كلام يترتب من مـدة ثمـود أو عـــاد

والى انكتب ع الجبين لا بد نصبر له

وقد تتضمن التشبيهات اشارات الى شخصيات عرفت بصفات خاصة بها كجحا ، وأبو النواس كتعبير عن الظرف أو التفكه أو التهريج ، والسيد البدوى للكرم ، والمتولى للأعباء الثقال ، وأمشير للتقلب والتغيير ، وعنتر للشهامة ، وفرعون للطغيان ، وقرقوش للاستبداد والرعونة ، وشمهورش للعمل الذى لا يستقيم للمنطق السليم — أى الجنون — أى أن الجان أصابته بمس ، ففقد عقله لان شمهورش هو ملك الجان فيما يعتقدون ، ومن يصيبه الغضب دون ما سبب واضح يقولون له متعذرن فى نسبه الى عزرائيل أى أن الشيطان وسوس لـه فتبعه •

وكثيرا ما يورد الأدب الشعبى صورا أدبية رائعة يعبر عنها بأرق الألفاظ ، وهذه صورة حزين بات يصور نفسه بسفينة ترميها الأمواج على صخرة نائية الشعاب حطمت السفينة وتشابكت بها فكأنه لا يستطيع النجاة :

نحت شـــبه مركب بهلبين ع الشعب طـاحت جلوعـــه
نايم من الغـــلب والبين كســـير يبذل دموعـــه

وهكذا يصور الأدب الشعبى مواقف وشخصيات تعبر عن الحياة الواقعية فى أدق صورها ، وأرقى معانيها ، وبأسلوب أدبى يمتاز بالرقـــة وحسن الجرس ، والقوة ، والصراحة يقول ابن الأثير (١) ، « ان ألفاظها تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر .. فالألفاظ الجزلة تتمثل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار والالفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج » .

(١) المثل السائر ص ٩٦ مرجع سابق .

الباب الثانى

المادة الفولكلورية

مقدمة

الوان من الأدب الشعبى(١) :

يرى الدكتور مشرفة(٢) أنه لا ينتظر من رجل الريف العادى أن يكون متنوع الخبرة صادق التعبير عنها .. فالفقر وتقاليد الذلة التى كان يعيش فيها الفلاحون مع أصحاب الأرض ، والملاك الموسرين ، كانت تقف حائلا فى وجه الصراحة فى التعبير ، كما أن تحديد الخبره فى الزراعة ، والاجتماع غير المباح يقصر الشاعر الشعبى على التعبير عن الألم ، وسوء الصحة ، والظلم ، والحب المكبوت ؛ والفراق الذى يرسم القدر ، واحتقار الغنى بعد الفقر ، والرثاء للفقر بعدالغنى .

وهذه العواطف والمفاهيم كقول الموال :

« خسيس شبع يوم قالت الناس بقالوا أصل »

فهذا لا يعكس أبدا أن الشاعر الريفى يعبر عن مشاعر وآمال الطبقة الكادحة ، وانما هو يعبر عن شعور الرجل الموسر الذى أصابه سوء الحظ والقدر أو المقدر والمكتوب على الجبين ، وكل هذه وجهات نظر تخفى وراءها حقيقة الاستغلال وتبرز ظاهرة الأجر ، وكأنما هى أمر ثانوى فى حياة الناس . وكأنما السبب فى تكدس المال فى يد فرد أو أفراد خاصة هو نتيجة لقوى سماوية خارجة عن نطاق البشر ، وليس فى مقدور الانسان التحكم فيها .

ثم ان هناك مجموعة من (الاكليشيهات) اعتاد قائل الموال أن يصيغ فيها خبرته مثل قاضى الغرام .. وطبيب الجراح .. ودموع المحبة .. ودمع الغرام .. وابتليت بالغرام .. وسايق عليك النبى .. والعوازل .. وقليل الأصل والخسيس .. والدون .. والزمن .. البخت .

وهذه الاكليشيهات تتصل بعهد من عهود الانحلال ، وعدم الحساسية ، ظهر حتى فى كتابة الخطاب فكان الاستهلال فيه دائما بعد السلام ورحمة الله

---

(١) أحمد شوقى عبد الحكيم ، أدب الفلاحين ، الجزء الاول ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر .

(٢) رأى خاص له من كتاب ادب الفلاحين (مقدمة) .

وبركاته ، وكان مضمون الخطاب لا يعدو السلام علـى فلان ٠٠ وفلان ٠٠ وفلان ٠

كذلك ظهر فى خطبة الجمعة حيث كانت تبدأ بآية أو حديث ـ **ثم أما بعد فيا عباد الله :**

وكذلك كانت التحية ترديد ـ لازيك ، سلامات ، وحشتنا ، سلامات ، وكان البيع والشراء يحتاج الى دقائق ودقائق من صلى ع النبى ، كمان زيـد النبى صلا ، وعاوز كام ، ويفتح الله ٠

أما الكتابة الأدبية فكان لها سجع خاص ، ونمط خاص ، يستقيه الكاتب من مقامات الحريرى ٠ أو أدب الدنيا والدين ، أو كتب الانشاء التى كان يؤلفها معلمو الكتاتيب بقصد اكتساب الرزق ٠

ورغم كل ذلك النقد الذى يمكن أن يوجه الى فن الكتابة فى ذلك العهد ففى المواويل احساس متدفق ، ولو فطرى غير مصقول ، وفيها ما لا تجـده فى كثير من أبيـات الشعر العربى من حرية النظم ، وتنوعه ، ومن عدم التقييد بطول خاص للشطرة ، ووزن الموال ، أو الزجل يعتبر نتيجة منطقية لتطور اللغة ، وكذلك الحركات فى آخر الكلمات ، والتزام السكون كخاصة من خواص اللغة العامية الحديثة ، ومعنى هذا أن أوزان الموال هى فى أساسها من أوزان الكلام العادى الذى يتكلمه الناس ، وهى بذلك أصل محتمل من أصول الشعر المصرى فى تطوره ٠

وللموال فائدة اجتماعية هامة ٠٠ لأن دراســته توحى بأن الكثير منه انحدر من المدن الى الريف كما نزحت أغانى بمبه كشر ، وعبده الحامولى ، ثم عبد الحى ، ومنيرة المهدية ، وكذلك المعاصرون ، ولقد ساعد انتشار المذياع فى أيامنا هذه على تكرار هذه الظاهرة فى أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم وغيرها ، وبذا تعـرض الريف لعواصف كثيرة (١) من عواطف أهل المدن الزائفـة التى لا وجود لها عند الفلاحين ـ مثل :

يا محـــلا عيشـة الفـــلاح   متهنى ومرتـــاح البـــال

أو :

والحـــر فى الأوطـــان   حـــاكم ولـو محكـــوم
لو صام سنة عطشـــان   عمـــر العطش ما يـــدوم

وكل هذه العواطف والأوزان ، لا تمت الى الريف بصلة ، ولو أنه قد يتبناهـــا ٠

---

(١) نعود الى هذا الموضوع فى التغير الاجتماعى وأثره على الفولكلور ٠

وعلينا أن نحدد ونعرف كيف نفصلها عن بقية أغانى الريف ، ومضمون القوالب الثابتة سابقة الذكر لتقرير مدى صلاحية التعبير الريفى عن حياة الريف ، ولا شك أن الكثير من فنون الريف الصادقة البريئة عن تأثير المدينة قد يكون له قيمة أكبر بكثير تؤدى الى مزيد من التقدم والخصب فى الفن الشعبى والفن القومى بوجه عام ، ولا شك أنه بعد أن ردت الى الفلاح كرامته وأصبح سيد أرضه وبلده ـ فان ذلك كفيل بتفتح الأذهان البكر ، ودافع الى الالهام • فعوامل الفقر ، والجهل ، والمرض ، والفوارق الطبقية ، وتأرجح الريف بين مجموعة من الحكام الأجانب من مماليك ، وأتراك ، وفرنسيين ، وانجليز كل ذلك أدى الى تفتيت المشاعر الفنية وتمزيق أوصالها وطمس معالم امتدادها من جيل الى جيل ، ومن قرن الى قرن ، لذلك كانت مهمة البحث فى الفن الشعبى وخاصة من الناحية السيكلوجية البحتة ترمى الى تتبع الظاهرة الفنية الشعبية والوصول الى أصل ثابت لها ، كانت مهمة هذا البحث شاقة عسيرة حتى يستطيع الباحث أن يهتدى الى أساس واحد يجمع شمل الفن الشعبى ، ويوضح القوى التى تتصارع من الداخل ، والقشور التى أضيفت اليه من الخارج لتجعله مستساغا للطبقة الحاكمة فى قرانا وريفنا حتى يخدم أغراضها ويخفى نواياها ، ومن هنا يظهر التعارض بين كثير من المعانى التى يحويها الموال •

والفنون الشعبية ، احدى عمليات الخلق الجماعى التى يبدعها الناس ويمارسونها كلهم لدرجة أنهم فى أحيان ما يعيشون فى اطارها ويفكرون على ضوء حلولها •

اذن الفن الشعبى انعكاس لعمل الشعب وهو أشبه ما يكون برسوم الأطفال ، فالطفل يرسم لأنه يود حل رموز الحياة ، وحفظ قطاعاتها ، وهو أن عبر عن شيء فهو انما يعبر عنه تبعا لاحساسه الداخلى ، ولذلك فهو كثيرا ما يكون صادقا ومعبرا • فالطفل مخلوق قصير التجربة ان لم يكن بلا تجربة، وهو حين يصور الملك الكبير هائلا وملفوفا بالحرير والألوان الصارخة والابهة ، والناس من حوله قصار مهزوزون أشبه بالنقاط انما يعبر عن مدى تفكيره واحساسه الصادق البسيط •

وليس معنى هذا أن الفنون الشعبية فنون ساذجة أو قاصرة ـ بل هى فى الواقع فنون خصبة صريحة عميقة تفيض بالاحساس والمشاعر ، ولكن وجه الشبه بينها وبين رسوم الاطفال هو الصدق ـ صدق الحدس الداخلى والبعد عن الزيف ، والمبالغة ، وهو ما ينعكس فى العمل الفنى •

والفنون الشعبية المصرية فنون صادقة وليست مفتعلة ، وذلك لانها ليست دخيلة ، وليست مصطنعة ، وليست هناك قوة تدفعها الى الابداع سوى

الاحساس الداخلى فقط ، فهو الدافع الى الابـــداع ، فالفنان الشعبى ليس مدفوعا باتجاه سياسى معين ، أو حاجة الى كسب مادى أو حتى شهرة ، فدافعه الى ممارسة عمله الفنى هو انفعاله ، وصدق تجربته ، ورغبته فى أن يقول شيئا ومن هنا يتبع الصدق .

وفيما يلى دراسة لألوان الفنون الشعبية التى يدور حولها البحث .

● الفصل الأول

الموال

الموال .. فلسفة ، وأيديولوجيا الناس فى بلادنا — فهو يحدد ويرسم ويعكس وجهات نظرهم للحياة .. والناس .. والمشاكل .. والحب .. والفن .. والاقتصاد . انه جزء لا ينفصل عن عقلية الفـــلاح المصرى ببساطته ، وبساطة الحياة من حوله ، وهو يشمل فلسفة أجيال توارثها الأبناء عن الآباء .

انه عمل كبير خلقه شعب بأكمله ، وقال عنه « ايمينسكيو » أكبر شعراء الجمهورية الرومانية الشعبية أنه ينبوع من ينابيع الصبا الخالد . فهو كنز الابداع الشعبى الذى لا ينضب أبدا — فطالما أن هناك ناسا —طالما هنـاك فنون تعيش وتعمر وتترك أثرا ، يعكس خطواتها على الأرض ، ويقول للأجيال القادمة : أن من هنا مر أناس .. وعاشوا ، وسجلوا قطاعات الحياة .

والموال المصرى كعمل جماعى ان عبر عن شىء .. فانما يعبر عن الشعب المصرى وتفكيره وحياته ومفاهيمه .

وهذا لا يعنى أيضا أنه عمل — على طول الخط — صالح للبناء . للمساهمة فى اضاءة طريق الانســـان ، لكى يواصـــل زحفه . فجانب كبير منه يحمـــل فى خباياه سلبية واضحة وفلسفة ميتة ووجهـــات نظر تشاؤمية ، يسودها الهدم والتدمير .

وهذا الجانب السىء .. فى الموال وبقية الفنـون الشـــعبية ، استغله الاستعمار ، وتعهده ونماه ، لكى ينفذ من خلاله ليفت فى عضد الشعب البسيط الساذج .

فالبين والأيام والزمن والحظ والقسمة والنصيب .. والمقدر والمكتوب ع الجبين — كل هذه التركة الرمزية من الغيبيات هى التى تساهم فى توجيه الموال ، وهى التى تتحكم فى صنع مصائر الناس ، وتحدد اتجاههم وطرقهم ، وتصنع من الفقير فقيرا ، ومن الغنى غنيا ، ومن المريض مريضا .

واللي مكتوب ع الجبين لازم تراه العين ، والأيام على دى ودى ، ودى دنيا صدق من قال النهارده معاك وبكره مع غيرك .

وحلول الموال وموقعه من الحياة ، هى نفسها حلول ومواقف الناس فى بلادنا وقرانا .. وكفورنا .

فليس الذنب ذنب الموال .. بل هو الاستعمار والاقتصاد والاقطاع والشعوذة .. فالفرد المرتبط بحقله وداره ، والمسجد الكائن غرب البلد ، وزوجه ، وأولادهما الذين يزداد عددهم سنويا ، هذا الرجل البسيط الذى يهب الحياة جانبها المادى الذى يدفع بها الى آفاق أكثر اتساعا هذا الرجل له معرفته وحلوله ومفاهيمه ، التى ورثها ويعيش فى اطارها ، ويحافظ عليها ، ويسلمها — كما هى — لأولاده . وكل هذا يحكيه الموال الذى يلوكه ويتسلى به ، ويتصرف على هواه أينما وجد .

فى فسحاية الدار ، وفى الحقل ، وتحت الكوم ، ومع الرجال تحت السنطاية ، ووراء حمار السباخ المريض وفى كل مكان ؟

والموال هنا شكوى — فهو يشكو لله ، ومرة لأهل الله ، ومرة للطبيب .. والزمن .. ومرة أخرى لليله الطويل الأسود الموحش الرهيب .

وهو فى كل مرة يكشف عما يعتمل فى حياته ، وأعماقه ، وماضيه ، وأخطائه .. وأمانيه وهو فى كل مرة يبحث عن بداية للطريق ، ورغم ذلك لا يتطرق الى قلبه اليأس — بل يواصل من جديد ، ويبحث ويتلمس بداية تقوده الى الطريق .

فقيود الدين ، والمستعمر ، والاقطاعى ، تزرع له الأشواك فى كل مكان ، وتبدأ بفكره ! حين يعكس حياته تلك التى يعيشها فى تخبط وسط بحر الغيبيات ، كما تعكس انفعالاته فى أغنيته الحزينة فى الموال .

وتبدو الدراما المصرية المتأصلة التى يصنعها الوضع الاقتصادى واضحة فى الموال حين يقول :

وكل المجاريح طابت بس أنا جاعد
وطبيب الجراح عندى بالسنة جاعد
ولا بقاش حيلتى يا طبيب
غير شى بس أنا جاعد

والطبيب فى الموال يرمز الى القوى الغيبية التى بيدها اصلاح الكون لو أرادت • وكثيرا ما يربط الموال بين المرض ، وهزيمة الانسان ، وأثر ذلك على الأصدقاء الذين ينفضون من حوله حتى أقرب الناس اليه •

« مرات العليل شافت بلا جوزها نطت من الحيطان »

وهذا الموال يحكى أقصوصة عن عليل انفضت عنه كل الناس حتى زوجته التى نطت من الحيطان ، وسقطت ، وأصبح وحيدا الا من أمه وأخته ، وتجربته ، والجانب الدرامى فى الموال هو الذى يبعث فيه العمق ، وهو الذى يبدو واضحا رغم موقفه التشاؤمى • فالموال هنا يحكى تجربة فردية ـ مع أنها تجربة واقعية ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل من يمرض تتخلى عنه الناس ، وتزل زوجته ، ويصبح بلا أصدقاء • الا أن الموال ينتهى نهاية مشرقة حين يشفى العليل فتفرح أمه ، وفى موال آخر يقول :

أنا دخلت جوا البلد سرا أريد الناس
لقيت ابن العلالى وطى والندل فوق الناس
يا دنية الشوم يكفيكى هزل بزيادة
د لليتى ولد عال كانت عليه العين بزيادة
وان خس مالى حدايا احباب بزيادة
نزلت سوق الدلالة بشترى صبر بزيادة
بطلت كل الملاهى وسمعت كلام ناهى
ورضيت بحكمك عليه يا رب بزيادة

وفى ذلك الموال يتحدث الى الدنيا الشؤم ، وأفعالها السيئة معه ، وكيف أذلته ، حتى أنه مضى يبحث عن الصبر ، وفى النهاية سكن ، واستسلم لحكم الله •

وتبدو سلبية الموال المصرى ، والشخصية المصرية ، ونظرتها للحياة من خلال قطاع ترسمه القوة الخفية التى تحدد مصائر الناس ، والتى لا يملك الانسان أى شىء معها حين يقول :

وبشيل بعينى لقيت الجمل مال على واحد
والعين لها ألف لكن القلب له واحد
احنا بنسمع مثل من اللى قبلنا قالوه
العبد بيده أيه مادام الملك للواحد

وكثيرا ما يتجه الموال المصرى الى الدراما العميقة العنيفة الصادقة الصادرة من أعماق القلب ٠٠ لأنهـا ذات جذور دفينـة مرتبطة بحياة الناس ٠٠ لذلك يحس الانسان بصدقها وواقعيتها ، ويدرك مقـدار ما بها من تشـاؤم حتى ولو اتجهت الى حلول فى نهايتها ، فان تلك الحلول تكون صدى لما كان يعانيه المجتمع من طبقية ، واستغلال كنتيجة طبيعية للرجعية والاستعمار ولا تخدم قضايا التقدم ، والايمان بالمستقبل المشرق للانسان ، كما انها لا تدفع الى العمل على مواصـلة النضـال ، والكشف عن جوانب الحيـاة المشرقة ؛ وذلك نتيجة للاستسلام والسلبية والايمان بالقدر ٠٠ مثال ذلك :

أنا ان شكيت ربع ما بى للحـديد ليـدوب
الأولى غـربتى والثانيـة مكتـوب
والثالثة كنت غـالب صرت أنـا مغلـوب
وكـام يا دهـر تتقلب عـلى قلـوب
صبحت عيـان قـوى لـونى صبح مقلـوب
....
وزعقت من عـزم ما بى وقلت يا أيـوب
كاس الهنـا كـل ما أديره يجى مقلـوب
أنا ان شكيت ربع ما بى للحـديد ليـدوب

كذلك الصبر ، فهذا اللفظ كثيرا ما يرد فى الموال المصرى بما له من مفعول مسكن أشبه بـ « أبو النوم » ، والمخدرات ، وهو أيضا يلعب دوره فى مواصلة عملية التخدير لقتل كل ما من شأنه ايقاظ روح النضال والتطلع الى آفاق جديدة مشرقة ٠

يا عبد وحـد الهـك واذكـر فرضـه
واستعمل الصبر اذا جالك سؤال فرضـه
... ...
أرقد على الشـوك عريـان ، واضـحك للى عادانى
وأصبر على حكم الايام حتى ينعدلى زمـانى

وهو هنـا يسخر من الذين يعادونه ، ويسخرونه ، ويتحكمون فى موارده ، وامكانياته ، لكنه يتسلح بالصبر ٠٠ بالصبر على حكم الأيام ، وأفعالها الشائنة حتى يأتى اليـوم الذى يتمناه وينتظره ويصـنع منـه أفقـا لحياته الجدباء ٠ انهـا آلام نفسية تتردد فى الموال فتعبر عما يعانيه قائله من انفعـالات جريئة يبديها صاحبه بلا تستر أو مواربة دفعته الى توتر وصراع عنيف جعلاه يستهدف

الطريق الى الخلاص فكان الموال تنفيثا صحيا عن تلك الظواهر النفسية الحبيسة .

التفسير السيكولوجى :

ان كثرة ما يتردد فى الموال من آلام وتأوهات ونزعات تشاؤمية وشكوى مريرة من الناس ، والزمان تدفعنا الى اعادة التفكير فى الدوافع النفسية لتلك الظواهر النفسية التى تبدو فى صياغة الموال والتى تعبر عن فيض عارم من الألم واليأس والقنوط لما تصفه من بؤس وذلة وما تحكيه من خيانات سواء كان ذلك من الأصدقاء أو من الأهل .

أنه لا يسعنا الا أن نعبر عن هذه الآلام المبرحة التى يصف بها ابن الشعب حاله عن طريق مشاعر المازوكية الطاغية ـ فهو لا يهدأ ولا تقر نفسه الا بقدر ما ينال من عذاب لذلك .. فهو يصور نفسه معذبا يكتوى بالآلام ، ولا يجد ما يشفيه من آلامه فيستعين بطبيب الجراح .. عسى أن يجد عنده الشفاء .

انه يعبر عن مركب النقص الذى يعتمل بداخله ، فيسعى الى البطولة ، ولكن أية بطولة ، أنها بطولة فى العذاب ، ان بؤسه وعذابه وكل ما جلب له الزمان والقدر جعله جديرا بالبطولة فهو يتحمل من الهموم والظلم والآلام مالا يقوى على حمله الا الأبطال ـ اذن فهو عن طريق هذه البطولة وباستخدامه لميكانيزمات الازاحة والاسقاط يحيل الظلم من حوله الى أعداء خطيرين نكدوا عليه حياته ، وجعلوها جحيما لا يطاق ، وهواذ يتحمل كل تلك المآسى والآلام انما يرد لنفسه اعتبارها ، فقد أصبح بطلا لقدرته على التحمل والصبر ، ومن هنا كان الصبر من الألفاظ التى كثيرا ما تتردد فى الموال ، وهو فى واقع الأمر لا يستطيع أن يؤكد بطولته الا باستخدامه للصبر كحيلة دفاعية ، أساسها التعبير عنه بالليمون الحلو ، أى أنه يستسيغ العذاب وهو اذ يقول ذلك فانما يؤكد بطولته مرة أخرى ، وهكذا .

الأسس الاجتماعية :

١ ـ العمل :

وقد فطن المصرى الى أهمية العمل ، وبذل الجهد ، فاتجه اليهما بكليته ، يمجد المجهود البشرى ؛ والاقتصاد ، والذكاء ، والعمل . حين يقول :

عاشرت يا قلبى من النـاس ألف يكفاك لف
واسجد للموت لـم حـد عليك لف

أبويا نهانى وقال لى ع الكســـل بطـــال
أعمــل بقرشـــين وحاسب البطـــال
خالفت شـــوره وادينى وقعت فى البطال
همـــا ثلاثة أربعـــة اللى تعاينهـــم
همتـك والدراهــم والنظـــر والكف

١ ـ الحكمة والمعرفة كصفات للشخصية المصرية واثرها بين الجماعة :

وهو من خلال ما يصدر عنه من قول يبدى من الحكمة والمعرفة ما هو جدير بالتسجيل أنه خبر الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، ثم انه تمرس فى دراسة سلوك الناس ، وطباعهم ، وخلقهم ، وعرف الخير منها والردىء •

واكتسب كل ذلك بما حصـــل من معرفة ، ليست معـرفة تعلمها فى دور العلم ، أو حصل عليها بالتلقين ؛ وانما هى معرفة فطرية أضاءت صدره ، وملأت رأسه ، وقلبه ، فأصبح عامرا بايمان راسخ بقيم ومبادىء يتبعها ويسير عليها فتهىء له سواء السبيل ، كذلك لم تكن تلك المعرفة معرفة جامدة ميتة ـ أو هى معرفة محدودة غير قابلة للتطور والنمو ، لم تكن معرفة من ذلك النوع الراكد الذى يقف صامتا كالتمثال •• بل كانت معرفة متجددة متطورة نامية ، وقد عبر عنها بقوله « طول ما النخل بيتألم(١) يعيش ابن آدم ويتعلم) • أى أن الانسان كلما مرت به السنون يكتسب خبرات ومعارف جديدة •• ثم أن هذه الخبرات لا تتوقف على وجود الفرد بل انها تمتد بامتداد الانسانيـــة فهى اذن خبرات تنمى المعرفة الانسانيـــة بوجه عام ، وتضيف الى التراث الانســـانى ادراكا وعلما •

هذه المعرفة اللدنية التى أفاضتها عليه بساطة الحياة ، علمته أساليب خاصة فى التعامل ، والأخذ ، والعطاء بين الناس ، واقامة العلاقات الاجتماعية على أسس تساعد على تنمية تلك الحياة • فهو يقول :

الصمت بالصمت والعـــلم حازوه بالصمت
ومن يزرع لك شوك أزرع قصـــاده سنط
واللى يزرعلك سنط ازرع قصـــاده ورد
دا الصمت بالصمت والعلم حازوه بالصمت

٣ ـ الخير والشر فى المجتمع :

ولما كان التعبير هو فى الأصل صدى لانفعالات داخلية •• فما من شك فى أن النطق بالموال يعبر عما يدور بخلد صاحبه ، وما يعتمل فى قلبه ، ولعل

(١) المقصود هنا عملية تقليم النخل وهى عملية سنوية •

أكثر الأحداث قدرة على دفع الانسان الى النطق والتعبير ، هى مشكلات الانسان للانسان ، ومن هنا نشأ التقسيم الكلاسيكى القديم بين الخير والشر وعبر عنهما الموال بالأصيل والخسيس · ولعلنا فى ذلك نردد قصة بدء الخليقة ، حين طرد آدم من الجنة ، وبعد ذلك ما دار بين قابيل وهابيل من صراع ، هو فى الحق صراع الخير والشر انتهى بقتل الأول للثانى ، فمنذ بدء الخليقة والخير والشر يتصارعان ، ولا مفر من ذلك الصراع الأبدى حتى اليوم ، ولا عجب أن يظهر ذلك فى الموال حين يقول :

شوف الرفيع الأصل ع الود آهو ماسك
أما الخسيس الوطى ع الود موش ماسك

الندل لو طعم مالح ، ولو خصايل ذميمه
القرب منه فضايح ، والبعد عنه غنيمه

الندل ميت وهو حى ، ما حد حاسب حسابه
هو كالترمس الى ، حضوره يشبه غيابه

وقد عبر الموال بحق وصدق عن ظلم الغنى للفقير ، وعن الصراع الطبقى ، وما انطوى عليه من مآس ، وتعسف المستعمر وما ترتب عليه من ظلم وخلق غير قويم لا من جانب الرأسمالى وحده ، بل وأتباعه ، ومن يسيرون فى ركبه أو يضمهم مجلسه فالنفاق والرياء والممالأة والكذب كلها صفات أخلاقية ذميمة استلزم وجودها وذلك الوجود الطبقى بما صنع من فوارق هائلة بين الناس ·

وقد عبر الموال عن ذلك الظلم الناتج عن الطبقية والرأسمالية بقوله :

راح الفقير يوم ليطلب م الغنى حجباه
ضربو الغنى كف قالوا اللى قاعدين حجاه
لو كان للفقير عزوه ، تاخد لو م الغنى حجاه
اللى بلا عزوه ، والجلسه عليه مالت
وجلسة اليوم بتضيع للفقير حجاه

ولعل مجتمعنا الجديد بما يسوده من قيم ومبادىء تدعم الديموقراطية وتحقق الخير والعدالة للجميع يكون قادرا على ان يصنع قيما أخلاقية جديدة تختلف عن تلك التى نشأت فى ظل الاقطاع والاستعمار ·

٤ ـ الاتجاه الى الله :

واذا لم يكن هناك بد من حياة البؤس والظلم والفقر فى هذه الدنيا ، ألا يكون من الأفضل أن يتجه البائس والمظلوم والفقير الى أمل فى مستقبل مشرق فى

نور يفيضــه الله على عبــاده ، فيبدل بؤس الحيــاة فرحــا وبهجة ، وشقاءها راحة ونعيما ٠

ومن ناحية أخرى يدرك الفقير أهمية المال ، وأنه بالمال يستطيع الانسان أن يبنى لنفســه مجدا وعصبية ومركزا مرموقا بين أهله وذويه ، وهنا يتحسر الفقير على ما أصابه ، ويبكى الى الله فيقول :

يا عين متبكى على اللى كان فنجرى وهناه
وغلبوا زمانه ما بين الجبال الداوية وهناه
صبح حاله ، شين ، يبكى بدمع العين ويقول
يارب أروح فين آهى ضاقت بى هناك وهناه

تلك هى ظروف الحياة الأليمة التى يتصدى لها الانسان فى ظل مجتمع ظالم ٠٠ فبعد أن يشتد يأســه من الدنيا ٠٠ يتجه الى الله ، والى أمل راسخ فى عوض عادل بالجنة والحياة الآخرة ، ولكنه يعبر عن ندمه على مسلكه السالف ، وما استمسك به من عصبية وتفاخر بالأهل والأقارب دون أن يتجه الى جادة الصواب فى العمل ، والكفاح من أجل الحصول على الرزق فيمجد المال حين يقول:

اذا كان بدك تريــح القلب وتهــدى
أترك هوى الدنيا لاتاخد منها ولا تدى
حسك تقول عمى ولا خالى ولا جدى
دا اللى معاه مال مالك دى ومالك دى
واللى بلا مال تــارك دى وتــارك دى
اللى معـــاه مال آهو أصـــيل كامل
واللى بــلا مال واطى وأبــوه هامــل

٥ ـ الواقعيــة :

وكذلك يعبر الموال عن تقلب الأيام على بعض الناس فتودى بهم بعد أن يكونوا فى رفعة وسمو بين قومهم ، ومن حولهم عديد من أصدقائهم ــ ثم ترفع غيرهم ممن لم يكن لهم بين الناس مركز ولا شأن ٠٠ تلك التغيرات الاجتماعية فى حياة الفرد أو الجماعة التى تنتج عن ظروف اقتصادية ٠٠ أو سياسية ٠٠ أو غير ذلك من العوامل التى تحدث تلك التغييرات فينبنى عليها زوال طبقة وقيام طبقة جديدة لها من الصفات ما يشبه الطبقة القديمة مع اختـــلاف من حيث الشخصية والاتجاه ٠

يقول الموال :

حوشوا الغنم عن عليج الجمـل ، أكل الغنم فيه عيب
لو كان جمـل فى جمـل ، مكنش جد منه عيب
شيبتنى يـا زمان وأنـا ما كنت اسـتحق الشيب
وخـدت منى اللى اريـده ، ماختشـيت العيب

مللا زمن شـين لما البنـدجى (١) داسـوه
وجابـو الصـدف فى حرير سـندسى وشالوه
ومطـاوى الخشب انهجمت ع السيوف جرحـوه
البخـل موجـود وصـندوق الكرم نقلوه
الخـير موجـود وولاد الحـرام نكـروه
واتمخطـر النـدل فى الحـارة وشـاف له يـوم
ولا افتـكرشى فقـر جدة وجـوع أبـوه (٢)

نـوادر الوقت خلت السـباع نـادت
عطاشى جـواعى جـار حيط العويـل نامت
والطـل نازل عليهـم فى الخـلا نامت
يا ميت خسـارة كانت مضايفهـم لكل الناس
الله ينعـل أبـو الوقت اللى يسـلم لقل النـاس
وشلت بعينى لقيت القرش بيدى وشـه لقل الناس

هذا الشعب الذى قاسى ألوان الذل والهوان من الاقطـاعى والاحتكارى وصاحب رأس المال ، والذى أذلته السـخرة طوال عهود حافلة بالظلم والآلام لم يعرف أعداءه الحقيقيين ومن هم ، وكيف يقضى عليهم .. فقد عاش حقبة من الظلام والتضليل جعلته لا يستطيع الا أن يئن ، ويتحسر على ما حل به ، وهذا الموال مع صدق انفعالاته يعبر عن آلام عاشها الشعب ، وتعذب بها :

حسس الطبيب فى شـمالى انا قلتلو يـا مين
صابح مسافر يا طبيب وهتفوتنى عليل على مين
قال الطبيب للعليل اداويك يا عليل وحق الدوا على مين

---

(١) الذهب الخالص .

(٢) يرمى هذا الموال الى ما يحدثه التغير الاجتماعى من تبدل فى الطبقات بحيث ترتفع طبقة دنيا وتنخفض طبقة عليا .

قال العليل للطبيب انت تحسبني يا طبيب م الفلوس خالى
دنا لى عزوة الفين يا طبيب غير عمى وغير خالى
قالت اخت العليل • داويه يا طبيب وانا أوهب لك حلقى وخلخالى
أم العليل قالت • داويه يا طبيب ويبقى لك عندنا علامات
أم طق العليل مات من قوله حق الدواء على مين

٦ ـ الرمزية :

ان ترديد الطبيب في الموال وما يستلزمه من وجود عليل لا يؤدى حتما الى أن نفكر في المرض الجسمي أو الصحى ، والعلاج الذى يشفيه • بل فى جوانب أخرى يجب ألا نغفلها •• ذلك أن المرض غالبا ما يكون قد نجم عن تقلبات الزمان ، وسوء الحالة الاقتصادية فى الوضع الجديد ؛ وما يؤدى اليه ذلك من انخفاض المستوى الاجتماعي ، وانفضاض الأصدقاء من حول الشخص ، فلا يبقى معه الا أمه وأخته ـ حتى زوجته ربما تأبى حياة الفقر والقلق فتتركه أيضا ، أو ربما كان المرض هو بعده عن محبوبته ، أو رفض محبوبته الارتباط به أو رفض أهلها له نظرا لفقره ، أو ضعة مركزه الاجتماعى • كل ذلك يعبر عنه بفكرة الطبيب والعليل •

ولاشك أن الجانب الاقتصادى هو أبرز ما تتسم به الحياة بالنسبة للشخصية العربية فهى الأساس الأدبى فى بنائها وتشكيلها ورسمها بالصورة التى تظهر بها ، وتعمل بمقتضاها ، وهنا يقول الموال :

طول ما معاك مال تلاقى الناس تحت ايدك
يرحبو بك قوى مادام الجنيه فى ايدك
لو خف مالك حبيبك حمامة وطار من ايدك
وقبل ما تماشى الدون حرص على ايدك
ولا ينفعك فى الزمان ده الا شقا ايدك
مالك ومال النجوم مادام القمر فى ايدك

ان شعبية الموال وانتماءه الى الطبقة العاملة الكادحة تظهر بوضوح عندما يقول ولا ينفعك فى الزمان ده الا شقا ايدك •• أى أن العمل وحده هو أساس الحياة والتقدم لا الميراث ، ولا الأصل والحسب والنسب ، بل الكد والجهد والعمل •

٧ ـ التشبيه :

انه أدب شعبى يعبر عما يدور بخلد كل فرد من شعب هذا البلد الذى قاسى ، وقاسى من خلال أجيال وسنين طويلة على أيدى الاستعمار ، والاقطاع ،

ورأس المال . حتى انه اتصف بصفات الجمال ، وما عرف عنها من صبر وجلد ، يتحمل أشد الأعباء والملمات دون أن يكل أو يشكو ، وهو يعلم فى نفس الوقت أن سيده الوالى ، أو الحاكم التركى ، أو بكوات المماليك ، هم الذين يثقلون عليه الحمل ويسوقونه من عذاب الى عذاب . فيقول :

أنا جمـــل صـــلب لكن علتى الجمـــال
غشـــيم مقاوح ولا يعـــرف هـــوى الجمـال
كار الجمـــل لو جمـــل يلعنـــه الجمـال
وربى رمـــانى حــدا ناس ما يعرفوش قدرى
وسبونى فى التراب بعد الحمـــول العـــال
وصـــبحت عيـــان قوى يلعبوبى عيـــال
وطلعونى الســـوق يـــا عـــم واشترم فيـــه
امن يد واحد لواحد ملقيتش واحد يصون الود والجمال
انا جمـــل صـــلب لكن علتى الجمـــال

انـــا جمـــل صـــلب من قبـــل الخزام والكام
غيرش الزمان هد حيلى من نوم الحصا والكام
ولبست توب الصفا جت ناقصـــة البـــدن والكام
وصبحت كالعبد موش عارف حســـــابى كام

تشبيه الشعب المصرى بالجمل يظهر فى كثير من المواويل وذلك لما اتصف به الجمل من قدرة فائقة على الصبر ، وتحمل المشـــاق .. كذلك للجمـــل صفة رئيسية وهى معرفته لصاحبه وحرصه على طاعته .. كما أنه يستشعر المعاملة الرديئة .. فينتقم من صاحبها ولو بعد وقت طويل فيرد الصاع صاعين . كل هذه الصفات مجتمعة جعلت الشبه واضحا كبيرا بين الشعب المصرى والجمل . ذلك الحيوان الذى يستخدم بكثرة بين تلك الطبقة الكادحة الفقيرة التى لم تعرف الطريق الى الخلاص ولكنها تدرك ما تعانيه من شقاء وضياع كما أنهـــا مهيضة الجنـــاح مكتومة الأنفاس ، مقضى عليهـــا بالصبر والاحتمال ، حتى توفر رغـــد العيش للباشا ، والبيه المملوكى والتركى ، للاقطاعى والاحتكارى ، لكل أعوان الاستعمار وأذناب الحكام فتنبهت مشـــاعر الاديب الشعبى وطفق ينطق بالموال .

لم يكتب الموال شـــاعر ولا أديب ممن ســـمعنا بهـــم ، وقرأنا لهـــم ، ولكنه انتاج شعبى خالص ترنم به الفلاحـــون ، والعمال ، والرعاة ، وتناقلوه جيلا بعد جيل ، لذلك كان تعبيرا صادقا عن خلجاتهم ومشاعرهم ، وما يدور

بقلوبهم من أحاسيس ، وأفكار ٠٠ كما أنه تعبير صادق مبسط عن الشخصية المصرية الأصيلة فى صدقهـــا وبساطتها ٠٠ انه نداء من الأعماق نحو الحق ، والحرية ٠٠ نحو الخير والفضائل ٠٠ نحو الحياة الكريمة بعد أن اختلت معايير الحياة فأسلمت مقاليد أمرها لمن لايعرف قدرها ولا يرحمها ٠٠ فانهال عليها بالظلم والجور ، فظل العامل أجيرا فقيرا تعيسا يكدح ولا يربح ، يزرع وثماره للآخرين ٠ فلم يكن أمامه غير الآه والتنهيدة التى تجد طريقها بين أنفاسه صادرة من أعمــاق القلب لتحقق له بعض التعادل بين الضغط والخواء ، ضغوط ثقيلة على أنفاسه وقلبه بعد أن امتلأ بالمآسى والآلام بحيث لم يعد به متسع للمزيد ، ثم خواء تلك الحياة القاســية الرتيبــة التى تتســم بالذل والعبودية ، والتى تدفعه الى العمل بلا مناقشة مهما أضافت الى قلبه من هموم وآلام ٠ فلم يكن بد من تلك التنهيده العميقة الصادرة من الأعماق لتحدث شيئا من التفريغ حتى يقل الضغط الداخلى ، ويتسرب الى الخارج فى صورة موال ، أو نكته ، أو قصة أسطورية ، أو رقصة أو أى مظهر من مظاهر الفن الشعبى الذى يعكس حياة عامة الشعب وخاصة فى الريف ويعبر عن مواقفهم من الحياة من حيث العادات والتقاليد والقيم والمبادىء والمثل العليا فيصـــنع لهم حيــاة مثاليــة يحبونها ويقدسونها وينشدونها فى الموال ، فهو التراث الشعبى الخالد الذى تناقلته الأجيال ،.ولم يفقد أثره القوى الواضح خلال هذه الأجيال لصدق تعبيره ، وقوة بيانه ، وقدرته على الطرب ، وذلك لأنه يعتمد على موسيقى اللفظ والتنغيم الذى يدفع الأذن الى الانصات كما يدفع الذاكرة الى الحفظ والترديد ، ومن هنــا كانت سهولة انتقال الموال ، وتداوله بين عامة الناس ـ دون ما مشقة أو كبير عناء ٠

● الفصـــل الثانى

الأغنية الشعبية

ان الأغنية الشعبية فى تعـريف كراب ·· هى قصـيدة شـعرية ملحنة مجهولة الأصل انتشرت وشاعت بين الأميين منذ وقت طويل ، وما تـزال حية مستعملة ·

ويؤكد بوليكافسكى ·· أنه لابد أن تنسب الأغنية الشعبية الى الشعب (١) فهو صاحبها ، ومؤلفهـا ، فهى لم تكتسب صـفة الشعبية لأن الشعب يتداولها فحسب ·· بل لأنها بنت الشعب ، صدرت عنه ، وعبرت عن مشاعره وخلجاته لذلك عاشت معه ، وأكثر من ترديدها خلال أجيال وأجيال ·

ويقـدر « هانزمورز » ما يقوم به المجتمع الشعبى من تعـديل فى الأغنية الشعبية تبعا لما يصل اليه المجتمع من تغييرات فى كل فترة من فترات التطور ، والتغيير الاجتماعى الذى يلاحق المجتمعات حتى تخضع لوجدانه وعقله الجمعى فتلائم التعبير عن حاجاته المتعددة ، ولذلك فهو يقـرر أن الأغنيـة الشعبية هى الأغنية التى قام الشعب بتعديلها وفق رغبته بعد أن أصبح يمتلكها امتلاكا تاما· أما ريتشارد فايس فهو يتفق مع « بوليكافسكى » فى جزء من الحقيقة ويعارضه فى الآخر ·· اذ يرى أن الأغنية الشعبية ليست بالضرورة هى الأغنيـة التى خلقها الشعب ، ولكنها الأغنية التى يغنيهـا الشعب ، والتى تؤدى وظائف يحتاجها المجتمع الشعبى ، وعلى ذلك يمكن القول بأن الأغانى الشعبية هى حصيلة ذلك التراث من الأغانى الذى تعرض للتغيير والتعديل أثناء انتقاله بطريق المشافهة ·

ونرى أن الأغنية الشعبية انما هى الأغنية الشائعة أو الذائعة فى المجتمع الشعبى ، وأنها تشمل شعر ، وموسيقى الجماعات ، والمجتمعات الريفية التى تتناقل آدابها عن طريق الرواية الشفهية ــ دون ما حاجة الى تدوين أو طباعة ·

---

(١) أحمد رشدى صالح ، مرجع سابق ·

وعلى ذلك •• فالأغنية الشعبية تمتاز بما يلى :

أولا :

يجب أن تكون شائعة ، وبديهى أن نقض المحمول بالنسبة لهذه القضية يعتبر غير صحيح فليست كل أغنية شائعة تعتبر شعبية •• فمن الأغانى الشائعة فى الوقت الحاضر ما يعبر عن ميول واتجاهات تعارض الاتجـاهات الشعبية ، ولا تمثل الا طبقة ضيقة فى المجتمع • فهى تنتشر فترة من الزمان ثم تخبو ، وتطوى فى صحيفة النسيان •• فهى ترتبط بحادثة عارضـــة أو ظروف مؤقتة انبثقت عنها ، وبتغير تلك الظروف تفقد الأغنيــة تأثيرها فى الشعب فلا تكون ضمن مأثوراته ، ولا تعبر الا عن مواقف تاريخية معينة •

ثانيا :

انه ليس للأغنية الشعبية نص مدون ، ولذلك فهى تزدهر بين الأميين فى المجتمعات الشعبية •

ثالثا :

انها تنتقل من فرد الى آخر ، ومن جماعة الى أخـرى عن طريق الرواية ، والمشافهة ، ومن هنا كان لها أكثر من اطار مما يجعلها تظهر فى نصوص عديدة تعبر كلها عن معنى واحد ، ويساعد اللحن على سهولة حفظها وانتشارها ، فلا شك أن القول المنظوم الذى يتخذ جرسا معينا أيسر فى الحفظ والنقل من القول المنثور الذى لا يتبع ايقاعا موسيقيا على أى نحو من الأنحاء •

رابعـا :

ان سمة المرونة التى تتسم بها الأغنية الشعبية بقابليتها للتغيير والتشكل بمواجهة الأنماط الجديدة فى الحياة والتعبير عنها ، هذه السمة أو الخاصية تساعد على بقاء الأغنية فى ذاكرة الناس فيرددونها كجزء من ثقافتهم العامة •

خامسا :

ان الأغنية الشعبية بما تكتسبه من خلود ، تساعد على خلود اللحن الموسيقى الذى تظهر به •• فيكون هناك توازن بين الأدب الشعبى ، والفن الشعبى ، وأعنى به الموسيقى المصاحبة للشعر ــ اللذين يكونان معا الأغنية الشعبية •

سادسا :

ان مؤلفى الأغانى الشعبية مجهولون ، ولكن لا يمـكن القول بأن الأغنيـة الشعبية ليس لها مؤلف ــ بل لابد أن يكون قد أبدعها فرد من الأفراد ، ولكنها أصبحت ملك عامة الشعب بعد أن ذابت فى التراث الشعبى ، وابداع الأغنية لا يمكن أن يكون من عمل الشعب عامة ، ولكنه عمـل فردى لاقى من النجاح

والرواج بين أفراد الشعب ما جعل العقل الجمعي يتبناه ، فيصبح بذلك ملكا للجميع ، وقد يعدل الشعب فى الأغنية أو يبدل بعض كلماتها وفق مقتضيات المجتمع وظروفه ، وينسى المبدع الأصلى للأغنية ، في هذه المرحلة تصبح بحق الأغنية ـ أغنية شعبية مجهولة المؤلف معبرة عن مشاعر الشعب وخلجاته وأمانيه كما أنها وسيلة من وسائل المرح والبهجة التي تعينهم على انجاز عمل صعب ويجدون فيها متنفسا لعواطفهم ومشاعرهم ، وهناك عوامل ذات أثر خاص فى الأغنية الشعبية تضمن لها الاستمرار والخلود وهي :

١ ـ الاستمرار أو الدوام الذى يربط الماضى بالحاضر فى مرونة اكتسبتها الأغنية عن طريق الرواية الشفوية ، ومن ثم تظل الأغنية مكتسبة عنصر الحياة خلال أجيال طويلة شكلتها بالشكل الذى يناسب كل جيل ، وجعلتها تلائم الظروف المختلفة بما أضفت عليها من تغييرات • وهنا نجد الأغنية بما تحويه من أفكار تؤثر فى الجيل الذى توجد فيه •• ثم تبقى ليتناقلها جيل آخر بعد أن تأثرت بما اكتسبته من الجيل السابق ، فتؤثر فى الجيل الآخر وتتأثر به أيضا ، وهكذا ، أى أن الأغنية الشعبية عملية أخذ وعطاء ، مستمر ، عملية انتقال للأفكار من جيل الى جيل ، تؤدى الى وحدة فكرية بين جيل وجيل ، وتلك وظيفة العقل الجمعى الذى يعمل على انتقال المعرفة من جيل الى جيل ، ويضمن توارث الأفكار والقيم والمبادىء •

٢ ـ العامل الثانى •• هو التغيير الذى يلحق بالأغنية ، وهذا التغيير فى حد ذاته دلالة على شعبية الأغنية ، وتعبير عن رغبة الشعب فى خلودها ، فهناك من الأغانى الحديثة ما يحصل على شهرة كبيرة فى فترة معينة ، ثم بعد ذلك يمضى فى طى النسيان ، فلا يرددها الناس ولا يتذكرونها الا نادرا •

ولكن اصرار الشعب على تناول الأغنية كملك خاص له ، طيعة فى يده تتجاوب مع مشاعره وظروفه الخاصة قابلة للتشكل بأشكال الحياة الاجتماعية فى المجتمع الشعبى ، هذا الاصرار من جانب الشعب هو الذى يكتب للأغنية الشعبية البقاء والخلود •

وليس كل ما ينتجه الشعب أو الفنان الشعبى ، يصبح فنا شعبيا بالضرورة، بل أن الأمر يتوقف على اختيار المجتمع للأغنية لما يلمحه فيها من مشاركة عميقة فى أدق مشاعره وخلجاته أو لما تعبر به عن مطالبه وحاجاته ، أو لما توجهه من نقد صريح أو متستر ، لما يسود المجتمع فى وقت من الأوقات ، وخاصة فيما يتعلق بطبقة الحكام على مر العصور • اذن فالشعب يختار أغانيه يعبر فيها ، وبها بشكلها ومضمونها بما يجعلها صالحة على الدوام ، وما يضمن لها عن طريق ذلك الاستمرار والبقاء • اذن فالأغنية الشعبية فوق كونها تعبيرا عن مشاعر الشعب •• فهى أيضا تحوى مضامين أدبية وفنية ، واجتماعية ، وأخلاقية ، وسياسية • كما أنها

تشيد بالفضائل والشرف والعفة وتثور على الرذيلة وكل ما يتعارض وآداب المجتمع الشعبى ، وعاداته وتقاليده ، معبرة عن كل ذلك فى بساطة وبراءة مستمدين من نفسية ساذجة بدائية لم يلوثها التواء المجتمع الصناعى ولا اضطراب المدنية ، ولا تعقد أساليب الحياة فيها .

٣ ـ ان الأغنية الشعبية لابد أن تكون من نتاج فرد هو الفنان الشعبى ، ولكنها بعد أن تلقى القبول فى الجماعة تصبح ملكا لكل فرد فى المجتمع، ولاشك أن تلك خاصية الابداع بوجه عام ، فهو ينبت من فرد ، ولكنه يصبح بعد ذلك ملكا للجميع . لا فى مجال الأدب الشعبى أو حتى الشعر والفن فحسب .. بل فى شتى مجالات الابتكار والخلق والاختراع وأعمال الفكر بوجه عام .. فالعالم كله ينعم بما قدمه له أفراد قلائل من المخترعين والمستكشفين تفتقت أذهانهم فى بادىء الأمر عن عمل ابتكارى ابداعى، سرعان ما تبنته الجماعة وأصبح ملكا طيبا لها جميعا ، ثم انتشر حتى تخطى حدود القارات والمحيطات .

وهكذا تصبح الأغنية الشعبية صدى لعواطف الشعب بأجمعه يمكن بواسطتها دراسة نفسيته والحكم على شخصيته ، ومبلغ تكامل تلك الشخصية وانحلالها .

شعب فنان :

نقول شعب فنان ، ولا نكتفى بالقول بوجود فنان شعبى .. ذلك أن الشعب كله حقا يميل الى الفن .. فهو مولع بالغناء ، يتغنى فى كل وقت وفى كل مناسبة فى الأفراح ، والمآتم ، فى حفلات الذكر ، والزار ، فى أوقات العمل وأوقات الفراغ حتى أن الباعة ينغمون نداءاتهم فتصدر فى نغم طيب يجذب انتباه السامع ، وقد يدفعه الى الشراء .. ذلك بالاضافة الى ما قد يصحب تلك النداءات من لحن موسيقى وآلة ساذجة تعبر عن نوع السلعة التى ينادى عنها البائع ، وتعرف بها ، فمازالت الأحياء الشعبية غاصة بالأطفال الذين يجرون خلف بائع المثلجات ، وهو ينفخ فى مزماره أو يصلصل بطاساته وأجراسه وهو ينادى على سلعته الرخيصة أن جيلاتى أو عرقسوس أو غزل البنات . فى فرح وبهجة تضفى على الحارات والأزقة رغم ما تعانيه من فقر وتخلف قدرا كبيرا من السعادة والهناء .

والفنان يبرز فيه الجانب الوجدانى الذى يساعده على الخيال والقدرة على التصوير فى صورة لا تطابق الحقيقة تماما ولكنها ترضى مزاج قائلها ويقبلها الشعب لأنه بوجه عام شعب فنان فبائع العنب يتغنى ويقول :

جواهر يا عنب   أبيض وجميل يا عنب   زى بيض اليمام يا عنب

وبائع البلح يقول :

قنى وسال وطلب الأكال يا رطب ٠

أى أن ما به من عصارة حلوة تسيل كالعسل فى شكل قنوات ٠

وحتى بائع الفجل يقول :

أرضك طيبه يا لوبيا
من جنينتنا البحرية يا لوبيا
اللى بلا سنان ياكل فدان يالوبيا

فما هو السبب فى حرص المصريين على التغنى والغناء ، ربما كان ذلك بسبب توالى عصور الاحتلال ، وما صحبها من بؤس وضيق ، وما حبته به الطبيعة من اعتدال فى المناخ ، وصفاء السماء ، وخصوبة الأرض ، وعذوبة النيل ورقة النسيم ٠٠ ذلك بالاضافة الى ما اتصف به هذا الشعب من فن أصيل وقدرة على الخلق والابداع ، وميل طبيعى الى اللحن والغناء ـ لعل هذه العوامل مجتمعة جعلت من الغناء متنفسا طبيعيا لهذا الشعب ، ولذلك كان أكثر الناس بؤسا وفقرا هم أكثرهم ترديدا للغناء ، وكأنما هى عملية تعويض تتم لاشعوريا لتعيد للنفس توازنها ولا تدع لها مجالا للاضطراب فعمال البناء مع مشقة العمل الذى يؤدونه فى حمل مواد البناء والصعود بها فوق السقالات وما يحف بهذا العمل من مصاعب وأخطار يرددون الغناء بل أن أشهر المغنيين الذين عرفوا فى مستهل هذا القرن كانوا من عمال البناء ٠

وحاملو الأثقال ، وعمال السفن ، والملاحة ـ يجرون السلب والحبال حتى تتحرك المركب الضخمة وهم يرددون أغانى خاصة ، وأنغاما تساعدهم على ضبط التوقيت بالنسبة لحركاتهم فيتبعون نظاما مضطردا فى العمل والأداء ٠

وهناك عوامل أثرت فى الأغنية الشعبية ، نذكرها فيما يلى :

١ ـ أثر الزراعة على الشعب المصرى :

ارتبطت الزراعة فى مصر بالرى من النيل ، وارتبط أهل الوادى بالأرض التى يزرعونها فتمدهم بالرزق والخير وبمزيد من الايضاح نقول : أن الرى عن طريق النيل يحتاج الى توزيع عادل بين الفلاحين الذين لا يبارحون القرية الا لماما ، اذن فلابد من سلطة عليا تشرف على مشروعات الرى وعلى النهر كمصدر للخير والخطر ولابد من تعاون تام بين تلك السلطة ، وعامة الشعب ـ حتى يتم التكاتف ضد أخطار الفيضان فى موسممعين من كل عام(١)، ولابد من

(١) كان ذلك قبل بناء السد العالى ٠

تنظيم لعمليات الرى بحيث يمر الماء من مكان الى آخر فى عدالة ونظام ، ولا يمكن أن يتم ذلك ـ دون وجود أداة حكومية تكون مسئولة عن شق الترع ، وبناء الجسور ، وغير ذلك .. ومن هنا كانت الحكومة من أهم مستلزمات الزراعة منذ أقدم العصور ، وكان لابد من وجود التعاون بين أفراد الشعب ببعضهم بعضا ، وبين الحكومة وأن تسودهم جميعا روح الجماعة وعقلية الجماعة مع ارتباط شديد بالأرض وتعبير صادق عن رفض مغادرتها أو البعد عنها ، ومن هنا كانت الهجرة نادرة جدا بين أفراد الشعب المصرى حتى منتصف القرن الحالى ـ فلا عجب أن يتغنى الناس ببلدهم ، وحنينهم الى العودة اليها :

بلدى يا بلدى وأنا بدى أروح بلدى
يا عزيز عينى والسلطة خدت ولدى

وحتى الأطفال فى أحاجيهم وأغانيهم يرددون أغانى بسيطة ولكنها ذات معنى وفلسفة .. انها تعبر عن الارتباط التام بين كل عضو والآخر ، وان المجتمع انما يتألف من جماعات لا غنى للواحدة فيها عن الأخرى كقولهم :

أقول لك حدوته فى الزيت ملتوته
حلفت ما أقولها الا لما يجى صاحبها
وصاحبها ع السطوح والسطوح عايزة سلم
والسلم عند النجار والنجار عاوز مسمار
والمسمار عند الحداد والحداد عاوز بيضه
والبيضه فى بطن الفرخة والفرخة عايزه قمحه
والقمحة فى الطاحونة والطاحونة عايزة لمونه
والليمونة فى الجنينة والجنينه عايزه ميه
والميه فى الوابور والوابور عاوز زيت
. . . . الخ

تعاليم الدين :

ان تعاليم الدين الاسلامى الحنيف تحتم على الرجل والمرأة أسلوبا معينا فى الحياة ، والتعامل ، والتفاعل بين الجنسين ـ يقول الله تعالى فى كتابه العزيز « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر (١) منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن .. » .

(١) سورة النور . (آية ٣١)

بهذه التعاليم وأمثالها حدد الاسلام مدى اختلاط المرأة بالرجل وأخذت تعاليم الدين تتحول الى عادات وتقاليد تشربهـا الأجيـال جيل عن جيل حتى اتخـذت صـورة الضوابط والأوامر والنواهي في داخل المجتمع الاسـلامي ، وحرمت اختلاط الجنسين فلم يعد في امكان الرجل المسلم أو الفتاة المسلمة الا احترام هذه التعليمات والسير وفق ما ترسمه وترتضيه والا عرضت سمعتها واسمها وكرامتها هي وأسرتها للوم والعار وكان لهذا الكبت الدائم أثره في نفسية الشعب المصري ـ مع ملاحظة ظروفه المناخية وأثرها على الانسان من الناحيتين البيولوجية والنفسية وما استحدثته التقاليد الشعبية كرد فعل للرغبة الجامحة في الحفاظ على الشرف واضعاف الحساسية الجنسية من اجراء شـبه حتمي لعملية الختان عند كل من البنات والصبيان ، ثم ما يترتب على هـذه العملية بدورها من كبت لا يلبث أن يتحول الى مسالك مختلفه فيظهر في الغزل والتشبيب أو في توتر العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة أو في الأغاني الحزينة وما يسمى بالموال وغير ذلك ٠ ومع كل هذه الظروف والملابسات يظهر صراع عنيف بين رغبتين متعارضـتين ودافعين متناقضين ، دافع الانقيـاد للجماعـة والارتباط بالقطيع الذي من أهم مبادئه المحافظة على الدين والخضوع للتقاليد التي تسود المجتمع ، ثم دافع الغريزة القوية الملحة وكلما كان التعارض شديداً بين الدافعين كلما تعذر التوفيق بينهما الا بكبت الاتجـاه الغريزي وتحويله عن المجرى الطبيعي على نحو من الأنحاء ٠

ان انتشار الأغاني الشعبية للعشق والغرام في الريف وما يشـدو به الفلاح من موال وهو يجر محراثه أو يسقي بقرته أو يدير نورجه فوق دائرة القمح أو الشعير ليشـير الى مدى ما أحدثه الكبت في نفسـه من تسرب تلك الدوافع القوية الى اللاشعور ثم محاولة متخفية لتلك الدوافع الى الظهور في صـورة لا ترفضها الجماعة بل تقبل عليها وتستملحها وهي الغناء أو غيره من مظاهر التعبير اللاشعورية كالنكتة ، أو الأدب المكشوف بوجه عام ٠ وقد يتخذ الغناء صـورة الدفاع عن الشرف ، والفضـيلة معبرا في ذلك عن صراع نفسي عنيف بين ما يوعزه اليه اللاشـعور وما يأمره به السوبراجو في صوره العقل والدين ٠ وما ينتهي اليه هذا الصراع من انتصـار العقل والدين معلنا على الملأ لا مجرد تفضيله جانب الخلق الاجتماعي على الميول الفردية بل زجر واستهانة بهذه الميول ومضاعفة لعملية الكبت وشدو بكل ما يؤدي الى نجاحها ٠ فمثلا تردد الريفية أغنية ع الزراعية يا رب أقابل حبيبي٠ فتجعل مقابلة الحبيب هذه الأغنية أمنية من أعز أمانيها وتصورها صعبة المنال تدعو الله في لهفة أن يحققها لها وتتخذ الطريق الزراعي مكانا للقاء ، وكأنما هي لا ترى حبيبها أبدا ، ولذلك تبتهل الى الله أن يحقق لها ما تتمناه مع أنها في الحقيقة تمضي كل يوم الى الحقل فتمر « بالزراعية » وتقابل حبيبها في الصباح والمساء بل وربما طيلة اليوم في الحقل تعمل معه جنبا الى جنب ، انها تشدو بهذه الأغنية لتغطي موقفها أمام الآخرين

وتعلن لهم أنها لا تراه أبدا وأنها تتمنى أن تراه ٠ انها تخشى أن يلومها المجتمع اذا صرخت بأنها تلتقى بحبيبها فى كل وقت أو حتى فى بعض الأوقات فتكون قد خرجت على تعاليم الدين والمجتمع وما يحويه من أوامر ونواه وضوابط للعلاقات الاجتماعية ٠

وهذه أغنية شعبية أخرى تعبر عن ميول الفتى والفتاة ثم ادراكهم لخطورة الموقف فيتحولون مسرعين الى الاتجاه اللائق :

هلا بالورد ياما هـلا با ، يا ورد الشام يا مسـلى الغلابا
يا بنت الناس الله يرحم جدودك شيبت الناس بحمار خدودك
وأنا العليل وصفوا لى عيونك ، باذن الله طاب الجرح طابـا
هلا بالورد يا أمى هلا با

يا بنت النـاس الله يرحم أباك ، جفاك النـاس من قلة حياك
وأنا العليل وصـفوا لى هواك ، باذن الله طاب الجرح طابـا
هلا بالورد يا أمى هلا با

ان بنات القرية يرددن هذه الأغنية ليعبرن بها عما يختلج فى صدورهن من حب لا يجوز لهن أن يعبرن عنه صراحة ولا يسـمح لهن المجتمع حتى بمجرد ترديد الكلام فى هذه الموضوعات بل سرعان ما يتهمهن بالجرأة وسوء الأدب ٠٠ لذلك فالفتاة تضفى على نفسها صفات تجعلها موضع حب الرجل حتى أن حمار خديها وعيونها تشفى الجراح ولكنها لا تهتم طويلا بتلك الأخيلة والتصورات فهى سرعان ما تفيق من أحلامها لتتذكر أوامر المجتمع ونواهيه فتجد نفسها قد جاوزت الحدود وعليها أن تعبر عن ندمهـا والا نبذهـا المجتمع لجرأتها وعدم تمسكها بالآداب المرعية والفضائل (فقد جفاها الناس لقلة حيائها) ٠

وكثيرا ما تعبر تلك الأغانى عن التودد والتعاطف بل تسيطر فيها نزعة الحنو والعطف من جانب الفتاة على الفتى وهى فى ذلك انما تطالبه لا شعوريا بأن تكون اما له حتى ينال حبها وعطفها وفى ذلك ترديد لموقف أوديب من أمه ـ أحبها وتزوجها ثم غضبت عليه الآلهة فكان عليه أن يكفر عن هذا الخطأ الكبير أى أنه حب محرم قد يميل اليه الطرفان ولكن لا يستطيعان المضى فيه ويكتفيان بتبادل المشاعر النبيلة حتى يرضى المجتمع عن كل منهما ٠

ومن احسن الأغـانى التى تفصح فيها نزعـة التودد عن نفسها الأغنية الشعبية المشهورة :

روق القنـــــــــانى روق	عينى برق الخزامواسقينى يا عينى(١)
قـــلت لهــا يــا ست أورينى	عـــلى شــــعرك وفـــرجينى
قـــالت لى روح يا مســـكين	دا شـعرى سلب جمـــال يا عينى
روق القنـــــــــانى روق	عينى بـرق الخـــزام واسـقينى
قـلت لهـــا يا ستى أورينى	عـــلى قورتـــك وفـــرجينى
قـــالت لى روح يـــا مســـكين	دا قورتى هلال شـــعبان يا عينى

وتستمر الفتاة فى عرض مفاتنها فتقول له روح يا مسكين (دا عيونى عيون غزلان) و (خـدودى ورد البســـتان) و (رقبتى كوز العطشـــان) و (صدرى بلاط حمام) ••••• الخ •

وهذه أغنية أخرى يظهر فيها العطف والحنو كتوكيد لفكرة الأمومة :

فايت على دربنا والتمر فى كمـــه	فـــايت عـــلى دربنـــا
غـــارو عليـــه العـــوازل يبحتـــرو	منـــــه
سايقـــه عليـــك النبى يامـه	تلميـــــــه
دا جـــدع صـــغير و عينى بتخـــتشى	منـــــه

فايت عـــلى دربنـا

٣ ـ القضاء والقدر وما يتبعه من استسلام وصبر وتحمل :

هل الانسان مختار فيما يقوم به من أعمال أم أنه مجبر عليها ، وأن دوره فى الحياة لا يعدو أن يكون تنفيذا لمشيئة عليا وارادة كلية تسيطر على هذا العـالم كله وتوجهه حيث قدرت فى الأزل ، فكان تقديرها سابقا على وجـود الانسان ، ومن هنا كان مجبرا لا مخيرا وما قدر له مفروض عليه ولا مناص من الخضوع له وتحقيقه فهو غير مختار فيه •

ومن هنا اتسم الخلق الشعبى بالرضى والاستسلام والخضوع ما دام الأمر متعلقا بعقيدة الايمان بالقضاء والقدر فيتغنى المغنى بقوله :

الى اتكتب ع الجبين لازم تشوفـه العين
وعدك ومكتوبلك يا قلبى كان مخبى فـين

---

(١) دكتور محمد محمود الصياد ، نفسية الشعب المصرى من أغانيه ، مجلة علم النفس اكتوبر ١٩٤٥ •

ما دام كده قسمتك بختـــك أجيبه منين

سلم أمـــورك يا قلبى وامتثل للـــه

والى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين

ولعل ترويج مثل هذه المبادىء وكثرة ترديدها عن طريق الاغنية الشعبية انما هو دعوة الى الحط من عزيمة الشعب أو الجهاد والاستمساك بحقوقه حتى يسهل على الحكام كبح جماحه وتتيسر لهم عمليات القيادة والمطـــاوعة دون ما قلاقل أو اضطرابات ·

ولعل ظروف المجتمع المصرى منذ فقد استقلاله على يدى الطغاة المحتلين من الهكسوس والفرس واليونان والرومان وغيرهم ، وما تبع ذلك من ذل وشقاء بالنسبة لعامة الشعب ، وما يعانيه أفراده من شظف العيش ، وما يتعرض له من اخطار نتيجة للفقر والجهل والمرض ثم ما يناله من نـــصر فى بعض المواقف ، وخاصـــة اجلاء المعتدين عن أراضيهم بعدما يؤرقهـــم ما يرون من شهامة الشعب واصراره على الحرية والحياة الكريمة مثلما حـــدث فى زمن الهكسوس ، وفى غزو الفرنسيين فى العصر الحـــديث ، من هنا رسخت فى نفس الشعب عقيدة القضاء والقدر والايمان بالجبرية المطلقة للفرار من مشاكل الحياة والكفاح فى ميادينها المختلفة وانبنى على ذلك اتجاهان متكاملان أولهما الدعوة الى الصبر والحث عليه ، لأنه امتثال لمشيئة الله ومن يخرج عليها فهو كافر ·· فلا ينال متاع الدنيا ولا سعادة الآخرة ·

والثانى هو الاستسلام وقبول الحياة بحلوها ومرها ، مما يؤدى الى عدم وجود دافع للتقدم والتفوق وبذلك لا يمكن للمجتمع أن يتطلع الى مثل عليا يسعى الى تحقيقها — فهو يرضى بما هو فيه غير آبه بما يمكن أن يصل اليه — بل أنه لا يفكر فى الوصول الى مستوى أفضل مما هو فيه ومن هنا كانت عمليات التغيير الاجتماعى فى المجتمع المصرى شاقة على القادة والمصلحين بطيئة الأثر ، حتى أننا لنجد بعض عادات أجدادنا الفراعنة ، وما زالت على قيد الحياة بعد أن مضى عليها ما يزيد على آلاف السنين ·

ولنورد امثلة لما ذكرنا(١) :

الصبر طيب ولو كان مر نصبر لـــــــه

والى أكـــل حلو أو كل مر يصبر لـــــه

واجب علينا لحـــكمة الله نصبر لـــــه

الصبر عقبه فرج أحـــــلى من المتعــــاد

---

(١) نفس المرجع ·

والرزق ما هوش بكتر الجــرى دا اوعاد
كله بترتيب من مـدة ثمـود أو عـاد
واللى انكتب ع الجبين لا بد نصبر لـــه

ثم تعبر نفسية الجماعة عن رحمة الله وعدله فتجعل الصبر يحقق لصاحبه الأمل ـ فينال ما يتمناه وتهنأ له الحياة ٠

هليت يا قلبى على طول الزمن ترتـــاح
وتنول وصالك اللى تهوى وفيه ترتـــاح
مصير جروحك على طـول الزمن تـبرى
ويجيلك الطب لا تعـلم ولا تـــدرى
مثل سمعناه منقول عن ذوى الخـــبرة
الصبر يا مبتلى جعلوه للفـرج مفتـــاح

وهذا مثل يوضح الاستسلام الناجم عن الايمان بالقضاء والقـــدر ، وما يترتب عليه من قبول الآلام والمتاعب فى ذلة وخضوع ، ودون أدنى محاولـة للتغلب عليها :

اضحك من الفم وابكى من صميم قـــلبى
وانوح من الروح وأكتـم على اللى فى قلبى
وفضلت أكتم أسايا لما الزمن مال بـــى
واخاف من الخصم لو اسكت عليه يـوم
صابر عليك يا زمن دا احتكـــام ربى

٤ ـ الشعور بالنقص :

ان الظروف الاجتماعية والسياسية التى مر بها المجتمع المصرى ، وتوالى عهود الظلم والاستعباد ، وتتابع الدويلات الحاكمة ، وما تبع ذلك من ارتفاع وانخفاض لبعض الأفراد ٠٠ فنتيجة لانعدام التوافق الاجتمـــاعى بين أفراد الشعب مع الاحساس بالظلم ، والضعة بالنسبة لطغيان الحكام وما أصابـه أعوانهم من جاه وسلطان وقدرة على السيطرة والنفوذ ٠ فان ذلك أدى الى ظهور كثير من الآلام النفسية التى عبر عنها الأدب الشعبى بالجراح واتخذ له وسطاء ، يشكو اليهم أو يأخذ برأيهم ، ويستشيرهم ، وظهر فى الموال طبيب الجراح ،

وقاضى الغرام ، والشيخ العالم ، وغير ذلك مما يجعل الشـــاكى يجرد من خياله شخصية وهمية يبثها آلامه وشكواه ، ويرضى بما تقضى به من أحكام ، كذلك كثرت الامثال التى تعبر عن مثل هذه المشاعر ، والتى تجعل من الحظ أو البخت أساسا للتقدم والنجاح كقولهم « قيراط بخت ولا فدان شطارة » •

ويعبر الأدب الشعبى عن أحاسيس الظلم ، والألم بما يعانيه الانسان اذا كان قد اعتاد حياة الجاه والترف ـ ثم دارت عليه الدوائر فتبـــدل الحال ، وأصبح يأسف على ما أصابه من تقهقر وما حصل عليه غيره من تقدم وارتقاء ، ويصور قسوة المجتمع حينما يتوارى فيه أبناء الأسر العريقة ليحل محلهم من كانوا أقل منهم منزلة ومقاما • ومن الأمثلة التى يمكن أن نوردها للتعبير عن ذلك ما يلى :

حكمت على السبع ، راح للكلب عند الكـــــوم
لما صحى الكلب ، قال له السبع : صح النـــوم
أنا أسألك يــــارب ، يا مجرى بحور العـــوم
ترجـــع السبع يخطـــر ، زى عاداتـــــــه
وترجع الــكلب ينبش ، فى تراب الكـــــــوم

وكذلك :

ســـبع الفلا دخل الغاب وحمـــل الهـــم
والفار بنى له جنينـــة وردها ينشـــم
والغم عملـــوه بيـــاده والبيــــاده عـــم
يالله العنك يا زمــــان ، أصبحت بالهم
تأخر ولاد السباع وتقدم ولاد الكلاب تحكم
شوف الكلب لما حكم قال له الاسد يا عم

وكذلك :

أقـــوم من النـــوم أقـــول يارب عدلهـــا
بلد حبيبى قصـــاد عينى ومش قادر أعدى لهـا
سألت شيخ عالـــم بيفهـــم فى معادلهـــا
رمى الكتـــاب من يمينـــه والتفت قـــال لـــى
بين الصبـــاح والمســـا ربك يعدلهـــــا

آكم يا طبيب الجراح من السقم كفانى
افتح سـلاحك وخد م الجرح كفانى
البين ضربنى عـلى الخـدين وكفانى
خـلانى بعد الغندرة والعز انـذل

وبذلك عبرت الأغنية الشعبية عن انفعالات أليمة وشكوى وأنين تردد غدر الزمان وظلم الناس ، وتستنجد بقاضى الغرام وطبيب القلب وتطلب المعرفة وكشف أستار الغيب عن طريق البخت والتنجيم وكلها عادات شعبية متأصلة فى الشعب المصرى تكون جزءا هاما من الفلكلور الشعبى فى مصر .

يا بتاعة البخت شوفى لى بختى
ما عدش بيجى جرى أيه يا بختى
يا وعـدى عليـك يا صـعيدى

انها تعبير عن انفعالات صادقة فى سذاجة كما أنها تمتاز بالقوة والاستمرار مبعثها أحاسيس لا زيف فيها ولا صناعة ، ولكنها تعبر عن آلام قد تتحول الى سخط وتبرم ينتهيان بالخضوع والاستسلام وعلى هذا النحو يختفى الجانب السار من الحياة والمجتمع بمباهجها فتتحول الحياة الى مسرحية مأساوية كل ما فيها يعبر عن الآلام والتعاسة والعذاب ، وتتفاعل تلك العوامل فيما بينها فيتضاعف أثرها على النفس الانسانية ، وتمدها بمزيد من الانفعالات ، وبالتالى يتضاعف التوتر ويتحول الى صراع يظهر أثره فى سلوك الفرد واستجاباته وفى تأثره بها ، فعجز الفرد عن تحقيق أمنياته يعمل على زيادة توتره كنتيجة للاحباط ، وظهور الميول العدوانية يؤدى الى تفكك السلوك الاجتماعى ، وعجز الفرد ، وبالتالى الجماعة عن تحقيق التوافق الاجتماعى فتبدو ملامح الافتقار الى التكيف الاجتماعى بما يظهر فى الأغنية الشعبية والموال من توتر فى العـلاقات الاجتمـاعية بين الشخص ومن يعاشره أو يتعامل معه ، فيظهر الاعتكاف والتشكك والشعور بالاضطهاد . كذلك يتضح الافتقار الى التكيف الاجتماعى من شعور الفرد بحاجة ملحة الى السيطرة واعادة الأوضاع السابقة أو العدوان والتشفى ، وكذلك فى استدرار العطف وطلب العون مما يذخر به الموال والأغنية الشعبية وحتى فى القصص الشعبى أيضا كما سنرى بعد قليل .

ولا يقف الأمر عند فقدان القدرة على التكيف الاجتماعى ، بل ان الفرد اذا لم يكن قادرا على التكيف الاجتماعى فهو لابد أن يكون قد فشل فى عملية التكيف الشخصى فيكون غير راض عن نفسه كارها لها ، نافرا منها ساخطا عليها

غير واثق بها تتسم حياته بالتوتر والصراعات النفسية التى تقترن بمشاعر الذنب والقلق والضيق والنقص والرثاء للذات ، بينما تعتمد عملية التكيف الصحيح على أشباع الفرد لدوافعه المختلفة بصورة ترضى الفرد والمجتمع فى آن واحد أو على الأقل لا تضر بالغير ، ولا تتنافر مع معايير المجتمع ٠

وأهم الدوافع سلطة الذات العليا وما تفرضه على الانسـان من أحكام قاسية فهى ترقب وتوجه وتنفذ وتفرض العقاب ٠

ومن هنا تظهر الأنات فى الافلات من أحكام الأنا العليا وافساح طريق ضيق تنفذ منه الهى لتعبر عن ذاتها فى الأغانى والمواويل أو فى النكتة والفكاهة وغيرها من ضروب الترفيه فى الأدب الشعبى ، وما قدمناه من موال وأغنية شعبية هو تعبير عن حياة قاسية كادحة تعود السواد الأعظم من الشعب أن يجرع همومها ومآسيها متذرعا بالصبر والاستسلام للقضاء والقدر مؤمنا بعدالة السماء راجيا الرحمة حتى يتحقق له الأمل ٠

الا أن الطبقية فى المجتمع قد عبرت عن نفسها فى أغان مرحة لا يشوبها أحزان ولا آلام ، ولكنها تنطق بالسعادة والحب والهناء ، وذلك يتضح من مجموعة الأغانى الشعبية التى صنفتها وطبعتها السيدة/ بهيجة هانم رشيد ، فهى تعبر عن هذا الجانب البراق الباسم من حياة الشعب ٠ ونوردها فى ملحق خاص ٠

● الفصل الثالث

الفكاهة

متى نضحك ؟

هل نضحك من كل أمر مثير للضحك بغض النظر عن مصدره وملابساته ، أن ما يضحكنا لابد أن يكون انسانيا ، أى صادرا عن انسان أو متعلق بانسان ، لذلك عرف الفلاسفة الانسان بأنه حيوان ناطق الا أن الانسان حيوان ضاحك ، وحيوان مضحك أيضا ٠

وكثيرا ما تبدو الفكاهة فى صورة حديث عن غائب ، ومن هنا نشأت فكرة القصص المسرحى الفكاهى أو الهزلى ، وقد عرف المصريون المسرح الهزلى فى صورة الأراجوز وخيال الظل ٠

كذلك الضحك لا يتوقف على اثارة الانفعالات ، والعواطف شأنه فى ذلك شأن التراجيديا ، وانما يعتمد على العقل الذى يظهر فى سرعة البداهة أو قوة الحدس ، ولابد للضحك أن يتجرد من اثارة الانفعالات والعواطف كالرحمة ، والشفقة ، والخوف ، والدهشة ، والاعجاب ـ لأن الكلمة المضحكة أو المنظر المضحك لا يضحكنا الا اذا كانت نفوسنا خالية هادئة غير مبالية والا اذا نظرنا اليه بعين العقل لا بعين العاطفة ٠

واذا كنا قد نضحك مما يبعث فينا عاطفة أو انفعالا فاننا فى هذه الحالة يغلب الضحك علينا فيتجه مثير الضحك الى عقولنا أكثر من اتجاهه الى عواطفنا ، وان مجتمعا مؤلفا من عقول محضـــة ربما لا يبكى أبدا ، ولكنه يظل يضحك ٠

أما النفوس المتأثرة دائما المتصلة باوتار الحياة فانها تهتز للحوادث هزات عاطفية ، ولذلك لن تعرف الضحك ، ولن تسعى لتفهمه (برجسون) (١) ٠

وقديما تنبه أرسطو الى هذه الحقيقة اذ قرر أن المقصود بالهزل أو المزاح تمثيل الصغار من غير غضب يقترن بهذا التمثيل ومن غير ايلام للحاكى ٠

---

(١) زكريا ابراهيم ، سيكلوجية الفكاهة والضحك ، مكتبة مصر ٠

واذا كان الغرض من الفكاهة ليس هو الاضحاك فحسب وانما ـ وفى كثير من المجالات ـ التقويم والتهذيب والاصلاح بنقد أنواع من النقص أو الخروج على المألوف ـ فانه يشترط فى هذا النقد الابتعاد عن مواطن الاخراج أو الايلام كما هو الحال فى الهجاء .

كذلك العيوب او الصفات المثيرة للضحك ليست كلها على درجة واحدة لأن بعضها جسيم الضرر بصاحبه ، وبعضها ذو خطورة على المجتمع وهذه وتلك لاتبعث على الفكاهة وانما تثير السخط والقلق أو غيرها من العواطف المنافية للمسرة والضحك ولهذا ذهب أفلاطون الى ان الجاهل ـ لكى يضحك يجب ألا يكون مؤذيا للآخرين (١) .

كذلك يرى الجاحظ ، وأيضا برجسون أن الضاحك لابد له ممن يشاركه ويجاوبه حتى يتأثر بالأمر المضحك . لأننا لا نتذوق الضحك فى حالة شعورنا بالعزلة فالضحك فى حاجة الى صدى (٢) .

كذلك لا يثير الضحك الا الشخص الذى يتسم بالفكاهة ، ذو الموهبة ، بارع التصوير والتعبير والتمثيل ، كما أن الفكاهة تحتاج الى البديهة المسعفة ، والجمل القصار ، واللفظ الخفيف ، وكثيرا ماتعتمد على خيال يربط بين نقيضين أو يجسم المعنى ويضخمه .

والحاجة الى الفكاهة والضحك مصدرها امتلاء الحياة بالمشاق والآلام ، لذلك كان الضحك هو المتنفس الذى يخفف ضغطها ، وينسى همومها ، ويلقى عن الكاهل بعض أثقالها ، ويحرر من قيودها ولو للحظة قصيرة يسترد فيها الانسان أنفاسه فيحتمل من جديد متاعب الحياة .

ومن هنا كان الضحك ضرورة حيوية ذات قيمة كبرى فى حفظ حياة الفرد وحياة الجماعة ، وقد تطورت هذه النزعة من ضحك تثيره أمور عارضة الى ضحك تثيره أمور مقصودة معدة اعدادا خاصا ، كما نرى فى التمثيل الهزلى ، والملاهى المكتوبة . والتنكيت الذى يعد اعدادا ، كما أنها تجاوزت الفرد الى الجماعة ، بل الى الدولة ذاتها ، كما ظهر فى الأزمات والمواقف السياسية الخطيرة التى أصابت الكثير بمواقف الحيرة والألم ، وبعثت فى الآخرين قدرة على اطلاق النكات الحادة اللاذعة .

أما أثره فى الانسان فهو يتناول بالتغيير النفس والجسد معا ؛ اذ أنه مصدر من مصادر الترويح عن النفس من متاعب الحياة ، وما تستلزمه للعقل من اجهاد ، كذلك هو تنفيس عن الطاقة الحيوية الزائدة على حاجة الانسان ، وما

(١) فن الشعر لأسطو . ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ .
(٢) برجسون ، مرجع سابق .

يصحبه من صوت وحركة وانفعال كلهـا ذات أثر ، وذات فائدة جمة بالنسبة لطاقة الجسم الزائدة بالاضافة الى الحركة واللعب ٠

ويرى « هوبز » أن الشيء الذى يثير الضـحك لابـد أن يـكون ناقص التركيب ، أو مشوه التكوين ، لذلك فهو يثير فينا شعورا بالكمال يعارض ما بالشيء المضحك من نقص ، ويكون هنا بمثابة اتفـاق جماعى على الكمال ضد النقص ٠

أما « ماكدوجل » صاحب نظرية الغرائز ٠٠ فقد أثبت أن الضحك غريزة هامة تتعاون مع أجزاء كثيرة من الجسم على تنفيذه ، منها الأعصاب ، والعضلات فلابد أن تكون له فائدة حيوية هامة . منهـا أحداث تفاعلات بدنية تنفيسية ودموية وافرازية تساعد على تجديد النشاط الحيوى ، وتولد الشعور بالصحة وتزيل الانقباض النفسى ، وفوق كل ذلك أن الضحك يغير مجرى التفكير ، ويجدده بطريقة تمنع الملل والكآبة ، وتحدث الراحة العقلية ، فيكون للضحك فوائد فسيولوجية ، وأخرى نفسية ، وبذلك ، يتحقق الغرض من عملية الضحك كغريزة ٠

ولكن ٠٠ ما هى الأشياء المثيرة للضحك ؟ ، انها الأشياء التى تظهر بمظهر ينحرف قليلا عن جادة الصواب ، بحيث أنها لو ظهرت فى وضعها العادى المألوف لما أثارت الضحك ، ولو انحرفت كثيرا عن هذا الوضع المألوف لأثارت الألم ٠ ولكنها بانحرافها القليل تثير الضحك ، وتبعث على السخرية ، وتكون وظيفة الضحك اذ ذاك هى التخفيف من وطأة المصائب البسيطة حتى لا يرزح الانسان تحت عبء المصائب الكبيرة ٠

وأما اثارة الحيوية فى المجتمع فهى تعتمد أساسا على ما بين الناس من ترابط اجتماعى عن طريق النزعات العامة ، وأهمها المشاركة الوجدانية وهى من أهم وسائل تكوين المجتمع الانسانى ، الا أن الانسان بما تحويه حياته الخاصة من متاعب ومشكلات ينوء بها ، ثم هو باعتباره حيوانا اجتماعيا يشاطر الآخرين متاعبهم ومشكلاتهم عن طريق المشاركة الوجدانية وكأنها تصبح عند ذاك آداة للهدم والأذى ، واضعاف القوة والحيوية بعد أن كانت وسـيلة للاجتماع والبناء فكان من الضرورى للطبيعة أن تجد حلا لهذا الازدواج ، وذلك عن طريق الضحك كما يقول « ماكدوجل » ، وقد ذكر « ماكدوجل » أمثلة لذلك منها ــ اننا نضحك اذا سقط الطعام من فم الآكل فذلك دليل على عدم انتباهه ، أو تسرعه أو نحو ذلك ، ولكننا نتألم اذا سقط طفل من فوق الشـجرة فانكسر سـاقه أو أصيب باضرار ، وكذلك نضحك اذا أصاب النجار أصبعه اصـابة خفيفة ، لكننا نتألم اذا قطع المنشار يده ٠

لذلك كانت للضحك وظيفة جوهرية فى الحياة الاجتماعية ، وهى المعاونة على استرداد طاقة الجسم ونشاطه ، بعد التنفيس عنه ، والتخفيف من متاعبه ٠ ويرى « برجسون » أن للضحك وظيفة اجتماعية تختلف عما ذكره « ماكدوجل » ذلك أن الانحياز القليل عن جادة الصواب ، كما قدمنا حين يعرض صاحبه للخطأ فيثير ضحك الآخرين انما يكون ذلك الضحك بمثابة عقاب اجتماعى. الغرض منه هو القصاص والتقويم ٠ فنحن حين نضحك من شاذ المظهر ، أو البخيل ، أو المغرور ، أو الأبله ، أو المعقد ، أو ضيق الأفق فى التفكير ، انما نؤذيهم بطريق غير مباشر أى أن الضحك أدى خدمة اجتماعية هامة ربما تدفع المخطىء الى الاقلاع عن خطئه حتى لا يكون موضعا لسخرية بعد ذلك ٠ « نحن نضحك من هؤلاء جميعا وأمثالهم لأنهم مصابون بالآلية والتصلب ، والمجتمع السليم ، يتطلب الانتباه ، واليقظة والمرونة فى الجسم ، والفكر ، والطبع ، ليكون كل عضو فيه قديرا (١) ، على أن يلائم بين حاله ، والموقف الذى هو فيه ، فالقوة والمرونة هما الآداتان المتكاملتان اللتان تستخدمهما الحياة ، فاذا اعوزا الجسد كانت الأمراض والعاهات ، واذا اعوزا الفكر كانت آفات النفس ، واذا فقدهم الطبع كان التخلف عن الفضائل الاجتماعية ، والشذوذ عن الناس ، ولا شك أن المجتمع ينفر من التصلب بأنواعه حتى ولو نجم عنه أقل الأضرار ٠ ولكن لا يستطيع أن يقاومه بالقوة لذلك فهو يوجه لصاحبه انذارا على نحو ما ، والضحك أحد أساليب الانذار فالضحك اذن قصاص وتقويم ، واعداد لمجتمع صحيح سليم (٢) ٠

التهكم الاجتماعى :

أن العيوب الاجتماعية نوع من التصلب والجمود والتخلف عن مجاراة المجتمع ، ومسايرة المثل الأعلى ، ولا سبيل أجدى من الفكاهة ، والتهكم فى تقويم الاعوجاج وعلاج أمراضه ، والعمل على المرونة فى النفس والطبع والأخلاق والأعمال ٠

ان التهكم لون من السخرية المتفلسفة ٠ أو الفلسفة الساخرة ، ومن هنا كان التهكم الاجتماعى صورة من نظرة صاحبه الى الحياة ، والى الاحياء من مزاجه وتفكيره ، وهو فى الوقت نفسه صورة للمجتمع الذى يتهكم به الساخر ٠

للفكاهة فى مصر دلالات مختلفة ، منها الدلالة السياسية ، والاجتماعية ، فليست الفكاهة صادرة من المتفكهين للضحك والاضحاك فحسب ، وليست أمام الباحثين طرائف للهو وجلب السرور فحسب ، وانما هى فى كثير من حالاتها

(١) احمد محمد الحوفى ، الفكاهة فى الأدب ، نهضة مصر ١٩٥٨ ٠

(٢) أحمد محمد الحوفى ، الفكاهة فى الأدب ، نهضة مصر ١٩٥٨ ٠

تصوير للحالة السياسية بألوان فيها تهكم أو سخرية أو نقد أو دعابة ، أو غيرها من صنوف الفكاهة ، وذلك بأن الناس لا يستطيعون أحيانا أن ينالوا من حكامهم بالأسلوب الجدى مخافة البطش أو التنكيل أو العقاب — فيلجأون الى الأسلوب الفكاهى لأنه مضمون العاقبة .

وهم فى كثير من الأحيان يشعرون بالضغط الواقع عليهم ، فيتخففون منه ، ويخففون عن أنفسهم بألوان من الفكاهة ، ويحاولون تقويم الحكام وهدايتهم سواء السبيل ، أو تقويم المجتمع وعلاج أمراضه ، أو الثأر من الأقوياء الجبارين ، وهذه وتلك صدى للحياة السياسية ، وصورة لشعور المحكومين ونظرتهم الى حكامهم .

وهناك عوامل عدة صبغت طباع المصريين بالمرح والفكاهة :

١ — البيئة الطبيعية التى تضم المصريين بما لها من مزايا كثيرا تبعث فى نفوسهم الطمأنينة والتفاؤل والمرح .

فنهر النيل بمائه العذب ، وطميه الخصيب بما يفيضه على الوادى من خير كثير جعل أهلها منذ أقدم العصور هم أيضا أقدم الزراع فى العالم يهبهم النيل ماءه فتهب الأرض ثمارها ، يجنونها فرحين مبتهجين يرددون الأغانى فى الحقول ، ويبتهجون بمواسم الحصاد فى كل عام .

كذلك سماء مصر الصافية ، قليلة الغيوم ، مشرقة دائما بالنور والأمل ، صريحة واضحة ، طبعت الناس بصفاء النفس وانفراج الأسارير ، وصراحة القول .

كذلك لم يعرف المصريون قسوة الحرمان لأنهم بمنجاة من المجاعات والتخريب والدمار لعدم وجود الزلازل والبراكين ، كذلك كان لجوها اللطيف المعتدل أثره الواضح فى خلق ومزاج أصحابها ، على عكس من كانت بلادهم مهددة بالعواصف العاتية ، والبرد القارس ؛ والجليد ؛ ولم يعرف المصريون الأن عداء الطبيعة لهم وقسوتها عليهم فأحبوها وأحبوا الحياة فدفعهم ذلك الى الرضى والتفاؤل وانبسطت وجوههم بالابتسام ، والضحك ؛ واللحن ، والغناء فجاء أدبهم بسيطا كبساطة الحياة هادئا هدوء الطبيعة عذبا عذوبة النيل صادقا معبرا عن نفسية بلد وادع أمين لم يعرف الا الحب والخير .

ومن أجل ذلك لا نجد فى أناشيد المصريين منذ القدم ما هو معروف عند غيرهم من الشعوب من دعوات الى الاله ان يمنحهم الخصب — أو أن يرفع نقمته وغضبه عنهم أو أن يصرف عنهم الريح الصرصر العاتية أو أن

يمطرهم الماء ليحيى الأرض بعد موتها أو أن يقيهم شر الخراب والدمار ـ لقد حلت أغانى المصريين من مثل هذه العبارات أو ما يشير اليها .

ان الوديان الفسيحة المنبسطة حمت المصريين من الأوهام والمخاوف والتعقيدات النفسية يقول « جوستاف لوبون » اذا كان المصرى قد شعر بالسآمة من سهولة الوضاءة المحرقة فانه قد جهل الآلام المفزعة والتى تنشأ على شواطىء البحار الموحشة ، وفى خلال الشفق الأحمر تحت السماء المتقلبة الغادرة (١) .

فلا شك أن لطف المناخ ، واعتدال الصحة ، والمزاج ، وتشابه الجو خلال فصول السنة فلا فارق حرارى كبير بين أعلاها وأدناها مما ييسر حياة الفلاح والعامل ووفر عليه تكاليف التدفئة أو التبريد فاكتفى بأبسط الملابس وأمكن له أن يقيم فى الحقل صيفا وشتاء فألف الحرية والسماحة فى ملبسه ومسكنه على عكس الحال بالنسبة لسكان البلاد الباردة فهم يضطرون تحت وطأة الصقيع وقارص البرد ، أن يرتدوا الملابس الضيقة التى تدثرهم وتشد على أجسامهم بقوة فتضغط عليها فتزهق أنفاسهم وتعوق حركتهم . لذلك اتسم المصريون بانشراح الصدر وسماحة النفس .

٢ ـ التدين ـ لقد كان المصريون منذ عصـور موغلة فى القدم يعتبرون شعبا عريق التدين عميق العقيدة ، بايمانه بالخلود وبالحياة الآخرة وبالحساب والجنة ، التى تعوض الفقير والمظلوم ، لذلك لم يعرف عن المصرى حيرة أو تشكك فى مصيره ، ولم تذهب نفسه شعاعا من موت أحبائه . لأنه كان يدرك أن الموت انتقال الى حياة ثانية تحقق لصاحبها السعادة والخلود . مما جعل المصريين يتسمون بالسماحة والرضا ، ومما جلب الى نفوسهم المسرة والمرح .

٣ ـ صلة المصرى بالحكومة ، فقد كانت تعتمد أساسا على تقديس فرعون ، فكانوا يحبونه ، ويحترمونه على أنه الههم ـ أو شقيق آلهتهم ، ويقول « تيودور الصقلى » : كان الشعب يحزن عليه عند موته بالحداد ، وتمزيق الثياب ؛ واغلاق المعابد ، والكف عن تقـديم القرابين ؛ والامتنـاع عن القيام بأية احتفالات ، مدة اثنين وسبعين يوما (١) ، ومع ذلك فقد كان المصرى منصرفا عن الحكومة فى شغله الشاغل فى الحقل وفى المعبد . وفى شتى ضروب الحياة دون أن يكون شديد الارتباط والقرب من حكومة بلده ، أو ناقما عليها متربصا بها بل كان طائعا لأوامرها منصرفا الى حياته العملية والأسرية والدينية فى وداعة وسماحة ، متفانيا فى حب

---

(١) جوستاف لوبون : الحضارة المصرية القديمة ص ٧٥ ، مترجم (الحلبى ١٩٤٨)
(٢) الحضارة المصرية القديمة ، جوستاف لوبون ص ٦٤ ـ مرجع سابق .

تلك الحياة وتقديس فرعون والآلهة ، ولا عجب بعد ذلك أن يقرر جوستاف لوبون بأن الظرف والمرح والتلطف كانت من أبرز خصـــال المصريين القدماء (١) ، وهكذا اشتهر المصريون بالنكتة والمرح قديما وحديثـا حتى أنه ليقال ان الرومان حرموا عليهم المحاماة فى محاكم الاسكندرية لأنهم كانوا لا ينسون المزاح والدعابة أثناء المرافعة أمام القضاء الرومانى ٠٠ مما يغض من هيبته ٠

شخصية المصرى قادته الى النكتة :

لقد أفاد المصرى القديم من حضارته العريقة ، وتاريخه الطويل الحافل بالمفاخر ، ومواقف النصر ، ثم توالت عليه العصور والحكام ، كانت بلده دائما مطمعا للشرق والغرب لموقعها وخيراتها ، الا أنه احتفظ بشخصيته واحتفظ بخلقه وكرامته ، ولم تغيره العوادى ، ولم تحط من قدره ، فظل مصريا صحيحا لا يذوب فى الغزاة أو يتزلف اليهم فيقلدهم ويغير من عاداته وآدابه ، وانما على العكس يصطبغ الغزاة بصبغته ، ويحاكونه فى تقاليده ، وعاداته ، ومن هنا ظل المصرى متمسكا بخلقه ومقوماته وشخصيته ، ولعلنا نستطيع أن نرد ذلك الى العامل الدينى الذى سبق لنا أن أشرنا اليه وهو تقديس المصرى لحاكمه فرعون تقديسا يجعله ينصرف عن كل معارضة له أو مقاومة لحكمه وسياسته حتى تعود عامة الشعب البعد عن السياسة والانصراف الى العمل فى الحقل ، والتجارة ، والمعبد ، تاركا أعباء الدولة ، وشئون السياسة ، والحرب ، لطبقة خاصة هى النبلاء وأمراء الأقاليم ــ الا أنها لم تكن حكرا على طبقة معينة ، بل كان يمكن لمن يتقدم ويسمو بالعلم أن يصل الى السياسة والحكم ، اذ أنها كانت طبقات مفتوحة تسمح بالدخول والخروج ، لذلك لم يكن هناك حقد أو كراهية بين عامة الشعب وطبقة الحكام ، ولم يكن الشعب فى وضع من المهانة والازدراء كما كانت شعوب دول أخرى ذات حضارات قديمة أيضا ، كما كان الحال فى الهند ، والصين ، بل كان المصرى يستطيع أن يرتفع بنفسه عن طريق العلم ــ وكان مزدهرا متقدما وجدت له المدارس والجامعات ــ ويصل الى أعلى المناصب والدرجات ، ومن هنا جـاءت سماحة المصرى ورضاه وانبسـاطه ، وابتهاجه بالحياة ٠

أضف الى ذلك أن شعبا عريقـا ذا حضـارة ضارية فى القدم وذا علم ، وثقافة ، وخبرات ، وتجارب رواده من الحكماء وأشهرهم أمحوتب لم يكن غريبا عليه أن يضع لنفسه قيما ومعايير خلقية واجتماعية وسياسية واقتصادية يتسم بها ويسير عليها فتكون نبراسه الهادى وميثاقه وقانونه العام ، وبناء على ذلك كان اصطناعه للنكتة تعبيرا عن فهمه الدقيق الواضح العميق لما يجب أن يكون

---

(١) (الحضارة المصرية القديمة ص ٧٥) مرجع سابق ٠

عليه قول أو فعل أو عمل أيا كان ــ فاذا جاء مخالفا أو معارضا لما يجب أن يكون ، تظهر النكتة أو السخرية والفكاهة . اذن فهى رد فعل لفرط ذكائه ، ووضوح فكره ، وعلمه ، وثقافته ، وهى نتيجة طبيعية لانبساط حياته ، وبعدها عن الأغوار والتعقيدات ، ويسرها وسـهولتها ، ورخاؤها ؛ مما أمد أهلها بطابع الهدوء والسماحة والانبساط ــ كما قدمنا سابقا .

وكان من آثار ذلك كله أن أغرم المصريون القدماء باللهو والمسرات فأحبوا الاجتماعات ، والمآدب ، والحفـلات السارة والرقص والموسيقى ، والمحادثة ، والألعاب ، وطالما دعا أدباؤهم وحكماؤهم الى الطلاقة فى الحياة والى الأخذ بأسباب البهجة . أينما كانت ، وحيث وجدت ، ولم ينسوا أن يحضوا على الابتهاج واقتباس السرور حتى وهم فى زيارة المقابر ، وبين الموتى (١) .

ومن أغانى المصريين القدماء فى ولائمهم التى كانوا يقيمونها فى المقابر :

« متع نفسك مادمت حيا ، وضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، ودلك يدك بالروائح الذكية المقدسة ، وأكثر من المسرات ، ولا تدع الأحزان تصل الى قلبك ، كن مرحا حتى تنسى أن القوم سيحتفلون يوما بموتك » (٢) .

وفى أغنية أخرى :

لم يعد الينا من الدار الآخرة أحد ليحدثنا عما فيها ،
لم يعد أحد لينبئنا ، الى أن يحين يومنا الموعـود ،
اذن فاطرب وامـزح واعمـل ما تحب مادمت حيـا ،
لا تكـدر قلبـك الى أن يجيىء يوم البكاء عليـك ،
اطرب فى يومـك ، ولا تحمـل همـا ،
انظـر . ليس أحـد يأخـذ أموالـه معـه ،
انظـر . ليس أحـد يعـود بعـد أن يمضى .

ولا شك أن هذا الأدب بمـا يحوى من معان تعبر عن الميل الى المرح والاستمتاع بالحياة هو صورة صادقة لحياة المصرى الفكه المرح الذكى ، الذى لا يستطيع الا أن يكون مبتهجا سعيدا بحياته دقيق الملاحظة ناقدا وساخرا متهكما وقد وجدت فى متاحف أوربا فى انجلترا ، وايطاليا وغيرها ــ أوراق من البردى مليئة بالصور الهزيلة التى تعبر عن تلك الروح .

مضت العصور طوالا متعاقبـة على شـعب مصر وهو هو لا يتغير ، ولا يتزعزع ، الأرض هى الأرض منبسطة فسيحة خضراء ، والسماء هى السماء

(١) الفكاهة فى الأدب ص ٢ ، د. أحمد محمد الحوفى ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦
(٢) مصر القديمة ص ٤٢٥ ، سليم حسن ، مكتبة النهضة ١٩٣٨ ــ ١٩٤٠ .

زرقاء صافية مشمسة ، والنيل هو النيل يروى السهول والوديان ، ويأتى بالخصب والخير ، كل عام وشعب مصر آمن هادىء فكه مؤمن بدينه وربه تعاقبت عليه القرون والأجيال ، واختلفت ظروفه السياسية والاجتماعية بين ضعف وقوة ، وهـزيمة ، ونصر وخضـوع ، وسيطرة ، الا أنه ظـل محتفظا بمرحه وفكاعته ــ حتى أنه فى عهد الرومان حرم على المحامين المصريين أن يدافعوا عن موكليهم أمام القضاء الرومانى بمحاكم الاسكندرية لما اشتهروا به من التهكم والسخرية بالحكم الرومانى ، والقضاء الرومانى ، ثم دخلت مصر فى الاسلام ، وتعاقبت عليها الحكومات والدول والحكام ، بين اصلاح وافساد ، وعدل وظلم ، واغتصاب وانتهاز للفرص ، ومشاحنات ومؤامرات على الحكم ، وقتل وسلب ، وغير ذلك مما حفلت به عصـور الأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين حتى قبل الثورة عندما ذهبت جهود الناس هباء لما دب بينهم من خلاف وفرقة نتيجة لوجود الأحزاب والاضـطرابات السـياسية ، والتدخل الامبريالى ، والنفوذ الأجنبى ، وسيطرة الطغاة من الحكام والاقطاعيين ، وأصحاب النفوذ من الرأسماليين ، كل ذلك أدى الى أن تذهب نفوس الكثرة شعاعا من حيث التدخل فى السياسة ومحاولة الاصلاح أو الاشتراك فى توجيه دفة الأمور ، وظلت صلة المصرى بحكوماته هى نفس الصلة القديمة التى لا تسمى ودا ولا عداء بل مجرد ترك الأمور لأصحابها ، لعلهم يستطيعون تدبيرها بمزيد من النجاح والتوفيق ، وكان المصرى وما زال يعتمد على عمق ايمانه ، وعريق تدينه ، فى المسيحية والاسلام ، كما كان فى مصر الفرعونية من قديم الزمان ، فكان يعبر عن دقة الملاحظة لما يجرى حوله ، وعن تقديره لأخطاء غيره ، وعن شغفه بالكمال بالقول الساخر أو النكتة اللاذعة ، أو الضحكة العالية أو التنهيدة الصادقة أو الابتسامة ذات المعنى العميق .

لقد تهكم الشعب وتندر ببطش الحكام ، وجهلهم ، والاستئثار بخيرات الوطن لهم ولأتباعهم من مصريين وأجانب ، وكانت تلك التهكمات والسخريات سرا وهمسا ، ولكنها كانت تسرى بين الناس مسرى النسيم بين الأنفاس فتجعلهم عامة يضحكون حتى فى أشد أوقات المحن وأعصب الظروف ، فتحقق بينهم جميعا وحدة وتماسكا هما دعامة الحياة الاجتماعية فى كل بلد ذى حضارة عريقة مثل مصر ، ويكون ذلك هو دور العقل الجمعى الذى لولا ايماننا بوجوده لما أمكن لنا أن نتصور انتقال الحضارة من جيل الى جيل ، وذكر ابن خلدون فى مقدمته أن أهل مصر يميلون الى الفرح والمرح ، والخفة ، والغفلة عن العواقب ، ولا شك أن هذا القول له مدلوله فيما انطبع عليه عامة الشعب من ميل صادق الى المرح والبهجة والانصراف عن المشكلات الكبرى ، ما أمكن ، حتى أنهم نظرا لعدم تدخلهم الجاد فى السياسة أمكن لكثير من الشخصيات الأجنبية ــ أن تستولى على الحكم فى بلادهم وتقيم لها ملكا ودولة حاكمة ، الا أنهم فى ذلك منصرفون

بفعل ايمانهم بالقضاء والقدر ، ويقول القرآن الكريم « وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » مما أكسبهم الرضى والسعادة والهدوء والراحة النفسية ، والصبر والقناعة •

ولا عجب بعد كل ذلك أن يقابل المصرى كل ما مر بحياته خلال الأجيال والعصور ، من تناقضات وأخطاء وتعسف من الحكم الغاشم ، بسلاح يناسب خلقه ، ولا يعرضه لكثير من الأذى ، ألا وهو السخرية اللاذعة ، والنكتة البارعة أو الفكاهة المعبرة ، ثم هو بعد ذلك انسان يسرى عن نفسه بالغناء ، وان حمل معانى البؤس والفاقة ، والرقص ، حتى ولو كان جنائزيا ، وبالاستمتاع بجلسات السمر التى يصغى فيها الى ربابة الشاعر ، والأدب الشعبى الذى انطلقت منه الحكم والأمثال •

العوامل اللاشعورية للنكتة والاعجاب الفنى أو الجمالى :

لعلنا غير فى حاجة الى اثبات أن الاعجاب بالفن يعتمد على أسس نفسية لا شعورية ، فاذا سئل شخص ما عن سر تأثره عند قراءة هذه الرواية ، أو لماذا ضحك عند رؤية الكوميديا ، ولماذا يعجب بصورة جميلة ، فانه يتعذر عليه أن يعطى الاجابة الشافية • بل يسهل أن تبين أن تفسيراته المصطنعة انما هى عمليات عقلية ابتكرها فورا لتوضيح استجابات وقتية مفاجئة •

والنقد الأدبى الذى يحاول تفسير ووصف الاعجاب بالفن ودلالته ، هو أفضل برهان على الصيغة اللاشعورية للاعجاب الجمالى •

والسؤال هو من أى العمليات النفسية اللاشعورية تتكون الاستجابة الجمالية ؟ فكثير من الأحاسيس موضوعات مختلفة تتيح الاستمتاع الجمالى •

ومن حيث الاختلاف الهائل فى التراجيديا والمدح والكوميديا • فان الأمل فى الحصول على عامل مشترك واحد يبدو بعيد المنال • ومن الواضح أنه ليس الاحساس نفسه معبرا عنه فى الفن أو الأدب ولكن شكل التعبير عنه هو الذى ينتج التجربة الجمالية • ومن المحتمل أن التأثير الفنى يعتمد على بعض العلاقات الديناميكية وفقا لما أشار اليه فرويد بشأن النكتة والكوميديا • فاستجابتنا بالضحك لنكتة أو ملحة ، مرتبط الى حد ما بما نسميه بالتأثير الفنى • فتأثير الكاريكاتير أو الكوميديا يماثل تأثير النكتة وفقا لطبيعة العمليات النفسية المتضمنة فيها •

وقيمة نظرية فرويد فى النكتة هى أنها تنطبق مع الفارق Multatis mutandis على الجمال ، وهو حقل مازال غامضا •

وجوهر نظرية فرويد فى النكتة هو أن المرح فيها مستمد من التعبير الحر عن مشاعر مكبوتة غير مقبولة بالنسبة للشخصية الواعية •

يروى فرويد أن النكتة تعتمد على تكثيف اللفظ ، وتكثيف الفكر ، والتطبيق المزدوج للألفاظ والأفكار ، وأخيرا النقل (١) ٠

وهذه العناصر الأساسية التى تعتمد عليها النكتة ذات صلة جوهرية بطبيعة النكتة ذلك لأنه اذا أعيد وضع النكتة فى صورة غير مكثفة (مثلا) فان النكتة لا تلبث أن تتبدد ، ذلك أن القضية الناتجة ليست مما يجلب نفس تأثير التركيب الأصلى أو القضية الأصلية على السامع ، وبذلك تفقد النكتة أثرها السيكلوجى الذى وضعت من أجله ٠

والنقل فى النكتة هو تحول من تيار فكرى قديم الى تيار فكرى جديد كل الجدة يقول « فرويد » : ان النقل يحث بانتظام على التوالى بين قرار وجواب وينثنى بتيار الفكر الى وجهة أخرى تختلف عن الوجهة التى بدأ منها فى التقرير، وبذلك يمكن لنا أن نعرف نكتة النقل مؤقتا بأنها نوع من النكات يحتوى على نقل من أحد التيارات النفسية الى تيار آخر دون أن يكون ثمة تكثيف ٠

وهل هنـــاك فارق بين النكتة Joke والملحة Wit يبدو أن النكتـــة أشمل من الملحة كما أنها آكثر تمييزا بالجنس ، كمـا أن الملحة نوع من النكتة الا أنها تتضمن عملية تكثيف لفظى أو فكرى ٠

وهناك نوع من النكت يعرف بالنكتة الغرضية حيث يصبح شخص ما هدفا مثال ذلك (لاحظ أحد الأمراء أن أحد خدمه شديد الشبه به فسأله ــ هل كانت أمك تعمل فى هذا القصر من قبل ، فرد عليه الخادم : كلا يا مولاى بل كان أبى) ومنها يتضح أن الأمير أهان خادمه ثم أهين هو نفسه ردا على ذلك ، وهى على عكس النكتة غير الموجهة التى لا تتضمن مثل هذا الهدف ، ولكنها تثير اللذة فى المستمع والقاص كما أن هناك اختلافا ملحوظا فى اللذة التى تؤدى اليها كل من هاتين النكتتين ، فاللذة فى هذا النوع من النكات هى موجات خفيفة من الضحك لا يؤدى الى انفجار لا يقاوم كالذى تثيره الملحمة الغرضية، ومن ثم فاما أن تكون الأسباب فى الصورتين مختلفة ، أو يكون للنكتة الغرضية منبع اضافى للذة تعول عليه ٠

وللنكتة الغرضية صورتان متباينتان هما الفاحشـــة والاعتدائية ، والنكتة الفاحشة سواء كانت غايتها التهتك أو مجرد المشاكسة فانها تلمح الى الجنس ولكن ما سر الضحك فى هذا التلميح ، فكثيرا ما نذكر مثل هذه المســائل فى الدراسات البيولوجية والتشريحية أو السيكلوجية أو الدينية ولا يثير ذلك أدنى

---

(١) Kris, E, The psychology of caricature Internat pasycho Analysis 17, 285, 1936.

(٢) Ludwig Ejdell berg, Acontribution to the study of wit, London 1945.

ضحك ، كما أنها تعتبر فاحشة فهل يحدث الضحك حينما يكون التلميح الى المسألة الجنسية مجسدا في الملحة ؟ وهنا تدلنا الملاحظة على ان انفجارات الضحك الهائلة كثيرا ما تكون ترحيبا بهذه الملحة الحاصلة على مثل ذلك التلميح على أنها قلما تكون حائزة على أية بديهة حاضرة مثيرة للضحك ٠

ومن ثم فالصورة التى توضع فيها النادرة الفاحشة تبدو حائزة على مصادر مختلفة للذة هى النكتة ثم مصدر آخر ليس مضحكا فى ذاته بل يصير مضحكا أو يمهد له السبيل ليكون مضحكا عن طريق عنصر النكتة ، ولكى نوضح ذلك ، أن نورد الملاحظات التالية (١) ٠

١ ــ لقد أشار « فرويد » الى أن النكتة الفاحشة كانت موجهة فى الأصل ضد المرأة ، وكانت تقوم فى ذلك مقام الاغواء وخاصة فى حضور المرأة بين مجموعة قليلة من الرجال، وهنا تقوم النكتة بدور النقاب الذى يخفى الشىء الأصلى ٠ ولكى نصور الموقف فى مزيد من الوضوح نقول ان قائل النكتة الذى يسوق حديثه وملحه ضد المرأة فى وجود شخص ثالث تدركه الخيبة والفشل فيزداد شعوره بالعداوة نحوها ، فيبدو وقد أخذ يضم اليه الشخص الدخيل باعتباره حليفا متعاطفا معه ٠

وبذلك تكون النكتة الغرضية وسيلة للحصول على بهجة غير مباشرة التعوض عن شعور لم يكن من الممكن اشباعه بطريقة مباشرة ٠

يتضح مما قدمنا أن النكتة الغرضية تؤدى الى اللذة دون أن يتضح لنا السبب فى ان الاشارة الى المسألة الجنسية مثلا ليست مثيرة للضحك بينما تكون النكتة الفاحشة مضحكة بمقدار ما تنطوى عليه من روح النكتة ٠

وحتى يمكن لنا أن نمضى فى البحث علينا أن ننتبه أولا الى مصدرى النكتة وهما التركيب ثم الهدف أو آلية النكتة والهدف من النكتة اذا كانت نكتة ترمى الى هدف ما كما هو فى النكتة الغرضية ٠

لقد ظل البحث فى هذا الموضوع يعتمد على قضايا استقرائية أى مجرد تعميمات من الملاحظة ، ولكن يبدو أنه لابد من التقدم خطوة فى هذا المجال باستخدام قضايا علمية تبدأ بفرض الفروض والاختلاف بين كل منهما هو ان الاستقراء لا يتضمن الا التصورات التى تشير الى الملاحظة بينما يمكن ان يتضمن الفرضى تصورا غير ملاحظ بطريقة مباشرة (٢) ٠

واذا سقنا أدلة اتضح بعد ذلك خطؤها فلعل ذلك يرجع الى الملاحظة

---

(١) مجلة علم النفس ، فبراير ١٩٤٧ Jone Wisdom, Aloow of Joke Pornation.

(٢) J. D. Wisdom; The discriptive interpretation of science, London 1943.

أو الى الخطأ فى استخدام النتائج الملاحظة ولكنها لا تغرى الى استخدام التصورات على نحو غير علمى بغض النظر عما قد تحويه من بعض التصورت الشاذة القليلة بالنسبة لموضوع البحث • فلقد رأينا ان الملحة الفاحشة تتبع خيبة الرجاء فى الحصول على الهدف الجنسى ، وهذه الملاحظة استقرائية أى أن الفحش يعمل كبديل عن الاغواء • فاذا اعتبرنا ان قائل النكتة كان يهدف الى تحقيق غاية ما قد تكون مجرد اكتشاف تلك المرأة فما أن يأتى الطرف الثالث حتى يعمل الخيال مع الملحة الفاحشة لكى يعبر عرض للمرأة وقد كشفت عن نفسها دون أن يتحقق ذلك فى الوقع فتصبح نكتة فاحشة واعتدائية فى آن واحد •

٢ ـ ليس صانع النكتة هو الذى يضحك بل الطرف الثالث الذى يحصل على لذة الضحك من الموقف المثار عن طريق العرض المتخيل للمرأة ـ دون أن يكون هو قد قام بجهد خاص للحصول على هذه اللذة ـ اذ أن صانع النكتة هو الذى يسبب له تلك الاثارة واللذة ، كذلك صانع النكتة يحصل على لذة أيضا ولكن من مصدر غير مضحك ويختلف عن النكتة تماما ، ووظيفة مثل هذه النكات هى التعبير عن موضوعات لا يمكن الافصاح عنها فى لغة مكشوفة نابية فقد تحول حاسة الخجل دون استخدام لغة مكشوفة كما أنها تعبر عن اتجاهات عدائية ضد موضوع النكتة (وهو المرأة) كما تثير أخيلة جنسية كتعويض عن الواقع ويستغل فى الوقت ذاته الطرف الثالث الذى قد خيب بوجوده تحقيق الرغبة الأصيلة على أنه وسيلة لتعويض البهجة •

النكتة الاعتدائية :

تثار فى العادة نتيجة لاعاقة الدوافع •• فلم يكن من اللائق للخادم أن يهين الأمير مباشرة (فى النكتة السابقة) فيظهر الهجوم عن طريق الملحة التى تعتمد على سرعة البديهة ••وقد تغرى الاعاقة التى تجعل الهجوم المباشر مستحيلا الى عوامل خارجية كالخطر الذى كان يهدد الخادم لو أنه رد الاهانة ردا مباشرا وقد تعزى الى عوامل ذاتية كالتربية الجنسية وغير ذلك • لنرى ان كان تعميما أو فرضا أو ادعاء غير علمى لا يثبت أمام البحث • فاننا نجد ما يلى :

أن صاحب النكتة الفاحشة حينما يرمى الى تحقيق لذة معينة يلتقى بواحد من الظروف الثلاثة التالية :

١ ـ حينما يصل الى غرضه •

٢ ـ حينما يفشل فى تحقيق ذلك لأى سبب كان كالاحجام من جانب أحد الطرفين أو عائق خارجى •

٣ ـ حينما يتدخل طرف ثالث فلا يكون مفر من التعويض بالنكات الفاحشة .
ففى الحالة الأولى يشعر بالرضا والاكتفاء .

وفى الحالة الثانية يشعر بالخيبة والفشل .

وفى الحالة الثالثة يكون شعوره أكثر تعقيدا ولكنه يشعر أيضا بالرضى والاكتفاء بعد أن اتخذ من النكتة الفاحشة تعويضا عن تحقيق هدفه فكأن هناك توازنا تاما فى قيمة ما تثيره النكتة الفاحشة من البهجة مع الاغواء .

وعلى ذلك فمبدأ التعويض للبهجة يمكن أن يرقى الى المرتبة الاستقرائية .

العوامل النفسية لنشوء النكتة الغرضية :

مما تقدم عرفنا أن النكتة الغرضية وسيلة للتغلب على المقاومة الداخلية أو الاعاقة الخارجية فى سبيل التعبير المباشر عن شعور جنسى أو عدائى فلنطلق كلمة (كبت) للتعبير عن حالة ، رد فيها أحد الناس عن ارضاء واشباع شعور ما ، ولنطلق على الشعور الذى لم يشبع لفظ (مكبوت) ، ومن ثم فالنكتة الغرضية تزيل كبتا حينما تتغلب على مقاومة داخلية بينما يجنبنا وجود عائق خارجى ، تكوين كبت جديد وهنا يقول فرويد « قلما نكون منساقين وراء التأمل النظرى حينما نثبت أن الأمر يقتضى بذلا نفسيا سواء من أجل تكوين الكبت النفسى أو من أجل احتباسه ـ فاذا وجدنا الآن أن استعمال الملحة ينتج لذة فى كلا الحالين فيمكن أن يعترض اذن أن مثل تلك اللذة الناجمة تتجاوب مع اقتصاد البذل النفسى (١) .

وهنا نصل الى فرض تأملى نظرى وليس استقرائيا اذ أنه لا يستخلص مباشرة من المعطيات . وفرويد يسوق بعض الشواهد التى تشير مع ذلك الى ان هذا الرأى استقرائى ، ففى النكات الخاصة بتكثيف اللفظ ، تعمل آلية النكتة على تركيز الانتباه فى صوت اللفظ أكثر منه فى معناه مع انه فى الاستعمال الجدى للالفاظ لا نحيد عن ذلك الا فى مقابل جهد ذهنى معين ـ ويرى فرويد ان كثيرا من النكات لا تلبث ان تتكشف عما هو مألوف بينما كان المرء يتوقع شيئا جديدا فيكون الوصول الى معنى النكتة هو مصدر بقاء الطاقة على نحو يثير البهجة واللذة ، الا أن الوصول الى معنى النكتة أو التعرف عليها بما تحويه من مضمون فكرى يتطلب مهما كان الأمر بذل جهد معين كذلك يلاحظ ان النكات المحلية أكثر جاذبية من الاجنبية ، ذلك انها تتضمن تصورات أكثر الفة بالنسبة للسامع ، كما انها تتطلب جهدا ضئيلا لادراك هدفها مع ذلك فهى لا تلبث حين يكثر القاؤها أو تمضى عليها فترة من الزمن أن ينضب فيها عنصر الفكاهة كما تتطلب حينئذ

---

(١) Ibid.

قدرا كبيرا من الجهد كيما تقدر لها أية قيمة على الاطلاق ، وذلك مثل النكات التى ظهرت مرتبطة أو معبرة عن حادثة بالذات ، فكلما مر المجتمع بأحداث أيا كانت تلك الأحداث سياسية أو اقتصادية فانه كثيرا ما تظهر نكات مرتبطة بتلك الأحداث يكون لها أكبر الأثر فى اللذة والفكاهة عندما تسمع فور وقوع تلك الأحداث ويسهل التعرف عليها وفهمها وتفسيرها لاشاراتها الساخرة المتخفية الى حادثة من تلك الأحداث التى هزت الجمهور فى تلك الفترة بالذات بينما بعد مضى فترة على وقوع تلك الحادثة تصبح النكتة باردة لا تثير الضحك بل قد لا يسهل التعرف عليها لأن ارتباطها بالحادثة ثم نسيان الحادثة جعلها هى أيضا فى غمار النسيان ٠

كذلك يمكن ملاحظة أن فكرة التكيف العامة التى تشمل مجالا واسعا من النكات يمكن اعتبارها متساوية المجال مع فكرة البذل النفسى القليل ٠

ولكن كيف تتفق النكات التى تدخل تحت مقولة (النقل) مع هذه الفكرة ٠ ففى نكتة الدائن والمدين (١) نقل المدين الحكم المفروض أن يقع عليه الى الدائن فكانت قوة النكتة فى عملية النقل هذه ، ذلك ان السامع ينتظر ان يحكم القاضى على المدين بالسجن فاذا المدين يطلب السجن لدائنه حتى يستطيع ان يفى له بدينه ، وقوة النكتة تظهر فى القدرة على الانتقال بتيار الفكر من النقيض الى النقيض ، وهو قول غير منطقى يتضمن رفض قبول الحكم العادل من جانب القضاء ، فمع أنه لايوجد تكثيف فى الالفاظ فانه يوجد اقتصاد فى جانب المدين ذلك أنه من الأيسر أن يتنكر لحكم القضاء مع أنه لم يعرف ان كان يواجه الحقيقة أو يدافع عن نفسه بالحق والمنطق ٠ ومما هو جدير بالملاحظة أن الاقتصاد فى البذل النفسى عامل ينضاف الى الاختلاف بين النكتة الفاحشة والاشارة الصريحة للأمور الجنسية ٠

العوامل النفسية لنشوء النكتة غير الموجهة :

كذلك من أمثال نكتة النقل نكتة اليهوديين اللذين تقابلا فى مكان للاستحمام فسأل أحدهما صاحبه هل أخذت حماما فرد الآخر لماذا ـ هل فقد أحدها ٠ وهنا كلمة أخذت نقلت الى سرقت ، واليهودى يتشكك فى أن يقال عنه انه سرق الحمام ـ بل انه لم يكتف بقبول اللوم على أنه أخذ حماما ، وكأنه اتهام من فرد لآخر ، ولكنه جعل هذا اللوم على أنه يعود عليه هو نفسه فكأنه اتهام للنفس غير مصرح به أو مثار ، ولكنه يكشف عن اكتفاء تخيلى يعوض فكرة السرقة ، وهذا الاكتفاء يتم عن طريق النكتة ٠٠ كذلك يمكن لنا أن نلخص رأى فرويد فى النكتة فيما يلى :

---

(١) نكتة المدين الذى يطلب سجن الدائن حتى اذا تجمع لديه المال ، استطاع ان يجد الدائن بسهولة ويدفع له ماله ٠ وهى من النكات المعروفة فى مجتمعنا ويلاحظ أن فرويد أورد نكاتا أخرى استبدلت بعضها بما هو معروف فى مجتمعنا وما يتفق وتصنيفات فرويد للنكتة ٠

١ ـ انها ضرب من القصد الشعورى ، والعملى يلجأ اليه الانسان فى المجتمع ليعفى نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل من الحرج الذى يوقعه فيه الجد وحاجات العمل ٠

٢ ـ ان النكتة تشبه الحلم فى أساليبه وهى الشورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلفيق أى جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لا تجتمع فى الواقع ٠

٣ ـ ان المزاح والحلم سواء من حيث أنهما يعفيان صاحبهما من المؤاخذة ولا يجعل الآخرين يجدون معه فى الحساب والتحقيق وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لا يبلغ بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال فى أحلامه على تحقيق الأمانى التى تفوته فى اليقظة وتشغل باله دون جدوى فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم للتغلب على الصعوبات ، وذلك لتيسير الواقع والاعفاء من الكلفة والمشقة وقد أورد فرويد أمثلة كثيرة نشير الى بعضها ونكتفى هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التى تساوى الأحلام فى رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو محظور عليه اذا جد فى القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح ٠

> « رجلان من أصحاب الملايين صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت صورتهما فى معرض عام وبينهما مساحة تتسع لصورة شخص ثالث ، فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورة : هاهنا متسع لصورة السيد المسيح ٠ وسمع الواقفون ذلك وضحكوا والمقصود هو ان السيد المسيح كان قد صلب بين اثنين من اللصوص فكأنما قائل النكتة بهذه الكلمة البسيطة يقصد أن هذين الرجلين الثريين لصوص أو أنهما يستحقان حكم الاعدام كما جرى للسيد المسيح واللصوص ٠ وكأنما صاحب النكتة يعزى نفسه عن الحرمان من الثراء بأن الأثرياء أما لصوص أو يستحقون القتل فكأنما النكتة تعمل على ترضية الانسان وتسرى عنه » !

ويورد العقاد (١) انماطا من النكتة منها ما يشبه النوادر التى تروى عن قراقوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكاهى بين الناس على تباعد الأقطار والأجناس ٠

يروى فى بعض قرى المجر أن حدادا اقترف جريمة يعاقب عليها بالاعدام

(١) العقاد ، عباس محمود ٠ جحا الضاحك المضحك ، دار الكتاب العربى ٠ بيروت

فحار قاضى القرية فى أمره لأنه الحداد الوحيد بالقرية ولا يستغنى عنه فيها ثم اهتدى القاضى بعد تفكير الى حل للمشكلة باعدام الطرزى بدلا منه ـ لأن القرية فيها طرزيان ٠

ومن الأقوال المضحكة التى استشهد بها فرويد قول لشاعر هاينى فى امرأة يذمها فى صورة مدح انها تشبه تمثال فينوس لأنها مثلها عتيقة جدا ومثلها بغير أسنان ومثلها فى البقع البيضاء على بشرتها الصفراء ٠

ومن نوادر فرويد عن اليهود (وهو يهودى) أن يهوديا رأى على لحية زميله بقايا طعام فقال له « هل أخبرك ماذا أكلت أمس ؟ فطلب زميله أن يخبره فقال ـ انه فول ، فرد زميله « بل هذا أكلته أول أمس » ٠

ويذكر فرويد أن من فنون النكتة اللعب بالألفاظ ، وقد يصــدر ذلك دون قصد ، ولكنه يعبر عن مضمون لا شعورى كأن يقول أن فلانا له مستقبل عظيــم وراءه (بدل أمامه) ٠

وقول القائل عن ريفى استدعى لتولى الوزارة لانقــاذ بلده فى وقت ما ، فأدى رسالته كاملة ولكنه لم يحقق آمال الشعب فترك الوزارة وعاد الى عمله فى الحقل « انه عاد الى مكانه أمام المحراث » والمقصود وراء المحراث ٠ أما ما يكون أمام المحراث فهو الثور ٠

وكذلك من التقائنــا بين الألفــاظ والأفكار قول القائل فى فكاهة الحياة « انها نصفان ، نقضى نصفها الأول متطلعين الى الثانى ، ونقضى نصــفها الثانى متأسفين على الأول » ٠

ونورد بعض النكات القراقوشية التى تشتهر بالغفلة والتجبر مثل :

« سار قراقوش فى جنازة شخص أرقده الناس حيا ليدفنوه فأخذ يستغيث بقراقوش فرد عليه قائلا (لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك) ٠

وقيل ان قراقوش نشر قميصه فوقع من على الحبل ، فتصدق بألف درهم وقال « لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت » ٠

وشكا اليه الفلاحون بردا أصاب القطن فأتلفه ، والتمســوا منه أن يعفيهم من الضرائب فرفض لأن القطن أصيب بالبرد لاهمالهم ، وقلة درايتهم ولو زرعو معه صوفا لما أصابه التلف من برد الشتاء ٠

كذلك ـ ظهرت نكات كثيرة على الأتراك والمماليك ، منها أن واليا كان يصلى كثيرا ويبكى ويدعو وينتحب أن يغفر له الله قتله لأربعة أشخاص ٠ فعجب زميل له من قوله ونهره قائلا ألم تقتل الا أربعــا فقط فقال لا يا صاحبى ، أربعة من الأتراك ـ أما الفلاحون فلا عدد لهم فيما أذكر ٠

أما النكتة المصرية فهى تمتاز بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلاهة ، وسبب هذا الفارق راجع كما ذكرنا سابقا الى الظروف الاجتماعية لا الى طبيعة الضحك فى النفس الانسانية ، ذلك أن الحاكم أجنبى عن أهل البلد فلا ضير أن يتشفى فيه المواطنون ولو عن طريق النكتة ٠

وبصفة عامة فان النكتة توجد فى كل مجتمع حسب ظروفه وحاجاته ووفقا لعلاقاته بجيرانه ، وقد نشأت كثير من النكت بين شعب وآخر نتيجة لعلاقات الصداقة أو الحرب أو غيرها من الأزمات ، والنكات تؤدى رسالتها فى مناسباتها وتسجل الحقيقة التى تؤكد أن الضحك كالمنطق مزية انسانية توجد حيث يوجد الانسان وأن اختلافها انما هو اختلاف بين الظروف والبيئات ، فمن الطبيعى أن يوجد خلاف بين الأمة الوادعة والأمة الكادحة والأمة المترفة فى مجالات الحضارة والأمة التى تعيش على الفقر والبداوة ٠ وذلك أنه مهما اتفقت طبيعة الانسان فستبقى بعد ذلك أهمية كبرى للصيغة القوميـــة فى الجد والفكاهة وفى العلم والعمل وفى التفكير والذوق وفى الضرورات والكماليات ٠

وكذلك جاء على لسان جحا الكثير من النوادر ، ولا نستطيع أن نتأكد من شخصية جحا ، وهل هو الخوجة نصر الدين تركى الذى توفى سـنة ١٤٠٥ م أم أنه شخصية عربية تدعى أبو الغصن العربى الفزارى الذى توفى قبـل ذلك بكثير ، ومهما يكن من الأمر فان أغلب ما ينسب له لا يمـكن أن يكون قد صدر عنه ٠٠ فان كثيرا من الفكاهات والنكات التى تصاغ فى شتى الأنحاء تنسب الى شخصية هزلية شهيرة حتى تنال اسـما وشهرة ، ولعل هذا لا يعنينا كثيرا فى الموضوع ، وانما يهمنا أن نذكر أن هذه النوادر التى تنسب الى جحا تنقسم الى ثلاثة أقسام فمنها ما يمثـل الذكاء والحكمة ومنها ما يمثـــل البلاهة والحماقة ومنها ما يمثل التباله والتحامق أو التغابى ٠ ونورد لكل قسـم منهـا مجموعة ربما كانت معروفة للبعض تشمل نوادر الذكاء والحكمة ونوادر الحماقة والبلاهة ونوادر التحامق والتباله وهى بالملحق فى نهاية الكتاب ٠

وأخيرا فمهما ذكرنا من نوادر أو نكات سـواء مما أورده فرويد أو مما جاء على ألسنة الفكهاء والمتندرين أمثال جحا ومن يسلك مسلكه فى عصرنا ، فانه لا تخلو الفكاهة والنادرة والنكتة من عنصر المفاجأة ، فالجواب المسكت مفاجـأة والحيلة التى ترتد على صاحبها مفاجأة والتخلص السريع بالمغالطـة التى تخالف المنطق المألوف مفاجأة وتكذيب الجواب الصادق مفاجأة ، وهكذا ٠

ومهما اختلفت كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعابة أو الفكاهة فانها انما ترجع الى فروق بين أنواع الضاحكين وليست فروقا بين أنواع الضحك بالذات ٠

فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفكر أو بالشعور عن مجراه ، ولكن السخرية

التى تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومقالبهم فيما يقول برجسون هى ضحك الشرير الخبيث متعاليا • والاستهزاء الذى يبدى صاحبه على الناس هو ضحك المتكبر الذى غالط نفسه فلا يبادلهم الشعور أو هو ضحك العابث الذى يستخف بكل شيء ولا يكترث بمشاعر الآخر •

والدعابة التى يشترك فيها الضاحك والمضحوك منـه هى ضـحك القلب الطيب الذى يسر نفسه ويسر غيره بما يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من نقائصهم فلا يحسون أنه يؤذيهم بتلك النقائص أو يأخذ تلك الهفوات مأخـذ الشـماتة والخيـلاء •

والفكاهة التى تمثل لنا المضحكات هى ضحك الفنان أو الناقد الذى يصور لنا دواعى الضحك ، ويبدع فى تصويرها وتمثيلها فهو مضحك وليس بأضحوكة لأنه واضع الضحك وليس بموضـــوع للضحك • ومن أمثـال ذلك التصوير الكاريكاتورى الذى يعتمد على تجسيم صفة معينة فى صاحبها بحيث تبدو بارزة واضحة فتؤدى الى جذب الانتباه على نحو غير مألوف مما يثير الضـــحك ، وقد استغلت الصحافة منذ الثلاثينات فى هذا القرن ، هذا الفن وأبرزته فى صورة جديرة بالانتباه ، فقد كان له أثره الملحوظ فى كثير من عمليات التغيير الاجتماعى وما يسبقها من اثارة للشكوك ثم نقد وهدم ، ثم التخطيط واعادة البناء • وهكذا تمت عمليات تغيير اجتماعى خطيرة بناء على ما تثيره النكتة أو الفكاهة بين الناس من آثار نفسية واجتماعية والخلق القومى فى بلدنا قد اصطنع مثل هذه الحيل الدفاعية كأسلوب يعمد اليه للتعبير عن مشاكله ، ووسيلة ذات أثر فى حل تلك المشكلات حتى ولو كانت بطيئة الأثر تحتاج الى وقت غير قصير الا أنها فى النهاية تؤدى الى جادة الطريق وتمهد للنجاح •

ولعلنا نستطيع أن نقرر أن خلقنا القومى الذى يعمد بنـا الى تلك الحيل انما هو يتستر وراءها لينال مآربه فهو لا يقوى على الصراحة والعلانية بل يتخذ هذه الأسـاليب لتحقيق غايته ، ولعـل ما ذكرناه سـابقا من ظروف اجتماعية وسياسية عاشتها مصر منذ أيام الفراعنة الى الوقت الحاضر وتوارد الحكام الاجانب عليها جماعة تلو الأخـرى ثم موقف عامة الشعب من كل ذلك كنقاد ومتفرجين ، لعل هذا هو ما جعل الخلق القومى يتسم بتلك الصفات فيجيد النكتة وينزع الى الفكاهة بما تحويه من نقد وتوجيه وتنفيث وتفريج •

● الفصـــل الرابع

القصص الشعبى

ان اتصال القصة الشعبية بالطبيعة .. طبيعة الحياة ، وطبيعة الانسان ، وطبيعة الكائن الحى بوجه عام ، ثم صدق تعبيرها عن هذه الطبائع بما تحويه من بساطة ووضوح قد جعل القصص الشعبى يصل الى درجات من النجاح قد لا يتحقق لقصة افتعلها كاتب فصدرت عنه معبرة عما تحويه الحياة من تعقيد .

فالقصة الشعبية تمنح الجماد حياة ، والطيور لسانا وقولا ، وهى تمزج بين الانسان والحيوان والنبات والجماد وسائر مظاهر الكون ، وقوى الطبيعة وهى تتحدث عن الظاهر والباطن وعن عالمنا وسائر العوالم الأخـرى من نورية ونارية «١» .

عناصر القصة ومصادرها :

ليست القصة مجرد بناء وهمى أو صورة لا تتبع أصولا معينة ، كذلك هى ليست اطنابا فى الخيال أو ضربا من المحال ، ولكنها اشارات ورموز الى ماض سحيق مرت به الانسانية وعاشته أجيالا طويلة فاتسمت به وانتشبت اليــه . وحتى بعد أن مرت العصور وانطوت صفحات الماضى البعيد الا ان سمات البدائية لاتكف عن الظهور من خلال نتاجنا الفكرى والأدبى والفنى ، وحتى من خلال أقوالنا وأفعالنا ، وكل ما يتصل بالانسان من عادات وتقاليد ، عملت المدنيـة جاهدة خلال أجيال طويلة فى العصر الحديث أن تمحو آثارها ، ولكنها نجحت فى أن تدثرها بغلاف من فنها الحديث ، يبدو عليه آثار المدنية وبريقها الا أن هذا الغلاف الجذاب من الرقة والشفافية بحيث أنه لا يخفى الا القليل وحتى ما يختفى من ورائه سرعان ما يكافح من أجل الظهور بين كل فرصة وأخرى يبدو من خلال المدنية الحديثة بسيطا ساذجا نقيا بكرا لم تمسسه يد التطور ولم تؤثر فيــه ظروف المدنية .

---

(١) قصصنا الشعبية ، مرجع سابق .

ومن أبرز مصادر القصة الدين بمعناه العام المصطلح عليه وهو العلاقة بين الانسان من ناحية وبين القوة التي تفوق طاقته من ناحية أخرى ، وهذه القوة هي التي تهيمن عليه ، ويؤمن بها ، فيعبر عن ذلك بالضعف والعجز عن تمام الاعتماد على نفسه ، ويتجه الى الصلاة ؛ وتأدية الطقوس الدينية ، خاصة ما يتصل منها بتقديم القرابين وغيرها ، وتختلف هذه العلاقات باختلاف القوة التي يدين الانسان بها ، وذلك لأنها شيء يختلف طورا حسب الزمان فقط ، وطورا حسب المكان فقط ، وطورا حسبهما معا ، وهذه هي الأسباب التي أدت الى تنوع الديانات واختلاف العقائد بالرغم من اتفاقها جميعا في ظاهرة واحدة الا وهي الظاهرة النفسية التي تكفل للانسان حياة دنيوية سعيدة كما تزود الجنس البشري بسلاح قوى للدفاع به عن نفسه ضد الفناء ، ولا شك في أن العمل على المحافظة على هذا الجنس هو الهدف الذي تجد معظم الديانات في السعي اليه ، وتحقيقه ، لذلك أخذت توجه عنايتها الى الانسان منذ ولادته حتى مماته فهي تحتفل به عند ولادته ، وعند ختانه ، وعند زواجه ، ومن ثم فهي تحيطه بشيء غير قليل من التعاويذ والأدعية حتى لا يمسه مكروه ، وحتى تمضي حياته سعيدة خصبة ، ولم يقف اهتمام الأديان بالانسان عند ذلك الحد بل نراها تتخذ الاجراءات اللازمة التي تكفل له المحافظة على حياته ضد الطوارىء الطبيعية ففرضت الصلوات ، وأوجدت الأدعية والتعاويذ وسائر الطقوس الأخرى ، وهذا ما يعلل لنا وجود الكثير من العادات الشعبية خاصة ما يتعلق منها بالنسل • وهذه العادات الشعبية هي اتصال مباشر بالطبيعة ، وهي تختلف قلة وكثرة حسب نصيب أصحاب كل دين من ثقافة ومدنية • اذ كلما زاد نصيب الفرد من الحضارة كلما أخذت علاقاته بالطبيعة تضعف لأنه أفاد من الثقافة والمدنية ما يمكنه من درء أخطار الفيضانات الجارفة ، وتجنب ويلات الصواعق الخاطفة ، كما يستطيع أن يفسر حدوث الزلازل ، وثورة البراكين ، وهبوب الزوابع والأعاصير ، وقصف الرعد ووميض البرق ، يستطيع أن يجد لكل ذلك تفسيرا وتعليلا ، بينما الانسان البدائي كان وما يزال يسند كل عمل من هذه الأعمال الى الأرواح ، فالطبيعة تتألف من أرواح ، والعالم يعج بالأرواح ، والحياة ليست قاصرة على الانسان والحيوان والنبات ، بل كل ما فيها له روحه الخاص ، وذلك هو مذهب الأنيميزم الذي يفسر اتجاه البدائي في أن ينسب للحجر روحا والجبل روحا والأرض روحا من الأرواح ، والشجرة أيضا ، وكل ما يحويه هذا الوجود يملك روحا ، وكان على الانسان اذ ذاك أن يقدس هذه الأرواح جميعا ، ويؤدي لها فروض الولاء والطاعة جلبا لرضاها ودرءا لشرها حتى يعيش في سعادة ، ويبعد عن نفسه الخطر •

وقد اختار البدائي لنفسه واحدا من هذه الكائنات لتكون رمزا للقوة والخير فوجه له أهمية خاصة ، واتخذه شعارا له ورمزا للقداسة فنشأ مذهب التوتمية وهي عبادة الأشياء من حيوان ونبات وجماد ، فاعتقد منذ القدم مثلا أن في الماء تعيش عرائس البحر ، كما يعيش المارد ، والاعتقاد شائع في مصر ان البحر ملاك

طاهر وأنه موضع للقسم (وحياتك يا بحريا طاهر) ومن ثم اتخذت الأديان من الماء وسيلة للطهر ، واعتقد العامة أن فيه قوة الشفاء من الأمراض ، أو تجديد القوى وغير ذلك مما يردده العامة ، من مأثورات عن الماء ، ولعل السببالذى حمل الانسان على مثـــل هذا الاعتقاد ، هو أنه رأى الماء يغمر الأرض المجدبة القاحلة فما تلبث الا أن تعود اليها الحياة ثانية ، فتنتج حبا ونبتا ، وهذه العقيدة الخاصة بالماء مازالت تتمثل الى اليوم فى مظاهر عدة مثل بئر زمزم وما لها من شهرة فى شفاء المرضى • كذلك (الساقية المندورة) وما تذكره العجائز بشأنها فى جلب الحمل للنساء ، وبئر يوسف التى تشفى من الكساح وغير ذلك كثير •

كذلك الحجر ، فما دامت الأنيمية قد اكسبته روحا اذن فيمكن هو أيضــا أن يكون توتما • وهناك الحجر الأسود والصخرة المعلقة ، كذلك ما نحته الانسان من أصنام من الحجر وعبدها ، فى عهود مختلفة عن يقين وايمان ، ثم هناك الأحجار الكريمة وما ينسب اليها من ارتباط بالكواكب وجلب للحظ •

ومظهر آخر من مظاهر تقديس الطبيعة ، ويكون عنصرا هاما من عناصر القصة هو الأشجار فهى ظاهرة موجودة فى سائر الأديان ، وترجع فى الاصل الى اعتبارها أحد مصادر الحياة للفرد ، فمن النادر أن نجد موضعا مقدسا أو مكانا لولى من الأولياء يخلو من شجرة ، فمريم جاءها المخاض تحت نخلة ، ولما جاء المسيح الى مصر نزلت به أمه عند شجرة ، وبيعة النبى كانت عند شجرة ، وتلقى الوحى عند شجرة ، ثم ســـدرة المنتهى ، ثم الفاكهة المحرمة والأخرى المحللة ، والله قد شبه نور ذاته العلية بسراج زيته من شجرة زيتونة مباركة لا هى شرقية ولا هى غربية ، كذلك لا يخلو قبر من القبور من شجرة ، وعند زيارة المدافن يوضععليها سعفالنخيل أو غيره رحمة للأموات،ويحتفل المسيحيون بأحد السعف وبأربعاء أيوب ، والى جانب الشجرة نجد بعض الأعشاب والنباتات، فالشيح يطرد الأرواح الشريرة ، ويشفى من الحسد ، ومن الأشجار والعشب نجد الحبوب فالسيد المسيح أكل خبزا وقال هذا جسدى والوليد تعلق له الحبوب ، وتوضع فى يوم سبوعه فى اناء خاص ، ويعلق البعض سنابل القمح فى بيوتهم جلبا للخير على مدار السنة •

كذلك كان للحيوان دوره الخطير فى العبادة والتقديس فقديما قدس المصريون العجل ، وعبد الهنود الثور ، وانزل الله البقرة لتكون للنـــاس آية ، وفى مصر لا يقتل الطائر المروف باسم عصفور الجنة لأنهم يعتقدون أنه يحمل تحت جناحه مفاتيحها ، ويقدم الحيوان ضحية فى أعياد المسلمين والمسيحيين فداء لاسماعيل بن ابراهيم ، والى اليوم تقدم الضحايا فى الموالد ، وفى حفلات الزار •

أما النار فقد اعتقد الانسان فيها منذ القدم فهى تبدد الظلام ، وتشرد

الجن ، لذلك قدستها الزرادشية والبوذية وغيرها ، وكذلك الأجرام السماوية كان لها نصيب كبير فى التقديس .. فالشمس والقمر وسائر الكواكب كانت سبيلا للوصول الى المعرفة الغيبية والتوسل بها لقضاء الحاجات . وكذلك أقسم بها الله فى كتابه العزيز .

وحتى الانسان كمظهر من مظاهر الوجود الطبيعى كانت له قداسة خاصة عند بعض الشعوب حيا كالقادة والملوك والزعماء أو ميتا مثل الآباء والأجداد . ومن هنا ظهرت عبادة الأسلاف ، وفكرة التابو ، ونشأت مع ذلك عبادات بدائية. مثل ترضية أرواح الموتى بما يقدم لها من هدايا وقرابين ، ثم تطورت فى صورة زيارة المقابر ومازالت باقية حتى اليوم بما يصحبها من طقوس دينية خاصة بالأرواح والقبور والأضرحة والأولياء ، والتوسل اليهم لقضاء حوائج الأحياء .

الموطن الأصلى للقصة :

ما هو مصدر القصة ، وما هو موطنها الأصلى ؟ يقرر العالم السنسكريتى « تيودور بينفى » الذى نشر عام ١٨٠٩ مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم Benteshtentra يقرر أن الهند هى المهد الأصلى للقصة وذلك لحاجة الديانة البوذية الشديدة اليها كوسيلة من وسائل تنمية الخيال وتهذيبه ، وقد ظلت فكرة هذا العالم سائدة زمنا طويلا حتى ظهر أمثال سى. ب. تيلر . وأندرولونج، وغيرهما من العلماء الذين عارضوا فكرة (بينفى) اذ يروا وعلى رأسهم « تيلر » بعد أن درس اللغات القديمة والعادات البشرية المختلفة رأوا أن سائر البشر يشتركون فى كثير من المظاهر والعقائد الدينية فهم يؤمنون بالأرواح الخيرة والأرواح الشريرة كما يؤمنون باللعنة والبركة والصحة والمرض والفناء والبعث واليقظة والحلم والقوى المختلفة الكامنة فى الحيوان والنبات والجماد .

وتستمد القصة عناصرها من العالم ، وتنجح فى تكييف نفسها به حتى تصبح وكأنها صورة مصغرة منه ، فتظل القصة عنصرا هاما من عناصر القصة كما تعرضه لنا وقد امتزجت عناصرها بالعناصر الطبيعية المختلفة . ذات العلاقات المتبادلة بينها وبين الفرد ـ بل وتمضى القصة فى تفضيل هذه العلاقات ، فطورا تجعل البطل المغوار الذى قتل المئات ، وأسر الآلاف يضعف أمام طائر أو حيوان مسلط عليه من ساحر أو ساحرة ـ بل تكاد لا تقرأ قصة الا ونجد بطلها قد أصبح قردا أو كلبا والقصة قد لا تقنع بهذه العوامل الأرضية فتحلق فى الأعالى حيث الأفلاك والملائكة وتهبط فى الأسفل حيث الجن والشياطين وكثيرا ما تجدها تغوص فى البحار حيث المارد وعروس البحر ، وهى فى كل هذه الحالات صورة حقيقية لهذه العوالم ، ووصف بديع لموقف الانسان منها ، ونقدم على سبيل المثال القصص التالية :

سيرة عنترة ـ مع شرح لأهدافها وتعليق وتفسير .

سيرة عنــــترة

تعتبر الياذة الصحراء عن جدارة ، فشخصية بطلها مازالت حية بيننا ، ومازال لفظ عنتر المثل الذى يضرب للشجاع ، كما اشتق الشعب كثيرا من المفردات التى تتصل بهذا المعنى عن قرب أو بعد ، فالشخص القوى يقال انه متعنتر ، والحمل الثقيل لا يقوى على النهوض به الا من أوتى قوة عنتر ، ولباس النساء الذى يبرز صدورهن كان يسمى عنترى ٠٠ شخصية عنتر اذن من الشخصيات التى تغلغلت فى صميم الحياة العربية ، وهى الشــخصية التى تتمثل فيها الرابطة السامية الحامية أجل تمثيل ٠٠ فنحن هنا لا نرى نزاعا بين هذين الفرعين بل نلمس صفاء ومودة وسلاما فأم عنترة (زبيبة) حامية وأبوه سامى ويفخر بطل القصة بنسبه هذا ويقول :

يقدمه فتى من خير عبس أبوه وأمــه من آل حــــام

عجوز من بنى حام بن نوح ــ كأن جبينها حجر المقام

وهذه السيرة التى تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطــة الحجم تتحدث عن نجد بن هشام وجهينة اليمانى وأبى عبيدة والاصمعى وسعيد بن مالك وغيرهم ممن عرفت أسماؤهم كرواة لهـا ، والتى حفظ لنـا التاريخ منها روايات بينها شىء يسير من الفروق ، ونسبت الى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية سجلا حافلا لحوادث وقعت فى الجزيرة العربية ، والعالم الاسلامى فى الفترة الممتدة بين القرنين السادس والحادى عشر الميلاديين ، ففى نجد قلب الجزيرة سكنت فى منتصف القرن السادس الميلادى بطون كثيرة من قبيلة بنى عيـلان كما نزل فى المنطقة الواقعة بين مكة ويثرب بالحجاز بنو سليم وهوازن وشرمى هوازن ٠ نجد بنى غطفان الذى حل من افخاذهم بنــو بغيض بين عبس وذبيان ، وفى ذلك الوقت الذى تتحدث فيه الســيرة كان زهير بن جذيمة قد بسط سلطانه على غطفان ، وما كاد يستقر له الأمر حتى نجد الغارة تلو الغارة بين العدنانيين والقحطــانيين ، وفى احـــداها سبى العبسيون كثيرا من بنى جديلة وعلمائهم وجواريهم وعبيدهم ، وعددا كبيرا من جمالهم التى كانت ترعاها أمة حبشية تدعى زبيبة وهى أم بطل السيرة ، ثم بعد أن ينتهى الحديث عن العدنانيين والقحطانيين نجد السيرة تنتقل بنا الى أرض العراق الى بلاد الحيرة حيث يدور قتال بين عنترة والنعمان بن المندر وذلك لأن الفارس الحبشى يريد مهر عبلة وهو ألف من النوق العصافير التى لا توجد الا فى العراق ، وهنا نقرأ وصفا جميلا لبـــلاد العراق والعراقيين والعلاقات السياسية التى كانت تربطهم بالفرس ، وكما أن السيرة وصلت بين نجد والعراق بمهر عبلة اذا بهـا هنـا توقع عنترة فى الاسر ليتخذ المؤلف

من ذلك قنطرة يعبر عليها الى ايران · ومن ثم ينتقل الى الدولة البيزنطية ويبسط لنا السياسة الفارسية تجاه الدولة الرومانية الشرقية ومن خلال هذا العرض لا ينسى العرب وموقفهم من هذا النزاع القائم بين كسرى وقيصر،وهذه الخصومة التي اهتم بها القرآن الكريم وأشار اليها في سورة الروم ·

وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة نرى الراوى يحدثنا عن الحرب التي قامت بين ملك الحيرة والمنذر ملك العرب عبدة الاحجار وكسرى ملك الفرس عبدة النار · **وتنتصر العرب بفضل عنترة الذى سجل بطولته فى قصته المشهورة التى مطلعها :**

سلى ابنة القيس رمحى وصارمى وما فعلا فى يوم حرب الأعاجم

لكن المنذر يعلم أن الفرس سيعاودون الكرة ، وأدرك هو أن سلامته وسلامة بلاده تتطلب منه أن يكون جبهة قوية ضد العجم أعنى لا بد أن ينادى بوجود تعاون العرب واتحادهم فى سبيل الوقوف فى وجه العدو الخارجي وهنا نرى السيرة تحدثنا عن الدولة العربية حديثا لا يقل طرافة عن أحاديث اليوم ، ففى الصحيفة الثامنة والاربعين بعد المائة نرى المنذر يخاطب عنترة ويقول : « ولكن يا ولدى من الرأى أن أكتب الى سائر القبائل وأجمع العرب من الاحياء والمناهل وأتأهب لحرب الملك كسرى فانه لا بد أن يعود الينا ويسطو بعساكره علينا · وأول ما أرسل الى قومك بنى عبس وعدنان وفزاره وذبيان وسائر بنى غطفان ، ولا أزال الى أن أقيم دولة العرب وأذل عباد النار واللهب » · ولكن بينما المنذر يعمل لجمع شمل العرب اذ بعمر بن نعيلة يظهر على المسرح كوزير للمنذر ويعرض عليه خبر التوسط بينه وبين كسرى لازالة أسباب النزاع ثم تقفز السيرة الى القرن الحادى عشر الميلادى حيث الحروب الصليبية وتحدثنا عن طريق جبار وفارس من كبار الفرسان يدعى (بيصرموت) وهو (بوهيميذ) Bohemisd والذى هزم سائر فرسان ايران ــ ولم ينقذ كسرى منه الا البطل العبسى عنترة وبعد حفلات الوداع والتكريم نراه يعود الى عبلة ومعه المهر والكثير من الهدايا ، ولكن عمه مالكا يرفض زواجه بها لأن السيرة تلح فى خلق خصوم لعنترة يشاطرونه حب عبله والهيام بها ، وعنترة يكافح ضدهم باخلاصه للعبسيين حينا وتنحيه عنهم وقت الملمات حينا آخر · وفى ثنايا هذا النزاع بين الفارس وقبيلته نقرأ وصفا لمعركة تنشأ بين بنى عامر تحت امرة خالد بن جعفر والعبسيين بزعامة زهير بن خزيم الذى قتل فى هذه المعركة ونبأ سيف ابن ورقاء عندما هوى به على خالد يريد قتله وانقاذ والده والى هذه الحادثة أشار الفرزدق معرضا بأقوال سليمان بن عبد الملك ثم تعرض السيرة للغسانيين وتتحدث عنهم وعن النصرانية وتصل بينهم وبين نصارى نجران ثم تصف زواج عبلة بعنترة وتنتهز هذه الفرصة وتذكر لنا حلفاء العبسيين ومنهم العدنانى ومنهم القحطانى ·

وبعد أن تفرغ من ذلك تواصل سرد أعمال عنترة فتخلع عليه ثوبا اسلاميا وتنسب اليه حرب النبى ليهود خيبر ثم تنتقل بنا من قبيلة الى أخرى حتى نرى عنترة في بلاط قيصر الذى وهبه جارية تدعى مريم والتى وضعت لعنترة ابنه جوفران والذى هو فى الواقع أحد فرسان الحروب الصليبية المسمى (جود فراى) ـ أوائل القرن الحادى عشر) ، وتختم السيرة بالحديث عن الفتوح الاسلامية ، وعن مصر وشمال أفريقية والأندلس . **والآن وبعد هذا العرض نوجه الى أنفسنا السؤال الآتى :**

ما هى حقيقة هذه السيرة ؟ وأين ، ومتى ألفت ؟ .. ليس من العسير الاجابة على هذا السؤال .. فالقارىء المثقف يستطيع أن يقرأها دون كبير عناء ، وأن يخرج منها بأنها عرض وعرض موفق للقبائل العربية وعاداتها وتقاليدها وحروبها فى تلك الفترة التى سبقت الاسلام أو مهدت لظهوره ، فهنا نرى العدنانية تنتصر على القحطانية بل وتخالف السنن والأوضاع المعروفة عند العرب من قبل وتلحق بعنترة بن الأم الحبشية من الصفات ما يكفل له الزواج بعبلة بنت مالك أحد سادة بنى عبس فتمحو بذلك الفوارق الخاصة بالاجناس والطبقات وتحطم الحواجز القائمة بين أفراد القبيلة الواحدة .

فان عابوا سوادى عند ذكرى   وجاروا من عناد فى ملامى

فلى قلب أشد من الرواسى   ولونى مثل لون المسك تام

وما اسمو بلون الجلد يوما   ولكن بالشجاعة والكلام

وغير هذه المبادىء التى تحاول القضاء على التفرقة بين الأبيض والأسود فتجىء فى السيرة بوضوح ، ويعترف بها الاسلام أيضا ـ نجد الشىء الكثير من عادات العرب وأخلاقهم فى الحرب والسلم ، كما نعلم شيئا عن تقسيم الغنائم والحفاظ على حقوق كل من الأحرار والعبيد ، ونقرأ بعض صيغ للقسم تدل على شىء كثير من الاعتزاز بالجيش العربى والخلق العربى كقولهم (وذمة العرب) .

الى جانب هذه المعلومات نجد مئات من القصائد الشعرية المنسوبة لعنترة وغيره من الشعراء والشاعرات ، وكذلك بعض المقطوعات الخاصة بالندب والمعلقات ، **وحتى قصيدة الأعشى التى مطلعها :**

ودع هريرة ان الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وغير الشعر نجد مناظرة لغوية بين عنترة وامرىء القيس نعرف من خلالها كثيرا من أسماء السيف ، والرمح ، والدروع ، والخيل ، والشوق ، والخمر ، والحيات .

أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية فنحن نقرأ فيها مثل

(فرحنا بسلامتك) ، و (ياخوى الحمد لله) ،و (لحد الآن) ، و (اكراما للعين تكرم ألف عين) ـ الى جانب ذكر مصر وبعض مدنها ٠

عرفنا الآن موضوعات السيرة وموطنها ، أما عصر تأليفها كما هى بين أيدينا الآن فيرجح أنه كان فى أواخر القرن الحادى عشر مع الاشارة الى أن القصاص كثيرا ما غيروا فيها حذفا واضافة ٠٠ كما يتضح لنا ذلك عند قراءة الفصول الخاصة بالحروب الصليبية ٠

تلك الصعوبات التى اعترضت البطل هى وليدة نظام اجتماعى سئ يعيش فيه العرب ، وتسبب للكثيرين من أفراده التمزق والعقد النفسية نتيجة نظامه الطبقى الذى يميز بين الأبيض والأسود ، بين الحر والعبد بين ابن السيدة الحرة والأمة الأسيرة ، وكان لكل ذلك أهمية تفوق تلك التى للخصائص الذاتية التى تؤهل الفرد فى المجتمع السوى للحصول على ما يريد(١) ٠

أهداف سيرة عنترة

الانتماء العربى :

١ ـ الدفاع عن العربى كانسان ، ودعم هذا الدفاع بصور من البطولة والشهامة ، والالمام باحداث من التاريخ أو بأحداث وصفها كاتب السيرة بناء على فهمه ودرايته بالتاريخ ٠

٢ ـ تثبيت الانساب ٠٠ فعنترة لم يثبت نسبه لأبيه الا بعد أن أظهر من القوة والفروسية والبطولة والشعر ما جعل نسبته الى أبيه فخرا لشداد وللعرب أجمعين ٠

٣ ـ أوضح الكاتب أن الفرد الحر هو الذى تحررت همته من أسر الغرائز وان العبد الحقيقى (عند كاتب السيرة) هو الذى جمع من النقائص الخلقية ما يجعله غير جدير بالانتساب الى الأحرار ٠

٤ ـ البيئة الجغرافية والحيوانية ٠٠ لا توصف عبثا وانما هى تأتى لتؤدى دورها فى رسم البيئة حية متحركة متكاملة ٠٠ فاذا ما وضع المؤلف من داخل هذه الأطراف شخصياته وضعها بحذر وعناية فكلها شخصيات وليدة هذه البيئة تتفاعل معها تفاعل الحياة والاستجابة وتتولد من هذا التفاعل تقاليدها وعاداتها وأخلاقها ويحقق المؤلف بهذا رسما كاملا للمجتمع العربى يساعد من ناحية

(١) فاروق خورشيد ، مراد ذهنى ، السيرة الشعبية ، دار الثقافة العربية ١٩٥٤

أخرى على توضيح ضروب الحياة فى هذا العصر اجتماعيا وأخلاقيا وثقافيا بما فى ذلك العادات والتقاليد والنظم ٠

وبعـد ٠٠ فهل سيرة عنترة بن شداد كتبت فى عصر الفاطميين ، وأن الخليفة الفاطمى كلف أكثر من كاتب للسيرة بكتابتها حتى ينصرف الناس عن الفتنة التى حدثت فى عصر هذا الخليفة الفاطمى ٠ بمتابعة هذه السيرة ـ هذا الرأى مردود عليه لأنه لم يثبت فى التاريخ وقوع مثل هذه الفتنة ، ولأن السيرة كلها لا تحوى تأييدا للفاطميين كما أنها تمجد أعداء الشيعة ٠

وهى أيضا خالية من المعتقدات الفاطمية والتقاليد التى ظهرت فى ذلك العصر ٠

انها ترسم صورة لما ينبغى أن يكون عليه الخلق العربى من المعامـلات والعلاقات بل فى التقاليد والعادات ، وهذه المثل التى ترسمها تربطها فى امتداد زمنى بالاسلام وظهوره ، وهى أيضا مثل اسلامية ٠٠ فالوفاء والمساواة والشرف والجهاد والكرم والحفاظ على العرض والصدق فى المعاملة والقول أسس اسلامية ثبتتها تعاليم الاسلام وجعلت منها السيرة مبادىء سلوكية متواضعا عليهـا كأساس لبناء المجتمع ٠

ودراسة السيرة الشعبية تؤكد أن لكل سيرة مضمونا وهدفا قد يختلف بل وقد يتعارض مع غيره من السير ـ فسيرة عنترة مثلا تضع ضمن اهدافها الدفاع عن قضية الملونين ، بينما سيرة أخرى كسيرة سيف بن ذى يزن مثلا تقوم أساسا على كراهية السود وتثبيت معانى التفرقة العنصريـة وتأصيل بذورها ٠ فلو كان المؤلف هو جمهرة من الناس يتتابعون فى عصور متوالية ، ويعكسون فهم الشعب بعامة لما حدث هذا الاختلاف الواضح فى هدف هذين العملين الكبيرين ، وانما يأتى هذا الاختلاف فى الهدف من وجود الاختلاف فى شخصيات المؤلفين ومناهجهم فلمؤلف عنترة هدفه ومنهجه ، وكذلـك لمؤلف سيف هدفه ومنهجه وهلما جرا ، والفارق بين السيرتين هو فارق بين المؤلفين ثقافة ووضعا اجتماعيا وموقفا سياسيا ٠

ملامح عامة للسيرة الشعبية :

١ ـ ان فن كتابة السيرة الشعبية فن قائم بذاته ، هو دراسـة للأدب وللبيئة الاجتماعية ، والأحداث التاريخية ، وأنه نقطة الانطلاق فى فن الزواية العربية ، والقصة الطويلة ، فهو فن أصيل فى نفسية الأدب الشعبى والشعب العربى الذى يرحب بالسيرة ويجعل منها سميرا له فى كل مجلس على مر العصور والازمان ٠

٢ ـ ان كاتب السيرة أما فرد وأما مجموعة أفراد ، يكونون ما يشبه اللجنة ويطبعون عملهم بطابع موحد مميز ٠

٣ ـ ان السير لا تكتب للحكاية والتسلية فحسب ، وانما هى تعبر عن أهداف معينة يقصد اليها الكاتب ويختار لها القالب الروائى لتكون أكثر صلة بضمير الناس وليسهل عليه ايصال ما يريد الى قلوبهم ٠

٤ ـ ان هناك قواعد فنية مدروسة لكتابة السيرة ٠٠ تتمثل فى ربط البطل بالناس أما للقضية التى يمثلها واما لايضاح الرمز الذى يعنيه ، وتتمثل فى دقة رسم الشخصيات الجانبية ثم تتمثل فى الحركة الدائمة ، واطـــار المغامرات التى تعتمد على السمات الخلقية والجسدية كما تتمثل أيضا فى الربط بين أجزاء الرواية بحيث يخدم كل جزء العمل ككل ٠

٥ ـ ان بطل السيرة صاحب رسالة هى دائما رسالة الحق ، وانه يصارع دائما الشر ، وانه ينتصر دائما على هذا الشر فى كل صوره ٠

٦ ـ وبطل السيرة ليس غريبا عن البيئة العربية ٠٠ فلا بد أن يتصل من حيث نسبه الى نوح ، وآدم على الأقل ـ دلالة على عراقة عروبته وصدق نسبه وحتى فى الحالات التى يكون البطل فيها غير عربى كسيرة الظـــاهر فلابد من وجود شخصيات تنوب عنه فى العروبة ، وتلعب دورا لا يقل عن دوره كمعروف بن حجر فى سيرة الظاهر ٠

٧ ـ قيام السير الشعبية على أساس خلقى بمعنى أنها تعكس صـــورة مشرفة للخلق العربى الاسلامى والمثل العليا الاســـلامية ، أما فى تصرفات الأبطال ، وأما فى طريقة سير الاحداث ٠

٨ ـ المرأة أم وأخت وزوجة لها احترامها ، ولها قيمتها ، ولا يمكن أن تبدو فى صورة مبتذلة الا ولقيت جزاءها ٠٠ كأم سيف فى سيرة سيف بن ذى يزن ٠

٩ ـ تكشف السير قطاعات من مجتمعنا العربى يمكن بدراستها معرفـة الصورة الحقيقية لتكوين المجتمع العربى ، وحقيقة الصراعات الدائرة حوله ٠

١٠ ـ مسايرة السير الشعبية للمفاهيم الاسلامية الدينية ٠٠ فالبطل دائما عربى مسلم ينصر دين الاسلام على عبادة الاوثان ، وعلى غيرها من الأديان ، وتساعده فى كل أعماله البطولية كل القوى المسلمة سواء فى عالم الواقع أو فى عالم الخيال والجان ٠

١١ ـ لغة السير الشعبية النثرية لغة سهلة مسجوعة تكاد تقترب الى لغة التخاطب عند أهل المدينة التى يمتزج فيها الأصل العربى بروافد شعبية من

مختلف الشعوب المسلمة مع بعض آثار اللغة الدارجة التى تستخدم محليا ..
فهى تكونت بحكم المزج والاستعمال والاختلاط والتزاوج اللغوى ، والسجع فى السيرة لا يقصد لذاته كحلية لغوية ، وانما هو يقصد كوسيلة مساعدة للحفظ ، وليتم تناقل السيرة مشافهة وعن طريق السماع ، وكذلك يخدم هذا الهدف أيضا الأسلوب العام المتبع فى تقسيم الجمل الى فقرات صغيرة متناسقة موسيقيا ومتساوية من حيث الطول ، وعدد الحروف ، ومن ناحية الايقاع الموسيقى أيضا .

١٢ ـ استعمال الشعر فى السير الشعبية يأتى للاستدلال أو الاستشهاد وكذلك يأتى كأداة صراع داخل المعركة . اذ يخوض الأبطال معارك كلامية قبل معارك السيف أدناها الشعر ، واستعمال الشعر فى الحوار بين الأبطال أمر شائع فى السير الشعبية كلها ، وهنا يقف المشهد من الناحية السردية تماما ، وتنتقل المسألة كلها الى عملية حوارية بالشعر واستعمال الشعر فى الحوار له دلالته الفنية فى تصوير الصراع وتجسيده ، وفى ابراز المعالم النفسية التى يقوم عليها هذا الصراع .

ويأتى الشعر كذلك على لسان الأبطال لرسم موقفهم من الاحداث أعنى أن المؤلف يستعمله للتعبير عن الانفعالات النفسية فى المواقف التى يكون فيها الشعر أصدق دلالة وأبعد أثرا وأشد تأثيرا الا أننا نحب أن نلفت الى أن الشعر بوظائفه هذه لا يطغى على العمل الأصيل ، وانما هو يساعده ويحسنه ، ولو نزعنا من معظم السير كل ما بها من شعر لما غير هذا من مكانتها القصصية فى شىء .

تعليق على القصة الشعبية

نعرض فيه لبعض خصائصها ثم ننتهى الى التفسير السيكلوجى

ذكرنا أمثلة للقصة الشعبية ، وأوردنا بعض خصائصهـــا فيما تقدم ، ونضيف ان هناك أنواعا أخرى من القصص الشعبى يتخذ صور الأساطير ، وقد يفهم من هذا اللفظ (أسطورة) أنها قديمة موغلة فى القدم كأساطير اليونـان أو غيرهم من الشعوب القديمة الصينية والهندية والمصرية وغيرها . ولكن هناك أساطير نشأت فى فترات قريبة نسبيا سميت كذلك لأنها تتفـــق مع تلك الاساطير القديمة فى نوعية التفكير ، وتعالج مشكلات ميتافيزيقية أو روحية يتعذر على العقل البشرى أن يجد لها تفسيرا واقعيا فلا يسعه الا أن يصفها كما هى ولا يسعنا الا أن نسميها أساطير الأولياء .

هذه الأساطير التى نعنيها الآن هى تلك التى تعبر عن كرامات الأولياء فبعد أن استقر الدين بين البشر ولم يعد هناك مجال للتشكك فى وحدانية الله ،

وفى قدرته وعظمته ، وجد الانسان أن هناك أناسا يعيشون معه لهم أسلوبهم الخاص فى الحياة مفعمون الى الفضائل ، ويؤدون الخير من الأعمال على نحو يجعل العامة يصفونهم بالبطولة وخاصة ان تلك الاعمال الخيرة تظهر فيهـا مقدرة تفوق قدرة من حولهم من الناس ـ أى أنها تتم على نحو من الاعجاز فتكون أعمالا خارقة للعادة أى أن الله يؤيد صاحبها ويمده بالعون دليلا على الرضى من الله سبحانه وتعالى مما يجعل الناس يلتفون حول هذه الشخصية ويدركون انه ولى مقرب من الله فينسب اليه المعجزات التى تحقق فى الواقع أو تلك التى يصورها خيال الشعب بناء على عمق تأثره بتلك الشخصية الخيرة ولا يقتصر الأمر على شخصية الولى فحسب بل كل ما يتصل به فى المكان ويتعداه فى الزمان .. فبيته وفراشه ولمسته وملبسه وطعامه وكلامه كلها أشياء تجلب الخير والبركة فى حياته وبعد مماته .. لذلك لا تموت شخصية الولى ، ولكنها تخلد وتكتسب قدرة فائقة فيقصد اليها العامة عند زيارة الأولياء ، والتمسح بأستارهم للحصول على شىء منها للتبرك بها أو ربط جزء من ملابس الشخص المريض أو المحتاج الى العون بضريح أحد الأولياء معنى ذلك أن يتحقق التصاق بين المريض والولى وتسرى فعالية الولى فى هذا الأثر الذى يخص المريض فتنتقل اليه تلك الفعالية ويتحقق له ما يرجوه من خير . **ان فكرة التابو وانتقال الأثر عن طريق اللمس تبرز من خلال عقلية الشعب عند معالجته لتلك المشكلات .**

تفسـير :

كيف يمكن لنا أن نفسر اهتمام العامة بشخصية ما يسمونه ولى ، أو قديس ، وكيف يمكن أن يبقى هذا الاهتمام على نحو متواصل ، وهل عامـة الشعب أو غالبيته من اليقظة والخيرية والتدين والروحانيـة بحيث يقدرون الفضائل وينفعلون بها الى حد يجعلهم يعجبون بها اعجابا شديدا فيحيكون حول الأولياء القصص والأساطير ويمجدونهم أحياءا وأمواتا ـ ثم يستمسكون بمنزلتهم الرفيعـة أجيـالا وأجيـالا ، وهل كل أفراد الشعب قد ارتقوا عن الرذائل واستمسكوا بالفضائل ؟ وهل هم جميعا خيرون لا ينشدون الا العفة والشرف والكمال ؟ كلا ، ولا يمكن أن يكون ذلك ، ولكن الحقيقة التى لا يجهلها انسان هى انه مهما كان الفرد غليظ القلب مسرفا فى الرذائل فانه لا يخلو من عنصر الخير ولو الى درجة لا تقوى على الحد من شروره وآثامه الا أن هذا القدر الضئيل من الخيرية يسمح بتحريك وجدانه ومحاسبته لنفسه ولو فى بعض الأوقات . لذلك فهو عندما يخلد الى ذاته يتمنى لو تاب توبة نصوحة ، فرضى الله عنه وقبل توبته أى أنه يتحرك الى تقدير الخير ويعلى من قيمته .

ان الشعب لا يكفيه أن يرى بعض الناس خيرين يصدرون فى سلوكهم عن اتجاهات أخلاقية سامية ، وانما هو يسعى الى تجسيد الخير والفضائل فى ...

شخصية نموذجية تكون كمثل صالح للناس وقدوة ينهجون نهجها ـ أى أن الشعب يضع لنفسه المعيار الذى يتمنى أن يصل اليه والقدوة التى يحتذيها وقد لا يستطيع الوصول الى ذلك المستوى ، ولكنه على الأقل يستطيع تقييم أفعاله بالنسبة الى هذا المعيار ٠ ان يقظة الشعب ووعيه هي دعامة الحياة والخلود ٠

كذلك لا يغفل الشعب جانب الشر فى الأشرار ، فيحيك حولهم أساطير قوامها أن تصدر السماء عليها حكما يتمثل فى اللعنة الأبدية والمقت والعذاب الذى يحيق بالشرير ولقد ظهرت فى القصص الشعبى مثل تلك الاتجاهات الشريرة وما ينتهى اليه أبطالها من تصدع وانتقام الهى ، فتحكى القصة وهى تأويل خرافى ان السلحفاة كانت امرأة شريرة أنكرت عن جارتها الرحاة لطحن غلالها وآثرت ألا تعيرها الرحاة لتطحن الغلال وتقدم الطعام لصغارها اليتامى فغضب الله عليها وحولها الى ذلك الحيوان الذى يسير متواريا خلف هذا الحجر الصلد الثقيل وغير ذلك من الأساطير الشعبية مما يبدو منه الكثير مما يشير الى الخير أو يعبر عن الشر ، والشعب فى كل واحدة من تلك الاساطير هو خالقها ومبدعها كتعبير عن شخصيته ونفسيته ومعاييره وقيمه ٠

نضيف الى ذلك أن العقلية الشعبية ترى من هؤلاء الأولياء وسطاء بين الأرض والسماء فيضرعون اليهم أحياء وأمواتا على حل مشكلاتهم مما يخفف عنهم آلامهم ويمنحهم قدرا من الطمأنينة والسلام ٠

ومن ألوان القصص الشعبى أيضا ٠٠ الخرافة :

والخرافة تختار لها عالما خاصا يزخر بالسحر والجمال والرهبة والقوة وما يضمن للقصة نصرة البطل حتى ولو كان ذلك على حساب الخروج عن حتمية الزمان والمكان اللذين يتمثلان فى الواقع ٠ أن الخرافة تعيش فى عالمها الخاص وهو يختلف تماما عن عالمنا الواقعى مع أنه ذو أثر كبير فى حياتنا الواقعية ويتمثل ذلك الأثر فى رغبة عارمة عند كل انسان لكشف أستار الغيب والوصول الى معرفة المجهول ٠٠ فهو يثير فيه الخوف والقلق ويدفعه الى مزيد من الرغبة والشوق اليه ٠٠ انه عالم يذخر بالجن والمردة والغيلان والموتى والسحرة وبالطيور والحيوانات الخارقة التى تكلم الانسان البطل لتهديه وترشده وهو لا يخشى تلك الكائنات الغريبة ، ولكنه يقابلها فى شجاعة ولا مبالاة ، ويخوض المعارك أمامها فينتصر عليها مثال ذلك عصفور صغير كان يلقى بالحصى من منقاره القصير على ذلك العدو الكاسر حتى ساعد البطل على أن يحرز النصر ، وأن نملة طيبة جعلت الصياد لا يقوى على اصابة الهدف فنجا الطائر من قاتله أو أن فأرا ساعد الأسد على الخروج من شباكه التى أعدها له الصيادون ، وما ذلك الا لأن كل واحد من هذه الكائنات التى انتصرت على غريمها بطل ترعاه العنايه

وتمده بالعون والمساعدة ، ثم أن البطل انما يخلص من تلك المشكلات لكى يواصل الجهد ويحقق دافعا هاما تحفزه اليه رغبة فى الحصول على عروسه التى اختطفها منه عدوه أو تخليص بلده من أيدى الغاصبين أو قومه من الاسر والعذاب فهو يغوص البحار ويصعد الجبال وتعترضه الوحوش والثلوج أو يقطع الفيافى والقفار أو يطلب منه مطلبا عسيرا ليكون مهرا لعروسه وهكذا والبطل فى كل تلك المغامرات لا يصدر فى سلوكه عن ذكاء وفطنة وعبقرية ، ولكنه يتلقى العون من خاتم سحرى يحكه فيظهر له المارد الجبار الذى يقضى له مطلبه أو ينقله الى حيث يشاء هذا العون مشروط بزمان وطقوس بالذات فهو يتلقاه فى وقت ويزول عنه فى وقت آخر فلا يكون له حول ولا طول ٠

وشخوص الحكاية الخرافية قد تكون أشكالا بدون أجساد بلا وقائع ، وبلا عالم على خلاف ما هو فى عالمنا الواقعى ، أى أن عالم الخرافة مسطح بلا أعماق ولا أبعاد ٠٠ لذلك نجد البطل ينجز مهمة خطيرة فى مكان ، وينتقل فى نفس اللحظة الى مكان آخر ناء ليتم فيه مهمته مستخدما فى ذلك سحر طائر أو بساط الريح أو ماردا ينقله على ظهره ويحلق به فى الآفاق ، كذلك تنام الاميرة مائة عام ثم ينقذها الامير الشاب فتفيق وهى ما زالت شابة يانعة ، وبفعل السحر (لا تجور عليها السنون) من كل ما قدمناه وما يمكن أن نصف به الخرافة من ميل الى التجريد واتجاه نحو التسامى يكتسب البطل قدرة خاصة على امتلاك الحياة والنفاذ فى طياتها مما يجعله جديرا بالثقة ومبعثا للأمل ومما يروق الناس أن تتابع صيغتها وتتلهف لمعرفة المزيد ، وهو فى كل ذلك انما يعبر عن مشاعر العامة وآمالهم وآلامهم وقيمهم الأصيلة ويحقق لهم من السعادة والنجاح ما يتمنون الوصول اليه ، وقد لا يسعفهم القدر فهم يرونه جاهزا أمام فكرهم بما يسمعون ، وما يتردد عليهم من خرافات وقصص شعبية فتنال منهم القبول لأنها تصرفهم عن الواقع ، عما عجزوا عن الوصول اليه وما استعصى تحقيقه ليعيشوا ولو مؤقتا فى عالم القصة الخرافية عالم البطولة والسحر والمعجزات ٠ ان الخرافة تدفع الانسان ولو مؤقتا الى أن يصرف النظر عما أضجره من معضلات فى حياته الواقعية ، وما يعانى فيها من مشكلات ليعيش محلقا عبر أجواء ليس عليه أن يفسرها ولكن ينعم بالنظر اليها واقتفاء أثرها ، انها تعبير عن رغبة الانسان فى تغيير وجوده وحياته حتى تخفف بعض الصراعات التى قد تؤدى بشخصيته الى التصدع والانهيار ، ومن هنا كان الشبه كبيرا بين الخرافة والحلم فكلاهما يعيشه الانسان بلا حدود ، ودون أن يقلقه الواقع ٠

الرمزية فى القصة الخرافية :

اذا كانت القصة الخرافية تعبيرا عن نفسية الشاعر بأسلوب يتجه الى التجريد والعزلة عن الواقع تميل الى التسامى ٠٠ فانها تحوى من الأجناس والأشخاص ما لا يمكن فهمه الا على أعتبار انها رموز تخفى ورائهـا تجارب انسانية نفسية وأخلاقية تتضح بشىء من التفكير : فالقرد الذى يشتريه التاجر هدية لزوجته بعد أن سافر ، وجاب الاقطار والبحار تغمره الزوجة بالعطف والحب فيتحول الى شاب وسيم ، ويحكى قصته للزوجة فقد عاش سنين طوالا فى صورة قرد بفعل السحر من عجوز شريرة ولكنـه بالعطف والحب استرجع شخصيته وعاد انسانا بل مخلوقا جديدا ينعم بحسه ومشاعره ٠

ولعل هذه الرمزية ترمى الى أن الشر يمسخ الحيـاة ، والخير والحب يحيلانها الى سعادة ونجاح ، وكذلك تتضح فى الخرافة فكرة التابو فى صورة تحريمات تتخذ أشكالا متعددة ٠٠ فزوجة التاجر الثرى الذى يغدق عليها من كل ثرواته وماله ويجعلها تقيم فى قصر زاخر بالفراش والرياش ، ولكنه يحرمها من دخول غرفة معينة ، ويضع تحت يدها مفتاح الغرفة امعانا فى الاغـراء ، وأيضا امعانا فى الحرمان ، فتدفعها الرغبة الملحة فى كشف المجهول الى فتح الغرفة المحرمة فاذا هى لا تجد الا الرهبـة والظـلام ، أو تجد نسـاء تتدلى من شعور رأسها ـ هى زوجات التاجر الثرى السابقات أخطأن خطيئتها فحكم عليهن بهذا المصير أو تجد ممرات طويلة تقودها الى قصر مسحور عندما تخرج منه تجد نفسها قد فقدت طريقها الى بيت زوجها حيث كانت تنعم بالراحة والسعـادة وتظل تجوب الأرض بالندم والحرمان ٠

تلك هى رمزية التحريم التى ترمى اليها الخرافة ٠٠ انها تطلب من الانسان ألا يسعى الى هلاكه وألا يبحث عن المجهول بل يرضى بحياته ويعيشها قانعـا مطمئنا أن الراحة النفسية والاطمئنان هما علامة على سلامة الشخصية وبعدها عن الانحراف أما القلق والتوتر والرغبـة الجامحة فى الوصول الى المجهول وكشف القدر والمكتوب فتلك اتجاهات عصابية قد تبدو بسيطة ولكنها ذات فعالية وأثر سىء فى اهتزاز الشخصية وصرفها عن السلامة والهدوء ٠

وكثيرا ما يلتقى البطل بقوى الشر ، ويكون عليه أن يهزمهـا ويعلن انتصاره عليها انها تمثل الصراع الداخلى الذى يحتدم داخل الفرد فى كثير من المواقف ويكون على صاحبـه أن يرجح بعقله وخبرته الاتجاه الصحيح ، الخير فينتصر على الشر حتى يحقق ذاته ويبدو التكامل والنضج فى شخصيته ٠ وكذلك لا تكون سلامة الشخصية الا بالشعور بالذاتية والاستقلال والقدرة على تحمل الصعاب وتأهب النفس لذلك التحمل عن رضى وارتياح وتلك المواقف كلهـا تتضح فى كثير من القصص الخرافية ٠ قصة أنس الوجود والورد فى الأكمام التى أبعدها والدها عن دارها لتعيش فى قلعة وسـط ماء البحر لا يصل اليها

أحد ولا ترى فيه انسانا حتى الخدم الذى وضعوها فى هذا المكان المائى آمروا ان يعودوا ويحطموا السفينة التى حملتها حتى لا تكون لديها وسيلة للعودة الى أهلها وحبيبها فتألف الفتاة الحياة الجديدة وتتكيف وفقا لها ، وبذلك تتحلل روابط الطفولة وعلاقاتها بابويها لتواجه حياتهـا مستقلة بذاتها ثم يتمكن حبيبها من الوصول اليها فتصل الفتاة الى مرحلة الهدوء والاستقرار والراحة النفسية •

ويتضح فى كثير من القصص سواء منها الأسطورة أو القصة الشعبيـــة قصة الطفل الذى يخشاه أباه فيلقى به فى النهر أو فى الغابة ، وفى ذلك اشارة (ولو انها معكوسة) الى العداء بين الطفل وأبيه فى المراحل الأولى من نمـــوه فهى عملية اسقاط تبدو فى صورة خوف الأب من ابنه بدلا من أن يكون الواقع وهو كراهية الابن لأبيه وتعلقه بأمه ، فالصندوق الذى يوضع فيه الطفل ويرمى به فى اليم يمثل رحم الأم والماء رمز للميلاد • ثم يعثر انسان طيب على الصندوق أو على الطفل اينما كان فيتولى تربية الطفل ويرعاه وتلك اشارة الى رعايـــة الاب لابنه فى مرحلة تالية عندما يتخلص الطفل من المرحلة الاولى وينظر الى أبويه نظرة التقدير والعرفان متخذا منهما مثلا له ومقلدا اتجاهاتهما ذلك فى فترة التنشئة والتربية ليتشرب منهما القيم والسلوك الاجتماعى الذى يؤدى به الى النضج والاستقلال لتحدد معالم شخصيته ، وذلك ما يحدث فى القصـــة الشعبية عندما يكبر الطفل الذى نبذته أسرته ويحقق أهدافه حتى يصبح بطلا كما هو فى كثير من القصص المعروفة بعد ذلك تسنح له الفرصة فيتعرف على والديه بأن يعود اليهما أو يدعوهما للحضور ويعلن لهما عن ذاته وقصته ، ويعلن لهما حبه وولاءه كما ورد أيضا فى قصة سيدنا يوسف عندما القى فى الجب ثم عرف أخوته وطلب اليهم احضار أبيه وأهله الى مصر وكذلك فى قصة سيدنا موسى عندما القى به فى اليم فتبنته زوجة فرعون وأرضعته أمه •

ويفسر يونج ظهور البطل فى القصـة واتخاذه صفات معينة تجعل منه بطلا عن طريق ما يسميه بالنموذج الأصلى أى الخصائص الأولى للنفس البشرية وهى ذات طابع جماعى تختزن فى لا شعور الجماعة فتنتقل من جيل الى جيـــل متخذة نفس المعايير والقيم فتصدر عنها الأحكام ذات اتجاهات موحدة وتطابق كبير فالتخيلات الأسطورية التى تذخر بها القصة تتطابق مع النموذج الأصلى فيبدو فيها الفكر ساذجا بريئا من الاتجاهات الذاتية والعناصر المادية نقيـــا متساميا والنموذج الأصلى يكون جزءا هاما من حصيلتنا النفسية والخلقية لأنه القانون والمعيار الذى يصدر عنه وعن الفرد وتقديره وحكمه على الأفعال فهـــو يتصدى للافعال الغريزية فيحيلها الى أساليب سلوكية صالحة بعد أن يطوعها لأوامر الجمـــاعة ونواهيها ومن هنا كانت تتآلف الشخصية السليمة من ذلك التفاعل الدائم بين كل من الضمير والغريزة •

ويرى يونج ان الانسان البدائى عندما ينطق بكلمة أو يؤدى عملا قد لا يفهم له معنى فانه مدفوع بذلك الهدف الروحانى الذى يحقق كماله ·

وبناء على ذلك يكون البطل فى القصة الشعبية أو الأسطورة أو غيرها هو ذلك النموذج الأصلى الذى يعبر عن شخصية الأديب الشعبى أو هو سيطرة ذلك الأنموذج على الأديب لشعبى حتى ينحو الى الكمال ، وكل ما يعترض البطل من اخطار هى تماما ما يعترض الانسان فى حياته من صعاب وعقبات حتى يصل الى الكمال حتى يحقق ذاته وتتسم شخصيته بالسلامة والنضج ان الأديب الشعبى شأنه فى ذلك شأن الأدباء فى شتى العصور والمستويات · عندما يعبر عن المارد الجبار ، أو الوحش المروع ، انما يخرج مكنونات اللا شعور منذ الطفولة المبكرة ومخاوف الحياة الاجتماعية التى يعيشها بين الناس ليصبها فى قالب جديد هو ذلك التنين الضخم أو الوحش المفزع ثم يمضى فينتصر عليها فيحقق لذاته الثبات والطمأنينة ·

وكما أن شخصية الفرد تحدد الأفعال التى تصدر عنه فهى · أيضا تتأثر به فهناك احالة متبادلة بين كل من الشخصية والسلوك وتظهر آثار ذلك فيما ينتجه السلوك من أعمال وكتابات ومخترعات ، وما يتبع ذلك من آثار هى الأخرى تنعكس مرة أخرى على صاحبها فتؤثر فى شخصيته مرة ثانية وهكذا ·

ومن ثم يقال (ان الفنان ينوع نفسه اذ يبدع لوحاته) يقول يونج اننا لا نعرف الا القليل عن أنفسنا أما الكثير فهو مختزن فى اللا شعور يفاجئنا وفقا للمناسبات المختلفة التى تحتم عليه الظهور · ان اللا شعور الجمعى ليذخر بتجارب وخبرات عن طريقها تصدر أحكامنا ونقيم معاييرنا وأبطالنا بما تذخر به القصص والآداب الشعبية ·· التى ما زالت تنال اعجابا واستحسانا كلما ترددت على مسامع عامة الشعب حتى اليوم أى أنها أصبحت جزءا من خلق الجماعة وسلوكها ومثالياتها وتعبيرا عن فكر الشعب وروحه ووجداناته ، ومن هنا كانت وسيلة فعالة للتطبيع الاجتماعى ·

القصة ·· ابداع وتطبيع :

يقول روبرت ليدل (١) · لقد نجحت القصة فى تصوير الشخصية وهى تعمل وتتحرك أكثر من المسرحية والعقول التى كان من الممكن أن تجذبها المسرحية فى العصور الأخرى اجتذبتها القصص · ذلك أن القصة شأنها فى كل العصور هو أن تؤدى وظيفتين هامتين بالنسبة للانسان فهى أولا وسيلة ترفيه وهى ثانيا سجل لمغامرات الانسان وكفاحه الدائب فى الحياة وهاتان

---

(١) Liddell, J. R. Ameatise on the novel, Jonatan Cape, London, 1947.

الصفتان يلازمان القصة على مدى العصور فالمستمع لا يشعر بنشوة الاستمتاع ما لم يشف نفسه بسيرة أو قصة مغامرة أو بأحداث مثيرة تجذب انتباهه بقوة وتدفعه الى مواصلة الاســتماع والتلهف للوصول الى النتيجة ومن هنا كانت القصة متعة سائغة يتناولها الناس على كافة مستوياتهم ، فالقصة الشعبية يطرب لها أبناء الشعب ، والقصة الأدبية يقرأها المثقفون • وكثيرا ما نجد قصة على هذا الطراز أو ذاك تنال من الشهرة والرواج ما يجعلها تتحول الى مسرحية ناجحة يتكاثر الاقبال عليها حتى تتحول بعد ذلك الى فيلم سينمائى ناجح •

وليس من السهل أن نحدد العناصر التى يجب أن تتوافر فى القصة حتى تسـبب المتعة التى تؤدى بها الى النجاح وحتى تلقى القبول بين كل النـاس فالانسان يستمع الى القصة بشغف لأنها تنقل اليه شـيئا غير ما يعرف أو ما لا يسـتطيع القيام به من الأعمال وخاصة فى نواحى البطولة والفروسـية أو الخوارق كالسحر أو الفراسة • أو وصف مشكلات الحياة وآلامها مما يثير نوازع الانسان أو يحرك وجدانه أو يكون تعبيرا عن مشاعره الخاصة ومشاركه لآلامه فكثيرا ماتدفع القصة مستمعيها الى الألم والبكاء وهم اذ يبكون لايدفعهم الى ذلك أحداث القصة التى يستمعون اليها •• بل احداثهم الخاصة وما يعيشونه من آلام ومآس ، وقد لا تكون هذه الآلام والمآسى حقيقة واقعة بالنسبة لهم ولكنهم يختلقونها ويتصورون انها تحل بهم فيتحولون الى حزن اجبارى يسيطر عليهم ويقودهم الى البكاء • **انها حالات من عصاب الوسواس القهرى تتفاوت فى القوة والوضوح حسب حالة المستمع النفسية وما تكنه من مشاعر واضطرابات •**

ولكن عملية ابداع القصة فى حد ذاتها تتطلب منا شيئا من التأمل ، فمن الواضح أن الفنان الشعبى أو كاتب القصة بوجه عام يبرز أحداثا طريفة وقعت لأشخاص معينين لكنه لا يحكى هذه الأحداث لمجرد طرافتها ولكنه يضيف اليها شرحا وايضاحا لما حدث فتخرج القصة معبرة عن ذات القاص تحمل وجهة نظره وتحمل ميوله واتجاهاته عن رأيه وشخصيته وذاته ، فهى تحمل المعنى الذى يرضى مزاج القاص وبذلك تصبح المتعة لا وقفا على سرد للأحداث الطريفة التى تحويها القصة بل انها أيضا تشمل التفسير الذى يقدمه الفنان لهذه الأحداث مضافة الى المعنى الكلى الذى يفهم من القصة بوجه عام •

وهنا تظهر أهمية خطيرة للأدب القصصى فهو يحوى عملية ايحاء غير مباشر للمستمع أو القارىء يقبل معنى أو يرفضه وفقا لقدرة الكاتب على الاقناع من ناحية ، ومن ناحية أخرى وفقا لاتجاهاته وميوله الخاصة •

وعن طريق هذا الاتجاه تكون التربية بمعناها الواسع ، ويكون التطبيع الاجتمـاعى فالبيئة التى تنتشر فيها قصص البطولة والمغامرات يتأثر صغارها وشبابها بما تحويه من قيم تعبر عن الشهامة والرجولة والقوة والبأس مع المروءة والتضحية مما يؤثر فى تنشئتهم ويكيفهم تكييفا خاصا يجعلهم يضعون هـذه

المبادىء فى المقام الأول ، فالطفل يفخر بالعمل البطولى على المستوى الذى يناسبه، والشاب يفخر بالعمل البطولى متشبها بمن سبقه من الأبطال ، مثل هذا المجتمع تظهر فيه قوة الرجل وسيطرته ونفوذه فيكون التأثير الغالب فيه للآباء وقد يؤدى ذلك حسب قانون التنوع فى الوراثة الى بروز مزيد من الشجاعة فى واحد من بين أفراد الجماعة ، اذن فيخلق بطل جديد بينهم مما يؤدى الى مزيد من التمسك بتلك الصفات التى تتأثر بالتنشئة والتطبيع وتكسب المجتمع الذى تظهر فيه صفات قد تغاير مجتمعا آخر تنتشر فيه الفنون الشعبية على نحو آخر ففى قرية من قرى الوجه البحرى تنتشر المواويل وأغانى الوله والغرام بين الفتيات والفتيان ، وكانت تلك الأغانى بالنسبة لهم كمحرك للدوافع الوجدانية فى الجماعة ومؤثر قوى فى مشاعرهم واتجاهاتهم الخاصة مما أدى الى بروز صفة مشتركة بينهم وهى ميلهم القوى الى الطرب والغناء والرقص .

وهناك قرية على مقربة من السابقة يميل أهلها بصفة عامة الى الاستماع الى القصص الدينى ويقضون السهرات فى اقامة الحفلات الدينية وترديد السيرة النبوية وغير ذلك من مظاهر التعبد والتدين لا بين الكهول وحدهم أو فى المساجد فحسب بل يشترك فى هذه المظاهر الشباب أيضا وتقام تلك السهرات فى المنازل مما يضفى عليها جوا دينيا وأثرا عميقا فى نفوس من بها من النساء والفتيات أى ان الأسرة كلها تشارك فى هذه السهرات الدينية وترحب بها كنشاط اجتماعى يجلب لها السرور ذلك انها لا تقوم بهذا النشاط منفردة . بل يشاركها فيه غيرها من الأسر والأهل والأصدقاء .

ومن دراستى الميدانية لهذه القرية أقرر ما يلى :

اسم القرية كفر حجازى (غربية)

عدد السكان عام	١٩٣٠	٣٠٠٠	عدد المسيحيين بها (لا يوجد)
عدد السكان عام	١٩٥٠	٦٠٠٠	عدد المسيحيين بها (لا يوجد)
عدد السكان عام	١٩٧٠	١٢٠٠٠	عدد المسيحيين بها (لا يوجد)

عدد المساجد التى تحوى قبرا لولى أو شيخ حتى الآن (١) (لا يوجد) . عدد الجرائم التى ترتكب فى السنة (١٩٧٠ مثلا) ـ ٢ جنحة بالاضافة الى قليل جدا من المخالفات التى لا تصل الى خارج القرية بل تحل محليا بواسطة العمدة وأعوانه . أما الجرائم فى تاريخ هذه القرية الطويل لم تحدث بها غير

(١) سالت أحد كبار رجال القرية عن ظاهرة عدم وجود أولياء أو مشايخ فيها فكانت اجابته معبرة عن البراءة والبساطة وهى أن أهل القرية فى غير حاجة الى ولى أو شيخ وان الله يبعث الأولياء ليكونوا بين الجماعات التى تحتاج الى الدعوة وايقاظ روح الدين بينهم بينما أهل هذه القرية لا يحتاجون الى ذلك .

جريمة واحدة وقعت فى عام ١٩٦٨ وكانت بتأثير أشـخاص من خارج القرية نتيجة للهجرة على أثر عدوان ١٩٦٧ ٠

ومن الملاحظ أن أكثر أبناء القرية قد وجهوا فى الدراسة توجيها دينيا فدرسوا فى المعاهد الدينية والأزهر وأن أهل القرية بوجه عام قد احتفظوا بهذه النزعات الدينية الخالصة حتى الوقت الحاضر مع وجود مؤثرات خارجية قوية على مقربة منهم ، ومن بينهم أهمها اقامة مصانع النسـيج الكبرى فى المحلة الكبرى ، وشركة بنك مصر ، ومحلج وغزل ونسيج الأقطان وما تحويه من عدد ضخم من العمال وما يسرى بينهم من أفكار ومبادىء وأساليب سلوكية وخلقية تختلف عما يسود القرية المجاورة تماما ، ولذلك امتنع أهل القرية تماما ولفترة طويلة عن تشغيل أبناءهم فى المصانع ولكن الحرب العالمية الثـانية وما جلبته للقرية من مهاجرين غرباء يحملون ثقافة مغايرة لثقافة أهل القرية أدت الى خلق تأثيرات جديدة فى فتيان القرية وخاصة أبناء الطبقة الثالثة فأقبلوا على العمل فى المصانع كعمال نسيج ولكنهم كقلة ضئيلة بين عدد سكان أهل القرية المتزايد على نحو سريع لم يتمكنوا من ابراز صفات جديدة منافية لخلق القرية الأصيل لا بين الجماعة ولا فيما بينهم الا على نطاق ضـيق جدا يكاد لا يلتفت اليه ٠

كذلك الهجرات المتتالية الى داخل القرية ابتداء من الحرب العالمية الثانية ثم حرب فلسطين (١٩٤٨) ثم العدوان الثلاثى (١٩٥٦) وأخيرا حرب يونيو ١٩٦٧ ، قد جعلت بعض الغرباء يقيمون بالقرية الا أنهم كانوا قلة ضئيلة من حيث العدد كما انهم كانوا على مستوى اقتصادى منخفض بحيث أنهم يكونون بحاجة الى عون أثرياء القرية ومن هنا كان تأثيرهم على أهل القرية ضئيلا لايقوى على احداث أى تغيير ٠

هناك عامل أخير ذو أهمية كبرى فى تشكيل وابراز العلاقات الاجتماعية بين الجماعة وهو العامل الاقتصادى فبدراسة ظروف هذه القرية من حيث قوة الملكية بها تقرر انه منذ عام ١٩٤٠ أصبح أثرى رجال القرية لا يملك الواحد منهم أكثر من مائة فدان ومعنى ذلك انه لا توجد بهذه القرية ملكيات شاسعة ذات طابع استغلالى يؤدى الى الحقد والتنافس والبغضاء ويباعد بين أفراد الجماعة ومن هنا كانت دلائل الاخوة والمحبة والتعاون التام من أوضح مظاهر الحياة فى هذه القرية ، لذلك كانت الحيـاة الاجتماعية هادئة بعيدة عن المشـكلات ـ أو المشـاغبات ، وكان تأثير الدين من أكبر العوامل التى أدت الى ظهور تطبيع وتنشئة خاصة بداخل هذه القرية الآمنة ، لقد أوردت هذا المثال لابراز الأثر الدينى فى التنشئة الاجتماعية مقابلا للمثال الذى أوردته سابقا عن القرية التى اشتهرت بقصص الغرام ، ومواويل العشق والهيـام ولعل الفرق واضح بين كل منهما ٠

● الفصل الخامس

المثل الشعبى

خصائصه :

١ ـ أنه خلاصة لتجارب الانسان ومحصلة لخبرته ٠

٢ ـ يتمثل فيه جمال الأسلوب من ايجاز وبلاغة ٠

٣ ـ يوجه الى فكرة صحيحة أو تجربة صادقة ٠

ويعرف «فردريك زايلر » (١) المثل الشعبى فى مقدمة كتابه القيم (علم الأمثال الألمانية نشر ١٩٢٢) بأنه القول الجارى على ألسنة الشعب الذى يتميز بطابع تعليمى ، وشكل أدبى مكتمل ، يسمو على أشكال التعبير المألوفة وان له خصائص معينة ـ هى أنه :

١ ـ ذو طابع شعبى ٠

٢ ـ ذو طابع تعليمى ٠

٣ ـ ذو شكل أدبى مكتمل ٠

٤ ـ يسمو عن الكلام المألوف رغم انه يعيش فى أفواه الشعب ٠

الا أن « زايلر » يرى أن الأدب الشعبى انتاج فردى معارضا فى ذلك وجهة النظر المقابلة بأن الشعب ينتج أدبه ، ويردده ، حتى لا يعرف له صاحب وأن أصول الأدب الشعبى انما ترجع الى ما تمكن فى قرارة نفس الشعب من اهتمامات ومشاعر وأفكار جمعية ، وقد يبدو تعارض بين الرأيين ، ولكنهما فى الصميم يعبران عن وجهة نظر واحدة كما قدمنا فلا يمكن أن يتعاون أفراد من الشعب فى فترات تاريخية مختلفة على كتابة قصة شعبية أو موال شعبى ، ولكن لابد أن كاتب القصة واحد وكاتب الموال أو قائل المثل الشعبى واحد ، الا أن تداول هذه الفنون الشعبية وانتشارها بين العامة وكثرة ترديدهم لها تجعلها ملكا

(١) د٠ نبيلة ابراهيم ، اشكال التعبير فى الأدب الشعبى ، نهضة مصر ١٩٦٦ ٠

للشعب ملكا للجميع ، وكأنما هي نتاج مشترك بين كل أفراد الشعب ينالها التحوير والتهذيب من جيل الى جيل وفقا للاتجاهات العامة في كل زمان ٠

الفردية والتباين في المثل الشعبي :

ان التجربة الشخصية الخاصة بكل فرد على حده هي وحدة سلوكية فريدة بالنسبة لكل منـــا وفقا لظروفه ، وثقافته ، وخبراته ، وعلى الرغم من أن هذه التجارب تقع للانسان الفرد كل لحظة ، الا أنها من التنوع والاختلاف بما يتفق وموضوعها الخاص واتجاه الفرد ازاءها ٠

لذلك لا يمكن أن تمر بالانسان تجارب متماثلة الا في ظروف حياته العادية كالأفعال التي يؤديها الانسان يوميا ، ولا تحتاج الى تفكير أو اعادة نظر ، بذلك تظل تجارب كل انسان خاصة به مختلفة عما يؤدي اليه سلوك غيره من الأفراد، ومن هنا كان من العسير أن يصدر حكم عام ثابت لهذه التجارب الفردية الا من حيث ما نصل اليه من نتائج عامة تتفق في اتجاهاتها مع الاتجاه العام ، الذى يرمي اليه السلوك الانساني بصفة عامة ٠

من كل ذلك نجد بين الأمثال تعارضا واضحا ، وتناقضا ، ليس من اليسير تفسيره بغير الاعتماد على التجربة الفردية ٠

فاذا قلنا : « ابن الوز عوام » ، ومعناه أن ابن صاحب الحرفة لابد له أن يجيدها تماما ، فاننا نجد مثلا آخر يقول : « باب النجار مخلع » ، وهو يتعارض مع سابقه في المعنى والمضمون ، وان كان يمكن لنا أن نقول أن هذا المثل يعبر عن قصور لا في قدرة الفرد على التعليم ولكن في اهمال صاحب الشيء لما يستحقه منه ٠

فالنجار نظرا لازدحام يومه بالعمل لا يجد وقتا لاصلاح بابه ، ولكننا مع ذلك نتفق مع د٠ نبيلة ابراهيم بأن مثل هذين المثلين لابد أن كل منهما صدر عن تجربة فردية خاصة ، وأن كل واحد من هذه الأمثلة قد وجد استحسانا بين سامعيه يرددونه ويدركون أنه يعبر عن تجربة خاصة بهم في وقت معين ازاء موقف معين ، وهو يعيش تجاربه الخاصة يعبر عنها وعن نتائجها ، فهو اذا فشل في أمر ما وجد (قيراط بخت ولا فدان شطارة) وكذلك اذا وفق في عمل ما أي أن التجربة الشخصـــية المتغيرة بتغير الأفراد والمواقف تدفعنـــا الى التعبير على أنحاء تبدو متعارضـــة متناقضة عند النظرة الأولى للموضوع ، ولكنها في الواقع تعبر عن التغاير والاختلاف في ظروف الأفراد واتجاهاتهم ٠

أما الناحية التعليمية في المثل فهي أنه لابد أن يكوّن بداية لتحديد الفردية ولكن الواقع أننا نتخذ سلوكا معينا وفقا للمجال ، ثم ننتهي الى نتائج السلوك لنعبر عما وصلنا اليه بعبارة صادقة هي المثل الشعبي ، ولكن الواقع أن الانسان

يستطيع أن يصدر فى سلوكه وفقا لما يرد الى ذهنه من أمثله شعبية تناسب التجربة التى سيمر بها فيكتسب معها خبرة وبصيرة بالنتائج التى تؤدى اليها • فمثلا :

يابانى فى غير ملكك ـ يا مربى فى غير ولدك •

يشير الى أنه من العبث أن يضيع الانسان ماله وجهده ليبنى فى ملك غيره مثله مثل من يربى أبناء غيره •• فانهم قد لا يحفظون له العهد ويصونونه •

وبذلك يكون المثل توجيها وارشادا وتعليما كما أنه تعبير ناقد للحياة يقدم العبرة الصادقة للانسان بما يوجهه الى جادة الطريق ، فالحياة مليئة بالنقائص والعيوب والانسان كائن خطاء ومن هنا كان قادرا على التغير والتطور والتقدم فى شتى مجالات العمل والحياة ، وكانت حاجته الى النصح والارشاد والتوجيه فى كل خطوة من خطوات حياته السلوكية والعملية هى الدافع له الى النطق بالحكم والأمثال واتخاذها وسيلة للهدى والافادة من تجاربهـــا انها خبرات وتجارب واتجاهات روحية واخلاقية وآداب عامة تأخذ بها الجماعة لأنها تراها تتفق مع الزمان ، وان كانت قد وجدت منذ زمان بعيد •

أمثال حية من القرن التاسع الهجرى :

« من كتاب الأبشيهى (المستطرف من كل فن مستظرف) » •

هذه الأمثال مازالت تتفق فى كثير من ألفاظها مع ما ينطق به رجل الشارع اليوم ، كما أن مفاهيمها مازالت تعيش بيننا ومازلنا نجد لها مكانا فى حياتنا •

ولا شك أن هذه الأمثال كانت موجودة تتردد قبل الأبشيهى أى قبل القرن التاسع الهجرى ، وأنها بقيت على حالتها يرويها الشعب جيلا بعد جيل ويأخذها الصغير عن الكبير بدون تغيير يذكر لا لشىء الا لأنها تمثل الحياة المصرية بالرغم مما أصاب حياتنا من تغيير وتطور ، وهذا يدل من ناحية أخرى على أن مصر تتمتع بميزة المحافظة ، وبحب الجديد فى الوقت نفسه ، فهى تحب الاحتفاظ بشخصيتها وبتقاليدها ، ولكنها تحب أن تعرف كل شىء جديد ، على أن تخضع هذا الجديد لمزاجها وتقاليدها • وهذه الأمثال هى :

١ ـ بكره يدوب الثلج ويبان المرج •

٢ ـ بكره يهل رجب وتشوف العجب •

٣ ـ بلاش توكلنى فرخة سمينة وتبيتنى حزينة •

٤ ـ البلاش كتر منه •

٥ ـ بعد ما شاب ودوه الكتاب •

٦ ــ بعد ما طارت ساعدها بقوله هش ٠
٧ ــ بعد نومك مع الجديان بقى لك مطل على الجيران ٠
٨ ــ البغل العجوز ما يخافش من الجلاجل ٠
٩ ــ بفلوسك بنت السلطان عروسك ٠
١٠ ــ بفلوسك حنى دروسك ٠
١١ ــ بفلوسه الحلوة يكلم أبوها على العلوة ٠
١٢ ــ البنات بسبع وجوه ٠
١٣ ــ البنات مربطهم خالى ٠
١٤ ــ بنت الحراته تطلع دراسه ٠
١٥ ــ بنت الدار عورة (ما يملك يزهد فيه) ٠
١٦ ــ البهيم السايب متروك عوضه ٠
١٧ ــ البهيم من ودنه وبنى آدم من لسانه ٠
١٨ ــ آخد ابن عمى واتغطى بكمى ٠
١٩ ــ آخر خدمة الغز علقة ٠

تعليق :

ان الحكم والأمثال الشعبية انما تعبر عن فكر ثاقب استطاع عن طريق عمليات الاستبصار أن يصل الى مستوى القوة والوضوح ، والصفاء الروحى بحيث أن تعبيره أصبح يصلح لكل زمان ومكان ، وأقام لنفسه ولمجتمعه اطارا مرجعيا للخلق والسلوك والقيم والمعاملات والمبادىء بوجه عام ــ أى أن تلك الأقوال الشعبية الحكيمة قد شملت كل جوانب الحياة وكل مجالاتها ، وها هو واحد ممن اهتموا بجمع الأمثال (١) يصنفها وفقا لما تحويه من معنى وما ترمى اليه من مضمون ــ كما يلى :

١ ــ المجتمع :

المحبة ، العداء ، الصداقة ، التعاون ، المشاركة ، والنزاع ، المعاملات ٠

٢ ــ البيئة والوراثة :

المنبت والأصل ، الوراثة ، البيئة ، الطباع ، والعادات ، التربية ٠

٣ ــ الحظ والأقدار :

البخت ، الطالع ، المصادفة ، الاجتهاد ، المفاجآت . الاقدار ٠

---

(١) حسن عبد السلام ، المثل السائد وسلوك الانسان ، الأنجلو ، القاهرة ٠

٤ ـ **المشكلات النفسية :**

بواعث القلق النفسى ، التوتر ، الكبت ، العقد ، الهرع ، والفزع ٠

٥ ـ **بذور الخير والشر :**

الصدق والكذب ، الصراحة والخداع ، الاثرة والوفاء ، الغيبة والنميمة ٠

٦ ـ **الاعتماد على النفس :**

الاكتفاء الذاتى ، التروى ، الحيطة ، حساب المستقبل ٠

٧ ـ **الصبر :**

الغذاء ، الشمس ، النظافة ، الدواء ، الراحة ، النوم ٠

٩ ـ **الايجابية والسلبية :**

البطالة ، الكسل ، المسئولية ، الاعباء ، الامكانيات ٠

١٠ ـ **رباط الأسرة والجيرة :**

الأبناء ، الأحفاد ، الأقرباء ، تحديد النسل ، حقوق الجيرة ٠

١١ ـ **الحكمة والبصيرة ٠**

١٢ ـ **الملاءمة وتقدير الأوضاع ٠**

١٣ ـ **المظهر والتفاخر وسبق الاحداث ٠**

١٤ ـ **الادخار وعدم الاسراف ٠**

١٥ ـ **الاشاعة ٠**

١٦ ـ **الخصال :**

الشح ، السخاء ، الجبن ؛ الاستحياء ؛ التزلف

وقد أورد جامع هذه الأمثال عددا منها يعبر بدقة عن كل عنصر من العناصر السابقة مما يجعلنا نرى فى هذه الثروة الشعبية دستورا كاملا للحياة ، حياة متزنة متسعة الجوانب ، تكسب الصغير الماما ومعرفة فيسعى الى الأخذ بها وتنفيذ أوامرها ونواهيها ، أما بالنسبة للكبير فهى القوة والقانون الملزم الذى يهديه الى الطريق ، أو هى الوسيلة التى يصطنعها لينفذ من ورائها أفكاره وقيمه ليسيطر بها على المجتمع من حوله ٠

انها قوة ملزمة لا يقوى على تجاهلها والحياة بمنأى عنها ، ومن هنا كانت قوة دينمية فى عمليات التطبيع والتنشئة ونقل الأخلاق والعادات ، والقيم من

جيل الى جيل ، فهى تحوى حكما بالغة وصورا ساخـرة وتعبيرات صادقة نابعة من تجارب الانسان ، تعالج ضروب الحياة كلها ، وتتناول بوجه خاص السلوك الذى يسلكه الفرد مع نفسه ومع الغير ٠

واذا كانت الأمثال قد احتلت مكانا ممتازا بين الأنواع المختلفة للأدب الشعبى فذلك لأنها تمتاز بصفات لا تتوفر الا لها ٠ فهى :

١ ـ سهلة الشيوع والحفظ والتداول ٠

٢ ـ أقرب ما يكون الى العامة من الناس ٠

٣ ـ لا تتطلب جهدا كبيرا فى التعليم أو الحفظ أو الأداء ٠ كضروب الفولكلور الأخرى كالغناء أو الرقص ٠

٤ ـ لأنها تعبر عن الجانب الديناميكى فى حياة الناس ، وتفكيرهم ، وسلوكهم ٠

٥ ، لأنها تكون الاطار المرجعى للقيم والأخلاق التى تألفها الجماعة ٠

٦ ـ قديمة قدم الانسان ٠ تعبير عن الجانب العاقل فى حياته وسلوكه ٠ تتفق والشرائع ٠

٧ ـ تعبير عن الجانب المثالى والجانب الوضعى فى تفكير الانسان وسلوكه ٠

٨ ـ تعبر عن الحياة فى جديتها وهزلها ٠ تعالج المشاكل المختلفة التى تمر بحياة الانسان فى شتى مجالاتها ٠

٩ ـ ومن هنا كانت للأمثال الشعبية صفة البقاء والخلود ٠

مناخنا من امثالنا العامية :

« أمثال خاصة بالمناخ والناحية الاجتماعية »

١ ـ لا خير فى زاد يجى مشحوط ولا نيـل ييجى فى توت ٠ وذلك لأن أعلى فيضان للنيل فى شهر مسرى ما يقابل أغسطس ٠

٢ ـ فى بابه خش واقفل الدرابة أو البوابة ٠ لشدة الحرارة والرطوبة ـ مما يسبب الأمراض ٠

٣ ـ فى كياك صباحك مساك شيل ايدك من غداك حطها فى عشاك ٠

٤ ـ طوبة أبو البرد والعقوبة ٠

٥ ـ فتى يا طوبة ما بليتى عرقوبة ٠ أى ليس فيها أمطار أولا يستحم فيها الناس ٠

٦ ـ أبرد من مية طوبة ٠

٧ ـ أمشير أبو الزعابيب الكتير ٠

٨ ـ طوبة تقول لأمشير ادينى عشرة منك اخلى العجوزة جلدة والصبية قردة ٠

٩ ـ مهما عملت يا أمشير فيك من روايح الصيف ٠

١٠ ـ برد أمشير يخلى العظم على الكوم يسير ـ تخرج العجائز لا لتماس الدفء ٠

١١ ـ طوبة وطبطبة والشهر اللى بنينا فيه المصطبة ٠ أى الشهر الذى يلى طوبة وهو أمشير يخرج فيه الفلاح من داره ليجلس فى الشمس على المصطبة ٠

١٢ ـ برمهات روح الغيط وهات ٠

١٣ ـ فى بؤونة لا ينضرب طوب ولا تتعمل مونة ٠

١٤ ـ اللى يأكل ملوخية فى أبيب يجيب لبطنه طبيب ٠ لأن الملوخية تصاب بآفه القطن فتسبب المرضى ٠

١٥ ـ فى مسرى تجرى كل ترعة عسرة ٠ شهر الفيضان ٠

١٦ ـ مسرى تعفن الكسرة ٠ من شدة الحرارة والرطوبة ٠

تتسم هذه الأمثال ببروز الجانب المادى أكثر من الجوانب النفسية الشعورية ، ولعل ذلك يرجع الى أن الفلاح يتسم بالمادية فى تصرفاته وفى أقواله ، وكذلك يتضح هذا الجانب فى الأدب الشعبى وغير الشعبى بوجه عام ٠ فهذه المادية هى فى الحقيقة العامل الأول فى تكييف مزاج الزراع وما يختص به الفلاح من صفات شخصية ، وما فى هذه الشخصية من انفعالات أو شعور ٠ عمادها النقص أو الزيادة فى الانتاج أو المكسب والخسارة فاذا حللنا الأمثلة السابقة تتجسم لنا المادية ممثلة فى اتجاهات هذه الطبقة من عامة الشعب ويتضح ذلك فى كل مثال منها ٠

ففى المثال الأول يتحدث عن الزاد الذى يأتى مشحوطا أى قليلا فلا خير فيه كما النيل فى توت أى فى غير وقت الفيضان ٠ وكذلك فى سائر الأمثال ٠

وكذلك تتجه هذه الأمثلة الى الربط بين المناخ والزراعة لما للفلاح من اهتمام خاص بأمور الزراعة طوال تاريخها الطويل ونحن نعلم من تاريخ مصر منذ أقدم عصورها ان الفلاح يكد فى فلاحة أرضه ولم يأبه بأعمال أخرى غير الفلاحة وترك ما هو غير ذلك للوافدين على بلده من الأجانب حتى كان من السهل على الأجنبى أن يقيم له مركزا خاصا أدى فى نهاية كل عصر الى الاستعمار ٠ ومن أمثالهم التى تربط بين الأشهر القبطية والحاصلات الزراعية ما يلى :

١ ـ اللى يزرع دره فى نارور يأخذ قلوحه من غير كوز ٠ لأن موعد زراعته يكون قد تأخر شهرين ٠

٢ ـ زرع بابه يغلب النهابة ٠ لكثرته فلا تظهر السرقة ٠

٣ ـ هاتور أبو الدهب المنتور ٠ لكثرة الخير ٠

٤ ـ أمشير يقول للزرع سير سير . القصير يحصل الطويل .

٥ ـ ان كان زرعك تحت الكوم ما تبعش عليه وفاضل فى أمشير يوم . أى لم يأت موعد الحصاد وليس الزرع فى حاجة الى عناية .

٦ ـ فى برمهات روح الغيط وهات من كل الحاجات . الربيع .

٧ ـ فى برمودة دق العمودة ولا يبقى فى الغيط ولا عودة . وقت دراس الشعير والفول ثم القمح والبرسيم .

٨ ـ بشنس يكنس الغيط كنس . (وقت راحة الأرض) .

٩ ـ أبيب طباخ العنب والتين (قبل الزراعة الشتوية) .

١٠ ـ فى هتد الجروف كل بيضة أخير من خروف . وقت الفيضان تهدم السدود بالترع ولا يوجد مرعى للماشية فتضعف فتكون بيضة الدجاجة أفضل من الخروف . مغالاة فى وصف ضعف الحيوان .

١١ ـ فى الغطاس مص قصب والطبيخ قلقاس .

وبجانب هذه الأمثال نجد أن كل شهر من هذه الشهور يختص بلون من مأكولات أو مشمومات لا تشتهر فى الأشهر الأخرى ، والفلاحون يضربون الامثال بهذه المأكولات أو المشروبات فى الأشهر التى تبلغ فيها غاية جودتها .. نوردها ضمن الأفكار والاتجاهات الفولكلورية فى الفصل القادم .

● الفصل السادس

أفكار واتجاهات فولكلورية

(أ) البخت :

يصور الأدب الشعبي عصاب القدر فيما يسميه العامة بالبخت أو الحظ ، فيعكس أفكار المجتمع السائدة ، ويصور نظرة الناس الى الحياة ، وتفهمهم لها ، واقبالهم عليها أما اذا اساء الناس فهم الحياة أو تخلفوا عن مسايرة تطورها فلن يكون الأدب هو المسئول عن ذلك ، ولكن تصورهم الفكرى لعقدة القدر ، وايمانهم بجبرية مطلقة مفروضة على الانسـان اذن فكيف يكون له أن يجتاز المقدر والمكتوب ، وهذا موال يصور ايمان الناس فى الشرق وبوجه عام بالحظ (البخت هو لفظ فارسى) وركونهم اليه واحالتهم عليه ما يصيبهم من خسـارة وبوار ، وما يصيبه الآخرون باجتهادهم من تفوق وكسب .

تاجر بلا بخت الدنيـا منـين تغنيـه
يبات فى أفكار من جـور الزمان تغنيـه
ويتنه حـيران ولو صـاحب غرام تغنيه
من بعد ما كان صاحب عزم فى البرجاس
وكان له كحيلة أصيلة شكلها من العـال
يركب عليها يفوت الخصم في البرجـاس
نزلت دموعى على كرسى الخدود من العـال

فالبيتان الأولان ، ونصف الثالث تبين قسوة الأيام على تاجر فاشل أو مفلس وتتساءل من أين يأتيه الغنى والثراء وكيف تزايله الأفكار السوداء التى تكاد تقضى عليه فهو فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يفعل ، والزمان قاس عليه كل القسوة .

هذا طبيعى ، ولكن العقلية الاجتماعية التى يعكسها هذا الموال (وما هو الا تصـوير لعقلية المجتمع السائدة) لا تحلل أسباب افلاس هـذا التاجر

أو بواره ، وفشله ، الذى أدى به الى ذلك المصير القاتم ؛ وسوف يقع الشاعر فى الاعتراف ببعض هذه الأسباب فى الفقرة التالية حين يستطرد فى انه (كان له كحيلة وصاحب عزم فى البرجاس) ، لقد كان اذن مسرفا متلافا محبا للظهور ، لم يصن النعمة فأنكرته ولم يحفظ المال فزال عنه المال ، هذا هو السبب الحقيقى الذى كان يجب تلمسه فى هذا الموال — وفى العقلية الشرقية عموما ، بدلا من القاء عبء الفشل على الزمان والدهر والحظ ٠

وفى الجزء الثانى :

من بعد ما كان صاحب عزم فى البرجاس
وكان له كحيلة أصيلة شكلها من العال
نزلت دموعه على كرسى الخدود من العال
آه سايس ركبها وحل السرج في البرجاس
بنت الامارة اذا خست فقير تغنيه

فذكر هذا الماضى من جوانبه الحسنة ، وتذكرة للفخر لا للعبرة والموعظة فهذا هو الجانب الذى يشرق على الشاعر من حياة التاجر البائس حتى فى أحلك الظروف ٠ وهو يذكره — على سبيل الفخر — بسابق عزه ونعمته لا على سبيل العبرة بما آل اليه أمر اسرافه وتبذيره ولهوه عن تجارته بالسباق والخيول والنساء من بوار وخسارة ٠

وجانب نسيان العبرة هذا نجده يختفى فى حالة النظر الى التاجر الناجح الذى يسميه الشاعر (صاحب عزم) وكأن لم يكن صاحبه الذى يرثيه ويبكى سوء حظه (صاحب عزم) هو الآخر ولكنه (صاحب عزم فى البرجاس) وكثيرا ما ورد فى مطلع القصيدة بمقابلة سوء حظ التاجر (بلا بخت) ، وارتفاع (بخت) التاجر الآخر (صاحب عزم) انه فى حالة النجاح وحسن الحظ والنعمة التى يصيبها الغير لا يذكر الا الجوانب السيئة ، ولا يذكر العبرة هنا أيضا كما لم يذكرها فى حالة رثاء فشل التاجر المفلس وهى : ان النعمة جاءت بالكفاح والجهاد وهكذا يسقط الانسان ما به من عيوب ونقائص على الزمان أو الحظ أو البخت فينسى العبرة ويقرر ان نعمة الغير جاءته بالبخت وان البؤس والشقاء هما نتيجة لسوء الحظ ٠

اذن الاجتهاد أو العمل لا دخل لهما فى السعادة أو الشقاء ، ولذا يستوى كلاهما مع الكسل والتواكل انتظارا لقدوم الحظ ، وهذا التعليل العاطفى القدرى يكون فى صالحنا فى حالة الفشل ، وضد الغير فى حالة النجاح ، والبيت الأخير فى هذا الموال ، جدير بأن نقف عنده وقفة ليست أقل أهمية مما جاء ببقية القصيدة فهو يشمل معنى لا يزال شائعا فى أذهان العامة وبعض المثقفين ،

الذين يتلمسون النعمة من أيسر الطريق ، وأقربها الذين ينظرون الى الزواج على أنه رفعة قدر وعلو مركز وغنى بعد فقر ، مما يجيئهم عن طريق النسب والمصاهرة (بنت الامارة اذا أخذت الفقير تغنيه) • ولعل ورود هذا البيت فى آخر الموال هو الحل الذى اختاره الشاعر • لذلك فالتاجر المفلس أضاع ثروته فلا يجد له مخرجا الا أن يقترح عليه بأن يتزوج من سيدة غنية ، وهذا نوع من التواكل وتقاعس الهمة ، والقعود عن السعى والكسب المشروع لا يقل خطرا عن المعنى الذى ســاد أغلب القصيدة ، ووضح مدى خطورة الايمان بالبخت ، وعلى النقيض من ؛ هذا القول نجد عبارة أخرى تجرى كمجرى الأمثال فترد على لسان كثير من الناس وهى : « اسعى يا عبد وأنا أسعى معك وان قعدت ما حد ينفعك » هذا اتجاه معارض لسابقه يعتمد على العمل والجد والاجتهاد للحصول على مطالب الحياة ، وكل ما يبتغيه الانسان مؤيدا بعون من الله بما يبشر بالنجاح، أما ان هو انصرف عن جادة الطريق فلن يجد من يأخذ بيده •

ومن معالجتنا للبخت كعقيدة شعبية لا يفوتنا الا أن نشير الى الاتجاه النفسى الذى يبدو واضحا فى رغبة الانسان الى معرفة المستقبل وكأنما يبتغى بعمله القليل وحيله القاصرة أن يكشف الحجب ليصل الى ما تكنه له الأقدار ، وهو اذ يسعى الى ذلك انما يتبع سبلا خارجة على حدود العقل والمنطق ، يدحضها العلم ، ولا تخضع للتجربة ، انها مجرد أساليب بدائية يسلكها الانسان فتجلب له الرضا والسعادة •

ان ما تحويه الحياة من تناقضات واضطراب فى شتى مجالاتها مع تصادم مصالح الأفراد وتكالبهم ، على الحصول على أقصى قدر من الخير ، كل ذلك جعل الانسان يسعى الى التطلع الى معرفة تفوق حدود البشر ، وتلك سمات العقلية البدائية فى كل مجتمع بدائى ، حيث يكون للساحر مكانة عالية لا تقل عن الحاكم ، والقائد كمـا هو عند كثير من شـــعوب أفريقيـا وغينيـا الجديدة واستراليا •

واذا كان البدائى يسعى الى معرفة الغيب عن طريق السحر لعجزه عن ترتيب المقدمات التى تؤدى الى النتائج الصحيحة المنطقية ، فاننـا نـرى حتى الوقت الحاضر ، تعلق كثرة هائلة من الناس بقراءة البخت يوميا فى الصحف والمجلات ، ذلك الى جانب قراءة الفنجال والمندل والكتشينة وكلها أساليب شعبية للوصول الى المجهول •

ان اللاشعور حتى عند المثقفين ما زال يحوى العقلية البدائية قوية نابضة بالحياة تعبر عن نفسها فى شتى المواقف ، مختلقة الحجج والمعاذير ، ومتسترة فى زى من أزياء العصر ، حتى يسمح لها بالظهور •

(ب) خسوف القمر فى مصر :

بين ضجيج الطبول ، ووقع الصفيح على الصفيح ، والضرب على الأخشاب تسمع فى قرى مصر وفى الأحياء المختلفة صياح الصبية ، والفتيات وهم ينشدون:

يا بنات الحور سيبوا القمر يدور
يارب احنـــا عبيـدك يــارب
والأمـــر بيـــدك يـــارب

وقولهـــم :

يا بنـــات يـا حـــور الجنـة
ما تســـيبو القمـــر يتهنا

هذا الصياح ، وهذا الضجيج لا يســمع الا فى حالة واحـدة فقط ، وفى الطبقات المتخلفة فقط ، هى كلما حدث خسوف القمر ·

وربما كانت هذه العادة التى يتبعها المصريون الى الآن عند خسوف القمر لا يوجد لها مثيل فى أى بلد من بـلاد العالم ، وانفردت بها مصر حتى أصبحت هذه العادة من الفولكلور المصرى الخالص ·

ولو حاولنا أن نفسر هذه الألفاظ لوجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام التاريخ الفرعونى العتيد · فقد عبد المصريون القدماء الها هو من أشهر آلهتهم المتعددة وهو الاله (حور) (الصقر) ومن الصعب العســير أن نعرف أصل هذه العبادة وكيف اعتنقها المصريون القدماء انما كل الذى سجله التاريخ أن عبادة هذا الاله كانت منتشرة فى غرب دلتا مصر وكان مقر عبادته مدينة دمنهور الحالية أو احدى ضواحيها ، واتسع نفوذ هذه المدينة ، وبسطت سلطانها على المدن المجاورة الى أن أتيح لها أن تخضــع كل الوجه البحـرى ، وانتشرت عبـادة حور بانتشار سلطان بلدته ، وأصبح لهذا الاله أسماء متعددة فى البلدان المختلفة فهو الاله حور خنتى خت فى منطقة بنها الحالية ، وهو الاله آن حور فى منطقة ســمنود الحالية ، وهو الاله حورخنتى أرتى فى منطقة أوسيم الحالية ، وكان ذلك كله قبل وحدة الوجهين فلما وحدت فى عهد الأسرات انتقلت عبادة حور أيضا الى الوجه القبلى ، وأصبح من أشهر آلهـة مصر حتى أن الأسطورة القديمـة جعلت حور أحد أفراد الثالوث المقدس ايزيس واوزوريس وحوريس · وهو الذى ساعد أمه ايزيس على الانتقام لأبيه أوزيريس من أخيه (ست) ، وكان الخلاف شديدا بين حور وست فقامت بينهما حروب طويلة فكان حور كلما أراد أن يهوى بخصمه ، فيقذف به الى الأرض وقد أمسك به من مقتله فيكفهر وجهه ويتغير لونه ، ويحاول أن يتخلص من خصمه وعندما يرى شعب مصر تغير لون القمر يدركون أن الاله حور يحاول أن يقتل غريمه فيفزعون اليه بالصلوات والترتيلات حتى يترك حور خصمه ست استجابة لرغبة الشعب ·

وهذا هو تفسير مصر القديمة الفرعونيـة لخسـوف القمر ، وأصبحت من عادات المصريين منذ العهد الفرعونى أن يهرعوا الى حور ليترك القمر ، ولم يقلع الشعب المصرى فى كل عصـوره التاريخية عن التضرع للاله حور لترك القمر ، بالرغم من وجود الديانات السماوية وهى المسيحية والاسلام فى مصر .

وفى عصرنا الحالى حيث تغلب الديانة الاسـلامية فى مصر نجـد المصريين يصبغون هذه العادة الفرعونية القديمة بصبغة اسلامية فقد ورد فى القرآن الكريم ذكر لحور الجنة فقال العامة والدهماء فى مصر ان بنات الحور هن حور الجنة بدليل قولهم (يا بنات الجنة سيبوا القمر يتهنا) بينما نستطيع أن نفسر قولهم هذا بأن الحور جنود وأتباع الاله حور عند قدماء المصريين .

(ج) بغلة الأعشر :

يقولون انه فى ليلة العاشر من المحرم فى كل عام تظهر بغلة عليها خرج ، فى جانبه الأيمن رأس الحسين رضى الله عنه ، تقطر دما ، (وقد قتل فى ذلك الموعد وكان خبر قتله مفزعا للمسلمين) ويحتفل به الشيعة لاظهار ألمهم الشديد ، وتئن أنينا حزينا مفزعا جاحظـة العين مشعثة الشعر فى منظر مخيف . وفى الجانب الآخر من الخرج ، نقود ذهبية ، وتقف البغلة عند الموعودين فقط فان من وقفت على بابه البغلة ، وخاف من منظر الرأس أسرعت البغلة بدورها فى الانصراف عنه، ووقفت عند موعود آخر لا يخاف ، فاذا ترحم على الحسين وأخذ الرأس وغسلها وطيبها بألوان الطيب ومشط شعرها ، ووضعها كما كانت فى الخرج بين ترحمه ، وتلاوته آيات القرآن الكريم ، فمن حقـه أن يأخذ الذى فى الجانب الآخـــر من الخرج ، على أن يضع نخالة الدقيق بدلا من هذا الذهب ـ فاذا فعل ذلك سارت البغلة عنـد موعود آخـر ، وينعم هو بالأموال ، وتنقلب النخالة بعــد ذلك الى أموال ذهبية وهكذا .

هذه هى القصة الفولكلورية التى تروى بين أفراد الشعب ويتناقلها العامة، وكل واحد منهم يقول ربنا يوعدنا ببغلة الاعشر ، وهى تعبير عن عمليـة الربط التى يقوم بها الفكر الشعبى بين الحقيقة والخيال . ان الفقر يدفعه الى تمنى المال والثراء ، ولكنه يرفض الحصول عليه بلا كد ولا مجهود ، لذلك فهو يعرض على نفسه موقفا مثيرا يتطلب منه جهدا وشجاعة ، حتى يستطيع الحصول على المال ، ذلك بالاضافة الى العقيدة الدينية المرتبطة بهذا الموقف ، وشبيه بهذا مايتصوره العامة عن امكان الحصول على كنز ، وغير ذلك من التصورات الشعبية التى جعلت الكثيرين يعيشون ويسعدون فى الخيال ، مما يخفف عنهم الكثير من مشـكلاتهم النفسية ، ولو الى لحظة قصـيرة من الزمان ـ مثـل هذه الخرافات تنتشر بين الفقراء ، والأغنياء أيضا فهم يتمنون المزيد حتى ولو كانوا أغنياء .

(د) من تراثنا عن رمضـان :

ورثت مصر الحديثة تراثا هائلا عن تقاليدها القديمة التى كانت تجرى فى شهر رمضان ، ولا سيما التقاليد التى استنها الفاطميون طوال حكمهم لمصر ٠٠ فقد اهتم الفاطميون اهتماما خاصا بهذا الشهر الكريم ، لأسباب سياسية ودينية، فمن الأسباب السياسية دفع أقوال جمهور المسلمين بأن الفاطميين ليسوا منهم ، وأنهم يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر والالحاد ، فكان الفاطميون حريصين أشد الحرص على المبالغة فى كل شيء يمت بصلة الى الدين ، وفرائضه ، ومن ثم بالغ الفاطميون فى الاحتفال بشهر رمضـان احتفالا ، لم تسـمع به فى أية دولة من الدول الاسلامية ٠

أما الناحية الدينية فتأويلهم الشعبى ، لهذا الشهر المعظم ، أنه ملك كريم هو أعلى الملائكة مكانة عند الله وأقربهم اليـه تعالى ، ويذهب أسـتاذنا المرحـوم الدكتور محمد كامل حسين فى حديثه عن التأويل الفاطمى أن رمضـان عنـد الفاطميين ممثول والامام الفاطمى مثل بمعنى أن رمضـان أعلى الملائكة رتبـة فى العالم الروحانى ، كما ان الامام الفاطمى على الأرض هو أعلى درجات (البشر) ، ولذلك كان شـعراء الحضرة الفاطمية يشـيرون دائما الى شهر رمضـان هو شهر الامام ٠

وهذه الآراء الفاطمية انتقلت الى طبقات الشعب ، وخاصـة الى الدهماء ، الذين لا يزالون الى الآن يعتقدون أن رمضان ملك من الملائكة ، ونه اذا حل قيد العفاريت والجن فى قماقم من النحاس ، فلا يظهر الجن طوال هذا الشهر فيستطيع الناس اذن أن يعيشوا فى سـلام وطمأنينة بل يستطيعون أن يرتادوا مسارح الجن فى الأماكن المهجورة دون خوف ، أو وجـل لأن الجن سـجنها رمضان ٠ ومن هنا يأخذ القرويون فى السهر خارج بيوتهم ، وربما يقومون بزيارات للقرى المجاورة لهم ليلا ، فى الظـلام الدامس فى شهر رمضان ، دون غيره من شهور السنة ، والأطفال فى القرى يرددون هذا الرأى فى أناشيد جماعية ، وهم يلهون فرحين بشهر رمضان فيقولون ٠

يا رمضـان يا عود كبريت ٭ يا مقيد كل العفـاريت

حتى اذا جاء آخر يوم فى رمضان أخذ المصريون عدتهم لاستقبال عيد الفطر المبارك ، ولكنهم فى الوقت نفسه يعملون ألف حسـاب لما توارثوه من الرأى القائل ، بالافراج عن العفاريت عقب صلاة المغرب مباشرة ، حتى تبلغ السـذاجة ببعض أفراد الشعب الى الخوف من أن عفريتا من العفاريت التى تخرج منطلقة من القماقم النحاسية قد تضل الطريق فتدخل الدور والمنازل وتستقر فيها ، فكان لابد أن يقوم الشعب بعمل لدرء خطر اقتحام الجن والعفاريت منازلهـم ، لذلك يرشون الملح فى كل ركن من المنزل وخاصة فى أركان الحجرات ويضربون آنية

نحاسية بها قليل من الملح حتى اذا اقترب العفريت من المنزل وسمع هذه الأصوات النحاسية توهم أنها القماقم التى سجن فيها فيهرب عن هذا المنزل خوفا من أن يسجن مرة أخرى ٠

ويغنى الأطفال فى ذلك الوقت :

يا رمضان يا صحن نحاس	يا داير فى بـلاد الناس
سقت عليك أبـــو العباس	تبـــات عندنا الليلة

والمقصود هنا هو الخليفة العباسى وهو أثر من آثار تفضيل العباسيين على الفاطميين فى العصر الأيوبى ٠ وربمـا كان المقصـــود أيضـــا هو ولى الله المرسى أبو العباس بالاسكندرية ٠

ويغنون أيضـــا :

يا بركـة رمضـــان حطى فى كل مكـــان

وكذلك فى الاحتفال بالجمعة اليتيمة وما يعتقده العامة من استجابة الدعاء ، وقت الصـلاة ، أو كتابة التعـاويذ والأحجبة فى نفس الوقت الذى تؤدى فيه الصـلاة أنها تمنع وسوسة الشيطان أو مس الجن ، كل هـذا من قبيل العقائد الشعبية الفولكلورية ٠

(هـ) نداءات الباعة :

المتأمل لنداءات الباعة الجائلين ، باعة الخضر والفاكهة على وجه الخصوص ، يرى فى هذه النداءات خليطا عجيبا من المعانى ، تحمله هذه الأصوات الصائحة ، التى تسعى الى كسب العيش ، بالتجول بهذه العروض والسلع من شارع الى آخر ٠

ومهما يكن من سوء وقع هذه الأصوات على السامع الذى يوشك أن ينام والمريض الذى يريد أن يستريح ، والطالب الذى يجاهد لفهم ما يقرأ ، ومهما تكن فلسفة استعمال الصوت الانسانى كأداة للاعلان والترغيب ، مهما يكن من هذا كله فان المتأمل من الناحية الشعبية لمغزى هذه الصيحات والنـداءات يرى فيها خليطا عجيبا من المعانى التصويرية التى تزين السلعة للمشترى بالاقبال عليها ٠

من ذلك تشبيه السلعة الشعبية بأخـــرى راقية كقولهم « لوز يابامية » لوبيا يا فجل ، ورمان يا طماطم ، ويالى زى الورد يا طماطم ، وتمر يا جزر تمر ، وخد الجميل يا قصب ٠٠٠ » الخ ٠

وفى هذه المجموعة من النداءات التشبيهية الموفق منها وغير الموفق ، نجد أنه على كل حال محاولة لاعطاء صفات شتى محبوبة للسلعة المراد الترغيب فيهـــا وأى شىء أحب الى الروح الشـعبى من اللوز واللوبيـــــة الخضراء والرمـان والتمر والورد ؟ ٠

وهناك طائفة أخرى من الصيحات والنداءات يربط فيها البائع السلعة بمكان غرسها أو موطن نموها وجودتها أى الأصل الجغرافى لانتشارها وتصديرها • فمن هذا قولهم بصفة عامة : (فجل الجزائر يا لوبيا) — لأن الفجل الذى ينمو على أرض الجزر التى ينحسر عنها ماء النيل هو أجود أنواعه ومنه قولهم : « منفلوطى يا رمان » و « صالحاوى وحموى يا مشمش » نسبة الى حماه و « سيوى يا بلح » نسبة الى واحة سيوه و « فيومى يا عنب » وتين العامرية يا تين يا برشومى وخص عال يا مليجى نسبة الى قرية مليج بالمنوفية ، « وشنوانى يا قلقاس » واسماعيلاوى يا شمام ، وبتاع الحوامدية يا قصب » •

وهناك من النداءات ما يربط السلعة بالزمان بدلا من المكان أى الموسم والفصل الذى ينضج فيه فمن ذلك « نيلى يا درة » و « ربع غزالك » (من الربيع وهو اسم يطلق على البرسيم اشارة الى موسمه الزراعى) •

وطائفة أخرى لا تذكر المكان أو الزمان بل الفائدة من السلعة المعروضة للبيع « أكلك شفا يا حلبة » و « بصل الخزين » و « توم الخزين » يا مجلى للقلب يا نعناع » اروى قلبك (العرقسوس) اللارنج بتاع المربى •

هذا عدا التشبيهات التى لا عمق فى فكرتها والتى تقتصر على مجرد ذكر لون الشىء مثل « خضرا يا ملوخية » أو « حمرة يا قوطة » أو التى تذكر طريقة زراعة الشىء أو انتاجه « جرانى يا فول » أو طريقة بيعه « بالوقة يا ثوم » أو مجرد وصفه بأنه عظيم مثل « عظيمة يا منجة » أو بأنه شربات مثل شربات يا توت أو طازج مثل « صابح يا بيض » •

هذه النداءات متوارثة قد لا يعرف عن المكان شيىء الا مجرد الاسم وقد تزول شهرة الموطن الذى تنسب اليه السلعة ولكن ذلك لا يمنع أن تظل السلعة منسوبة الى ذلك الموطن كقولهم فرنساوى يا بطاطس وقد أصبحت البطاطس زراعة محلية لا تقل فى الجودة عما كان يستورد من فرنسا منذ خمسين سنة أو أكثر مسكوفى يا كمثرى ، وكذلك أصبحت الكمثرى تزرع فى مصر وتؤتى انتاجا ممتازا كما أنه لم يعد يرد الينا من موسكو كمثرى منذ وقت بعيد •

وستظل هذه النداءات المدوية تصيح بها حناجر الباعة يورثونها لأبنائهم كما ورثوها عن آبائهم وأجدادهم •

وكذلك ربط الشعب بين الأشهر القبطية وما يخرجه الحقل من ثمار وهذا الترابط معروف منذ عرف التقويم القبطى الفرعونى الأصل المستخدم فى الزراعة حتى اليوم • وترتيبها على النحو الآتى :

رطب توت	رمان بابه	موز هاتور
سمك كهيك	سمن طوبه	خروف أمشير
لبن برمهات	ورد برموده	نبق بشنس
تين بؤونه	عسل ابيب	عنب مسرى

تعليق على المادة الفولكلورية

نقدم فيما يلى ما امكن لنا أن نستخلصه من صفات للشخصية المصرية عن طريق دراستنا للانواع السالفة الذكر من آدابنا الشعبية .

الموال :

تعبير عن المازوكية عن طريق الآلام والتأوهات والنزعات التشاؤمية وشكوى الزمان ، وتعبير عن مركب النقص الذى يدفع بصاحبه الى السعى نحو البطولة ، بطولة تحمل العذاب والآلام الجسام التى يستعين عليها بالصبر حينا ، بالشكوى أحيانا والتى لا يقوى على تحملها الا الابطال ، ثم هو يؤكد بطولته باستخدام الصبر كحيلة دفاعية أساسها التبرير ، فهو يستسيغ العذاب ، وبذلك يؤكد بطولته مرة أخرى .

الأغنية الشعبية :

تشترك الأغنية الشعبية فى كثير من معانيها واتجاهاتها مع الموال فهى تعبر أيضا عن الانفعالات الاليمة ـ والشكوى والانين وترديد غدر الزمان وظلم الناس وتستنجد بقاضى الغرام وطبيب الجراح وتطلب المعرفة وكشف الاستار عن طريق البخت والتنجيم وهى عادات أصيلة فى المصريين ، تكون جزءا هاما من أدبهم الشعبى ، وهى اذ تعبر عن هذا الجانب المأساوى فى حياة الناس ، انما تصور ما يسيطر عليهم من انفعالات ، وتوتر ، وصراع ، نتيجة للاحباط وما يؤدى اليه ذلك من ظهور الميول العدوانية ، وبالتالى التفكك بين الناس وفى الجماعة فيصعب تحقيق التوافق الاجتماعى ، بينهم ويظهر الاعتكاف والتشكك والشعور بالاضطهاد .. يتضح كل ذلك فى بعض الأغنيات الشعبية التى ترددها الطبقة الكادحة فتستعين بها على تحمل آلام الحياة ومآسيها .

الا أن الطبقية فى المجتمع تعبر عن ذاتها فى اغان أخرى كثيرة تنطق بالسعادة والحب والهناء ، انها تعبر عن الرضى والبهجة والفراغ فمن مجموعة الاغانى التى وردت فى كتاب أغانى مصر الشعبية(١) نجد أن هناك مؤثرات أخرى للاغنية نذكرها فيما يلى ، وقد تكون المؤثرات فى كل من النمطين واحدة ولكنها تظهر فى الاولى حزينة قاتلة ، وتظهر فى الثانية عذبة مرحة معبرة عن البهجة والسرور ، وقد استخلصنا مضمونها فيما يلى :

(١) مجموعة أغانى مصر الشعبية بالمرفقات فى نهاية البحث .

١ ــ الحب والرغبة فى اخفاء المحبوب ــ فى عينيها ، او بين ثنايا شعرها، او فى صدرها .

٢ ــ محاولة اغراء الفتيات والاتصال بهن ، ثم النجاح فى تلك المحاولة (فتحت لى الصبية وقالت لى اتفضل بات) .

٣ ــ تعبر عن المرح والسعادة بوجود المحبوب (فى حارتنا) واشارة الى قوته وسلطانه (تحت التوب تاج صغير) ودعوة متسترة اليه ثم شعور بالالم وجراح القلب .

٤ ــ وصف للمحبوب وتشبث بحبه (بالسيوف وقطعونى) واستمتاع بالحياة ، بلذاتها ومباهجها .

٥ ــ يطلب الرى ليشفى من الظمأ ، وقد يكون مطلبه هو الحرية فهو يسعى الى اطفاء ظمئه ، اما عن طريق المحبوب فى شخص ذات العيون الحلوة او ان مطلبه ، هو الحرية لذلك فهو يطلب أن يستدل على السبيل .

٦ ــ وصف للفتاة فى ملبسها ودلالها .

٧ ــ زفة العروس وما توصف به من جمال وأصالة وثراء .

٨ ــ على يباعين العنب ــ رغبة صارمة فى توكيد الذات واخضاع المحبوب لارادتها مهما كلفه الأمر مع اشارة الى الخمر .

٩ ــ دعوة صريحة من الفتاة الى امها وابيها لطلب الزواج .

١٠ ــ رفض من الفتاة لتلبية اية رغبة الا الزواج (العفاف) .

١١ ــ اشارة الى ثراء العروس وعلو مهرها .

١٢ ــ تعبير عن الحب والوله للبعد عن المحبوب .

١٣ ــ يعبر عن رغبة المحبوب فى الوجود بالقرب من حبيبته حتى يشرب الخمر (ويعمل عمايل ما عملها عنتر) .

١٤ ــ يعبر عن خوف الفتاة لابتلال ملابسها الداخلية ، وما تخشاه عن ان يعرف ذلك بين أفراد الاسرة .

١٥ ــ يصف سكنى العروس فى قصر عالى ، فى وسطه حديقة بها الفواكه ، وشراء جهازها من اسطمبول ، وكذلك العبد سرور ليخدمها عامين .

وهكذا تمضى هذه المجموعة من الاغانى معبرة عن الجانب البراق فى حياة الانسان معبرة عن السعادة ، والحب والزواج ، معرضة عما يشوب الحياة

من آلام ومتاعب الا انها لا تغفل الاشارة ان صراحة او تضمينا الى الناحية الجنسية وموضحة موقف الجماعة منها فالفتاة تخشى أن يكشف أبوها وامها ابتلال ملابسها لذلك فهى تطلب من الهواء أن يسارع بتجفيفها .

ان الحياة الجنسية بين أفراد الشعب هى الستار الكثيف الذى يخفى وراءه ضروبا من الدوافع والاتجاهات والاساليب السلوكية على اختلافها . ان افتقار الشعب الى الثقافة المتطورة والى القدرة على اعلاء غرائزه والتسامى بدوافعه الفطرية ، هى الوسيلة الاولى للارتفاع بالفرد الى مستوى انسانى يليق بحياة اجتماعية ناضجة قوامها الفضائل لذلك فطن منذ أقدم العصور الى ضرورة وضع تحريمات تصون الحياة الاسرية والاجتماعية من التفكك والصراع .

اما الفكاهة :

فبجانب الدور الخطير الذى تؤديه للترفيه والضحك والتسلية للتخفيف من حدة مصاعب الحياة والحد من توتراتها ، بجانب هذا الدور الخطير فهى قوة فعالة ذات أسلوب نفاذ يهز الأعماق ، وهى من أبرز مميزات الشخصية المصرية منذ أقدم العصور عاش بها يكافح احداث الزمن ، ويصارع فى معركة الحياة ، لقد سخر من الغزاة والفاتحين منذ عهد الفرس والرومان والترك ، وحتى عندما جاء نابليون الى مصر لاحقه الشعب بنكاته ، وخاصة بعد ان هزم فى عكا ، وحتى اليوم تطلق هذه العبارة للحد من غلواء الفرد فى تقدير أهمية عمله ، فيقولون (يعنى فتح عكا ؟) (كان نابليون يصرخ من ملاحقة الشعب له بالنكات التى وضعته موضع الاستخفاف والاستهانة فكان يذيع على الشعب المصرى منشورات يحضهم فيها على عدم الاستماع الى كلام (الحشاشين البطالين) (١) .

والنكتة تعتمد على الذكاء ، وسرعة البديهة ، وحدة الفهم ، واليقظة والصراحة ، حتى لو كانت تتضمن الشورية والمجاز ، وقائل النكتة يقصدها صريحة لاصابة هدف معين ، ولو استعان على ذلك بالاشارات والتلميحات الا انه فى النهاية يرمى الى الكشف عن مقصده ، لذلك فهو يستعين بأسلوب فكه يحقق له ذلك الهدف ، ويدفع الآخرين الى المشاركة فيما تخلقه النكتة من جو يسوده المرح والارتياح .

القصص الشعبى :

من أبرز الصفات التى تتضح فى القصص الشعبى البطولة والشهامة والشجاعة والكرم والدفاع عن الوطن أو الجماعة وحماية الضعيف والمرأة ـ

---

(١) الجبرتى ، عبد الرحمن ، عجائب الآثار .

ثم هنـاك اتجـاه آخر لا تخلو منه قصـــة من القصص الشعبى ، هو العشق والغرام والتفانى فى ارضاء المحبوب ، وتحمل المشاق للحصول عليه ، كذلك تظهر فى القصة ملامح الدين ، والتدين والتمسك بالفضائل ، ثم ما يرتبط بذلك من تقديس للأولياء والصـالحين على اعتبار أن الواحـد منهم شخصية نموذجية كمثل صالح للناس يجعله الشعب قدوة ومعيارا يتمنى أن يرقى الى مستواه ، كما يصب على الأشرار صفات المقت والغضب وما يتبعها من لعنات وعقاب أبدى فى العالم الأرضى وفى الآخرة — أى أن الشعب لا يترك الأشرار بلا عقاب بل انه عن طريق ايمان راسخ ، بعقيدة الخلود ، وبحياة آخرة ينتقم لنفسه من الأشرار بما يفرضه عليهم من ألوان القصاص والعقاب فيعبر بذلك عن نفسيته وشخصيته ومعاييره وقيمه ٠

اما الخرافة :

فهى تعبير عن ضعف الانسان ، وقصوره ، بالنسبة الى القوى التى تفوق الطبيعة وهى من ناحية أخرى محاولةمن الانسان لان يصل الى تحقيق أهدافه لا بقواه الذاتية ، وبقدرته التى فى حدود البشر — بل بقوة تفوق قوى البشر يسخرها لتحقيق أهدافه مستعينا فى ذلك بأساليب خرافية كالسحر والتنجيم والتعاويذ كوســيلة لتسخير الجـان ، والمردة ، وغيرها مما يحقق للانســـان مطالبه العسيرة المنال ٠ ان ضغوط الحيـاة وما تحويه من صعاب وآلام جعلت الانسـان يمارس أحلام اليقظة فى حياته بوجه عام فما لا يستطيع الوصـــول اليه بجهده الشخصى يعينه عليه مارد جبار أو طائر مسحور أو بساط الريح أو غير ذلك ٠

المثل الشعبى :

أحكام صاغتها عقلية الشعب لتعبر بها عن معاييرها واتجاهاتها فى الحياة وهى فى الوقت ذاته تعبر عن شخصية الشعب فى تقديره لكافة شئون الحياة انها الدوافع والموانع والنواهى التى وضعها الشعب لنفسه كقانون عام ملزم لا يستطيع أن يحيد عنه ، انها اللوجوس الذى ابدعه الشعب لنفسه ثم عاش فى اطاره لا يحيد عنه قيد أنملة ٠

هذا اللوجوس الشعبى يعبر عن كل ما للجماعة من صفات ويعبر عن تلك الصفات فى جانبيها الايجـابى والسـلبى فهى تدور حول الصـدق والكذب والصراحة والخداع والاثرة والوفـاء والغيبة والنميمة ، الا أنها عنـدما تذكر الجانب السلبى تجعل منه تذكرة وتقويما للهدى والتوجيه الراشد السديد . انها تعبر عن الجانب الواعى فى الشعور الشعبى ، لذلك كانت الصفات التى

تظهر من خلالها الشخصية المصرية معبرة بحق عما تتسم به تلك الشخصية من أصالة وخلق كريم ٠

انها تحث على الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتى والتروى والحيطة وحساب المستقبل والصبر والجلد والاتزان والمثابرة وغير ذلك من الصفات التى تتضمنها كثرة هائلة من الأمثال والأقوال الشعبية تبدو فى صورة توجيه صائب وترجيح للخير على الشر ودفع الى اتخاذ الطريق الصحيح مما جعل رجل الشارع يلم بقانون لم تجتمع هيئة دولية لوضعه ولم ينص عليه دستور ، ولكنه قانون العامة ـ حكمة أبدية طبعتها الحياة فى قلوب الشعب ليعيش حياة منتظمة وادعة يسودها الهدوء والاتزان لأنها متأثرة بعوامل حضارية وتاريخية وثقافية ودينية أوردت لهذا الشعب خلقا ذا ملامح بارزة يتعذر علينا أن نغفلها كلية وان كنا لا نستطيع أن نعترف بوجودها كلية وبصفة عامة بين كل الأفراد ٠

الفن الشعبى من منظور التحليل النفسى

١ ـ الفنان الشعبى ٠

٢ ـ النمو النفسى الصحيح ، ووظائف الشخصية ٠

٣ ـ الفنون الشعبية مقدر لها الخلود ٠

ان الأدب الشعبى حين يعبر عن ذاته بما يقدم من فنون انما يعبر فى الوقت ذاته عن نفسية الجماعة عن آلامها ، ولذاتها ـ عن أفراحها ، وأحزانها ٠ انه يكشف النقاب عن مكنونات قد لا تكون واضحة صريحة فى الجماعة ولكنها من صميم شخصية الجماعة ونفسيتها ، فهو يسلك سبيل التحليل النفسى دون أن يقصد اليه سبيلا أو هو ينهج نهج المحلل النفسى دون أن يعى حقيقة عمله ، ولكنه على كل حال يقدم النفس الانسانية مكشوفة واضحة يسهل على الدارس رؤية خباياها وكشف مكنوناتها حتى ما غاص منها الى مجاهل اللاشعور ٠ ولدينا من الأمثلة أوضحها وأنصعها وهو ما قدمه شكسبير من عمل فنى خالد يعبر عن خبايا النفس البشرية فى هاملت وعطيل و ٠٠٠ وغيرها ، وما أوضحه فرويد من أساليب للتحليل النفسى تسير جنبا الى جنب مع مظاهر الحياة النفسية وكل من هذه الأعمال الأدبية الخالدة بل أكثر من ذلك أن هذه القضية تصدق على الفكر الانسانى منذ وجدت الحضارات ـ القديمة بفنونها وآدابها ، وها هى مسرحية أوديب يتخذ منها فرويد دعائم ـ للتحليل النفسى ، ويجعل من عقدة أوديب أساسا لكل مرض نفسى ٠ فهل وجد الفكر الثاقب الذى ينفذ الى الأعماق فى وقت دون آخر ، وهل فطن الانسان الى ذاته فى عصر وأغفل ذلك فى عصر آخر ؟ ان الانسان بما أودعه الله من نور الهى قد كشف عنه غطاءه فاذا له بصر حديد ، ولكن أى انسان ذلك الذى نعنيه أهو كل انسان أهو عامة الناس أم هو الخاصة القلائل ـ انه الانسان الفنان ـ ان الأدب الشعبى فى شتى صوره هو انتاج فنان ـ اذن فمن هو الفنان ؟ عرفنا مقدما أن الأدب الشعبى لا يكون كذلك ولا يسمى أدبا شعبيا الا اذا كان مجهول الأصل لا يعرف له أب ولا صاحب ٠

ولكن ما الذى يدعو الفنان الى الابداع ؟ يرى البعض أن العمل الفنى لا يكون كذلك الا اذا حوى عنصرا جديدا لم يألفه الناس من قبل فيسمى ابداعا والناس أو الغير هم الحكم فى عملية الفنان ، فالفنان ينتج وقد لا يشعر بقيمة انتاجه وقد يخفى انتاجه لأنه لا يرى فيه شيئا يستحق الاعلان أو العرض ، ولكن الغير هم القوة التقويمية القادرة على ادراك ـ الجانب الابداعى فى عمل الفنان ٠

ان الفنان أو الشـــاعر أو الأديب يهرب من الواقع بأن يتجه اتجاها لا يعرفه الواقع أو لم يمر بخبرات النـاس من قبل فيرى فرويـد أن الفنــان يغوص في أعماق اللاشـعور • فيسـتخرج الصراع الذى يزعجه ، ويعبر عنه بفنه أو بلغته الخاصة • انه حين يعبر عن مكنونات لا شعوره انما يبتعد عن الواقع ويجوس خلال عالم الخيال • وهل معنى هذا أن الفنان على غير وفاق مع الواقع أو أنه يفصل بين الحقيقة والخيال ـ أو أن هناك صراعا دائما فى نفس الفنان بين الحقيقة والخيال ؟ •

يرى مورينو (١) انه ليس بين الحقيقة والخيال صراع ، فكلاهما عنصر فعال فى مجال أوسع ـ هو عالم الأشياء والأشخاص والأحداث ـ ذلك العالم النفسى الدرامى الذى يستنتج لنفسـه منطقا مغايرا لمنطق الوجود الواقعى ، فيجسم الخيـال ويمنحه من الوظائف والمكونات والقـدرات ما يجعـل هاملت يتلقى النصح والارشـاد من والده بل ويجعل من حق والده أن يكون له وجود مستقل يبدو لهاملت فى لحظات معينة يعد لها نفسه اعدادا مع ما يصحب ذلك الوهم من قدرة على الاكتســاء برداء الواقـع والحقيقـة مع ان والده ليس على قيد الحياة •

ان الفنان حينما يهبط الى مدازك اللاشعور فيعبر عن مكنوناتها فى صورة تبدو غير مطابقة للواقع أو فى صورة خيالية فهو انما يلتمس الحقيقة عن هذا الطريق ، انه يعبر عن حقيقته هو كانسـان وان ظهرت تلك الحقيقة مجافية لحقيقة كثير من الناس ، ولكنهـا لابد أن تكـون مطابقة لحقيقة آخرين غيرهم يشتركون مع الفنان فى الاتجاهات والمشاعر وحتى فى جانب من اللاشــعور ولذلك فهم يرون فى عمله الخيالى عمـلا قيما تستريح اليـه نفوسهم فيقدرونه حق قدره انه تعبير عن ذاتهم عن مشاعرهم الخفية التى يعوزهم القدرة على التعبير عنها فيرونه جاهرا أمامهـم يفتح لهـم مجالات للتـأمل والادراك العميق فيقبلون عليه فى حب وشغف أو ينفرون منه فى حـدة وغلظة وذلك نتيجة لما يحويه اللاشعور من اسقاطات سارة أو أليمة آملة أو يائسة يبعث التعبير عنها على الحيرة والقلق والتوتر والانفعال أو يؤدى الى الراحة والطمأنينة والهدوء ولكنهم يقدرونه على كل حال كعمل فنى مبـدع أو خلاق صـادر من عبقرية استطاعت أن تكشف عن مكنوناتها الحجب وتبـديها واضحة للعيـان فكأنه انتشـل أفكاره الغائصة فى متاهات اللاشعور وجعلهـا تطفو على السطح ، على السطح الهادىء فاجازته الذات الى هذا السلوك العبقرى الفـريد • وجاء دور ذاته العليا لتقيم ما قدم من أعمال فاذا الحكم يصدر عليه بأنه فنـان • وقد يكون هذا الحكم متوقفا على مزيد من الفوضى والتعمق فى اللاشعور حتى يحصل صاحبه على مزيد من القدرة على الابداع والتقدير فيرضى بذلك غريزته ، التى

(١) Morenoo J. L. Psycho-Drama and Society Presentday psycho, p. 681.

اغفلها فى خضم العمل الشاق المتواصل ولكن دون أن يستمسك بفرديته فيعيش فى عالمه الخاص عاكفا على تحقيق رغبة واحدة هى التمدح بنفسه وتمجيد ذاته بل هو ينطلق من هذه الفردية مضحيا بلذة النرجسية وبلذة العزلة عن المجتمع ليفتح لنفسه الباب ليعيش مع الناس ومن بينهم فيغدو الى المجتمع مبدعا فنانا مشاركا لمشاعر الناس ومعبرا عن ذاتهم •

وهنا تفسير آخر (لرانك) على أساس فكرة الارادة عند الفنان لما كان الابداع تعبيرا عن الارادة فى حريتها المطلقة وانتصارها الكبير بحيث تكون ارادة الفرد معبرة عن ارادة الجماعة أى أن الفنان انما يعبر لا عن ارادته فحسب بل هو يبسط ارادته على ارادة جنسه ، مما يحقق له مزيدا من النصر والارادة •

(أ) وهنا يختلف الابداع بين المقدرة الابداعية للنمط المتوسط من الناس حيث يستطيع الفرد أن يحقق فرديته فتحقق له هذه الارادة وتبقى قوية صلبة •

(ب) المقدرة الابداعية الخارقة التى تدفع صاحبها لا الى تحقيق فرديته فحسب بل انه يحقق من خياله عالما كاملا ثم يطالب عالمه الواقعى بأن يكون على وفاق مع عالمه الخيالى ، أى أنه يجد التقاء بين الواقع والخيال أو يجد على الأقل أن الصور الذهنية التى أبدعتها مخيلته المبدعة لا تتعارض مع الواقع فيسعى الى تحقيقها • أى أن ارادة الفرد الفنان التى يفرضها على ارادة النوع هى التى تدفعه الى الابداع أى أن الابداع يعتمد على فكرة الارادة عند الفنان •

كذلك يرى يونج ان الفنان مزود باستعداد خاص يتضمن شحنة من الحياة الروحية الجمعية وكأنما الفن دفع داخلى يستولى على الانسان المبدع ويجعله أداة له فهو اذ يبدع لا يعبر عن رغباته الخاصة وانما هو يعبر عن تلك الدوافع الداخلية التى تجعل من الفنان وسيلة للتعبير عنها ، وهى بدورها تعبر عن مشاعر الجماعة ، وروح الجماعة ، ولكن ذلك يوقعنا فى شىء من التناقض الظاهرى فكيف يكون الفنان انسانا أو كائنا بشريا ذا ارادة وأهداف شخصية وهو فى الوقت ذاته لا يعبر الا عن الروح الجمعية التى تتمثل فيها مشاعر الجماعة وأهدافها وأمانيها وبعبارة أخرى ان الفنان كائن بشرى له حياته الشخصية فى حين أنه من ناحية أخرى يؤدى دورا ابداعيا غير شخصى • هذا هو التناقض الذى يصل فيه يونج الى حل يتفق ووجهة نظره فهو يرى أن الفنان انسان بمعنى أسمى فهو انسان جمعى مزود بخصائص تجعله يرقى فوق الفردية ليصل الى مستوى الجمعية ، أو المشاعر الخاصة بالجماعة • وقد يضحى الفنان بشىء من سعادته الشخصية فى سبيل الوصول الى هذا المستوى الرفيع من الانسانية الذى لا تتحقق فيه فردية على النحو العادى ولكنها تتحقق عن طريق الشخصية العامة أو الجمعية ، أى أن يونج يرى أن الفنان بشخصيته

انما هو الرجل الذى تنصهر فيه شخصيات المجتمع فتذوب وتتلاشى وتتحول الى شخصية جديدة تعبر عن روح الجماعة وشخصية الجماعة بكل ما تحويه من مشاعر واتجاهات ٠

ومن هنا كان انتاج الفنان ليس ملكا له وحده بل هو ملك الجماعة وتعبير عن كل ما يسود الجماعة من تيارات فكرية ونفسية واجتماعية ٠

ويصبح الفن من ناحية أخرى لغة عامة للجماعة بل انه لغة عامة للجنس البشرى بأكمله تتفهمه فى كل مكان ، وفى كافة أنحاء المعمورة ٠

ومن هنا كانت تقابل فرق الفنون فى كافة أنحاء العالم بالترحيب والاعجاب وقد شهدنا فى بلدنا كيف أن فرق الفنون الشعبية لاقت نجاحا مرموقا فى جولاتها الكثيرة فى أنحاء العالم مع اختلاف اللغة وصعوبة تفهم عباراتها ، وكذلك الفرق الأجنبية التى زارت بلدنا حظيت بكثير من الاعجاب والنجاح من جانب كافة طبقات الشعب ولا ننسى ما حظيت به الفرق الصينية للفنون الشعبية وأكاديمية الرقص الشعبى بالصين وفرقة موسييف الروسية للفنون الشعبية فلم تكن اللغة هى وسيلة التفاهم مما ييسر التقدير والاعجاب ولكن الفن ٠ الفن فى ذاته ٠ الفن باعتباره تعبيرا عن مشاعر النفس البشرية من خبايا اللاشعور ، ولا عجب فى ذلك ألم يكن الفن قديما هو والدين صنوان لقد كان ارتباط الفن بالدين وثيقا حتى أن الرقص كان يعتبر تقليدا لحركات الحيوان الذى تعبده الجماعة ، وكذلك الموسيقي : لقد كانت تعبيرا عن صوت ذلك الحيوان ٠

قلنا ان الفنان مزود بدافع داخلى عن طريقه يحقق الفن أهدافه الأخرى فما طبيعة ذلك الدافع الداخلى الذى يستولى على الكائن البشرى ويجعل منه أداة له ؟ ٠

يتجه يونج فى تفسيره لهذه القضية وجهة قدرية خالصة ، فهو يرى أن كل انسان مزود بميول واتجاهات خاصة منذ ولادته وهى بالنسبة للفنان تكون الدافع الداخلى الذى عن طريقه يتجه انسان ما الى تنمية مواهبه الفنية (مثلا) بقدر ما تسمح به البيئة والمؤثرات الخارجية فلا يكفى أن توجد الاستعدادات فى الشخص دون أن تتاح الفرصة لتنمية تلك الاستعدادات ومساعدتها على التعبير عن ذاتها فى صراحة ووضوح ومعنى هذا من ناحية أخرى ان الانسان الفنان يتجه الى الفن ويبذل فيه الكثير مما يؤدى به الى طغيان اتجاهاته الفنية على كافة الاتجاهات الأخرى حتى يبرز فيه جانب الفن فيكون فنانا مبدعا وهو اذ يحقق ذلك انما ينصرف بطبيعة الحال عن جوانب أخرى فى الحياة ذات أثر فى اكتمال الشخصية ، ومن هنا تتضح الحقيقة التى لا نجد مشقة فى ادراكها ، وهى أن حياة الفنان يسودها الكثير من الاضطراب والفوضى أو أنها على أقل تقدير ليست حياة الانسان العادى التى يتضح فيها الانتظام

والتماثل فى كل جوانبها ، وانما هى حياة منفرجة الزاوية فى جانب واحد من جوانبها هو جانب الفن وهى بعد ذلك حادة الزوايا فى جوانبها الأخرى فهى ليست متساوية الزوايا وبالتالى ليست متساوية الأضلاع ·

وعندما درس فرويد دوافع الفنانين الى انتاج أعمالهم الفنية اتضح له أن أهم الدوافع هو الدافع الجنسى ، وقد اعتمد على ماقدمه «روبرتسن سميث» من دراسات للجماعات البدائية التى وجدت فيما قبل التاريخ ، وما كان يسودها من عادات وما يتبعه أهلها من ممارسات ، وما انتهت اليه من تحريمات أدت الى وجود ما يعرف بالتابو وأدرك « فرويد » انه كلما كانت الرغبة ملحة على الأفراد ، كلما اتخذ التحريم أعنف الوسائل وأقساها ، وظهر فى صورة عقوبة رادعة مستعينا بسلطان قوى جبار هو سلطان الدين من ناحية ، والمجتمع من ناحية أخرى · الا أن هذه القوانين القاسية وما تحويه من قوة رادعة مهما تخفت واتسمت بوشاح القاضى العادل أو الكاهن المتبتل فانك لو نزعت عنها ذلك اللباس الظاهرى البراق فلابد أن تراها معبرة عن أحط الميول والغرائز مدفوعة الى ذلك بقوة داخلية أعنف منها وأقوى حتى أنها تتخذ كل ما تستطيع أن تستعين به من أساليب الردع والتحريم ، ولكنها مع ذلك كثيرا ما تبوء بالخيبة والفشل ، **يتضح ذلك فى كل ما نراه من مخالفات ومشكلات اجتماعية لو أمعنا النظر فى خباياها فهى تعبر عن هذا الجانب الممقوت الذى تحاربه البشرية مع أنها راغبة فيه مقبلة عليه** ، وهذا هو التناقض الأساسى فى حياة الانسان ، وفى حياة الفنان على وجه خاص ، ومن هنا كان الكبت عملية أساسية لمنع النزعات النفسية من الظهور · فالمجتمع والدين بما وضعا من قوانين وتحريمات قضيا ألا يكون الانسان حيوانا طبيعيا · بل عليه أن يكون حضاريا (١) ·

ومعنى هذا ألا تسير النزعات الفطرية فى مسارها الطبيعى ، بل عليها أن تختفى وتهبط الى اللاشعور لتظل مختفية قوية متحفزة على استعداد لغزو الانسان والمجتمع فى فرصة تسنح لها للظهور فى صور رمزية مختلفة ، وفى ثياب تغير من ملامحها الأصلية حتى يسمح لها الحارس بالمرور · هذا الحارس أو العقل الواعى قد ينتابه الوهن أثناء النوم أو فى حالات الاعياء ، أو الغيبوبة أو التخدير فاذا بتلك المكبوتات تخطر أمامه فى ثياب التنكر ، فلا يسهل عليه ادراك حقيقتها ، وبذلك تفلت من قبضة يده لتعبر عن نفسها فى الفن ، فى الأحلام ، فى النكت ، فى أخطاء اللسان أو القلم ، ولا عجب فهى فرصتها الذهبية فى غيبة الرقيب تعبر فيها عن ذاتها متخفية متنكرة فلا يدركها العقل الواعى الا على أنها مجرد أعمال تصدر عن صاحبها بلا معنى ولا هدف ولكنها فى الواقع تعبير رمزى عن مشاعر الطفولة ، وما كبت فى اللاشعور ·

---

(١) كلود ليفى شتراوس .L'homane Nu — Plon — ...is

وعلى هذا النحو كيف يبدع الفنان ؟ ان العمل الابداعي عند الفنان لا يكفي أن يكون نتيجة لوعي تام ويقظة كاملة ، ولكنه عمل مشوب بقوة الخيال تعمل فيه أحلام اليقظة وعمليات اللاشعور ، ومن هنا كانت أعمال الفنان كما يقول بعض المفكرين هي عملية فيها من الانتباه أقل بما فيها من الغفلة اللاارادية .

فاذا رجعنا الى قصتنا الأولى ، وهي أن الفنان شخصية جمعية أو أنه يعبر عن شخصية الجماعة بكل ما تحويه من أفكار ونزعات لوجدنا أن الفنان حين يخرج فنه فهو يعبر به عن نوازع الجماعة ومشاعرها ، وهو من ناحية أخرى ينفث به عن مكبوتات اللاشعور الجمعي ، وهو بذلك يخلص الجماعة من مشكلاتها اللاشعورية ويعيد اليها التناغم والاتساق أى أن وظيفة الفنان في المجتمع ليست مجرد عرض لما ينتج من ضروب الفن المختلفة ولكنه القوة الفاعلة التي تؤدي دورا سيكلوجيا رئيسيا بين الجماعة الا وهو اعادة البناء النفسي للجماعة بحيث تخلو من توتراتها واضطراباتها ليعود اليها الاتساق والتكامل ، وتلك مهمة رئيسية في البناء الاجتماعي ، وفي تكامل الشخصية .

وهكذا نرى أن الفنان قد نظرت اليه الجماعة قديما على أنه انسان ملهم بالمعنى الثيولوجي لكلمة الالهام أى تهبط عليه الأفكار من السماء فينفذها في صوره أو أقواله أو غير ذلك ، ومن هنا كانت الفنون متصلة بالدين أوثق اتصال ، وحتى الرقص فقد كان للراقصات بالمعبد شأن كبير عند اليونان .

وبعد ذلك وجدنا أن الفنان قد وجهت اليه نظرة جديدة على يدى «فرويد» وأتباعه ، على أنه انسان مريض يعبر بفنه عن مكنونات لا شعوره ، ولكن كيف يعبر عن مكنونات لا شعور الآخرين ، انه ان عبر عن مشاعره وحده فان هذا الاتجاه الشخصي أو الفردي لا يؤدي الى قبول الفن عند الآخرين ، اذن فلا يمكن أن يكون الفنان ذا اتجاه فردي خالص بل انه الوعاء الذي تصاغ فيه مشاعر الجماعة وميولها ورغباتها وتخرج منه معبرة عنهم جميعا ، معبرة عن الكل في وحدة ، والوحدة في كل متكامل . وحتى هذا الاتجاه أصبح بحاجة الى شيء من اعادة النظر في الوقت الحاضر ، فالبعض يرى أن الفنان انما يقدم فنه وفقا لمقاييس خاصة بالذكاء والتوافق الاجتماعي ، وانه بقدر ما يرقى في مستوى الذكاء ، وما يحصل عليه من نضج اجتماعي انما يستطيع أن ينجح في مهمته كفنان ، ولكننا نرى أن هذا المعيار الجديد لقياس الفنان يخرج به عن نطاق فنه ، ويجعله قريبا من القائد الاجتماعي أو الرائد الذي يحتاج الى قدر من الذكاء يعلو قليلا على مستوى الجماعة التي يعيش فيها .. كما أنه لابد أن يكون على أعلى قدر من التوافق الاجتماعي بينما الفنان ، وان امتلك هذين العنصرين ، الا أنه لابد محرز لعنصر ثالث قد لا يكون من السهل اكتشافه ، ولكنه بلا شك حقيقة قائمة في ذات الفنان هي التي تجعله بحق لا شخصية

فردية قائمة بذاتها ، بل شخصية جماعية تذوب فيها مشاعر الغير وأحلامهم • الا يكون هذا العنصر الثالث هو النزعة الوجدانية المرهفة ؟ أو هو الشفافية الروحية التى ينفرد بها الفنان ؟ أو هو كل ذلك معا ، وهنا نجد أنفسنا قد عدنا الى رأى يونج حين أكد وجود قوى واستعدادات فطرية تجعل كل فرد يختلف عن الآخر ، وأن الفنان مزود بتلك القوى والاستعدادات التى تظهر وتنمو عندما تجد البيئة الصالحة لنموها وازدهارها ولكننا مع ذلك لا ننكر رأى فرويد فى أن عملية الدافع الفنى من الداخل لا تتضح تماما الا اذا كانت الذات المبدعة فى عملية تخيلية عميقة أو فى حالة من حالات أحلام اليقظة أو شبه غيبوبة الشعور، وهنا نجد الباب مفتوحا على مصراعيه لندرك فى وضوح تام أن كلا من الفنان والشعب انما يبحث عن فردوسه المفقود •

ان انتشار الفنون الشعبية فى جماعة معناه توفر فرص النمو السوى للانسان ويظهر ذلك فى :

١ ـ الانتقال المبكر من النرجسية الى القدرة على اقامة علاقات اجتماعية صحيحة •

٢ ـ الانعدام النسبى للقلق •

٣ ـ الضبط الناجح للدوافع العدوانية •

٤ ـ تعديل سلوك الفرد فى الجماعة بدافع من الليبيدو كقوة عاطفية جاذبة •

٥ ـ تأخير الاتصال المتبادل بين أفراد الجماعة وبين عوامل الشخصية الفردية وتدعيم الظروف الجماعية التى تساعد على ذلك •

٦ ـ وأخيرا سهولة التعبير عن الاتجاهات النكوصية أو السلوك النكوصى حيث تجد الدوافع الطفلية المكبوتة متنفسا للتعبير عن طريق التخفيف عن سلطة الأنا الأعلى • وقد تشمل هذه الدوافع الحاجات غير المشبعة الى الحب والى العدوان •

وعلى ذلك فحياتنا الاجتماعية بما تحويه من ضروب مختلفة من الفنون والآداب الشعبية ذات أثر كبير فى تدعيم وتنمية الشخصية ، ذلك عن طريق تهيئة الظروف المناسبة لاعلاء الدوافع الرئيسية وضبط الرغبات الطفلية والسلوك الطفلى مع تمثل كامل لمعايير الجماعة عن طريق الأخذ بقيمها ومبادئها ، مما يوفر للفرد الحب والوقاية وفى ذلك ما يساعد الفرد على التخلى عن الوسائل الدفاعية التى تتبعها الأنا بعد أن تصبح فى مأمن من التهديد الواقعى ، أو الخيالى ، مما يؤدى بها الى توكيد احترام الذات وتلك هى السمة الرئيسية للشخصية المتكاملة •

ان الروابط الانفعالية التى تعيشها الجماعة هى الدعامة الأولى لتماسك الجماعة ، ولوجود بنيان اجتماعى ، كما أنها تؤدى الى قيام روابط انسانية •

ان الفنون الشعبية تبرز وظائف الشخصية في صور قوية واضحة ، وانه بدراسة تلك الوظائف كما أوردها (مخيمر وميخائيل) نتبين علاقتها الغرضية بالفنون الشعبية على اختلافها ، وأول تلك الوظائف هو :

١ ـ خفض التوتر :

لم يصل علماء النفس حتى الآن الى تصور مقبول للسعادة • وان القضية الأرستطالية التى تقرر أن هدف الحياة الفريد هو السعادة الفعلية تصريح مكين لا يرقى اليه النقد •

ويحاول السيكلوجيون ان يفصحوا عن بعض المعانى التى تؤدى الى السعادة ، أو على الأقل الرضى ، والتوافق منها خفض التوتر • فالانسان يسعى الى سلوك ما وكل سلوك تثيره انفعالات ، وكل انفعال يصحبه توتر أليم ، وخفض التوتر يؤدى الى ازالة الألم أو اللذة أو السعادة • هذا هو الموقف المبسط لخفض التوتر واعادة الاتزان •

وعلينا الآن أن نوضحه حسب الرأى الفرويدى : يظهر السلوك نتيجة لوجود حاجة أو حافز أو قوة توجيهية ، ويؤدى ذلك الى وجود التوتر فاذا ما التقى الكائن المتوتر بالموقف الجديد يميل الى التقدم بواسطة محاولات وتمهيدات تخيلية أو صريحة ، وبعد الجهد أو الكد قد يصل الكائن فى النهاية الى هدف يؤدى به الى اعادة التوازن ، وذلك عن طريق خفض التوتر ، وما يصحبه من احساس بالرضى ، وبتكرار هذه التجربة الانفعالية التى تنتهى الى اعادة التوازن وقد ارتبطت ارتباطا ديناميا بالرضى والطمأنينة ، ومن الناحية النفسية يؤدى ذلك الى وضوح موضوع الهدف وارتباطه بالمكان والزمان قد يتحقق فيه الاشراط •• كما أن أنماط العقل الفاشلة بالتكرار تتجه صوب التضاؤل والزوال • بينما الأنماط الناجحة بما فيها من وسائل فعاله تتعلق بشخصية الفرد أو بذات الموضوع • تلك الأنماط الناجحة تتجه نحو التجسم والثبات ، وتكامل الموقف الناشىء عن مركب من الحاجة ، والهدف وموضوعات وأنماطه الناجحة ، وغير ذلك مما يؤدى الى ظهور عملية سيكلوجية متتابعة فاذا كان الموقف مدركا حسيا أوصورة ذهنية لموضوع الهدف ، فانه يوقظ الحاجة وبالتالى يبرز النشاط الذى يظهر فى صورة سلوك يحفزه انفعال ، وهذا الأخير يصحبه توتر أليم تسعى الأنا الى التخلص منه عن طريق خفض التوتر ، والحصول على الرضا ، أى أن وظيفة العمليات السيكلوجية هى التسكين الدورى لحاجات متباينة • أو بمعنى أوسع هى الخفض المبهج لتوترات قائمة ، وبهذا المعنى تكون نقطة الرجوع هى الحال الأولية أى التوتر المغلق لا الحال المرغوبة أى ارضاء النفس وكثيرا ما يسلك الانسان سلوكا ذا قيمة توافقية حتى ولو بدت شاذة مرضية مثل الانتحار حتى يخلص من توتر أليم ، وان درجة الرضا تتناسب طرديا مع كمية التوتر المخفضة فى الوحدة الزمنية • فكلما ازداد

الانسان جوعا ازداد تمتعه بوجبته ، وأن حالة انعدام التوتر تعتبر حالة غير عادية تتمثل عند من يعانون من زحل متأصــل أو حافز جنسى أحبط ولا شك أن انعدام أو غياب توتر الحاجة يعتبر حالة شاقة مضنية .

ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أن عملية التوتر ـ خفض التوتر انما تأخذ جانبا واحدا فقط فى الحيــاة البيولوجية فى عملية التغير الغذائى فى الخلايا (الميتابوليزم) اذ أنها تعطى عملية الهدم لا عملية البناء التى تتم تلقائيا فى وقت النوم والراحة ، وتظهر دلائلها فى تجديدها للطاقات الجسمية والعقلية وتوترات الحاجة .

ان الانسان يبحث عن التوتر ، ويسعى اليه لأنه دلالة الحياة والوجود فكان الصيغة التى يجب ان ننتهى اليها الآن لكونها أكثر شمولا هى :

توليد (التوتر ـ خفض التوتر) . وهنـــا تظهر وظيفة هامة بالنســبة للشخصية .. فأنظمة الحاجة الايجابية تنطوى على كثير من المتاعب ، وتشمل أهدافا عســيرة المنال ، فتكون وظيفة الشخصية آنذاك هى التنســيق الزمانى لتحقيق الأهداف ، وبلوغ المآرب ، وهذه العمليات التى تربط الانسان بالمجتمع فى الزمان تكون نوعا من الترقى . ففى مقتبل العمر تزدحم الآمال ، وتتشح بوشاحات خلابة ، الا أنه لا يتحقق بلوغ المآرب الا عن طريق مراحل متتاليــة ، ويدرك الانسان السوى انه لا مرجع عن السير فى الطريق خطوة تلو أخرى مع الاستعانة باساليب التكيف مع ما يصارعه من آمال ومآرب ، وهو فى كل تلك المراحل والخطوات يستعين بأساليب مختلفة للفوز فى معركة الصمود ، فيسرى عن نفسه بنكتة طريفة ، تدفعه الى الانفجار فى الضحك ، فيزول عنه التوتر ، أو بالاستماع الى أغنية بسيطة ساذجة ، فينسى بها ولو الى حين ما هو دائب عليه من جهد وتوتر ، أو يستمع الى قول حكيم فيتخذ منه مثلا وعظة ، وهو فى كل ذلك يسعى الى خفض التوتر دون أن يدرى ما هو بصدده من عمليات سيكولوجية تعتبر قوام استمرار الحياة ، نستطيع أن نســـميها لذات كيفية (فى مقابل اللذات الغائية) ينطلق منها التوتر مجردا من المسئوليـــة عابثا ملتذا لذاته .

وبعد فلا شك أن خفض التوتر يفسر لنا السببية المتسترة فى انفعــال الانسان كما أنه يوضح عمليات الحفز ، ولكنه لا يجيب على السؤال التالى وهو لماذا يفعل الشخص هذا وليس ذلك الفعل ؟

٢ ـ الافصاح الذاتى :

الشخصية الانسانية شأنها فى ذلك شأن سائر الحيوان تخضع لمبدأ المثير والاستجابة اذن فهى حاصل نمطى استجابى سلبى لا يحصل على صفة الدينمة

الا عن طريق الحفز الذى يزكى فيه الحيوية والنشاط • فتظهر فيها الحركة الدائمة الدائبة للعمليات الوظيفية وبعضها ما يملأ النفس من معارف وآداب وقواعد وأوهام ومآرب وتوقعات ، وما يصحب كل ذلك من آثار نفسية تظهر فى الخوف والألم والحب واللذة والائتلاف والنفور ، وهذه الفاعلية الدائبة لا تتمثل بنفس الدرجة فى كل شخص ، وفى كل آن أو مكان فبعض الناس يعيشون فى حالة سلبية نسبيا ، وكانهم بحاجة الى اذكاء لانفعالاتهم الباهتة وان كل انسان مهما بلغت درجات ثقافته من السمو انما تهدف الى الافصاح عن ذاتها باستجابات مباشرة كذلك تكامل الارجاع وهو مظهر مؤقت للاستجابات المباشرة يكون مختلفا بل ومتميزا عن تلك التطلعات والدوافع التى يعيشها الانسان فترات طويلة لتحقيق مآربه البعيدة •

وغاية القول هنا أن الشخصية تصب نفسها فى قالب مترجم لها فالحياة كما يقول البعض هى كالتوقيع على كمان ، وعلى الهاوى أن تتمخض قريحته بلحن مقرون بمران (١) •

٣ ـ خفض الصراعات بالأنهاج التوقيتية :

وبالاضافة الى خفض التوترات النوعية والافصاحات الذاتية فان الشخصية تصارعها دائما نزعات متباينة عن كل حاجات الانسان فى الحياة وضروبها ، تؤدى الى صراع مستمر بين نزوات مختلفة تنجم عن حاجات ذات موضوعات وأهداف • فما هو النزوع الخاص بالهدف ؟ الاجابة على هذا السؤال نرى ان الشخصية تتألف من انهاج توقيتية هى مجموعة نزوعات وقتية تظهر فى فترة من الزمان وتتتالى فيما بينها ، وقد لا تكون مترابطة ولكنها تشكل سلوكا مهدئا يؤدى الى خفض الصراع النزوعى ويحقق درجة من التوازن والتناغم تعتبر أيضا بدورها نهجا توقيتيا لأن ذلك النزوع قد لا يتكرر فى وقت آخر •

وكثير من الناس تحركهم انهاج توقيتية من صنع المجتمع الذى يعيشون فيه ، كذلك تفرض الثقافات الوانا عامة أو خاصة للتحديد الزمانى أو المكانى والفعلى ، وقد يؤدى الأخذ بهذا المنهج أو ذاك الى قيام صراع بين الفرد ومجتمعه • فالطفل مثلا يريد أن يتغذى بما وكيفما وحيثما يشاء والأم تنهج وفق تعليمات الطبيب فينشأ الصراع ، وكذلك الطالب والمدرسة •

ان المجتمع الحديث بتعقده وتشابكه انما يضطر الفرد أن يعيش وفق نهج محدد تحديدا زمانيا جامدا • فمنبه الطعام ليس الخواء المعدى بل صفارة المصنع أو موعد الانصراف من العمل وقت الظهيرة وبالتالى فان حاجات الانسان تهدأ قبل ظهورها فلا تظهر الصراعات على نحو طبيعى • ومن ثم فقلما يكون الانسان

(١) مخيمر ، مرجع سابق •

مدركا لحاجاته الطبيعية ويؤدى ذلك لعدم الوصول الى حالات التوتر أو خفض التوتر كما يضيق ذرعا بعمليات الاحباط بالنسبة لحاجات أخرى تتطلبها حياته السيكلوجية كانسان ، ولكن هذه الأنهاج التوقيتية لا تؤدى الى العبث بالحياة الاجتماعية بل انها تساعد شخصية الانسان على مزيد من النمو والوضوح وتعمل على تسكين حاجاته دون مصارعتها ٠

٤ ـ خفض توترات التلهف :

كثيرا ما يتعذر على الانسان البلوغ الى الارضاء التام لكل مطالبه وحاجاته ، وقد يرجع ذلك اما الى الافتقار المادى أو الاجتماعى أو الخلقى أو البيئى فيخفق فى تحقيق مطامعه المادية أو مشاعره الوجدانية كأن يفشل فى علاقة أو صلة بشخص أو يفقد الجاه والسلطان ، وفى كل مرة من مرات الفشل والاحباط يزداد القلق والتوتر ، بعد ذلك تأتى مرحلة يقوى فيها رصيد الاحباط فينخفض مستوى التلهف والطموح ، وكذلك تنخفض عتبة الاستثارة أو تحدث عملية ابدال للأهداف المحيطة ، وتلك وظيفة نفسية من وظائف الشخصية ، تؤدى الى انقاذ نفسها بنفسها ، من الضيق والضجر ، بالحياة عن طريق رفع وصيد الاحباط ، وعن طريق الاتجاه نحو الواقعية بحيث يرى الفرد ان مالا يمكن تحقيقه بذاته يمكن تحقيق غيره يؤدى نفس الوظيفة أو ما يقاربها ، فكأنما تسلك الشخصية نحوا وظيفيا فى سبيل اعادة الاتزان عن طريق خفض توترات التلهب ٠

ولايضاح ذلك نقول ان هناك فى النفس الانسانية فى الانا جزءا خاصا يعرف بالذات المثالية وهى مجموعة تطلعات تخلق خلقا تخيليا ويعاد ابداعها فى مجرى الحياة الانسانية على مر الاطـوار وتظهر فى الاستجابة النمطية البيئية كقدرات خرافية أو تاريخية فتكون الذات المثالية نسقا من تقمصات تخيلية تعلو على الانا وقياسها قد يبرز نتائج موضوعية لفحص الشخصية ٠ ومن هنا كان خفض توترات التلهف ضروريا وهاما مادامت الذات المثالية فى دور الفاعلية والنشاط وهنا يكون للحكم والأمثال الشعبية دورها الفعال فى تحويل الفرد عن أحلامه وتطلعاته الخيالية ليرضى بالواقع ويعيش فى وئام مع نفسه ٠٠ ويظهر ذلك فى المثل الشعبى القائل اللى ما يرضى بالخوخ يرضى بشرابه ٠

٥ ـ خفض الصراعات بالتوافق الاجتماعى والتقمص :

كيف تتكيف الشخصية بتعبيراتها وحاجاتها وموضـوعاتها مع الانماط المدعمة اجتماعيا ؟

يرى البعض أن ذلك كله انما يتم عن طريق التعلم ، ولكن ما تزال مشكلة المواءمة بين النمطية الفردية والنمطية الاجتماعية قائمة ، فقد يكتسب الانسان العلم والمعرفة ولكنها لا تعدو أن تكون تصورات ذهنية أو مبادىء فكرية لا تهبط

الى التطبيق العملى ، فالنمط الثقافى وتسخيره متباينان ٠ وموضوع ارتباط الفرد بالجماعة يعتبر من المباحث القديمة بالنسبة لدراسة الشخصية لمقدار مشاطرة الفرد فى الانماط الاجتماعية أو مقدار نبذه اياها كذلك فتقمص روح الجماعة ومشاطرتها حياتها العامة معناه مطابقة بين الفرد والجماعة وافتقار تلك المطابقة معناه مجافاة شرائع الجماعة فى تحقيق مآربه وما يتبع ذلك من الحـرمان أو التذمر ، ومن ثم فدراسة المشاركة النمطية تدلنا على عادات الأفراد تجاه الجماعة، ومدى اقتراب الفرد مما هو جماعى بحيث أنه كلما كان الفرد أكثر تمسكا بعاداته التى اكتسبها من المجتمع كلما كان مقتربا من النمطيـة الجماعية وان تلك العلاقة الطردية يمكن عن طريقها فحص الشخصية وتقدير مدى سلامتها من الناحيتين الاجتماعية والسيكلوجية ٠

ان الهوة الثقافية بين العناصر المادية والعناصر المعنوية للحضارة تزيد فى بعض المواقف من حدة تلك التعقيدات الاجتماعية ٠ لذلك كان من الضرورى ان تتم عملية تنميط للسلوك تنميطا ثقافيـــا كجزء هام من عمليـــة التطور الثقافى التى يحتاج اليها المجتمع ٠

ولا شك ان لهذا التنميط الثقافى أهمية كبرى بالنسبة للجماعة فهو يضم أولا وقبل كل شىء الاقتصاد فى الطاقة كما انه يحوى جانبا وجدانيا ايجابيا والفرد لكى يكون اجتماعيا بالمعنى الناجح يجب أن يعرف أى الأنماط يضاهى سلوكه حتى ينال الطمأنينة فى القيام به ٠ ولا تتم عملية التطور الثقافى الا عن طريق نهج أنماط ثقافية جديدة فى المجتمع وذلك يتطلب تطورا دوريا تمليه الرغبة فى التقدم والترقى الا اننا نرى دائما أن بزوغ هذه الأنماط محوط بالخفاء والالتباس وان الاستعمال المديد لها عن طريق تقبلها من الجماعة هو الذى يكتب لها الحياة والقداسة بينها ، ومن هنا كان الآباء والمسئولون اجتماعيا هم المنوط بهم تدعيم وتعليم الأنماط التقليدية بالاقناع وضرب الأمثال ثم عن طريق الثواب والعقاب كنظام ثقافى محدد ومقرر اجتماعيا ٠ وتسمى عملية صقل وتعلم هذه الأنماط حتى تتوحد فى كتلة الثقافة العامة للفرد ثم الجماعة فيتشربها وتصبح جزءا من حياته وكأنها طبيعة ثانية له وكأنها عملية استشعار تسمى بعملية التطبيع الاجتماعى ٠

وان درجة الاستشعار لا يمكن تقديرها بما يصدر عن الفرد من سلوك ، فان ما يتطلبه المجتمع من مزاولة دائمة للقمع يعتبر ممارسة أليمة تؤدى الى زحل متراكم صوب الاتجاهات الثقافية شعوريا أم لا شعوريا ويترجم هـذا الحقد عن نفسه فيما يبدو على الفرد من توتر وتبرم وفظاظة أو مما يبديه الفرد من أنين واكتئاب وتشاؤم ، وقد يؤدى ذلك مع الوقت الى ألوان من العصـاب والذهان ، ومن ثم فالكبت المتواصل للغل والحقد يدل على فقدان التوافق الانفعالى وبالتالى يؤدى الى الاخفاق الجزئى لعملية الاستشعار ٠

ان الافراط التوافقى يقــود الى شحنة من التوتر ، وبالتالى الى زيادة الانفعالات ، وكأنما كراهية الفرد تنبع من كل نبذ متضمن فى عملية التوافق ، وهنا يمكن لنا القول بأن عملية وظيفية تؤدى تميل الى الوفاق مع المستويات الاجتماعية ، ومن ثم الى خفض التنافر الانفعالى ، فالانماط اللامعقولة التى قد يفصح عنها الفرد أو يميل اليها كثيرا ما تتبدل بأخرى وظيفية تؤدى به الى تحقيق التوافق فى المجتمع ، مما يسبب الراحة والطمأنينة للفرد والجماعة ٠ ومن هنا كان اختبــار الشخصية يتوقف ضمن ما يتوقف عليه من عوامل على عامل تقبل الفرد للثقافة والمواءمة بينها وبين الجماعة أو ما يمكن لنا أن نسميه بالترقى الفردى عن طريق الثقافة وذلك يتضح مما يلى (١) ٠

فبعض الأنماط الثقافية باق وبعضها متغير وأخرى تساعد على اقامة قيم اجتماعية جديدة ورابعة تحافظ على القديم لقدمه ، وأخرى مبدعة خالقة فالانسان اذا ما تقمص ثقافته برمتها فانما هو يمثل تلك الاتجاهات المتباينة جميعا بيد انه يستحيل تحقق ذلك فى شخصية فريدة ، حقيقة أنه قد يكون أغلب القوم (حملة ثقافة أى محافظين عليها الا أن هناك أيضا مبدعين لها كما ان هناك قاصمين لعراها ، ومن ثم يمكننا القول بأن عملية الاستشعار عند ما تتم على نحو وظيفى جديد انما تكون هى الميل والقدرة جميعا على التبادل والتفاوت مع أعضاء المجتمع المحافظين على نفس انماطه وأيضا مع أولئك العاملين على ترقيتها) ٠ ولا ريب ان تحقيق هذا الهدف انما يؤدى الى صراعات كثيرة بين الفرد والمجتمع نحو الالتحام بل والتقمص والاندماج الكلى فى احدى القوتين ـ القوة المحافظة والقوة المبدعة ٠

ان الشخصية الانسانية هى تاليف وئامى أى حاصل دينامى لمجموع الصراعات بين حوافز الفرد نفسه وبين مطالب واهتمامات وحوافز الآخرين ٠ ويتم هذا الوئام على أنحاء متشعبة فقد يزداد الفرد فى استشعاره أى تخيله الاجتماعى فى ناحيــة من ســـــلوكه ، وأخرى يكون منها بين بين وثالثة يتم الاستشعار على نحو جزئى ثم ان ما تؤدى اليه مطالب الشخصية من صراعات متراكمة قد تجد حلا باتخاذ تدابير معينة تصلح لهذا الموقف ولا تصلح لغيره من المواقف وقد يصـــبح التوافق فى موقف ما عداء صريحـا صوب الأنظمة ٠ مما يؤدى الى تحريف التقاليد ٠ أى أن عملية التعلم والأنماط الثقافية وما ينتابها من تحويلات الى أخرى وما يصحب ذلك من ارجاع وجدانية انما تعتبر المنابع الدافعة لعملية التغير الثقافى بكل ما تحويه من تغير أو طفرات ٠

ولقد أوضح بارنيت Barnett (٢) ان الصراع الشخصى حتى فى المجتمع المتجانس غير المتحضر هو الحافز الأول للابداع وأن الأشخاص الساخطين وغير

---

(١) مخيمر وميخائيل سيكلوجية الشخصية ، الانجلو ١٩٦٨ ٠

(٢) Barnett Personal struggle and cultural Change, London 1946.

المتوافقين والمحبطين والمبلبلين هم الطليعة التى تبادر الى الأخذ بالابداع الثقافى والتبدل ٠

وعندما تشحن الأهداف والوسائل بشحنة قوية من القلق أو تنبذ ٠٠ فان نموذج التوافق يكون بالاعتزال ولمشقة العبور من وجود لا اجتماعى الى آخر اجتماعى تجد البعض يقولون بأن الانسان بالفطرة يميل الى الشر وانه كلما أمكن له الترقى من الطبيعة الى الحضارة أى كلما أمكنه نبذ هذه (الدناسة الجبلية) والاذعان لطرائق المجتمع كان ذلك أنجح له وبالتـالى حق للمجتمع أن يقمع فى الفرد ميوله الفردية الذاتية وما يرتبط بهـا من اهتمام ذاتى حتى يكون مضحيا وخادما للمجتمع ٠ فالشخص الذى يكون فى وسط المنحنى البيانى هو من تعتدل فيه العملية الاستشعارية ، والمجتمع يتألف فى الواقع وفى الأغلبية من هؤلاء الذين يمثلون الوسط العدل ، ولكن الابداع سواء الفنى منه أو العقلى قلما ينبع من هذا النموذج من الانسان ٠

من كل ما تقدم نقول ان وظيفة الشخصية فى جوهرها تتمثل فى ابداع تخطيط يسمح بالابداع الدورى المتناغم لأغلب حاجاتها ٠ كما أنه يدفع الى نجاح تدريجى لمآرب خصبة يصوغها الفرد لنفسه فتراوده فى فترات منها أحلام اليقظة ٠ هذا التخطيط يكون مكانا لما يسمى (بفلسفة الحياة) ٠

ووظائف الشخصية تتمثل فى مراحل عدة هى السماح بتحديد دورى ــ للطاقات عن طريق النوم ثم ممارسة عملياتها ثم الافصـــاح عن مشاعرها وتقويماتها ثم خفض توترات الحاجة المتلاحقة ، ثم التخطيط لنيل أهداف خاصة ، يعمل الفرد على تحقيقها ، وتلك لابد آن تكون فى وئام مع المجتمع ، ثم خفض الصراعات المستمرة بين الحاجات عبر شرعات توفيقية مؤدية لسبيل منتظم فى الحياة ثم تنميــة ذاتهــا للتخلص من التوتــرات عن طريق حصر عددها (١) ٠ بانزالها الى المستويات الاجتماعية التى يمكن تحقيقها ، ثم أخيرا خفض الصراعات العنيفة بين الميول الشخصية ، وبين الجزاءات الاجتماعية ، وكذلك الصراعات التى بين الحوافز اللاجتماعية ، وبين متطلبات الأنا الأعلى وذلك عن طريق التواؤم والتوحد صوب اندماج انفعالى كلى فى قوتى المجتمع المبدعة والمحافظة ٠٠ ثم ان فهم الشخصية يستلزم ترقيها فى الزمان ودراسة عمليات التفاضل والتكامل التى تؤدى فى النهاية الى ابداع فلسفة للحياة ، كل ذلك يأتى على نحو من التماسك والتلاحم تتألف منه وحدة متباينــة على نحو ما هو معروف فى اللغة أو على نحو ما نراه فى مقطوعة موســيقية رائعة فتبدو من كل ذلك الشخصية المتكاملة (٢) ٠

---

(١) كذلك يتخلص من التوترات عن طريق تقريب الحاجات الى المستوى الذى يمكن للفرد تحقيقه فعلا ، معنى ذلك أن يكون الحصر لا من حيث الكم فحسب بل والكيف أيضا ٠

(٢) مخيمر وعبده ميخائيل ، مرجع سابق

الفنون الشعبية مقدر لها الخلود

كيف يمكن لنا أن نقدر الخلود للفنون الشعبية مع ما ذكرنا من قابليتها للتغيير والتبديل ، وأنها ذات أثر فى جماعة معينة من الناس لا كل أفراد المجتمع فما معنى الخلود هنا ؟ ٠

لكى نجيب على هذا السؤال لابد أن نوضح الأسس الدينامية التى تضمن لهـا الخلود ٠

ان هذه العملية تبدأ منذ طفولة الفرد ٠٠ فالطفل الذى لا يحصل عـلى اشباع لدوافعه وحاجاته ورغباته تناله حالة من التوتر تدفعـه الى أن يتخذ مسلكا يحقق له ذلك الاشباع حتى يتخفف من التوتر ، ويتحقق له الاتزان الانفعالى ٠

فاذا نشأ الفرد على علاقة طيبة بالعالم من حوله ، فانه يسلم من تلك التوترات أما اذا فشلت التربية والتنشئة الاجتماعية فى اشباع حاجات الفرد ودوافعه ، فمعنى ذلك قيام علاقات لا اجتماعية وشعور دائم بالاحباط والعدوانية تجاه العالم الخارجى ٠

وكلما زادت درجة الاحباط فى حياة الفرد ، وصحبها شعور مرير بالحرمان فان ذلك يؤدى به الى تصورات عدوانية للعالم من حوله فيفقد الثقة والشعور بالأمن ٠

ومن المعروف أن السنوات الخمس الأولى فى حياة الطفل بما تحويه من اشباع لحاجاته الأولية وهى الشعور بالأمن والحب والطمأنينة والثقة تؤدى به الى الاقتناع بأنه مقبول مرضى عنه من البيئة المحيطة به وخاصـة والديه ٠ أما اذا تكررت عمليات الحرمان والاحباط فان الطفل يدرك أنه غير محبوب وغير مرضى عنه ، وأنه يفقد الشعور بالأمن ٠

من خلال هذا التصور الطفلى للموقف الاجتماعى تتكون الصورة التى يرى بها الصغير العالم من حوله ، والتى يشب عليها وقد يتعذر عليه تغييرها فيما بعد ، فهو اما ان يشعر بالأمن والطمأنينة والحب والثقة فينشأ صحيح النفس مع الجماعة ، وأما أن ينشأ محملا بمشاعر البغض والقلق والخوف وفقدان الأمن فيرى المجتمع من حوله مليئا بالأعداء ويرى الحياة قاتمة تافهة لا معنى لها ولا قيمة ٠ وعلى ذلك فلابد من اشباع دوافع الفرد الأولى حتى نصرف عنه القلق والتوتر الناجمين عن الاحباط ولابد من سبيل للتخفيف من هذا التوتر ٠

من خلال هذه العجالة عن تنمية النفس ــ نرى ان الفرد الذى يعمل ويكد فى هذه الحياة ، وينال ما يناله منها من توتر وصراع وقلق ومحاولة واخفاق أو نجاح ــ هذا الفرد يجد فى جلسة هادئة وأغنية ساذجة ذات نغم حزين يعبر عن آلامه ومشاعره راحة وسعادة تخلصه من عناء الحياة وشقائها الكبير

وحتى اذا لم يكن يعانى فى واقع الأمر من الحياة واذا كانت حياته خلوا من القلق والصراع الحقيقيين فانه وفقا لمشاعره الطفلية ولما مر به من كبت واضطراب فى مستهل حياته يتصور الحياة على هذا النحو من الكآبة والجحيم • لذلك فهو يسعى الى الخلاص من كل ما تصوره له نزعاته اللاشعورية ليتخلص من أعداء وهميين ينكدون عليه حياته فلا يكون له الا السعى الى جلسات السمر والطرب والفكاهة ، وغير ذلك مما نراه منتشرا فى المجتمع •

ولعل انتشار المقاهى أيضا فى بلدنا على نحو لا يوجد فى غيرها يفسر على هذا النحو • أنه فقدان للأمن والمحبة فى الطفولة ، ومحاوله للتخفيف من حدة الاحباط الذى نشأ من افتقار الحاجات الأولية الى الاشباع بالنسبة للفرد عن طريق المشاركة فى جلسة هادئة مع أفراد لا تربطه بهم صلات وثيقة ، ولكنهم يلتقون جميعا فى هدف واحد قد لا يشعرون به جميعا فهو دافع لا شعورى • ذلك لأنهم وقد تراكمت عليهم الصراعات والتوترات وانتابهم الكثير من القلق والاضطراب ، إنما يقصدون الى هذه الجلسات الهادئة للتفريج والتنفيث • ومن هنا كان الكثيرون من رواد هذه المقاهى ، وكذلك مجالس السمر — هم من المتقدمين فى السن الذين أصبحوا وفقا لتقسيم شارلوت بولر (١) ، فى مرحلة الانحدار حيث يتميز فيها بين ميدانين — ميدان الوجدانات والعواطف البين شخصية وهو يميل الى التقلص والانكماش حيث تقصر الطاقة عن الاضطلاع باستثمارات عاطفية جديدة ، ومن هنا تظهر أهمية جلسات السمر والطرب والغناء والفكاهة ويكون الترديد المستمر لأغانى العشق والوله كتعبير عن قصور فى الحياة الوجدانية الديناميكية كما يعبر عن تمسك الأنا بما وصلت اليه من ارهاق وجدانى تتشبث به ، وهو يميل الى الانحدار تاركا وراءه ميدان العلاقات الاجتماعية مزدهرا طوال حياة الفرد لا يخبو بخبو الوجدانات والعواطف ولكنها تبقى قوية واضحة ، فهى تعبر عن شخصية الفرد فى قوة وثبات •

وقد يكون ذلك باتباع أساليب غير سوية للخلاص من الصراع مما يؤدى بالفرد الى التردى فى الجريمة •

وقد يتخذ الفرد أساليب سلوكية كمحاولات متكررة لاعادة التوافق ، فاذا لازمه الاخفاق فيها فانه يفشل فى الاحتفاظ بتوازنه الانفعالى وتنفصم الروابط بينه وبين المجتمع وفقا لدرجة الاخفاق ، وذلك ما يؤدى الى المرض النفسى •

وأخيرا فان الشعب المصرى الذى سخت عليه الطبيعة فيسرت له سبل الحياة ولم تحركه مصاعب الحياة ، ولم يعرف قسوة الحرمان ، فاشتهر بوجداناته ومشاعره الفياضة فكان شعبا فنانا متدينا منذ أقدم العصـــور ووضحت فيه النزعة الدينية وظهرت آثارها فى اتجاهاته وأفكاره وسلوكه وما ترتب على

---

(١) مرجع سابق •

ذلك من قيم وعادات وتقاليد أدت الى تنشئة الأطفال على نحو خاص لا يخلو من الكبت والتحريم والترهيب ٠ مما يساعد على تنمية الذات العليا وابراز وظائفها على نحو يزيد على ما يجب أن يكون ٠ فأدى ذلك الى مشاعر النقص والأثم والرغبة فى قبول العذاب أى المازوكية فنشأ عن كل ذلك القلق والتوتر والصراع فكان لابد من وجود متنفس لتلك الاضطرابات الانفعالية العنيفة ، فاذا الفنون الشعبية هى احدى المتنفسات التى تساعد على تصريف الصراع ورفع وصيد الاحباط ٠ وكأنما لابد من تفسير الحياة النفسية بوجود مبدأ لذة يتحكم فى جزء على الأقل من الحياة الذهنية ثم مبدأ حقيقة يقف بجانب مبدأ اللذة ليعمل على نسخه بطريقة ما ٠

وقد فطنت الجماعة الى أهمية الفنون الشعبية كوسيلة لاعادة التوازن ، ومن هنا كان لها الخلود ٠

مدى ارتباط الطبقة المثقفة بالثقافة الشعبية

هل يمكن للثقافة العصرية أن تنفذ الى مكنونات اللاشعور فتلغى ما به من ترسيبات حتى يتحول الفرد المثقف الى انسان جديد لا تربطه بالجماعة الا روابط منطقية فكرية ؟ ٠

ان هذه الحياة الصاخبة التى تتمثل بكل جوانبها واتجاهاتها فيما ورثه الشعب عن الأسلاف لا يمكن أن تكون خاصة بجماعة دون أخرى فى المجتمع الواحد ٠ فما من شك أن هناك عوامل تحد من تأثير الثقافة الشعبية عند بعض الأفراد ، ولكنها لا تمنع ذلك التأثير فلا يمكن لفرد ، مهما علا أو دنا أن يقطع ما بينه وبين المجتمع من صلات فهو يعيش فى المجتمع يتنفس هواءه ويشرب ماءه يتغذى بما يقدمه له المجتمع ، ومن هنا يرى ريتشارد فايس (١٩٥٢) ، أن الحياة الشعبية والثقافة الشعبية انما توجد دائما حيث يوجد الانسان باعتباره حاملا للثقافة فى تفكيره أو شعوره ٠٠ أو تصرفاته فهو يخضع لسلطة المجتمع والتراث الشعبى ويقول : يوجد بداخل كل انسان شد وجذب دائمان بين السلوك الشعبى وغير الشعبى ٠

ومن هنا يظهر عند كل انسان اتجاهان متعارضان أحدها فردى هو ما ينشئه كل فرد لنفسه نتيجة لاقتباسه من الوراثة والبيئة ، وكل ما أفاده من المجتمع الذى يعيش فيه ، وأهم تلك العناصر هى الفكر العالم الذى يتضح فى المجتمع مضافا الى القدر الذى حصله من العلم والمعرفة والاتجاه الآخر هو الاتجاه الشعبى أو الجماعى — أى أن الاتجاهين ولو كانا يبدوان متعارضين فى الظاهر الا انهما فى الحقيقة يرتبطان بأصل واحد فلا يمكن أن يوجد فرد فى معزل تام عن الثقافة العامة أو الشعبية فى المجتمع فهى تحيطه من كل جانب وتعمل

في كل ما حوله من ظواهر كما انه يستحيل على أى فرد أن يسلك وفق نظريات العلم ومبادئه الخالصة فحسب فيخضع خضوعا كاملا لسلطان العقل وتصدر عنه كل أفعاله وفق قوانين المنطق كذلك يستحيل عليه ان يتخذ لنفسه سلوكا لا يتفق والمعايير التى وضعها المجتمع صدى لعاداته وتقاليده وثقافته وفكره بوجه عام فكل فرد فى كل مجتمع لابد أن يشارك على نحو من الأنحاء فى التراث الشعبى ولكن المسألة تختلف من حيث درجة المشاركة ومقدار تمسك الفرد بتراثه الشعبى وذلك يتوقف على كثرة هائلة من العوامل التى تباعد بين الفرد والثقافة الشعبية أو تقربه منها كما وضحنا سابقا ٠

ان القصص الشعبية والخرافات والأساطير تشغل انتباه النشء حتى نهاية مرحلة المراهقة فيها من العجائب والبطولات ما يلفت نظر الطفل فى مراحله المتقدمة والمتأخرة ، وكذلك المراهق ، بالإضافة الى ما بها من قيم وخلق ومبادىء بحيث انه يستفيد منها فى تكوين الاطار العام لسلوكه الاجتماعى فيما بعد ٠

الا أنه فى المرحلة التالية من مراحل النمو يتحول الشاب والفتاة عن القصص الخرافية ليوجه اهتماما خاصا الى النكتة والفكاهة ، والأغنية ، فالنكتة والنادرة بما تحويه من أساليب التكثيف والنقل وما تتضمنه من معان تعتمد على قدر كبير من اليقظة والذكاء تجذب انتباه كل من الشاب والفتاة بقوة ، كذلك كثيرا ما يكون للأغنية الشعبية من الجاذبية الخاصة ما يجعل الشخص المثقف يميل اليها فيرددها فى المناسبات المختلفة ، وان كان يغلب عليها الطابع الطفولى المرح ولا تستقيم مع الفكر المنطقى أو التركيب البنائى السليم ٠

أما العادات الشعبية فكثيرا ما يعبر عنها سلوك الأفراد المثقفين فى المناسبات من ذلك ما هو معروف من عادات وطقوس يمارسها كافة الشعب بما فيهم المثقفون والعامة فى العيدين ، وفى رمضان وفى مناسبات الميلاد والزواج والوفاة وغيرها ٠

وفيما يختص بالمعتقدات الشعبية ٠٠ فكثير من المثقفين يشاركون بقية أبناء مجتمعهم فى معتقداتهم الخرافية ، وقد نشرت جريدة انجليزية فى يناير سنة ١٩٧٠ كيف أن الملكة اليزابيث تجعل رجلا اشتهر بالسحر يقيم فى قصرها اقامة دائمة حتى يعد لها من الطلاسم والتعاويز ما يمكنها من الانتصار فى المواقف المختلفة ، ومنها الفوز فى حلبات سباق الخيل وانها قد جربت أعمال هذا الساحر فى مجالات مختلفة فأحرزت النصر مما جعلها تتمسك ببقائه فى القصر حتى انتهى أجله فى يناير سنة ١٩٧٠ ٠

كذلك تشارك بعض أفراد الطبقة المثقفة فى مصر سواء رغبت أم لم ترغب فى أغلب المعتقدات الشعبية أما بطريق مباشر أو غير مباشر يتضح ذلك فى زيارة الأولياء والمشعوذين والمشتغلين بالسحر وبالطب الشعبى والعرافين وغير

ذلك بل وقد تتحول هذه الخرافات الى أساليب سلوكية كاطلاق البخور وقت صلاة الجمعة من كل أسبوع أو التفاؤل برؤية الهلال الجديد وما يرددونه من أقوال (هل هلالك شهر مبارك علينا وعلى أمة النبى أجمعين) ٠

أو عندما يضعون فى أساس المبانى عملات فضية أو يذبحون ضحية ويلقون بدمها على الأساس أو يضعون الكتاب المقدس تحت البناء ٠ كل هذه الأساليب السلوكية تعبر عن ثبات عادات شعبية وتأصلها فى نفوس الجماعة بحيث ان الفرد يتحرز الخروج عليها ويأمل الخير بممارستها ٠

أى أن كافة الشعب سواء منهم المثقف أو غير المثقف يشترك فى الثقافة العامة بالمجتمع عن رضا واقتناع ان كان من غير طبقة المثقفين او عن مجاراة وتقليد ان كان مثقفا ولكنه لا يستطيع الخروج عليها بصفة عامة ويؤدى المستوى الثقافى والاجتماعى الذى ينتمى اليه الفرد الى تغيير فى كثير من نواحى حياته المادية والمعنوية كالأدوات التى يستخدمها والزى والمسكن وأثاث المنزل وأدوات الرفاهية ، كذلك بعض العادات والمعتقدات وعلاقاته بالجار والاقارب وبعض القيم المتصلة بكافة شئون الحياة ٠٠ فلا شك ان الثقافة الرسمية تؤثر تأثيرا كبيرا يؤدى الى عملية انتقاء من الثقافة الشعبية ، ولكن لا تؤدى الى قضاء تام عليها ، اذن فهناك أدب شعبى يتمثل فى ضروب مختلفة من مشاعر الشعب وأحاسيسه ويعبر عنها بالقول الجاد والنكتة والفكاهة أو يعبر عنها بالأغنية أو يتناقلها فى صورة قصة يكون لها من الشهرة والانتشار ما يضمن لها البقاء والانتقال من جيل الى جيل ٠

أن مظاهر الأدب الشعبى المختلفة انما هى ميراث أجيال طويلة اشترك أهلها فى مشاعر موحدة وآلام وآمال مشتركة فانجبت أحاسيس واحدة عبر عنها الأديب الشعبى فى اسـلوب رشيق أحبه أهل جيله فانتشر بينهم بما توارثوه فانتقل من الأب الى الابن ، وهكذا انتقل الأدب الشعبى من جيل الى جيل فاكتسى بعضه بحكم الزمن وقارا وحكمة واتخذ مسحة من القداسة ذلك انه يتصل بالقديم ويتصل بالأجداد ويتصل بمن وصلوا الى درجة من التوتمية جعلت كل ما يتعلق بهم فى مرتبة التابو لا يمسه التغيير الا بحذر شديد ، ومن هنا نرى تناقل الأجيال للأغنية الشعبية كما هى بلفظها وجرسها تكاد تبلغ من العمر مئات السنين ولا تزال شابة يانعة ٠

وفى الأدب الشعبى معان رمزية لها دلالة ولها وقع الخطاب الموجه من ذات الى ذات أخرى فهو اسلوب فى الخطاب أى فى اللوجوس تطبع معانيـه العميقة فى الطبقات اللاشعورية ، ومن هنا يمكن لنا أن نتوقع أنه بالرغم من الاختلافات الحادة من النواحى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الا أن هـذا اللوجوس مهما بدا متناقضا من ثقافة الى أخرى الا أنه ذو وقع وصدى لابد أن يتحقق والا امتنع كل تفاهم بين أفراد هذا المجتمع ٠٠ هذه الاتجاهات باقية

ومترسبة فى اللاشعور · حتى ولو كانت مرفوضة شعوريا من بعض فئات المجتمع من هنا نستطيع أن نفهم انه يمكن أن يكون أى حوار مفهوما بين أفراد من فئات مختلفة فى المجتمع الواحد ·

دراسة لبعض الأمثلة الشعبية
تعبر عن مدى الارتباط بالثقافة الشعبية

نقدم محاولة لدراسة مبسطة للأمثال الشعبية ·· كتعبير عن الشخصية المصرية ·

أولا :

نفترض العوامل التالية كمؤثرات على حكم الشخص :

(أ) البيئة الاجتماعية ، ونقصد بها المدينة ·· أو القرية ·· أو أطراف المدينة ·

(ب) المستوى الاقتصـــادى ، ويمــكن أن نضعه فى صورة مئوية بالنسبة للمستوى العام فنقول أقل من ٥٠٪ ، ٥٠٪ أو أكثر من ٥٠٪ ·

(ج) الدين ·· أى مدى تمسك الفرد بالدين والاتجاهات المصاحبة له كالقدرية والمســألة ·

(د) المستوى التعليمى ·· عال ، متوسط ، أقل من المتوسط ·

(هـ) البيئة السيكلوجية ·

(و) الاتجاهات الاجتماعية (انعزالى ، اجتماعى) ·

هذه المؤثرات ، وما يمكن أن يضاف اليها من عوامل أخرى تشكل أحكام الفرد فى المواقف المختلفة فما يراه بعض الناس صحيحا قد لا يراه غيرهم كذلك ، ومع ذلك تظل تلك الأحكام الخاصة بكل جماعة منسجمة ·· فيما بينها لا تحوى تناقضا ، ولا تعارضا مادامت شخصية تلك الجماعة هى مصـــدر الحكم على المواقف والأشـــياء ·

ثانيـــا :

نعرض لبعض الأمثال لكى نتعرف على الشخصية من خـــلال الحكم عليها

(أ) أردب ماهو لك ما تحضر كيله • تتوسخ دقنك وتتلزم بشيله •

ماذا يكون رأى مجموعة من الأفراد على مستويات مختلفة من حيث العوامل السابقة • هذا المثل يأخذ به الأفراد الذين يتصفون بما يلى : على أننا لا نورد هنا تصميمات ولا آراء مقطوعا بصحتها تماما وانما بناء على ما لاحظناه فى عمليات الاستقصاء ، وفى المقابلات الشخصية لعدد من الناس يزيد على مائتين فى ظروف ومستويات مختلفة •

البيئة الاجتماعية : المدينـــة

المستوى الاقتصادى : أكثر من ٥٠٪

الديــــن : مـرن

الفئات هى (متزمت ومرن ومنحل)

المستوى العلمى : عـالى

البيئة السيكلوجية : انعـــزالى

والاتجاهات الاجتماعية :

هذه المجموعة من الصفات التى يتسم بها الأفراد الذين يرون أن هذا المثل صحيح قد نصفها بالميل الى العزلة وعدم التعاون والأنانية السلبية •

وقد أورد « مورو برجر » بنـاء على ما قدمه له صليبه تلك الصـفات ضمن ما وصف به العرب فى سوريا وفى مصر الا أن برجر جعلها صفات عامة بالنسبة للعرب والمصريين جميعا مما جعل أحكامه تتخذ صورة خاطئة ــ فهناك فى الريف تظهر روح التعاون فى المآتم والأفراح •

(ب) مال الناس كناس :

هذا المثل يعتبر صحيحا عند الجماعة المتدينة بل المتزمتة • أما من حيث البيئة الاجتماعية فهناك فى المدينة وفى القرية من يعف عن مال غيره كما أن هناك من يسرق ويستحل ما ليس له ، والمستوى الاقتصـادى قد لا يكون له أصل ملحوظ فى هذه الحالة فهناك من الأغنياء من يستبيحون لأنفسهم مال غيرهم ومال الدولة •

وكذلك المستوى التعليمى قد لا يكون ذا أثر أيضا ، وكم من المتعلمين من يتصف بالأنانية والضعة ، وكم من العامة البسطاء يحرصون على القرش الحلال •

(ج) المركوب ان اتملا ذهب لا يوضع فى الجيب :

هــذا المثل يعتبر صحيحا عند الجماعة المحافظة التى أتيحت لها فرص التنشئة الصالحة مع ارتفــاع المستوى الاقتصادى والتعليمى وهو يطلق للتعبير عن أن الوضيع مهما أثرى فانه يظل وضيعا ولكننا نرى أن الاتجاهات المادية التى قد تؤثر فى بعض الناس تجعلهم يفضلون الثراء على العراقة ، وهم اذ يصدرون مثل هذا الحكم يتخذون اتجاها معينا يجعلهم يرون أن عجلة الحياة انما تسير بالعوامل الاقتصادية لا بالحسب والنسب مغفلين أثر البيئة السيكلوجية والمجال الحيوى وما يكون لتنشئة الفرد وبيئته من آثار فى سلوكه وتقديره للمواقف •

وهكذا يمكن لنــا أن ندرس الأمثلة الشعبية كتعبير عن الشخصية يوضح لنا معالمها حتى تظهر الصفات التى تتسم بها ، ولكن لا كشخصية قومية عامة بين كل مصرى ولكن كشخصية فردية تخضع للظروف النفســية والاجتماعية والاقتصادية وتتأثر بتاريخ الفرد ونشأته وحياته •

ولا يمنعنا ذلك من أن نقرر أن هناك صفات خاصة تتصف بها الشعوب فيقال مثلا أن الشعب الانجليزى هادىء بارد منظم ، وأن الشعب الايطالى شبيه بالمصريين من حيث سرعــة الغضب والانفعال كذلك نقول ان الشعب المصرى مسالم يكره الحروب والقتل حتى فى ثوراته لا يتجه الى سفك الدماء ــ فاذا قارنا الثورة العراقية بالثورة المصرية عام ١٩٥٢ وزوال الملكية على يد الثورة فى كل من البلدين لوضــح لنــا الفارق بين ما أجراه الثوار من قتل وتمثيل بالملك والأسرة المالكة فى العراق وما اتخذه المصريون من رحمة وتسامح •

ثم ان الشعب المصرى يؤمن بالقضاء والقدر ويرضى بما قسمه الله وذلك كنتيجة للنزعة الدينية المتوارثة وقد لا يكون ذلك دليــلا على تمســك العامة بدينهم ولكن هنــاك صفات مصاحبــة لها من الأثر ما يفوق الصعاب الأساسية ولذلك نجد القدرية والرجعية والكرم والتسامح تعتبر صفات مصاحبة للتدين ولها أثرها الواضح فى الجماعة •

كذلك الحفاظ على الشرف ــ بما يؤدى الى القتل والثأر ــ صفات مصاحبة للنزعة الدينية •

لذلك لا يكون علينا الا أن نتصور ان من الممكن ان نصف وصــفا شبه صحيح لما نسميه بالشخصية المصرية أو ان نقبل ما أورده الباحثون من أوصاف كقضايا مسلمة • فهنــاك عوامل أكثر من أن يحيطها الحصر تتداخل وتتفاعل فيما بينها لتنتج سلوكا معينا يتصف فى كل حالة بصفات مختلفة ينتج عنها ما عرفه البعض بابن البلد والفهلوى مع اننا لو دققنا النظر فيما يتصف به كل من هذين المضمونين لتبينــا انه من الصعب وجــود كل منهما منفصلا متميزا

الا عند طرفي المنحنى البياني اما المجموع الهائل الذى يضمه المنحنى فلا يمكن ان يكون له صفات ابن البلد على حده أو الفهلوى على حده ، وهكذا ٠

ومن هنا كان علينا أن نسلم فى ختام بحثنا بأن الفنون الشعبية انما تصدر معبرة عن الشخصية ولكن ليس معنى ذلك ان الشخصية يجب أن تكون جملة صفات واحدة متكررة فى الأشخاص بل انه كما يوجد اختلاف وتفاوت فى القيم التى تعبر عنها الفنون الشعبية كذلك يوجد مثل هذا التفاوت فى الشخصية ٠

ومن هنا نعود الى ما وصلنا اليه سابقا وهو أن الشخصية المصرية بما بها من سمات انما تعبر عن التباين والتجانس معا ، وذلك وفقا لمؤثرات اجتماعية ونفسية وأخلاقية ودينية ، وغير ذلك من عوامل تبرز معالمها بغض النظر عما اكتسبه العمال أو العامة من صفات فى الوقت الحاضر ٠ أو ما تفيض به الصحف والمجلات وما ترسله أجهزة الاذاعة والتليفزيون من مؤثرات فكرية وثقافية ٠ ذلك أن ظروف مصر الراهنة لا تعبر عن شخصيتها الحقيقية لأنها فى دور تغيير وتشكيل وفى مرحلة انتقال مما يجعل الناس والأشياء تبدو فى صورة مهتزة ليس من اليسير تمييزها حتى تهدأ وتستقر وذلك يتطلب وقتا ليس بالقصير ٠

وفيما يلى دراسة احصائية مبسطة لبعض الأمثال الشعبية أجريت على (٢٠٠) فردا عن طريق المقابلة الشخصية يختلفون من حيث :

١ ــ قوة تأثير الدين والثقافة الدينية ٠

٢ ــ البيئة وقد اختيرت هذه المجموعة من البيئة المتوسطة ما بين المدينة والقرية ٠

٣ ــ المستوى العلمى (العالى) ٠

٤ ــ الاتجاه الاجتماعى بين بين (لا انعزالى ولا قيادى) ٠

٥ ــ المستوى الاقتصادى (متوسط) ٠

وقسمت العينة الى خمسة مجموعات على أساس وضوح أحد العوامل السابقة فى كل منها ، وأجرى البحث على الطريقة التالية ، التى أوضحت فى النهاية النتائج التى حصلنا عليها كتفسير لعملية الاحصاء ٠

المثل / العوامل المؤثرة	ان جالك الطوفان حط ولدك تحت رجليك (نعم)	(لا)	بدال ما تغشه قول له فى وشه (نعم)	(لا)	احيينى النهارده وموتنى بكرة (نعم)	(لا)	اسأل مجرب ولا تسأل طبيب (نعم)	(لا)
العامل الدينى	١٥	٥٥	٤٥	٢٥	٦٠	١٥	٣٥	٣٥
البيئة	١٠	٣٠	٢٠	٢٠	٣٠	١٠	٢٥	١٥
المستوى العلمى (عالى)	٥	١٥	١٠	١٠	١٠	١٠	١٥	٥
الاتجاه الاجتماعى	٥	٢٠	١٥	١٠	١٥	١٠	١٥	١٠
المستوى الاقتصادى	٢٥	٢٠	٣٥	١٠	٣٠	١٥	٣٠	١٥
المجموع	٦٠	١٤٠	١٢٥	٧٥	١٤٥	٦٠	١٢٠	٨٠
النسبة المئوية	٣٠٪	٧٠٪	٦٢½٪	٣٧½٪	٧٢½٪	٦٠٪	٦٠٪	٤٠٪
التفسير	يعبر هذا المثل عن الأنانية وتفضيل النجاة من الخطر حتى ولو بالتضحية بأقرب الناس وهو مرفوض بنسبة ٧٠٪ مما يدل على وجود الغيرية والمحبة .		دليل على الصراحة والعمل بالحديث الشريف من غشنا فليس منا .		يميل الأغلبية الى الاستمتاع باللحظة الراهنة تاركين أمر الغد للغد ولعل ذلك يرجع الى الضغوط التى تحيط بالفرد فى الوقت الحاضر		أى أن غالبية الناس مازالوا يفضلون التجربة الفردية ويثقون بها أكثر من العلم والتخصص .	

العوامل المؤثرة / المثل	أردب ما هولك ما تحضر كيله		المركوب ان اتملا دهب لا يوضع فى الجيب		مال الناس كناس		على قد لحافك مد رجليك	
	نعم	لا	نعم	لا	نعم	لا	نعم	لا
العامل الدينى	٥	٦٥	١٥	٥٥	٧٠	٠٠	٦٠	١٠
البيئة (متوسط)	٢٠	٢٠	١٠	٣٠	٣٥	٥	٢٥	١٥
المستوى العلمى (عالى)	١٥	٥	٢٠	٠٠	٢٠	٠٠	١٩	٥
الاتجاه الاجتماعى	١٥	١٠	١٥	١٠	٢٠	٥	٢٠	[illegible]
المستوى الاقتصادى (متوسط)	١٥	٣٥	٥	٠٠	٣٥	١٠	٤٠	٥
المجمـوع	٧٠	١٣٠	٦٥	١٣٥	١٨٠	٢٠	١٦٠	٤٠
النسبة المئوية	٪٣٥	٪٦٥	٪٣٢½	٪٦٧½	٪٩٠	٪٢٠	٪٨٠	٪٢٠
التفسير	أى أن صفة التعاون تغلب على هذه المجموعة		أى أن الأصل والعراقة أهم من الثورة والمال .		يتضح أن الاتجاه العام هو رفض مال الغير و لتمسك بالقرش الحلال مما يؤكد النزعة الدينية .		يتضح من ذلك الميل الى التمسك بالوضع الراهن ، وعدم التطلع الى آفاق أوسع مع الرضى والاستسلام .	

الباب
الثالث

الفولكلور كتعبير عن الشخصية المصرية

● الفصل الأول

الأدب الشعبى فى اطاره الحضارى

كيف وصل الينا الادب الشعبى على هذا المستوى ؟ أو كيف تشكل الأدب الشعبى خلال العصور حتى صار على هذا النحو ؟ .

قلنا أن ما لدينا من أدب شعبى يتمثل فى كثير من الفنون والآداب التى تتردد فى وقتنا الحاضر متخذة مظاهر مختلفة .. ما لدينا من هذه الفنون والآداب لا يمكن أن يكون وليد العصر الحاضر ، ولا نتاج عقول هذا العصر ، بل انه تعبير عن تاريخ طويل مضى رويدا رويدا ، خلال العصور والأجيال ، وتنطوى صفحاته الواحدة تلو الأخرى ولكن بعد أن تترك آثارا ثقافية واضحة فى أفراد مجتمعها آثارا تنتقل من جيل الى جيل ، آثارا تعطى وتأخذ ، لأنها تؤثر فى الناس بقدر ما تتأثر بهم ، فتظل عملية الأخذ والعطاء باقية مستمرة ، ولئن كان العطاء يرتبط ارتباطا وثيقا بثقافة لشعب ، فلا جدال فى أن الأخذ يتصل بالعنصر الحضارى للشعب ، فكل تغيير فى حضارة الشعب ، وكل تناول جديد للحياة المادية ، وكل استخدام للأدوات الحديثة ، والمخترعات ، انما يؤدى الى وجود معالم جديدة ، وآثار واضحة فى الفنون الشعبية ، لذلك نجد كثيرا من الألفاظ التى تستخدم فى فترة معينة تتردد فى الآداب الشعبية كنتيجة لعملية الأخذ ، والاكتساب من التقدم الحضارى الذى وصل اليه المجتمع .

وبناء على ذلك نقول ، ان أدبنا الشعبى الذى يتردد فى مجتمعنا الحالى انما هو ميراث أجيال ، وقرون طويلة تمتد جذورها الى الآداب الفرعونية وما تلاها من آداب ظهرت فى العصور اللاحقة ، وهنا من الحكم والأمثال التى جاءت على لسان بتاح حوتب ما هو مطابق تماما لما يوجد فى وقتنا الحاضر .

بل ان كثيرا من الألفاظ الفرعونية والقبطية التصقت بلغتنا العامية ، وأصبحت جزءا منها لا ينفك عنها ، بل وتفاعلت تلك اللغات القديمة فيما بينها فأنتجت آدابا تغيرت وتطورت حتى وصلت الينا بكل ما تحمل من أصيل ودخيل ، تعبر به عن حياة الفرد الخاصة والعامة ، أفكاره ، ومبادئه ، وقيمه ،

وخلجات نفسه ، وأساليب حياته ، وما تشملها تلك الحيـــاة من اتجـاهات وأغراض •
ويمكن لنا أن نقدم لمحة تاريخية توضح الموضوع •

لقد وجدت فى مصر حضـارة فرعونية قديمـة ازدهرت فى فترات كثيرة كما حدث فى عصر بناة الأهرام ، وما انطوى عليه من أفكار تتمثل فى الحساب والخلود وما استتبع ذلك من حضارة هندسية معمارية فنية ، وصلت الى أوج عظمتها ، وخلدت طوال العصور وفى بداية الدولة الوسطى عندما عنى المصريون بالزراعة ، وعرفوا أساليب الرى والحرث فكثرت حاصلاتهم وراجت تجارتهم واستقرت الحياة الاقتصادية والسياسية آن ذاك •

وكذلك فى الدولة الحديثـة فى عهد تحتمس ، والرعامسة اتخذت مصر مكانة فريدة لما أحرزه ملوكها من انتصارات فى الخارج وما تبع ذلك من تدفق الثروات الى الداخل ثم أخذ الاغريق يفدون الى مصر وكونوا بهـا جالية كبيرة اشتغلت بالتجارة فنشأت علاقات اقتصادية بين الشعبين تطورت تدريجيا شأنها شأن سائر الظواهر الاجتماعيـة حتى تحولت الى علاقات سياسـية فى عهـد البطالمة ثم جاء عهد الرومان • وفى تلك الحقبة من التاريخ المصرى كانت مصر منارا للعلم والمعرفة اشتهرت بها مكتبة الاسكندرية وفلسفة مدرسة الاسكندرية التى أفادت من الفلسفة اليونانيـة والإفلاطونيـــة على وجـه التحديد فظهرت الأفلوطينية الحديثة فى صورة ترمى الى التأليف بين الدين والفلسفة وأقام فى مصر حكام من اليونان والرومان وما يتبع ذلك من تبـادل حتمى للثقافة والفكر والأدب •• وعندما جاء الفتح الاسلامى فى القرن السابع الميلادى وأخذت الحضارة المصـرية تؤثر فى الأدب العربى الوارد على مصـر ، ذات الحضـارة الفرعونية اليونانية القبطية التى امتزجت وتشكلت حتى صارت تكون الحضـارة المصرية آن ذاك ، وردت اليها الحضارة العربية عن طريق الجند والقادة الفاتحين أثرت فيها وتأثرت بها وخاصة بعد أن اعتنق كثير من المصريين الاســـلام ، ويصف المقريزى أهل مصر عند الفتح الاسلامى بأنهم كانوا يشكلون قسـمين يختلفان الواحد منهما عن الآخر من حيث الجنس والعقيدة يقول : أحدهم أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ، والقسـم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل من غيره وكلهم يعاقبة فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ومنهم الاساقفة والقسوس ونحوهم ومنهم أهل الفلاحة والزرع وأهل الخدمة والمهنة •

أى أن قبط مصر كانوا يشكلون الطبقات الشعبية المستعبدة من الفلاحين والتجار والحرفيين وصغار الموظفين ورجـال الدين وكان يختلط بهـم النوبى

والاسرائيلى كلهم يشكلون فئة العبيد بالنسبة للسادة الحكام وكانت اللغة السائدة فى مصر هى القبطية بين عامة الشعب غير الحكام الغاصبين ولقد شهد التاريخ مآسى كثيرة ومنازعات دامية بين جماعات ممن يعيشون فى مصر آنذاك تمثل حزبين مختلفين هما الملكانيون أهل السلطة واليعاقبة والمجردون منها ذلك بالاضافة الى تدهور الحياة الاقتصادية فى مصر وقسوة وطأة الضرائب على الشعب وقسوة الحكام وبطشهم فى جمعها ويحدثنا بطلر (١) عن قسوة المقوقس فى جمع الضرائب مع ارتفاعها الفائق مما أرهق كاهل الشعب وزاد الحياة سوءا وتعقيدا ٠

وكان لفتح العرب لمصر أثره الخالد فى احداث تغيير ثقافى كبير ، ولكنه تدريجى سلمى مضى فى طريقه دون أن يحدث أدنى اضطراب بين عامة الشعب أو خاصته ودون أن يستخدم أساليب القهر والاجبار ، مع أنه أدى الى تغيير كبير فى أهم عناصر الثقافة المصرية تقريبا وهما اللغة والدين ومع ان هذا التغيير الاجتماعى لم يظهر فى بداية الأمر ، لأنه لم يقم على التهديد والوعيد ولكنه ظهر تدريجيا وتلقائيا فقد دخل العرب مصر يحملون فى طياتهم أساليب حياة البادية بعد ان شذبتها دعوة النبى الكريم وأضافت لها ثقافة وفكرا وأسلوبا علميا فى الحياة لا ينأى بصاحبه عن معترك الحياة بل يقتحمها ليبث فيها مبادىء وقيما ، تقيم مجتمعا فاضلا متماسكا على أسس قوية متينة ٠٠ وأخذ أهل مصر يدخلون فى دين الله أفواجا ، وتنتشر بزيادة عددهم اللغة العربية تدريجيا حتى جاء عهد مروان بن عبد الملك فأحل العربية رسميا محل القبطية ، ولكننا لانستطيع ان ننكر أثر القبطية فى الاسلام ، فقد كان القبط ذوى حضارة متوارثة منذ عهد الفراعنة ذوى آراء ومعتقدات فرعونية ، ذوى علوم وفنون بلغت القمة فى أزهى عصورها فكان أثرها واضحا فى كل الاتجاهات معبرا عن رقى شعب مصر وتحضره بالنسبة للعرب الفاتحين ومن هنا كان قبول العرب لتلك الحضارة القبطية أمرا لا مفر منه ، واتضح ذلك فى المعتقدات الشعبية وفى الفن الاسلامى نفسه وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد ٠

مركز مصر الثقافى بعد الفتح الاسلامى :

ذكرنا أن مصر الاسلامية ورثت حضارة الروم والبطالمة ومن قبلهم بناة مصر الأول أصحاب مصر الأصليين أصحاب الحضارة الفرعونية العتيدة بكل ما مرت به من ادوار تفوق ومراحل تدهور وكل ما تأثرت به من حضارات اختلطت بها وخالطتها فى شتى العصور فقد عرفت الفينيقيين والحيثيين وبلاد بنت

---

(١) A.J. Buttler. Th eArabe Conquest of Egypt. and the last thirty years of the Roman Dominian, London, 1926.

والهكسوس والفرس وغيرهم ، اما عن طريق التجارة أو الرحلات أو الغزو والحروب وما صحبها من انتصارات وهزائم ٠

ورثت مصر الاسلامية كل الآثار الثقافية التى تخلفت ، عن كل تلك الشعوب ثم جاءها الاسلام فأخذ منها وأعطاها الكثير وانتهى الأمر بأن اصطبغت بالصبغة العربية الاسلامية ، واستخدمت اللغة العربية فى عهد عبد الملك ابن مروان ـ الا أن تلك الصبغة العربية الاسلامية كانت تشف عن الوان متباينة من مختلف الثقافات وقد انصهرت جميعها وتحولت الى لون داكن يتمثل فى الحضارة القبطية التى واجهت الفتح الاسلامى فى بادىء الامر فرفعت له راية السلام راضية ، مستبشرة ولكنها تسربت فى ثناياه ، لكى تعبر عن نفسها فى صورة جديدة هى صورة مصر الاسلامية القبطية ان صح هذا التعبير كذلك وفد الى مصر كثير من العلماء المسلمين الذين أفادوا من علوم اليونان بعد نقلها الى الفينيقية ثم الى العربية جاءوا من مقر الخلافة فى دمشق وبغداد ليضيفوا الى الحضارة العربية قدرا لا يستهان به من العلوم والمعارف التى وجدت فى ذلك الوقت مختلطة بالفكر الفلسفى كذلك وفدت الى مصر تيارات ثقافية من مراكز الحضارات القديمة الشرقية فأفاد منها علماؤها وشكلوا الفكر العربى الاسلامى على صورة تتفاعل فيها كل تلك الثقافات التى التقت فى وادى النيل فترسبت واختلطت بأديم الارض الطيبة وظهرت عنها كثرة هائلة من المفردات اللغوية التى تحفل بها آدابنا الشعبية فى شتى المجالات ، فهناك مفردات لغوية واردة فى القصص الشعبى وفى اللغة الشعبية وفى الحكم والأمثال بل ان ما تحويه هذه جميعا من أفكار بعضها وارد الينا من الخارج يعبر عن حضارة الفرس وحكمة الصين وزهد الهنود (+ النيرفانا) مندمجا فى الأدب الاسلامى فى أوج عظمته والأدب الجاهلى قبل الاسلام كما هو فى قصص سيف بن ذى يزن ومتفاعلا مع الثقافة المصرية كما وجدت قبل الاسلام ٠

لذلك ظهرت لغة جديدة هى مزيج من مفردات القبطية والعربية وقد تسلل الى كل منها ألفاظ من مختلف الثقافات التى مرت بمصر فى عهودها المختلفة ، ومعنى هذا أنه وجدت :

١ ـ لغة قبطية نقية تستخدم فى الكنائس وبين الهيئات الدينية المسيحية ولعل خاصة القوم آنذاك كانوا يستخدمونها مع انها كانت اللغة الرسمية ٠

٢ ـ لغة قبطية تسللت اليها ألفاظ أجنبية وكانت لغة العامة ٠

٣ ـ لغة عربية نقية هى لغة العرب الفاتحيين ٠

٤ ـ لغة عربية دارجة بها آثار القبطية الدارجة وغيرها من اللغات التى وردت الى مصر فى كثير من مفرداتها ٠

وهناك مخطوطة المستشرق أو يستروب التي يعتبرها البعض أقدم نص عامى مكتوب وفيها مزيج من مفـردات اللغتين القبطية الصعيدية والعربيـة الدارجة . أى أن الشعب المصرى الذى اعتنق الاسلام وعرف لغته العربية لم تكن لتتم له عملية انتقال مفاجئة من القبطيـة الى العربية بل سار الأمر تدريجيا فاستخدم اللغة الدارجة القبطية التى ألفها مضافا اليها العربية الدارجة بقدر ما تسمح له ظروف مرحلة الانتقال . فهو فى البدء يظل متجها نحو القبط ثم بعد فترة قد تكون غير قصيرة تتساوى عنده اللغتان وأخيرا ينتقل انتقالا كاملا الى استخدام العربية .

أقول انتقالا كاملا وأدرك فى نفس الوقت أنه لا توجد لغة دارجة نقيـة تماما بل لابد من اختلاطها بلغات أخرى بشتى الطرق والأساليب ، وبالنسبة لمصر بالذات كانت الظروف من القوة والوضوح بحيث اشتملت اللغة العربية الدارجة فى مصر على ألفاظ كثيرة من لغة الفراعنـة ولغة القبط ذلك بالاضافة الى ما حوته من مفردات وردت اليها من فارس ومن اليونان والرومان وغيرهم ، ولعل درجة نقاء اللغة وحدها تعتبر دليلا على المخالطة بين الشعوب فكلما اختلط الشعب بشعوب أخرى كلما أثر ذلك فى لغته وأضاف اليها الكثير لذلك نجد ان شعوب الشمال نظرا لعزلتها النسبية وبعدها عن خط الغزو الاجنبى فى العصور السابقة قد احتفظت بلغتها على درجة عالية من النقاء حتى وقتنا هذا .

ولا يقتصر الأمر على المفـردات اللغوية بل يتبع ذلك أيضـا شتى ضروب الثقافة فى كل شعب من الشعوب فهناك العـادات والتقاليـد والعرف السائد وما يتصل بكل ذلك من أفكار ومبادىء . يتأثر بها الشعب فيعتنقها ويتبناها مع انها واردة اليه من الخارج . فتروج بين أفراده فان صادفت هوى فى نفوس الجماعة كتب لها البقاء والخلود ولا يكون ذلك الا بمطابقتها لمعتقداتهم الاساسية بحيث يجوز لها ان تصبح اتجـاها علنيا بين الجماعة يجهـرون به ولا يأنفون التعبير عنـه ، أى أنه لا يتعارض وما تعتنقه الجماعة من مبادىء وأفكار أو أنه تطوير للفكر الجمعي تقره الجماعة وهو بعبارة ثالثة يتفق وعاطفة اعتبارهم لذاتهم فهم لذلك لا يتحرجون من الاعلان عنه والافصاح عن مبادئه أفضل مثل لذلك هو ما استخدمه الفاطميون من مواسم واحتفالات أخذ بها المصريون ومازالت باقية الى الآن ذات صفة علنية جمعية رسمية . بينما وجدت ظواهـر اجتماعية انتشرت بين جماعة قليلة من الناس وظلت ذات طقوس متخفية أقرب الى السرية منها الى العلانية ذلك أن الجماعة لا تقرها فلا يمكن أن تصبح عادة اجتماعية ولكنها مجرد ظاهرة تنتشر فى جماعة محددة تبعا لظروف خاصـــة مثـل هذه الظواهر ، ظاهرة الزار فالدولة لا تقر هذه الظاهرة ، ولا توجد لها احصاءات رسمية ولا يعلن رواد الزار عن زيارتهم لتلك الأماكن التى يمارسونه فيها كما انهم يأنفون أن يعرف عنهم الناس اعتناقهم لمثـل تلك العقـائد لذلك فهـم

يتسترون ٠٠ ولولا ان الزار قد ارتبط بالصحة والمرض والعلاج لما أمكن له ان ينتشر أو يبقى حتى الوقت الحاضر مع تقدم العلوم وانتشـــار الفكر الطبى الصحيح ـ ونضيف هنا ان الاتجاه الشعبى مهما تعقدت المدنيات هو الميل الى تجسيد الروحانيات أو النزعة الوثنية متوارثة خلال أطوار التاريخ البشرى كله فتتستر حينا وتظهر فى صور مختلفة فى أغلب الاحيان ٠ « ان الشعب يخرج لنفسه دينا متميزا يتفق فى رسمياته مع دين الدولة أو الأمة ويختلف فى حقيقته فى كثير عن الدين الرسمى » (١) ٠

وذلك ينطبق أيضا على كل المعارف الشعبية بكل ما يتصل بالانسان من مبادىء اجتماعية وأخلاقيـــة ولو تتبعنا الموقف فى عهد المماليك والأتـــراك حيث انتكست فيهما الحضارة الاسلامية فانحطت فيها العلوم والآداب والفنون حتى أن الرحالة الفرنسى سافرى وصفها فى القرن السادس عشر بما يلى « ان هذه البلاد الفتية التى كانت عصورا ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ٠٠ أجل ان الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجمل بلدان العالم » وقد تعطـــل التقدم العلمى وانحدر الأدب العربى واهتم بالصناعة أكثر من الفكرة وادى انتشار الظلم والاضطهاد والقهران اتجه الشعب الى أساليب هروبية تعفيهم مشـــقة التفكير فى واقعهـــم المرير فانتشر السحر والتنجيم والخرافة وكذلك انتشر استخدام المخدرات كوسائل للهرب من الواقع والمضى فى عالم مغاير لما يعيشه الشعب من ظلم واستبداد ٠

ان تاريخ مصـــر الحـــديثة يتضمن أدبا شعبيا متسلسلا عبر الحضارات التى مرت بمصر فى عصورها المختلفة ، ولا شك أن ما نلاحظه اليوم هو تأثر ذلك الأدب تأثرا واضحا بالعصر المملوكى والتركى بالاقطاع ، وما حواه من ظلم وفساد كذلك يحتوى الأدب لشعبى نوعا جديدا هو أدب المدينة وما يوجد من حماس وطنى واتجاهات حديثة ٠ وكما أن لغتنا العامية قد تسربت اليها ألفاظ من لغات مختلفة ، فكذلك أصبح أدبنا الشعبى يعبر عن تفاعل تيارات الحضارة المختلفة وتلك ظاهرة ليست فريدة فى مصر وحدها ولكنها ضمن ملامح العصر الحالى نظرا لسرعة الانتقال وانتشار وسائل الاعلام وخاصة اللاسلكية مما جعل الفكرة تبدأ فى موطنها الاصلى وتنتقل خلال لحظات الى شتى بلدان العالم ٠

ولكن ما أثر وسائل الاعلام على الفنون الشعبية ؟

لقد كان مطرب القرية أو الفنان الشعبى بربابتـــه وأشعاره هو الوسيلة الوحيدة للترويح والتسلية وكان يلتف حوله شبان القرية يسعدون بالاستماع الى ما يطربهم به من أغنية أو موال ولكن انتشار المذياع داخل القرية قد أوجد

---

(١) سهير القلماوى ، الف ليلة ـ الأنجلو سنة ١٩٤٥ ٠

تأثيرا كبيرا على عمل الفنان الشعبى ومركزه بالقرية • وأصبح لا يطرب الا فئة المسنين من لا يستطيعون التخلى عن ميولهم وعاداتهم كالشباب •

لقد كان لانتشـــار المذياع أثر كبير فى تطوير الأغنية الشعبية من حيث المعنى واللحن مما جعلها تبتعد بدرجات متفاوته عن الأصـــل الشعبى القديم ولكنها مع ذلك لا تسطيع أن تخرج من ذاتها والا تعرضت للفنـاء ومن ناحية أخرى فقد ثبتت الحركة الفنية الحديثـــة الفن القديم باحيـــاء آثاره ومعالمه وأضفت اليه قيمة كبرى فى المدينة أدت الى انتشاره على نحو كبير وأصبح ضمن برامج الاذاعة والتليفزيون وهذه الظاهرة توضح الدلالة الصريحة على ان المدينة تميل بطبيعتها الى المشاركة فى الفن الشعبى وان أهلهـــا يطربون لســـماعه وترديده وان هذا الفن الأصيل ليس قاصرا على القرية بل هو يغزو كل مكان ويجد له معجبين فى كل مكان لأنه يعبر عن مشـــاعر الانسان وخلجاته فى كل مكان •

ومن هنا يتضح لنا بجلاء أن هذا الميل المشترك بين غالبية أبنـــاء مصر عندما يبدون الاستحسان ويجهرون بـ الله ، وقول كمان • هذا الميل المشترك ليس وليد الصدفة ولا هو ابن لحظته ، بل هو ميل قديم راسخ يتكشف من خلال طيات اللاشعور ليعلن عن وحدة سيكلوجية هى وحدة المشاعر والميول أوجدتها الحياة على أرض مصر يخصبها وحبها ، بنيلها وصحرائها ودعمتها ظروف تلك الحياة خلال حقب وأجيال •

● الفصـــل الثانى

الأدب الشعبى فى اطاره الاجتماعى

نتكلم عن السلطة كمظهر اجتماعى أدى الى وجود تقاليـد وعادات خاصه بها تتمثل فى طبقـة معينة أو أفراد معينين فقد تمثلت السـلطة قديمـــا فى فرعون وكبار الكهنة كما تمثلت فى عهود الاقطاع فى أمراء الاقطاع ، وكذلك تمثلت فيما بعد فى كل من حكموا مصر ومن هم دونهـم من اتبـــاع يستمدون نفوذهم من قوة السلطان ، بحيث تتألف من مجموعهم طبقات اجتماعية ٠
تمتاز كل طبقة بمستوى اجتماعى خاص بها ، يميزها عن الطبقة التى دونها ، كمـا يميزها عن الطبقة التى تعلوها ، وأكثر ما يظهر هذا التمايز فى النفوذ والسلطان والمركز الاجتماعى يتضح ذلك فى كثير من العادات الاجتماعية التى عرفت فى الريف قبل العشرين عاما الأخيرة من حياة المجتمع المصرى فقد كان لا يمر الفلاح وهو ممتط دابة أمام كبار أهل القرية ، بل عليه أن يترجل قبل أن يقترب منهم ٠

وهناك فى قرى أخرى بالصعيد كان يجب على الفـلاح أن يخلع نعليـه ويسير حافى القدمين قبل ان يقترب من سادة القرية ٠ كذلك لا يواجههم وقد غطى صدره بصدار كذلك أسلوب التحية كان يعبر عن التفاوت بين الطبقات ففى القرية الفقير يقبل يد الغنى حتى ولو كان أصغر منه سنا ٠

وهذه الطبقية فى المجتمع تعبر عن هيرركيــة متدرجة من أعلى الى أسفل ولم يكن الغنى وحده هو الذى فى أعلى السلم بل أيضا كثرة الاتبـــاع وعراقة الاصل وتقدم السن ووفرة التجارب ٠

وقد أدى هذا التدرج الى ظهور آثار واضحة فى أدبنا الشعبى مثل الألفاظ التى مازالت تستخدم فى الريف حتى اليوم فلفظ (بالزيمى) أى يا ملتزمى ويعبرون عن قدر الشخص بأنه رجل ملتزم (١) والاتباع يقولون لسيدهم ياعمى وهنا يتضح ان التبعية لم تكن عبودية بل أساسها نظام الاقطاع وقولهم ياعمى

(١) ملتزم ، احدى وظائف التنظيم الاجتماعى الاقتصادى لمصر ـ عند فتح العثمانيين لها ٠

انما هو تعبير عن ارتباط يفوق رابطة العمل أو حتى الصداقة ليجعلهم من لحم ودم واحد وكأنهم أبناء أخيه وبالتالى فهم أبناؤه ومن ناحية أخرى هو أب لهم اذن لا غريب بينهم فهم جميعا من أصـل واحد تربطهم صلات تفوق صلات العمل أو النسب أو الصداقة لتجعل منهم وحدة عضوية دعامتها رابطة الدم ٠

وتبعا لوجود الطبقية فى النظام الاجتماعى ظهر اتجاهان متعارضان (١) عبر عنهما الأدب الشعبى فى دقة تامة من حيث العادات والقيم والمبادىء ٠

الاتجاه الأول :

يعبر عن وجهة نظر أصحاب الجاه والسلطان مؤيدة باتجـاه ثيولوجى أساسه حق الملوك المقدس وأن الملك أو الحاكم ظل الله على الأرض ، ثم بعد ذلك ما جاء فى الكتب السماوية من أقوال تعبر عن هذه الفكرة على أنحاء مختلفة مثل : قوله تعالى :« وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » ، « وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات » وفى الحديث الشريف : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » وقد ساعد الفهم الشعبى والمستوى الفكرى اذ ذاك على تصور معنى خاص للسلطة يتبعه مفاهيم تتفق وهذا المعنى ومبادىء وقيم يصدر عنها سلوك أفراد تلك الطبقة المتسلطة ويعبر عن اتجاهاتها ٠

أما الاتجاه الثانى :

فهو المعارض لسابقه يعبر عن وجهة نظر الشعب المغلوب على أمره المسود التـابع الذى قبع طوال العصـور فلاحا مزارعا يحرث الأرض ويبـذر الحب واستمد من أدوات عمله أوصافا وتعبيرات تشير الى حزنه وبؤسه فشبه عمله المتصل بدوران الساقية وآلامه وبكائه بمائها الدائم الانسكاب وآهاته وأحزانه بأنين المياه ونواحها ٠

على أن الطبقة المسـودة من الشعب لا تدرك معنى التسلط بالنسـبة لها على النحو الذى يدركه الفكر الحر المعاصر بل انها تجد أنه من طبائع الأشياء أن يكون لكل صغير كبير ولكل مرؤوس رئيس ولذلك فهى تخضع للسلطة خضوعا مطلقا وكأنما وطدت العزم على تقديس هذه السلطة وظهر ذلك بوضـوح بين طبقات السذج من الفلاحين والمتأخرين ثقافيا وفكريا فظهر فى أقوالهم حكم البلد على تلها أى من أعلى ــ اللى مالوش كبير يشترى له كبير ٠ واعترفوا بانهم لا يمكن ان يتساووا مع سادتهم الا بالموت « لما انا أمير وانت أمير مين يسوق الحمير » ٠ « لما أنا ست وأنت ست مين يكب الدست » ٠

---

(٢) رشدى صالح ، مرجع سابق ٠

ومعنى هذا اعتراف بخضوع تام لفكرة السلطة بل ويقين منطقى بوجاهتها ولاشك أن معنى السلطة فى عهد المماليك قد أضفى على نفسية الفلاح كثيرا من مظـــاهر الاستسلام والخوف والنكوص فهو يستسلم ويخضــع راضيا من هول ما قد يصيبه من تعذيب واضطهاد ان هو حاول الوقوف فى وجه صــاحب السلطة أو اتباعه ــ طاطى رأسك ما بين الروس الا الماشى عليك يدوس « اسجد للقرد فى زمانه • اللى يتجوز أمى يبقى عمى • ان لقيتهم يعبــدوا التيس حش وأديله • ثم هم يعبرون عن خوفهم من السلطة والحكام بقولهم :

اتوصوا علينا يالى حكمتوا جديد ، احنا عبيدكم وانتم علينا سيد ثم يظهر التراخى فى أقوالهم عندما يرضى الواحد منهم بمركزه الوضيع بالنسبة للسيد أو صاحب السلطة ويربط نفسه بوضع يرى انه من العيب عليه ان يتخطاه مثل « ان طلع من الخشب ماشة يطلع من الفلاح باشــا » أو عمر الفلاح ان فلح • « مهما الفلاح اترقى تبان فيه الدقة » • أصفر ومعلول ويعدى أولاد الاصــول « وحتى لو حاول ان يقلد طبقة ذوى السلطة فهو مذموم مدحور « زبال وماسك وردة » • « زى فار الخمارة سكران وجعان » يا مفرقينه وانتم بتشتهوه أقعدوا جنب الحيطان وكلوه « ولا يقف الامر عند التعبير عن الاستســلام أو الخوف أو النكوص بل ان هناك من الأقوال الشعبية ما يعبر عن تأييد مطلق للسلطة والمال ومقارنتهما بالضعف والفقر • مما يعبر فى بعض الأقوال عن الاخلاص والتفانى اللذين يدلان على ســذاجة الفلاح وطيب سريرته • غنى مات جــروا الخبر ــ فقير مات مافيش خبر ــ الاعتبار للمال موش للرجال ــ أصلك فلوسك وجنسك لبوسك • ابن مين اللى محمول ابن اللى عندها مأكول ــ وبن مين اللى ماشى ؟ ابن اللى معندهاشى اذا رأيت الفقير بيجرى اعــرف انه بيقضى حاجة للغنى • طلب الغنى شقفة كسر الفقير زيره فالفقير يعمل بكل ما أوتى من اخلاص وتفانى لخدمة الغنى ولكنه فى أكثر الأحيان مذموم لكونه فقيرا غنى كل حية قالوا من حكمته واذا أكلها الفقير قالوا من حموريته • الفقير قال الفار كل الورق قالوا كذاب ودا كلام الغنى قال الفار كل الذهب قالوا تمام اهو دا الكلام •

ومع كون هذه الطبقة فقيرة مظلومة تضغط أنفاسها سلطة غاشمة الا انها تتسم بكثير من الفضائل وتقدر ما لها وما لغيرها فتقول «مال الناس كناس» •

وكأنما تود أن تقول ان ذلك الخلق الشائن الذى يتبعه ذوو السلطان فى اغتصاب أموال الناس لن يعود عليهم بالخير ولن يبارك الله فيه عندهم مع تقديرهم لأهمية التزام الحق وعدم الحصول الا على الرزق الحلال فانهم يروا فى المجتمع صفوف الفســاد والعبث تحرك كل أجهزة الدولة فى ذلك الوقت فيقولون (ارشوا تشفوا) (البرطيل شيخ كبير) (حاميها حراميها) سألوا القاضى الحيطة اتنجست فما العمل قال تتهد وتتبنى ســبع مرات ــ قالوا دى الحيطــة اللى بينــا وبينك قال أقل ماء يطهــرها ــ فهو يتعنت فى تطبيق

الشرائع على الناس ولكنه يعفى نفسه من الالتزام بها من ذلك (يفتى على الابرة ويبلع المدرة) وما دام هو هذا المستوى من عدم التمسك بالقيم والفضـــائل فلا عجب اذن أن يكون مرتشـسيا مما يحط من شـأنه ويهدر وقاره وكرامته الرشوة حلت عمة القاضى (عايز حاجتك تنقضى وتكرم أبعث لها راجل اسمه سى درهم) ٠ ثم انه مع فســاد الخلق وانهيار القيم بين طبيعة الحكام وذوى السلطة فانهم يلتزمون بالقسوة والعنف والتشديد مع عامة الشعب (مال الميرى زى النار) اللى يشرب من مرقة السلطان تتحرق شفته ذلك لأن هول سلطانه شديد سواء أكان حيا أو ميتا (اذا مشيت على قبر الكبار أسرع عضم الكبير فى القبر يجرح) ومن هنا أدرك الشعب تناقضا واضــحا بين ما يدعو اليــه الخلق القويم وما هو عليه الحــكام من ضياع وفساد وما يتصفون به من فكر وخداع ونكران (آخر خدمة الغز علقة) أو (آخر خدمة الغز سكين) أو (زى التركى المرفوت يصلى على ما يستخدم) فهو لا يصلى حبا فى العبادة الحقة وتأدية للفرائض ولكنه يتظاهر بالتدين مؤقتا حتى يحصل على العمل أو أنه يتقرب الى الله مؤقتا راجيا منه أن يساعده للحصول على عمل ثم انه بعد ذلك لا يهتم بشىء بل يتبع نفس المبدأ فى تعامله مع الناس بانصرافه عن الفضائل ٠

لذلك ينالون الحاكم التركى بكثير من السخرية والتهكم مما ظهر فى كثير من أقوالهم ولازم كتابات الأدباء فى القصص والمسرحيــات الهزلية حتى اليوم ومن أقوالهم فى المتكبر الجعجاع « بعجر أغا ما فيه الا شنباب » وكذلك تسمية كشكش بك ٠

ثم يقرر الأديب الشعبى ظلم الحكام (١) حينما يحاولون الوصول الى اعتراف المتهمين فى الحصول على الأدلة ولكن باتباع أساليب تؤدى الى نجاة المجرم ومحاسبة البرىء (اجرم الخضرى شنقوا العطار) (اضرب المربوط يخاف السايب) أو اضرب الممسوك يخاف السايب ٠ وجباة الضرائب الذين كانوا يسيرون فى الأسواق وفى القرى لتفقد أساليب الناس فى البيع والشراء ومراقبة الوزن والكيل كانت لهم سلطة كبرى فى هذا المجال وكانوا من الاتراك أو أتباعهم وقد اتسموا هم أيضا بالتعسف الشديد مع تآمرهم مع الباعة ضد المشترين حتى يحصلوا على الرشوة منهم فكان من هنا المحتسب موضع الكثير من الأقوال الشعبية منها (زى المحتسب الغشيم زايد ارمى ناقص ارمى) أى ارميه أرضا حتى يجلد و (الخبار شريك المحتسب) ابن الحرام يطلع ياقواس يامكاس أى انهم نظرا لما يعانونه من قسوة جامعى الضرائب فانهم يتصورون أن هؤلاء بما هم عليه من دناءة وفقدان للضمير ليسوا ابناء شرعيين وهم يضمون اليهم فى هذه الصفة القواس أى من ينفذ حكم الاعدام رميا بالسهم فهم ينفذون أحكاما ظالمة تصدرها سلطة غاشمة ٠

---

(١) نفس المرجع ٠

من كل ما تقدم يتضح وجهة النظر الشعبية فى السلطة بالنسبة لأصحابها وبالنسبة لعامة الشعب ويتضح أيضا الفارق الهائل بين الحاكم والمحكوم كما يتضح كثير من العيوب الاجتماعية التى انتشرت فى أوقات مختلفة تعبر عن فساد المجتمع وما كان يرزح تحته الشعب من مفاسد من الأجهزة المختلفة فى الدولة مما أدى الى ظهور كثير من الحيل الدفاعية فى صورها المختلفة ولعل قيام أدب شعبى يعبر عن تلك المفاسد هو من قبيل الحيل الدفاعية ولو أن هذا الأدب عبر فى بعض المواقع عن اليأس والاستسلام كما هو فى قولهم (الشقى عمره بقى) و (ايش ياخد الريح من التراب) و (جا زمان نترحم على فرعون) أى أن الفراعنة بما يصورهم به الخيال الشعبى من عتو وتجبر أصبحوا يستحقون الرحمة لانه ظهر من هم أشد منهم عتوا وفسادا .

وكان من الضرورى لهذا الشعب المغلوب المسالم أن يتخذ أسلوبا يتسم بالحيطة والحذر فى التعبير عن نفسيته وآلامه وان كان لا يخفى مقاصده بل يضفى عليها قوة وعمقا .

ولذلك استعان ابن الشعب بالنكتة واللغز بما يعبر عن براعة فائقة وذكاء نادر يكفلان له الامن والسلام فينفس عما به من توتر وألم بعد أن يصدر حكمه صريحا قاطعا على هؤلاء الحكام الغاشمين ، ولكن فى صورة نكتة أو قصة أو موال .

● الفصل الثالث

أثر العقيدة والعرف فى الفكر الشعبى

١ ـ العقيدة :

ارتبطت المعارف الشعبية أشد ارتباط بالعقيدة فقد ظهر ذلك منذ عهد الفراعنة ، واتضح فى كثير من التفسيرات الفنية التى اتجه اليها الفكر المصرى القديم مثل ارتباط فيضان النيل بأسطورة ايزيس وأوزيريس فكان دمع ايزيس مجلبة الزيادة والفيضان للنيل عندما قتل ست أخاها وزوجها أوزيريس .

وفى المسيحية تبدل بكاء ايزيس على أوزيريس ببكاء شخصية دينية اصطنعها المسيحيون حتى يفسروا فيضان النيل ولكنهم جمعوا دموع القديس ميخائيل التى تذرف لا لتملأ النيل ولكن لتلتمس الرحمة من الله بأن يأمر بزيادة النيل حتى يتحقق الخير للمصريين ، وأخيرا تلاشت الأسطورة المسيحية ، وظلت عادة الاحتفال بفيضان النيل منذ الفتح الاسلامى حتى اليوم .

ولقد ارتبط بمقتل أوزيريس كثير من الأساطير التى أثيرت فى الفكر المصرى القديم ، وحددت مواقيت معينة يحتفل بها فى كل عام ، فقد تصور المصريون أن أوزيريس بعد أن قتله أخوه ست لابد عائد الى الحياة ، وأنه عندما يعود اليها سيهبها الخضرة والجمال،فهو « روح القمح ومعطى الحياة » (١)، ومن هنا تحدد يوم يخرج الناس الى الحقول والبساتين ليسعدوا برؤية روح أوزيريس تطل من خلال كل نبتة تخرج من الأرض ، وكان هو يوم شم النسيم الذى ما زال المصرى ينهض فيه مبكرا ، ليخرج الى الحدائق والمزارع معيدا سيرة أجداده عبر قرون طويلة ، وعلى مدى التاريخ .

ويرتبط العمل فى الحقل بمواسم ثابتة لا تتغير ، يتبعها الفلاح بدقة تامة ، ثم انها تحدد مناسبات دينية فرعونية ، وترتبط بها ارتباطا وثيقا ، وما يزال التقويم الفرعونى باقيا ومأخوذا به ، لما له من دقة بالغة فى تحديد أوقات الزراعة ، ومواسم الحصاد ، وما يشير اليه من تنبؤات صحيحة بالنسبة للمناخ

(١) سليم حسن ، مصر القديمة ، القاهرة ١٩٢٨ .

فى مصر ، وما يتبعه من حاصلات زراعية فقد قسم الفراعنة السنة الى ثلاثة فصول ، الفيضان ويشمل أشهر توت وبابه وهاتور وكيهك ، ثم فصل الشتاء وبه طوبه وأمشير وبرمهات وبرمودة ، والصيف به بشنس وبؤونه وأبيب ومسرى ، وظل هذا التقويم المرتبط بالمناسبات الدينية الفرعونية ارتباطه بالحقل والزراعة والمناخ ، ظل معروفا ومتبعا .

حتى جاءت المسيحية فلم تغير به شيئا بل تبنته ، وجاء الاسلام فلم يتعرض له وابقى عليه ، وظل الفلاح المصرى يتبع تقويمه الفرعونى الأصيل حتى كل ما يتعلق بالزرع والحاصلات والمناخ ـ وأغفل الجانب الدينى فى هذا التقويم لأنه استعاض عنه بالتقويم العربى الذى عرف عند العرب من قبل ظهور الاسلام .

لقد كان الفراعنة يوفقون بين أساليبهم الزراعية ، وأفكارهم الدينية لأن الزراعة عندهم كانت تعتمد على تقويم تتداخل فيه عبادة الالهة مع الاحتفالات والطقوس والأعياد « من ذلك ما أنجزوه كأسماء لأشهر السنة عندهم فمثلا شهر توت هو تحريف لاسم الاله تحوت اله العلم والحكمة والكتابة ثم جاء الفكر الشعبى فأضاف الى أسماء هذه الشهور صفات تتفق وما تمتاز به هذه الأشهر من خصائص معينة ان متصلة بأعمال الحقل أو معبرة عن حالة الجو والطقس فمثلا يقولون : طوبه تخلى العجوزة كركوبة ، وأمشير أبو الزعابيب الكثير . وبرمهات روح الغيط وهات ، وبشنس يكنس الأرض كنس ، وبابه خش واقفل الدرابة ، وذلك لبرودة الجو ، وقلة العمل فى الحقل ، وهاتورر أبو الذهب المنثور ولعل هاتور هذا اسم اله عند الفراعنة كان يسجل على علامة الذهب عند الفراعنة بالهيروغليفية ، وهنا التشبيه واضح بين القمح الذى تصبح سنابله فى الحقل كالذهب وبين اسم هاتور الذى يرمز الى الذهب .

أما المعارف الشعبية فأهمها ما اتجه الى العلاج والطب البدائى ، وقد عرف من أقدم العصور الارتباط الوثيق بين وظيفة الكاهن ، والساحر ، واعتبر فى كثير من المجتمعات البدائية الكاهن ساحرا بالضرورة ، ومعنى ذلك أن العلاج يأتى عن طريق قوى غيبية وثيقة بالعبادة آنا ومسخرة الآلهة والأرواح آنا آخر ، باستخدام الرقى والتعاويز الواردة فى العبادات التى يتبعها المجتمع البدائى ، أو أنها تستعين بالأرواح والآلهة لتحقيق الشفاء ، ومعنى ذلك أن يقوم المعالج بتأدية أعمال هى من قبيل التوسل لتلك الأرواح والقوى الغيبية ، حتى تصرف غضبها عن المريض ، وبناء على ذلك ارتبط الأدب الشعبى بهذه المعتقدات ارتباطا وثيقا فظهرت كثير من المنظومات السحرية ، ومثلت الأفكار الغيبية جزءا هاما من التراث الشعبى على اعتبار أنها عنصر هام من عناصر الفكر والوجدان عند عامة الشعب .

كثيرا ما يتخذ السحر أسلوب المشافهة ، أى الكلام فالرمز والتقويم ، كلها عبارات منطوقة كتوسل أو ضراعة للقوى الغيبية ، أى أن الكلام ذو فعالية

تحقق ما يقصد اليه صاحبه من مطالب ، وعند البدائيين القول معناه الارادة والارادة معناها الفعل أو الحقيقة (١) ٠

كذلك يرى علماء اللغة أنه في مرحلة متقدمة من الفكر البدائى كان الفعل (قال) يعنى حدوث شيء ويعنى أيضا الأخبار عن هذا الشيء الذى حدث (٢) ٠

وفى العبادات البدائية كانت الكلمة هى فعل الأمر بالنسبة للخلق ، وفى المسيحية تجسدت الكلمة فكانت هى المسيح ابن مريم ٠ ومن هنا شاع المعتقد بأن الرقية أو التعويذ أو القسم يجبر القوى الخفية على أن تطيع الانسان ، أى أن الانسان بيده أن يقول كن فيكون ، وبذلك فقد وضع الانسان فى نفسه قوة تضارع قوى الاله ان لم تكن أقوى منها فى تلك المرحلة من الفكر البدائى ٠ وقد انتقل هذا الاتجاه عبر القرون ، حتى أنه ما زال يعيش فى عصر العلم والتكنولوجيا ، فبينما نجد المركبة القمرية أو زيون تهبط على صخور وعره فوق سطح القمر بروادها فى الفضاء نجد فى نفس الوقت آثارا تطل من بعيد على المجتمع لتثبت وجودها حتى ولو كانت معتلة شاحبة تكاد تزهق أنفاسها وسط الفكر العلمى ، والتقدم العلمى ، والمنهج العلمى ، الا أنها ما تزال تتشبث بالحياة فلا تقوى على مواجهة ضجيج الآلات وأضواء المدن لذلك تختفى مقنعة متسترة فى القرى والأزقة ، وفى ظلام الجهل ، واضطراب الحياة الا أن أرقى الآداب العالمية لم تنج من هذه الاتجاهات السحرية القديمة فعبرت عنها فى كتاباتها مما ظل باقيا الى الوقت الحاضر ، وخاصة عند استخدام المجاز فى الأدب ، وما يترتب على ذلك من ازدواج المعنى ، مما نجده كثيرا فى قصص ألف ليلة وليلة ، وفى قصص شكسبير ، وفى فاوست لجوته ، وغير ذلك مما وجد فى صوره رقى صريحة ، تستخدم لمعالجة المرضى أو لقضاء الحاجات ، منها التعزيمة التالية تلقى على من تلبستها الجان فتستثير خوفه بالدعاء والقسم ثم تأمرهم بألا يأذوا جسمها ٠

الفاتحة للنبى وأحباب النبى وأزواج وأنصار النبى ، وعثمان وعلى والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه ١٠ كعبة الله المشرفة وبيت الله السعيد طلقنا البخور وصلوا على بهى النور ، يا جابر كل مكسور ، بالله يا سيدى تاخذ بايدى وحياة النبى الهادى أنا دخيلة على عروس القيامة محمد تاخدوا الدخان وتدونا البرهان وتردوه زى ما كان جسمها ما تئذوه نومها ما ترعبوه ، اللى منكم ترفعوه وقلبها تسيبوه ، عاشقة فى النبى صلوا عليه ٠

والرقية التالية من رسالة الزار (٣) ٠

وهذه الرقية تستخدم لطرد العين أى الحسد ، وتبدأ بقول باسم الله

---

(١) A. Freud. Totem and Taboo. London Rothleolge and rons, 1919.

(٢) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ — بولاق ١٢٧٤ هـ القاهرة ١٣٠٢ هـ ٠

(١) رسالة ماجستير ، الزار دراسة نفسية وأنثروبولوجية — آداب عين شمس ١٩٦٦ ٠

الرحمن الرحيم ولكن على نحو خاص ـ الأوله بسم الله والثانية ... الى السابعة رقوة محمد بن عبد الله . النبى رقى ناقته من جماعته حط لها العليق ما داقته كانت تسير صبحت تسير باذن الله الكبير وقلت لها يا عين يا عين يا عين ما فكيش منافع للناس واحطك يا عين فى قمقم من نحاس واسبك عليك يا عين الزئبق والرصاص ، وارميك يا عين فى بحر الغطاس قالت والنبى والله تخدى على عهد الله لا أخون بنت فى قمرتها ولا عروس فى خلوتها ولا جاموسة فى ضرتها ولا حرة فى دارها ولا راجل فى دكانه رأيتك من عين المرة أحد من الشرشرة ومن عين الراحل أحد من المناجل ومن عين البنت أحد من الخشب ومن عين الولد أحد من الزرد ومن عين الفقى حرقت البندقى ومن عين الجارية أحد من السيوف الحامية ومن عين العبيد زى ضرب الكرابيج ومن عين الضيف أحد من السيف ، ومن عين الجارة الحاسدة المكارة ومن عين اللى شافوكى واللى نطروكى ضرب وغرب ، ولا صلوا على النبى عينهم مردودة عليهم طـيرى يا عين كما طارت الريشة وانشفى يا عين كما اتنشفت الحشيشة وابردى يا عين .

والتطبيب الشعبى قد اعتمد كثيرا على الرقى والتعاويذ والسحر فقد كان الكاهن هو الساحر هو الطبيب ، ومن هنا كان يتمتع بمنزلة سامية بين الجماعة تلى منزلة الحاكم مباشرة ، ان لم تكن فى نفس المستوى ، وقد صور لنا التاريخ الفرعونى بعض الشخصيات على هذا المنوال أمثال بتاح حوتب الكاهن الحكيم الطبيب الوزير ، الذى عبده الناس تقديسا ، لعمله وحكمته والأدب الشعبى يضفى على المعالج قوى خارقة ، وصفات سحرية فيداوى الجراح ما كان منها حقيقة وما كان ناشئا عن العاطفة . ينجح فى علاجها ان بالسحر أو بما يفيد من عقاقير ، وفيما يلى بعض المقطوعات الشعبية عن الطبيب والمريض ومن يقومون بخدمته يبدؤها بالبكائية التالية :

ياما جرالى عليك يا عيـــــان	لـما رأيتك من دونهـــم باكى
ياما جرالى عليك يا عيـــــان	لما رأيتك فى الفراش غمـران
ياما جـــرالى عليك يــا قلبى	لـما رأيتك على الفــراش مرمى
يا بخت مين علك عليله وجام	وطوى المخــدة واترجع فرحان

وان جال يا راسى لا بخـــره وارجيه
وان جال يا جلبى احتـــار دليلى فيه
وان جـــال يا راسى لا بخـــره واراه
وان جال يا جلبى احترت انا وياه
حكيم السلامة خش له عنـده
حل الصديرى واكشف على جلبه

حكيم الســـــلامة خش له جوه
حل اللبـاس واكشف على السوء
حكيم الســـــلامة أجبر وطيبهم
وشوف العيا وما عمـــل معهـم
حكيم الســـــلامة أجبر وداويهـم
وشوف العيا وإما عمل فيهـــم

وهناك بقية للبكائيات الشعبية نوردها فى المرفقات ٠

يتضح من هذه المنظومات صورة بارعة للطبيب الشعبى فقد لجأ اليه أهل المريض بعد أن فشلوا فى علاجه لأنه يشـــكو من آلام القلب مع أنهم عالجوه بالبخور والرقى عندما أصابه الصداع ، ولكن لا حيلة لهم مع مرض القلب لذلك فأنهم يستعينون بالطبيب فيسعون اليه ويستحضرونه من قرية مجاورة فيأتى معهم ، ونظرا لعلو قدره بينهم فهو يمتطى الدابة ، ويسيرون هم على الأقدام ، انهم على استعداد لدفع المائة أو المائتين حتى يشفى المريض ولكن الحكيم يدخل عليه فيكشف عن صدره ، وباقى جسده ، ثم يأمل فى شفائه بما يقدمه له من أساليب علاجية تجعل أهله يطمئنون لسلامته الا أنهم يعلقون الأمـل فى الشفاء حين يستطيع المريض أن يشرب من ماء زمزم ويزمزم الطرحة والمنديل فهى شفاء من كل داء ، وكذلك بزيارته للمشايخ وايقاد القناديل بالمساجد ، أى دفع شىء من المال على سبيل الفداء عن مرضه حتى يعود اليه الشفاء ٠

ولكن الطبيب فى زيارته التالية يدخل على المريض مرتكزا على نبوت فيعاود فحصه ، وينصحه بأن يرحل الى بلده حتى لا يموت غريبا ٠ وفى المرة الثالثة يزور الطبيب مريضه وهو مرتكز على جريدة فيعلن فشله ويأسه من شفاء المريض ٠

وهناك من المواد والعقاقير ما عرفه العلاج الشعبى ، وظل يستخدمه حتى وقتنا هذا ، منه الصبر والمر ، والحنظل والكمون ، والحلبة ، وقشر الرمان وشواش الذرة والمقدونس والنعناع والكراوية والشيح والينسون والقرفة والدار صينى ذلك بالاضافة الى الملح والثوم والبصل والسكر والليمون والماء واللبن والبلح والمرارة ولا شك أن لكل مجتمع مواد معروفة به يستخدمهـا عامة الشعب فى العلاج ففى الصعيد يعالجون كثيرا من الأمراض بعشب خاص يسمى الدمسيسة وفى سوريا يستخدمون الزعتر فى علاج حالات المغص والاسهال ٠ وهناك كثير من النباتات البرية يعرفها سكان الصحراء ويعالجون بها مرضاهم فيحدث الشفاء

وهنا يجب أن نشير الى ارتباط الخرافة بالعلاج الشعبى ، والممارسة المتصلة بالنسبة لاستخدام العقـــاقير أكسبت المعالج الشعبى مقـدرة خاصة وحدسا صحيحا ، بالنسبة للأمراض وأساليب العلاج ، وما يستخدمه من عقاقير بل ان اكتشاف خصائص النباتات الطبية واستخدامها فى العلاج انما يعتمد على ما توفر عن هذه المواد من خصائص طبية وفعالية نطقت بها التجربة العملية خلال عصور طويلة من الممارسة الشـــعبية ، ولا شك أن كثيرا مما ورد فى الآداب الشعبية ، فى شتى الفنون والعلوم ، انما تناوله الفكر العلمى والمنهج العلمى ، بالبحث والتجربة ، فحقق من النتائج ما كان لا يصل اليه الانسان بالخيال وسنفرد لهذه الفكرة مكانا خاصا بعنوان « الخيال يسبق الواقع » •

وليس كل معالج فى الجماعة يحظى بنفس القدرة من النجاح والتقدير بل لابد أن يكون محنكا مجربا ، لذلك يقولون أسأل مجرب ولا تسأل طبيب كذلك صاغها حكما صحية على غرار ما وضعوه عن شهور السنة القبطية فيقولون اتعشى واتمشى ،واتغدى واتمدى ،وافطر واتشطر ؛وهم بذلك انما يضعون أسسا وثيقة للأساليب الصحية التى يجب أن يتبعها الأفراد حتى يكونوا أصحاء فاعطاء الفرصة الكافية للمعدة لهضم الطعام قبل النوم ، انما يساعد على النوم الهادىء، ولا يعرض القلب للخطر ، وكذلك الراحة بعد الغداء ، وعناء العمل فى الصباح، انما يساعد على تمضية بقية اليوم فى راحة وهدوء ، وهكذا نجد أن العامة فطنوا الى خصائص كثيرة ، لكل ما يتعلق بحياتهم فطنوا اليها عن طريق التجربة ، التى لا تعتمد على ملاحظة علمية مضبوطة ، ولكنها تجربة أثبتت نجاحها فى أغلب الحالات ، فتمسك بها الشعب ، وتناقلها خلال الأجيال ، ومع أن هذه المعارف بدأت منذ فجر الحضارة المصرية القديمة الا أن تغير الثقافة لم ينلها بكثير من التعديل وانما طرح جانبا المعتقدات الدينية المغايرة للعصر ، وأخذ ما يمكن ان يفيد منه فانتقل منها الكثير خلال عصـــور المســيحية واجريت عليه عملية استخلاص ثالثة عند دخول الاسلام ، وما كان غير متعلق بالدين والعبادة فقد كتب له الخلود خلال مختلف العصور وظل باقيا الى اليوم حتى أيده الفكر العملى بعد أن وضعه موضع البحث والاختبار ، فما صمد للتجربة واجتازها بنجاح تحول من معتقد شعبى الى علم يقينى ، وما تعثر أمام التجربة أخذ يتوارى ويغرب عن المدينة الى حيث يمكن له أن يعيش فى الجهل والظلام •

وهكذا كان للعقيدة أثرها الكبير فى وجود معارف شعبية • كتب لهـــا البقاء والخلود خلال أجيال طويلة مر بها الانسان المصرى ، حقيقة انها تعرضت لشىء من التعديل والتغيير خلال العصور الا أنها مع ذلك احتفظت بكثير من قواها ومعالمها حتى اللحظة الراهنة •

هذه الفنون الشعبية مع اختلافها وتنوعها قد تأثرت بالحضـــارة خلال العصور فرعونية وقبطية واسلامية ، كما تأثرت بكل ظروف مصر وحياتهـــا

الاجتماعية وصدرت معبرة عن شخصية المصرى فى شتى الظروف · والملابسات وسنوضح ذلك عند الحديث عن الحكم والأمثال ·

هذا ولا نغفل مؤثرات ثقافية أخرى وضحت معالمها فى آدابنا الشعبية نتناولها فيما بعد ·

٢ ـ العرف :

يرتبط العرف الشعبى بالعقيدة والاتجاه الغيبى ، ولكنه يعبر عن القيم الأخلاقية التى تسود المجتمع · ففى المجتمع المتدين يكون للقسم شأن كبير ، ويصعب على الفرد أن يقطع على نفسه قسما ، ويحنث به ، لذلك كان فى كثير من الصفقات يكون الاتفاق بين الطرفين بالقسم فمن يحنث بالله ، فجزاؤه ما ينال من احتقار من أفراد المجتمع ·

كذلك تواضع الناس على تقديم الهدايا في المناسبات المختلفة وأهمها الافراح والمآتم ، هذه الهدايا هى ضرب من المساعدات التى يتعين على الافراد تبادلها فى مثل تلك الظروف العسيرة ، التى يحتاج فيها الناس الى العون والمساعدة، ولذلك كان لابد من تحين الفرص ورد تلك الهبات ، دون أن ينقص من قيمتها بل الأفضل أن تزاد فهى تتحول الى دين واجب الأداء ·

والعرف قانون عام اتفقت عليه الجماعة والتزمت باحترامه بحيث أن من يخرج عليه يكون جزاؤه اللوم والازدراء من الجماعة ، ولا شك أنه نشأ ليرضى حاجات أساسية للجماعة ، كالحاجة الى الأمن ، والحاجة الى النظام والحاجة الى التعاون ، والتمسك بالدين ، والخلق الفاضل · وغير ذلك ، وقد صاغ الأدب الشعبى فى كل هذه المجالات أقوالا تجرى مجرى الحكم ، والأمثال ، اسأل على الجار قبل الدار ـ النبى وصى على سابع جار ـ أحسن لجارك ولو أساءك ـ كلها ترمى الى تحسين العلاقات بين الجيران ضمانا للأمن والطمأنينة (ربك وجارك أدرى بحالك) (احترم أبوك ولو كان صعلوك ، احترم كبيرك يحترمك صغيرك) ولا شك أن نظام المجتمع يتطلب احترام الصغير للكبير ، مما يؤدى الى تقبلهم لآرائهم وتتبع خطاهم ، حتى تنتظم الحياة الاجتماعية فى كافة جوانبها فيسود الهدوء المجتمع ويسعى الى التقدم كذلك كان للاصدقاء أثر كبير فى الأقوال الشعبية منها ، حبيبك يمضغ لك الظلط ، وعدوك يتمنالك الغلط ·

ونظرا لظروف المجتمع قديما ، وما يحتاج اليه المسافر من عون قد يتوفر له فى يسر أو قد تنفذ منه المؤونة ، فقد نشأت عادة كرم الضيوف ، وكان العرب أكثر الشعوب شهرة فى هذا المجال ، وقديما سجل التاريخ اسماء من اشتهروا بالكرم ، مثل حاتم الطائى ، وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الشعوب وخاصة فى الريف فلا شك أن المسافر الغريب يحتاج الى عون من أهل القرية

التى يمر بها ، لذلك كان اكرامه واجبا عليهم لأنهم هم أيضا قد يمرون بنفس الظروف ، فيجدون من يكرمهم ومن هنا قالوا (من قدم السبت يلقى الحد قدامه، وخادم الناس يلاقى الناس خدامه) • (واللقمه الهنيه تكفى ميه) ولاقينى ولا تغدينى ، وليس مجرد تقديم الطعام للضيف هو الغاية المنشودة بل يجب أن يكون المضيف فرحا بضيفه مرحبا به (الذى يكره الضيوف يضرب ولاده قدامهم) اللى عاوز زاده يتوفر يمد أكله ويتأخر) •

وكذلك كان للبخيل أثر كبير فى الأدب الشعبى فقد صوروا البخيل بما يتصف به من كراهية ونقمة بقولهم حبيب ماله حبيب ماله أى ليس له حبيب وأيضا عدو ماله عدو ماله أى ليس له عدو وتأكل عيش البخيل تضره وتأكل عيش الكريم تسره •

وكان الأدب الشعبى صدى لما تواضع الناس عليه من خلق وقيم وعادات، سارت بينهم قوية ملزمة ، فالعرف قانونهم ، الذى سنته أريحتهم ، ودعمته أصالتهم ، فكان تعبيرا عن وحدتهم وتماسكهم ، لم يفرضه عليهم سلطان ولا حاكم ولكنهم فرضوه على كل حاكم وسلطان ، فقد دعمته خبرة الانسان المصرى وكتبت له النجاح والخلود •

نتناول فيما يلى بعض العادات المرتبطة بالعرف :

(أ) العادات الخاصة بعلاقة الدم :

أنا وأخويا على ابن عمى وانا وابن عمى على الغريب

ابن عمك عدوك وعدو اللى يعاديك

عمر البطن ما تجيب عدو وعمر الدم ما يبقى ميه

ويتدرج الأدب الشعبى فى تصوير علاقات الدم فى درجات متفاوتة ، فيقول (الأب جلاب والأخ سلاب) الأب يطفش والأم تعشش ويهتمون بالأحفاد وخاصة ابن الابن ابنى فى ملكك وملك غيرك لا وربى فى ابنك وابن ابنك وابن بنتك لا وتقول النساء ابن ابنى عدى وعدانى وابن بنتى عدا وخلانى ، وكذلك يربط المجتمع أفراده بروابط ذات صلة بالقرابة فكل من يكبر عن الفرد يقول له عم فلان أو خاله فلانه ، وذلك توكيدا للصلات بين الأفراد ودفعا لاحترام الصغير للكبير ، وهو من ناحية أخرى يشير الى رابطة الأصل ، فمادام هو عمى أو خالى ، اذن فهو مشترك معى فى الأصل وفى ذلك تكريم لمن يقال له عم فلان أو خالة فلانه فالعامة يعلقون أهمية كبرى على الأصل — يقولون أصلك فصلك — ابن آدم ان تاه أصله دليله فعله — ابن الأصول ينتحى وابن الندول لا •

كذلك من العادات الشعبية المحافظة على صلات القرابة بالنسب واهمها جميعا ابن العم فهو مقـدم على كل من يطلبوا يد الفتاة من أبيها (ابن عمها ينزلها من فوق ظهر الحصان) أى أنه يستطيع أن يلغى الزواج حتى ولو كانت العروس قد تأهبت للذهاب الى بيت عريسها الغريب اخذ ابن عمى واتاوى فى كمى . خدت الغريبة وعملتها خية فتشت جروحى واتشمتت فيه وكذلك يقضى العرف بأن يتزوج الفتى ابنة عمه اذا لم تجد عريسا ذلك لحماية العرض . والفكر الشعبى يوجه اهتماما كبيرا الى الولد دون البنت لأن الأولاد (ياخدوا التار وينقوا العار) . كذلك سجل الأدب الشعبى أهمية كبرى لعملية الأخذ بالثأر على يد الأقارب ، أى من تربطهم بالقتيل رابطة الدم . وبذلك يكون على الابن أن يثأر لأبيه أو ابن الأخ أو ابن العم ويكون عار عليه أن هو تخلى عن الثأر ، ولم يقتل من قتل ذويه ، فنجد أدهم الشرقاوى يثأر لعمه ، فيقتل ابن القاتل ، وثلاثة من رجاله ، ويسجل الموال الشعبى قصة أدهم الشرقاوى بكثير من الاهتمام ، وتتناولها أفواه الرواه حتى وقتنا هذا :

منـــين أجيب ناس لمعنات الكــلام يتــلوه
شــبه المؤيد اذا حفظوا العـــــلوم وتلـــوه
الحـــادثة اللى جرت على ســـــبع شرقاوى
الاســـم أدهم لكن النأب شـــرقاوى
الولد كان بالمدرســـة عنده من السن تلتاشر
وتنو فى المدرسة لما بلغ من الســن تمنتاشر
وزال همـــه والا وجاله الخبر بمـــوت عمـــه
فضـــــل يعيط والتلاميـذ تبكى حواليـــه
قالوا بتبكى ليه يا أدهم واصـــــل البكا ايه
قال لهم مات عمى يا رفاق وانا فى ألبلد صفتى ايه
وراح فى البـــــلد وقال حا تســـعدونى
والا على بيت العـــدو ودلـــــمونى
وراح على ابن العدو فســـــخه بايديـــه
وقتـــــل ثلاثة من اللى كانـــوا حواليـــــه
جت الحكومة يا أدهـم عملت كــده ليـــــه
قال لها يا حكومة لما قتل عمى عملتى ايـــه

وهكذا يمضى موال أدهم ليوضح مدى قوة فكرة الثأر فى الأدب الشعبى والتحمس البالغ بالنسبة لها عند ذويها ممن يشعرون بالمهانة والعار اذا هم لم يأخذوا بثأر قتلاهم ، وكان ذلك يظهر بوضوح عند الطبقة التى تستطيع أن تذود عن حماها فلا تنتظر حكم القانون فهى ذات امتيازت خاصة وسلطان ونفوذ يمكنها من المروق من حكم العدالة أو تحقيق الحكم بقدر ما لها من نفوذ .

كذلك سجل الأدب الشعبى عملية الثأر على يد من لا تربطهم بالقتيل رابطة الدم ولكنه قام بالثأر بناء على طلب من أقاربه ، فهم لا يستطيعون مواجهة أعدائهم ، ولذلك يلجأون الى من هم أقوى منهم ، واعتى كما وضح ذلك فى ملحمة الهلالية ، وكيف أن خليفة والزناتى اعتدوا على أهل جبر وهتكوا الحجاب عن النساء ، وقتلوا أقرباءهم ويتموا أطفالهم ، حتى لجأ هذا الى أبى زيد الهلالى يطلب منه أن يساعده فى الأخذ بالثأر لما لهم من مكانة عالية وشهامة ومروءة ، كفرسان أبطال فيعاونونه على الأخذ بثأر أهله ـ وقد لا يكون للمقتول ولد أو ابن أخ يثأر له ولكن ابنته المتشبهة بالرجال تأخذ على عاتقها ، مهمة الثأر فتنال من عدوه ، وقاتله وتثأر لأبيها ، فترد شرف الأسرة ولا تلقى به فى الرغام ٠

كذلك فكرتا العار والشرف من الموضوعات التى تناولها الأدب الشعبى بكثير من الاهتمام ، فابن العم ينتقم لشرف ابنة عمه ، وكذلك الأخ لأخته فيردون العار ، بقتل المعتدى والشرب من دمه ولذلك يقولون النار ولا العار) ٠

والمرأة التى تجلب العار لذويها تسود عمائم الرجال ، والتى تصون شرفها تبيض وجوههم ، فالخلق الشعبى يقدس الفضيلة والعفة مهتديا بذلك بتعاليم الدين ومتمسكا بالقيم الخلقية التى تتصل بالعلاقات الجنسية الشرعية ٠

(ب) مكانة المرأة فى الأدب الشعبى :

سجل الأدب الشعبى كثيرا من الأقوال عن بعض النساء اللاتى عرفن بقوة الشخصية والشكيمة ، وكان لهن فى المجتمع تقدير خاص أمثال نساء الاسلام وأهل بيت الرسول والصحابة ٠ وغيرهن من النساء اللاتى برزن فى ظروف خاصة ، فحصلن على قدر كبير من الشهرة والمجد ، فتناولهن الأدب الشعبى بكثير من المدح والثناء والتمجيد ، ولكن بوجه عام يتجه الأدب الشعبى الى وضع المرأة فى منزلة أقل بكثير من الرجل ، بل انه يجعل الرجل هو المسئول عن المرأة ، ذلك لأنها (ناقصة عقلا ودينا) وأنهم يرون اذا هم أخذوا برأيها أن يتبعوا الحكمة الشعبية (شاوروهم واخلفوا شورهم) (وآمن للحية ولا تأمن للمرأة) يقول ابن عروس :

كيد النسا كيد ... من كيدها علت هارب
يتحزموا بالحنش حى ... ويتعصبوا بالعقارب

ويقرر الأدب الشعبى مركزا أسمى للرجال على المرأة ، وأن الرجل رأس الأسرة والمرأة عليها واجب الطاعة ، كذلك يعرض العرف أشد الجزاء على المرأة الخائنة بينما لا ينال الرجل جزاء فى ذلك ، ويجعل المرأة هى سبب العار ، بينما الرجل هو الذى يلم العرض أو يدارى العار بزواج بناته أو شقيقاته أو بنات عمه • وانه اذا أريد تحقير الرجل فينادى بأمه واذا سب فانما يسب فى أمه •

وقد اتضح ذلك فى كثير من المواويل التى عرفت فى ريف مصر ، وفى الصعيد ، مما يعبر عن أهمية الرجل ، وتفوقه على المرأة فى المجتمع •

ولكن هل هذا الوضع بالنسبة للمرأة موجود منذ بداية البشرية ؟ يقول هنرى ديكوجيش ليس ثم ما يدعونا الى الاعتقاد بوجود فارق بين حق المرأة والرجل فى بادىء الأمر — فأعضاء الأسرة الواحدة أو البطن الواحد لم يكن لديهم فى البداية أى شعور بفرديتهم فالرابطة الجماعية كانت قوية عندهم لدرجة أن التجمع البشرى هو كل شىء والفرد لا شىء — ان التمييز فى الوضع التشريعى بين الرجل والمرأة لم يكن بأكثر من التمييز بين وضع الحر والعبد • وما كان لهذا التمييز أن يوجد الا بعد فترة طويلة من الحياة الاسرية ، والعشائرية عندما أخذت الملكية الفردية تنمو داخل كل مجتمع بشرى •

وفى التاريخ المصرى القديم كانت مكانة المرأة لا تقل عن مكانة الرجل على وجه التقريب ، حتى أن ديكوجيش (١) يقدر ان وضع المرأة المصرية أرقى منه عند اليونان والرومان ، وكان ذلك فى الأسرتين الثانية عشر والثالثة عشر ، ولعل ذلك يرجع الى أن هذه الأسر اشتهرت بالزراعة وتبع ذلك أن رب الاسرة كان يعتمد فى ادارة بيته على زوجته ، ويخرج هو الى الحقل ثم تلحق به الزوجة بعد أن تتم عمل بيتها ، فكان لها أهمية كبرى الا أن هذا الوضع تغير تدريجيا ، واتضح ذلك فى الرسوم الفرعونية التى صورت المرأة فى صورة أصغر من الرجل ، وصورتها فى صورة الخضوع أمام زوجها بينما كانت فيما قبل تبدو فى الآثار فى أوضاع مماثلة لوضع الرجل تماما • ولا ننسى أن المرأة وصلت الى مقاعد الحكم عند الفراعنة •

وجاءت المسيحية ومن بعدها الاسلام فجعلا المرأة فى وضع يختلف عن وضع الرجل (الرجال قوامون على النساء) •

(ج) فكرة الزواج والاقتناء (٢) :

لعل أهم ما يبرزه الأدب الشعبى بالنسبة لفكرة الزواج هو المهر وهو بالعبرية موهار فلعله لفظ محرف عن العبرية أو لعله يرجع الى لفظ مهن

---

(١) احمد رشدى صالح — الأدب الشعبى — المعارف سنة ١٩٥٦ •

(٢) نفس المرجع •

والمهر .. وعملية دفع المهر من الزوج الى أهل الزوجة أو صاحب السلطة عليها قبل زواجها تعتبر في العرف الشعبى عملية بيع يتبعها عملية اقتناء ، اى ان الزوجة تصبح من ممتلكات زوجها الا أن هذه الملكية لم تكن لتباع وتشترى من جانب الزوج لآخر فقد تمسك المجتمع المصرى بل المجتمع العربى بفكرة صون العرض الى درجة أنه اعتبر مجرد ظهور المرأة أمام الغريب مجلبه للعار ، لذلك أوجب سترها وتحجبها ، حتى مستهل القرن العشرين ، ولا يعنى ذلك وجود حالات فردية تم فيها بيع المرأة فى مجتمعات غير المجتمع العربى عامة ، فقد أورد توماس هاردى فى قصة عمدة كاستر بريدج بيع زوج لزوجته ، وان نقاد هذه القصة لا يرون أنها من صنع الخيال أو أنها محض ابتداع ، بل أن هناك حوادث تناظرها وقعت فى بعض المجتمعات من قبل . الا أننا نرى أن مثل هذه الفكرة لا تطابق الاتجاهات النفسية الخاصة بالمجتمع العربى عامة بل ان كلمة الاقتناء هى الأثر الناتج عن فكرة الحفاظ على المرأة وصونها ، ووجدانية العلاقة بينها وبين رجل واحد ، وأدى ذلك الى أن تكون المرأة تابعة دائما ، وطوال حياتها للرجل أما كأب أو أخ واما كزوج لها واما كابن لها اذا بلغت الشيخوخة .

ثم تأتى الأديان ــ الاسلام فيقرر فرض صداق للمرأة ، فاخذه العامة بالمفهوم الشعبى لفكرة البيع والشراء ، ودفع الثمن ، والاقتناء ، وهذه أغنية كانت ترددها العجائز للأطفال .

يابو البنت البالغ بيعهـــا   قبل شرف البنت ما يضيع

يابوها ما تقولشى عليها حره   لما تشــوف الجـدعان بره

تعمل زى المهرة لما تشيع

والاقتناء عند العامة يطابق كلمة الزواج ، فاذا سبوا امرأة قالوا (هى واللى قانيها) ونورد هذا الموال الذى تظهر فيه كلمة الاقتناء ولكن فى وضع لا يشتم منه ذم أو عار بل هو تشبث بامرأة متزوجة :

الاهيف اللى حــوى ورد   الخدود وقنــــــــاه

وله اقوام يـــــــزدرى   خير الرماح وقنـــــاه

عينى لاجله تفيـــــض   بحر الدمـوع وقنـــاه

أو آه على من حـــــوى   هذا الجميل وقنــــاه

والاقتناء هنـــا يرتبط أيضـــا بالفكرة الشعبية عن اقتناء الحيوانات ، أو اقتناء المال ، والعقار ، وهذا الأخير يعبر عن مستوى أعلى من التفكير لا نرى

أنه يطابق الفكرة الشعبية عن الاقتناء ، ولكن فكرة اقتناء المرأة من وجهة النظر الشعبيه تكاد لا ترقى الى أعلى من مستوى اقتناء الحيوان أى تربيته وتنميته بقصد التكاثر ، أى التناسل ، وهنا يتضح المفهوم الشعبى لاقتناء المرأة فانما هى عامل يحقق حاجة من الحاجات النفسيه الطبيعية بالنسبة للرجل ، وأن وظيفتها الأساسية ، ووجودها بوجه عام ، انما يهدف الى تحقيق هده الغاية ٠ وهنا يتضح المفهوم الشعبى لفكرة المرأة والزواج ، انها متاع ، وقد يفهم المتاع على نحوين أولهما ــ ما يمتلكه الانسان من فرش وعفش كمتاع المسافر وقد يسمى أمتعة ٠٠ والثانى ــ أنها وسيلة للمتعة والاستمتاع ، وهنا يتضح الاتجاه الجسى فى العلاقة بين المرأة والرجل ، فهى علاقة أساسها الجنس ، ولا ترقى الى مستوى التقدير والحب ، والمشاركة ، والترابط الروحى ، تبعا لارتفاع المستوى الثقافى والفكرى ٠

ولم يكن هذا الشعور بتبعية المرأة قاصرا على الرجل ، بل ان المرأة نفسها استسلمت لفكرة الامتلاك للرجل ، وعرفت دورها فى الحياة بالنسبة له ، فقبلت عن طيب خاطر أن تكون مملوكة له ، بل ووجدت أن أسلم طريق لها لتنجو من كثير من متاعب الحياة ومشكلاتها هى أن تكون متزوجة أو مرتبطة بزوج ٠

ومن هنا كانت الأقوال الشعبية التى تعبر عن هذا المبدأ مثل (أقل الرجال يغنى لنا) (جوز من عود خير من قعود) (ضل راجل ولا ضل حيط) ٠

ومن ذلك يتضح تلهف الفتاة الشعبية الى الزواج وتأنقها فى الملبس حسب مستويات الاناقة ، بين أمثالها فكل ما تتمناه أن يعجب بها شاب من شبان بيئتها ، أو حيها أثناء ذهابها لقضاء حاجات المنزل أو أثناء ذهابها لملء الجرة فى الريف أو عند ذهابها للحقل أو عودتها ، فيتقدم لأبيها ليخطبها منه ، وقد ذخر الأدب الشعبى بكثير من المواويل بل والأغانى التى تنشرها الفتاة معبرة فيها أن تأخرت خطبتها أو أوصاف من تقبله كخطيب لها أو لهفتها من طول فترة الخطبة ، وخوفها من فشل الزواج ٠ كذلك يتضح فى هذه الأغنيات الكثير من الأوصاف والمعايير المادية التى يقاس بها جمال الفتاة ، وارتفاع قدرها ، **وما يتطلبه ذلك من تحديد خاص للمهر كثمن لها ٠٠ منها :**

يا جمال ايوى يا جمال ايوى	طلعت من العالى
وامشى خطرك يا لاحمدى	نحط حلوانى
ميتين جنيه ميتين جنيه	تنعد جدامى
يا الاحمدى يا الاحمدى	يا بوكم مدراسى
بيع الجمل بيع الجمل	وهات لى دهان راسى
وان عاركوك أمك وأبوك	حب البنيات خاسى

الفتاة هنا تصف خطيبها بالجمال ، وأنهــا تطلب منه أن يدفع مهرها (تحط حلوانى) وأن يكون هذا المهر مائتى جنيه ، تعد أمامها وأن هذا الخطيب جميل الوجه أنيق الملبس فهو يرتدى (الكم مدراسى) أى واسع ، ربما كان ذلك نسبة الى مدراس فى الهند أى انه زى شبيه بزى الهنود (من حيث اتساع الكم) • ثم هى توجهه الى أن يبيع الجمل ليدفع المهر ، وتعبر عن ذلك بأن هذه العملية كأنما هى دواء لرأسها أى أنها تؤدى الى شفائها وسعادتها ومع ذلك فهى تخشى من أمه وأبيه أن يغضبهما فتوجه الى اجابتهما بأن حب البنات قاسى •

وما دامت قيمة المرأة تنحصر فى قدرتها على اسعاد زوجها من حيث أنها جسد عارم بالأحاسيس المفرطة ، فان ذلك يتطلب من تتصف صاحبته بأوصاف تساعد على تحقيق ذلك المستوى من الحياة الجسمية الشعورية كما يتضح فى الأغنية التالية التى تؤدى فى الخطبة أو الحنة والزواج وتوصف فيها العروس وصفا يتناول كل أجزاء الجسم تقريبا :

انظر بعينك يا جميــــل	بيضه من لون الياسمين
راسهــا رأس اليمامـــه	سبحان الخــلاج العظيــم
يا جورتها هــلال شعبـان	يا شعرهـا سلب الجمــال
يا عيونهــا عيون غــزلان	يا حاجبهـا خطين بجــلام
يا سنانهـا لولى ومرجــان	يا خدودهـا تفـاح الشــام
يا حنكهـا خاتم سليمـــان	يا صـدرها بلاط حمـــام

وهناك أغانى تصور العروس فى صور أنواع المأكولات ، وهنا يتضح جوهر الفكرة ، مثل تشبيه العروس بأنها ريانه كقلب الخس أو بأنها مثل (المشمش الطرى المبلول) أى أنها تؤكل ، وأنها مستعدة للأكل وأنها بناء على ذلك لا تجد مشقة فى التعبير عن أهم هدف لها ، أو غاية وهو الزواج من وجهة نظرها ومع أن هذه البيئة الشعبية التى ينشأ فيها الموال تتصف بالخلق والفضائل والرجعية ، الا أن الموال يعبر عن صراحة تامة تتحدى العرف الأخلاقى وتفوح منها المشاعر الجنسية والرغبة الصارخة مما يجعلنا نؤكد أهمية الاتجاه المادى بالنسبة للمســتوى الشعبى عند كل من المرأة والرجل فكلاهمـا يكشف عن مكنونات اللا شعور •

كذلك يسجل الأدب الشعبى كثيرا من العادات المرتبطة بالزواج كالنقوط وهو ما يقدم للعروسين اما ليلة الزفاف أو (يوم الصباحية) مثل :

طلع من الحمـام وما شـفته	وطاطيت على خد العريس وبسته
وربطت له ميتين على محرمته	وجلت له انا يا عريس جشلانه

هذه الأغنية تعبر عما يقدمه أهل العروس لعريسها من نقوط ، وكثيرا ما تكون هى الأم أو الجدة المقصـودة بهذه الأغنية ، ذلك أن تقبيل العريس لا يستساغ الا من سيدة متقدمة أو طاعنة فى السن ، فيكون العريس بالنسبة لها كواحد من أحفادها ، اذن فتقبيله يصبح أمرا غير مستنكر ٠

كذلك من الأقوال الشعبية ما يعبر عما يحدث بين الزوج وحماته من مشكلات أو متاعب مثل (الكى بالنار ولا حماتى فى الدار) حماتك مناقرة حال طلق بنتها) ٠

وكأنما العرف الشعبى يرمى الى انقطاع العلاقة بين الزوج وأهله حتى ترضى عنه الزوجة ، فهى ترفض أن يقترب منها أو أن تكون الى جانبه الا اذا قطع صلته بأمه وأبيه وأقاربه وجيرانه ٠ **والموال التالى يوضح ذلك :**

بردان أنا يا جرنفلـــة غطينى	والله ما غطيك ولا جرب جـارك
مـا حتى تبيع أمـــــــك	وأبـــــوك واخواتــــــك
وتكسر السلم على جيرانـــك	وأنا البس الكشمير واحف جدامك
بردان أنا يا جرنفله غطينى	والله ما غطيك ولا جرب يمينك
جـاشى تبيـــع خالـــــك	وترهـــن عمــــــــك
وتكســــــر السلـــــم	عـــلى رأس أمــــــــك
ونا البس الكشمـــــــــير	واجـــف جدامــــــــك

ويمكن تفسير مثل هذه الأغنية وما تحويه من تعبير صـارخ عن الكره لأهل الزوج والرغبة فى التخلص منهم بأحد العاملين التاليين ٠٠ وهما رغبتها اللاشعورية فى الحيازة والتملك نظرا لأنها لا تملك الا الحاضر بالنسبة لزوجها ، وأنه كان من قبل ذلك وطيد الصلة بأهله ، فانها تلجأ الى حيل دفاعية لتحقق بها غايتها فتنطلق بالعدوان صريحا بلا تستر أو مواربة ، ثم هى تعلن عن رغبتها فى نهاية الأغنية على نحو لا شعورى ، عكسى فتقول ونا البس الكشمير واجف جدامك ٠ بينما هى فى الواقع تقصد عكس ذلك لتقف أمامه ٠

أما العامل الثانى ، فهو ربما أن نشأة الموال فى البيئة الشعبية ، وما تتصف به من انخفاض المستوى الاقتصادى والتزام الابن بالانفاق على والديه اذا كانا بحاجة الى ذلك مما يؤدى الى عسر الحياة ومشقتها بالنسبة للزوجة لذلك ، فهى ترغب فى صرفه عن أهله وذويه حتى تنفرد بدخل زوجها ولا تتاح الفرصة لأهله للافادة منه ٠

ولعل الأغنية التالية تعبر عن هذا الاتجاه مضافا اليه الكراهية والعداء والبغضاء :

الفرن لأمك والرواجات ليا   ما تجوم بنـا نجعد ع الفراش
وتتغذى بلحـم الكباشـــى   وان جات أمك نديها المحاشـــى
وان نحنحت يدك والعصية

وهناك عادات كثيرة تتصل بشتى تفاصيل الحياة بين الزوج والزوجة وفى كل منها لم يترك الأدب الشعبى شيئا الا وضع له الكثير من الأقوال والمأثورات ٠

(د) الميلاد والطفولة :

ويهتم الأدب الشعبى بالانجاب ولا يذكر شيئا اطلاقا عن فكرة تحديد النسل ذلك أن كثرة الأولاد دليل القوة البدنية من ناحية ، ومن ناحية أخرى رمز لكثرة العصبية ، ثم انها فكرة تتفق والاتجاه الروحى الذى يسود الجماعه الشعبية مثل (اللى خلقهم يرزقهم) (رزقى ورزقهم على الله) ربنا ما خلقش حد ونساه ومن ناحية أخرى فقد عبر الأدب الشعبى عن مجتمع زراعى يحتاج الى كثرة الأيدى العاملة ، اذن فلا بد أن يكون للزوجين ، أبنـاء كثيرون يشبون ويصبحون رجالا ، وفتيات يعاونون أباهم فى الحقل ، وأمهم فى المنزل ، وفى ذلك كثير من الكسب بالنسبة لرب الأسرة ، وسيدة الدار دون أدنى تفكير فى تكاليف تربية الأبناء والبنات ، وما يحتاجون اليه من مطالب كثيرة . ذلك أن المجتمع الشعبى الريفى ، بسيط ليس فيه مطالب ولا تعقيدات كما هو الحال بالنسبة للمجتمع الصناعى ٠

الباب الرابع

مكونات الشخصية

● الفصل الأول

البيئة الثقافية وأثرها

ان مشكلة نمو الشخصية تحتاج الى وضع اعتبار خاص للمحيط الاجتماعى أو المجال السيكلوجى ، والمجال الحيوى ، ونمو الشخصية يتحدد بنوعين من العوامل الوراثية ، والبيئة ، والأخير يمكن أن يقسم الى تأثير البيئة الأولى للطفل ـ الأسرة ـ والوضع الاجتماعى ، فكل أسرة لها ملامحها الخاصة الفردية وتعتبر كوحدة أو ككل فلا يمكن بحث تأثير الأم على أطفالها بعيدا عن موقفها من زوجها وأبنائها الآخرين هذه الحقائق تمثل علاقات متبادلة عاطفية معقدة بين كل أعضاء الأسرة • فاهمال الأم لأحد أبنائها يكون مدمرا له ، وخاصة اذا كان ذلك من جانب الأب أيضا ، بينما يقل تأثيره اذا كان موقف الأب يحوى قدرا من العناية والاهتمام ، هذه الخصائص الأساسية فى كل أسرة ذات أثر حتمى على نمو الطفل • بالاضافة الى ذلك هناك اتجاهات الأسرة الخاصة بها نحو الثقافة المختلفة والتى يحددها البناء الاجتماعى • فعقلية الأسرة الألمانية أو اليابانية تختلف اختلافا تاما عن عقلية الأسرة الأمريكية • فالاتجاهات الأسرية والمبادىء والاتجاهات التربوية تختلف بالنسبة لكل ثقافة من جماعة لأخرى •

هذه التفاصيل العامة تتيح صفات خاصة بكل جماعة أو صفات قومية فنحن نتكلم عن التفكير الغربى عند مقارنته بالعقلية الشرقية فيما عدا أصحاب نظرية الأجناس الذين يفسرون كل هذه الاختلافات تبعا لفكرة الأجناس الا أن الأغلبية يأخذون بالفكرة السابقة التى تعتمد على تأثير الوسط الثقافى على الشخصية ـ أى أن أثر الوسط الثقافى قادر على أن يعيد تشكيل الشخصية • والتحليل العلمى للدلالة النسبية للعوامل التى تعتمد على النظم والبيئة وأثرها فى تكوين الشخصية سنفرد له دراسة خاصة فى هذا البحث •

والدراسة النفسية التحليلية لبعض الأفراد (١) قد دفعتنا الى الأخذ بأثر التجارب الانفعالية فى فترة الطفولة فى نمو الشخصية ، وقد اهتم التحليل

(١) كدراسة شخصية هاملت أو شخصيات الاخوة كرمازوف •

النفسى باظهار أثر التجارب الانفعالية المكبوتة فى العلاقات الأسرية على السلوك والاضطراب العقلى ٠

كان الاعتقاد السائد هو ان الاختلاف بين الأجناس مصدره فكرة الجنس نفسه فكتبوا ما تســمع عن اعتدال الجنس اللاتينى وأن اليونان واليهود تجاريون ، كذلك ذكر فرويد ما يتصف به السويسريون من ميول جنســية ، ولكن هل هذه حقيقة صفات تتعلق بالجنس كله ويمكن أن تورث ؟ ان الثقافة تنتقل بين الناس بواسطة التقاليد والعادات والقيم والقوانين ولابد أن يكون لها اعتبار خاص فهل شــعب من الشــعوب يتصف بصفة معينة كالاقتصاد أو النظام والنظافة لأن هذه الخصائص معاشة من الأجداد والأسلاف أو أن ظروف الثقافة للجماعة وتقاليدها تشجع مثل هــذه العادات ــ حتى دون الحاجة الى استقصاء علمى دقيق فاننا نميل الى افتراض تأثير قوى للعوامل الثقافية (١) ٠

والخصائص العامة للشخصية يمكن أن توجد بين أفراد ينتمون الى نفس الجماعة الثقافية دون النظر الى الجنس فيمكننا أن نتحدث عن شخصية الفلاح التى لا يشاركه فيها طبقة التجار دون أى اعتبار للجنس ، فالفلاح فى روسنيا وفرنسا وأمريكا له صفات عامة تظهر فى شــخصيته مع اختلاف الأجناس فالدولة مثل حى لقوة العوامل الثقافية ٠ كذلك نجد أن المهاجرين الى أمريكا سرعان ما يصبحون أمريكيين ويتم ذلك بينهم فى خلال الجيل الثانى أو الثالث، ولا يســتطيعون أن يحتفظوا بعاداتهم الأصــلية ومثالياتهم الا من يعيشــون كجماعات تنتمى الى جنس معين ، ومنعزلة عن الآخرين ٠

أما مقدار تأثير العوامل الثقافية فى تشــكيل الشخصية فهو مازال قيد البحث ٠ فهل الاختلافات السيكلوجية بين الناس تســاوى التوزيع المختلف للجينات Genes فى خلايا الوالدين ، أم الى تجاربهم النوعية الانفعالية فى الأسرة أو الى عوامل ثقافية مختلفة ٠

من الواضح أن العوامل الثقافية وحدها لا يمكن أن توضــح الاختلاف الكبير فى الشخصيات التى تصدر من نفس الجماعة على أن تكون مسئولة فقط عن اتجاهات السلوك العامة بالنســبة لكل أعضــاء الجماعة ولكن الاختلافات الفردية الدقيقة لابد أن تكون معبرة عن التقاليد والتأثيرات الأسرية المبكرة ـ بالاضافة الى الوراثة وعواملها ٠

ان التحليل العلمى لهذه المشكلة يؤدى الى التفرقة بين مجموعات مختلفة من حيث خصائص الشخصية ٠ وعلينا أن نفرق بين الخصائص العامة بالنسبة لكل أفراد الجماعة الثقافية مثلا الفلاحين أو الجنود ثم بين الخصائص العامة لكل الأفراد المتفقين فى عوامل الوراثة مثلا كل الفنلنديين ســواء أكانوا

(١) Franx, Alexander, chap. VI Sociological Considerations, Fundamentals of Psycho-analysis. Norton Calco, New York.

فلاحين أو أساتذة جامعة ٠ ولكن الخصائص المميزة للشخصية تكون فردية وبارزة الى نسبة كبيرة فيتميز بها العضو الواحد من الجماعة عن غيره من الأعضاء وبعض هذه الصفات الخاصة بالشخصية تعتبر غير قابلة للتغيير والتحول ٠ والخصائص التى تنتقل عن طريق الوراثة هى التى تعتبر من النوع الأول أى الأكثر ثباتا ورسوخا وأقل تغيرا وكذلك من أكثر الأشـياء صـعوبة أن نقدر مقدار تأثير الأسرة أو الخصائص العامة للثقافة التى تعمل فى الأفراد ، وبما أن العـادة تحدد حتى أبسـط العمليات مثل طريقة الحضـانة فانه لا يمكن اعتبارها من العوامل الظاهرية أو الشـعبية مثل تأثير حالات العصاب النـاتجة عن الزواج فى الأسرة ٠

مثل هذه الاعتبارات توضح تعقد المشكلة وصعوبة اسـتبعاد التأثيرات الثقافية فى تشكيل الشخصية من التجارب الخاصة لظروف معينة فى الأسرة ٠

ان الشخصية فى النهاية تعتبر نتيجة للوراثة والصفات النوعية والبيئية الثقافية ٠ وبما أنه لا يوجد حتى الآن منهج علمى يحدد الدلالة النسبية لهذه العوامل المختلفة حتى ولا تجربة تنشئة توأمين متشابهين فى كل شىء الا فى عنصر الثقافة فهو مختلف ، ثم مقارنة النتائج حتى يمكن الحصول على النتيجة النهائية فرغم أن العامل الوراثى سيظل ثابتا ، والثقافى متغيرا فان بناء الأسرة التى تنشـأ فيها التوائم لا يمكن أن يكون متكررا بالضـبط فى حالتين حتى لو أجريت التجربة فى جو غير عادى ومصطنع فمن المستحيل أن ينتج نفس التأثير الانفعالى عند الطفلين ، مع الأشـخاص الذين يتعامل معهم ٠ وبعض الأكاديميين من علماء النفس والاجتماع يعتبرون مثل هـذه التجربة منتجة ، ولكن لا واحد من المحللين النفسيين يرى ذلك لأنه يعترف تماما بالأثر الذى يحصل عليه الطفل فى تعامله الأول مع البالغين المحيطين به ٠

لابد أن نسـتبدل بالمنهج التجريبى منهجا آخر أكثر مرونة وهنـا نجد المنهج الاحصائى يقدم لنا العون اذ أن تكرار وجـود شـخصيات عصابية أو اجرامية أو عادية فى جماعات ثقافية مختلفة يمكن أن يعبر لنا عن التأثير المتغير للثقافة على الشخصية ، واذا ظهرت أعراض العصاب القهرى بنسبة أكبر بين التجار والصـناع والمثقفين عنهـا ، بين المزارعين ٠٠ أو مثلا تكون أكثر فى انجلترا والمانيا أكثر منها فى ايطاليا وفرنسا أو فى القرن التاسع عشر عنها فى القرن الخامس عشر فى أوربا أو اذا كانت الهستيريا أكثر انتشارا بين الفلاحين الكاثوليك كما كانت أمرا عاديا خلال العصور الوسـطى أكثر منها فى القرن العشرين ، فلابد أن نستنتج تأثير الحضارات المختلفة على النمو العقلى ٠ مثل هذه الدراسات المقارنة تمدنا بمعلومات أقرب الى الصـحة والانضـباط كذلك تكون دراسة انتشار أنواع معينة من العصاب ونماذج للشخصية بين جماعات

ثقافية مختلفة كما يمكن مقارنة انتشار اتجاهات معينة وحالات من العصاب ، فى فترات تاريخية مختلفة ·

وأكثر المناهج انتاجا ، هو مقارنة التحليل النفسى لأفراد مختلفين ينتمون الى حضارات مختلفة ، وامتياز هذه الطريقة على غيرها هى أنهـا تعطينا تفصيلا دقيقا كافيا عن البناء الواقعى للشخصية بما أنها تنمو تحت تأثير الأسرة ثقافيا وروحيا وهو الاتجاه الذى نتبعه فى هذا البحث ·

هذه الأمثلة قد تكفى لتوضيح ان معالم الشخصية التى تتصف بهـا القومية انما هى تتشكل داخل الأسرة ، وأن اتجاهات الأسرة وميولها تحددها الصورة الاجتماعية العامة التى تتمثل فى ثقافة معينة ·

مؤثرات ثقافية عامة :

هذه الاختلافات الثقافية يجب ألا تخفى تأثير النظم الاجتماعية التى تعمل فى كل شكل من أشكال الثقافة ، مثل بعض قوانين الزواج ·

ومع أن بعض الأنثروبولوجيين منذ وقت بعيد ، قد وصفوا هذه (القوانين) الا أن معناها لم يتضح الا عند فرويد ، ففى مؤلفه الرائد التوتم والتابو قد أوضح فاعلية قوانين الزواج التى تحرم الزنا ، وأظهر العلاقـة بينهـا وبين الطقوس التوتمية ، التى تظهر فى كل الثقافات البدائية مع اختلاف واضح فى كل منها فقد أعلن أن التوتم ــ وغالبا ما يكون حيوانا مقدسا ولكن أحيانا كائنا غير حى ــ هو رمز للأب وأن الطقوس انما وضعت لتحمى التوتم من عدوان الأعضاء الذكور بين الجماعـة · والمحرمات الأساسية فى الجماعات البدائية انما هى :

١ ــ عدم الاتصال بامرأة اتصالا جنسيا تنتمى الى نفس توتم الجماعة ·

٢ ــ عدم قتل الحيوان التوتم ·

وهذان العنصران معا يتفقان ويعتبران محتوى عقدة أوديب ومن ذلك استنتج فرويد (١) أن جوهر كل تنظيم اجتماعى يمثل دفاعا عن الميول الأوديبية فوحدة الأسرة لا يمكن صيانتها الا اذا كانت الميول الجنسية عند الأبناء تتحول عن الاناث فى الأسـرة ، فعن هـذا الطريق وحـده يقف التنافس بين الأب والأبناء داخل الأسرة الواحدة ــ هذا المستوى يبقى على تماسك الأسرة وفى نفس الوقت يسمح بالزواج من الخارج مما يساعد على ايجاد ترابط بين أسر مختلفة · وعلى ذلك تكون الأسرة هى الخلية الأولى فى المجتمع · فالأسرة تتحد

(١) Freud : Civilization and its discontents, London, Hograth Revers, 1930.

فيما بينها عن طريق الزواج من الخارج فتكون العشائر التى تنمو فتكون منها القبائل وأخيرا القوميات أو الدول •

وفرويد يوضح هذه الفكرة بنظريته عن الجماعة الأولى (١) حين وجد أبا عنيفا غيورا جعل لنفسه كل نساء الجماعة ، وطرد الأبناء الى الخارج وفى يوم تجمع الاخوة المطرودون ووحدوا قوتهم فذبحوا الأب وأكلوه وبذلك وضعوا نهاية لعشيرة الأب •

وكان الاحتفال التوتمى عبـــارة عن ذكرى النصر الاجرامى على الأب ، وبدأت الحضارة كرد فعل لهذه الجريمة الأولى •

ولكن الأبناء الذين كرهوا الأب من أجل وقوفه بعنف ضـد مطالبـهم الجنسية وحاجتهم الى القوة ، أحبوه أيضـا وأعجبـوا به فأدركتهم بعـد ذلك مشاعر الذنب والحاجة الى قائد قوى ، حتى أن الأب الميت أصبح له من القوة ما يفوق الأحياء •

ومن هذا ظهر التحريمان الأساسيان نتيجة لهذا الصراع • ورفض الأبناء فعلتهم بأن أعلنوا أن قتل التوتم (وهو بديل الأب) غير مباح ثم حرموا على أنفسهم ما كانوا يسعون اليه سابقا من الاتصال بنساء القبيلة •

وتفسير فرويد لهذه الظاهرة ، وهى أن الأب فى التوتم يمثله رمز يحميه القانون بينما التابو الخاص بالزنا مأخوذ به علنا فان ذلك معناه أن رغبات قتل الأب مكبوته بعمق شديد ، بل يجب أن تختفى من الوعى ولا أثر صريح لها يمكن أن يمارس ، والأب فى ذاته لا يذكر فى الطقوس التوتمية ولكن الرمز الذى يمثله وهو التوتم •

هذه النظرية التى وضعها فرويد فى أصل الحضـارة ، وخاصة مجتمع الأخوة الأول الافتراضى قد تعرضت لنقاش كثير ولكن صحة وجهة نظر فرويد فى الاساس لم تمكن خصومه من النجاح فى معارضـته اطلاقا ، وأساسها أن النظام الاجتماعى لا يكون ممكنا الا اذا كانت الخلية الأساسية فيه وهى الأسرة تحميها قوانين تنظيم العلاقة بين أفراده الواحد بالآخر •

وأكثر القوى الممزقة لشكل الأسرة هو الصراع الجنسى بين الذكور فيها ، اذ أن احتياجات الطفل ترعاها الأم فى ظل الأسرة ، والأسرة لا بقاء لها الا اذا كانت فى حماية من التنافس والعدوان بين أفرادها الواحد والآخر • وعقدة أوديب تعبر عن القوانين الأساسية الاجتماعية التى بها يتم تكامل الأسرة ، وتعتبر فى أساسها جوهر الحياة •

---

(١) Totem and Taboo, London, Rewthlsdge and sons 1919.

ورغم أن ما وجد من الدراسات التحليلية المقارنة للأشخاص الذين ينتمون الى ثقافات مختلفة مازالت غير ذات قيمة الا أن هناك ملاحظة مفيدة قد تمت بواسطة جماعة من الأنثروبولوجيين الذين دربوا على التحليل النفسي فيما يختص بالصلات الوثيقة بين ثقافة الأسرة وأثرها فى تشكيل شخصية الفرد مثل روث بنديكت وكاردينار ومارجريت ميد ٠

ان كاردينار يتكلم عن الخصائص الأساسية فى الشخصية بالنسبة لكل ثقافة ، ويحاول الاشارة الى كل العوامل الثقافية التى تحددها ، وهى تتركب من نظم معينة ٠ مستخرجة من البناء الاجتماعى ككل ، ولو أنه أغفل الجانب السيكلوجى أمام الدراسة الاجتماعية ٠

وتعتبر روث بندكت رائدة ميدان جديد بالنسبة لدراسة الشخصية ، فقد حاولت الربط بين الشخصية ، والثقافة ، ثم جاءت من بعدها محاولات كثيرة بعضها ، يستند على نظرية فرويد فى النمو النفسجنسى ، والبعض الآخر على الاختلاف ما بين الثقافات ، كذلك تغير التصور الفرويدى للعقدة الأوديبية فلم تعد شيئا موروثا ينتمى الى اللاشعور الجمعى ، وانما هى تتخذ أشكالا مختلفة تبعا لاختلاف الثقافات ، على نحو ما وضحته مارجيت ميد ـ وكذلك التثبيت عند كاردنر فهو ينتج عن أساليب التنشئة النوعية للمجتمع ، فكل مجتمع له نمط يكاد أن يكون ثابتا فى تنشئة أطفاله مما يتمخض عن انتشار صفات عامة بين أبناء المجتمع الواحد ، وهو ما تبنى عليه الشخصية القاعدية أو الشخصية القومية فثبات الصفات العامة فى أفراد مجتمع ما لا يرجع الى التقليد فحسب أو الى تمسك البناء بطباع الآباء كما يقول جوته فى فاوست :

What thou hast Inherited Fr:m thy Father Acquire it to make itthine

(استفد بما ورثت عن أبيك حتى تجعله ملكا لك)

وانما يرجع الى ثبات أساليب التنشئة ٠ وهاهى مجتمعات تغيرت فيها أساليب التنشئة بناء على تغيير بعض عناصر الثقافة وعمد ساستها الى ذلك التغيير لاحداث تغيير شامل فى الأشخاص ، وبالتالى فى المجتمع فتغيرت الحياة الاجتماعية، وتغير النظام الاجتماعى تغييرا شاملا فى كل المجالات ، ومع ان هذا العمل يعتبر طفرة ، بالنسبة للتغير الاجتماعى كما هو معروف ، الا أنه أدى الى نتائج واضحة من حيث الصورة التى اتخذها المجتمع والخلق القومى الذى أصبح يسود المجتمع الجديد ، فكان لتغيير أساليب التنشئة فاعليته الواضحة فى تغير المجتمع ٠ كما حدث فى تركيا على يد كمال اتاتورك ٠ وأدى ذلك الى أحداث تغيير واضح فى الشخصية القومية بالمجتمع التركى ٠

ينظر كاردنر الى الشخصية القاعدية على اعتبارها معبرا يصل المجتمع بالفرد وهى محور الثقافة وعن طريقها ينتقل الخلق القومى من جيل الى جيل ٠

وقد اهتم كاردنر بوسائل التنشئة فى المجتمع باعتبار أنها عناصر الثقافة التى تشكل الشخصية فالبيئة الاجتماعية ، بما تقدم من أساليب مختلفة فى التربية ، وفى الحياة ، ويسميها كاردنر فنيات التنشئة . وهى ذات أثر خطير فى تشكيل الشخصية ، ولو ان كاردنر لم يدرك أهمية العامل النفسى فى التنشئة ، واتجه الى الناحية الاجتماعية الاقتصادية .

ولكن علم النفس الاجتماعى لم يترك موضوع الشخصية دون جهد صادق من جانبه فقد قدم ايريك فروم فى منهجه النفسى الاجتماعى « الشخصية الاجتماعية. » (١) ممثلة لنمط البيئة العامة للشخصية وهو النمط الذى يتحقق فى جميع الأفراد المنتسبين الى ثقافة معينة بحيث يصبحون متميزين عن أفراد الثقافات الاخرى ومع هذا فالبيئة العامة للشخصية لا تتعارض مع وجود الشخصية الفردية بخصائصها ومميزاتها التى تجعل كل فرد تتضح فيه ملامح خاصة حتى ضمن أفراد الثقافة الواحدة . كذلك يرى ايريك فروم ان الشخصية الاجتماعية تنشأ من ناحية ، عن مختلف التأثيرات الاجتماعية التى تذخر بها البيئة ومن ناحية أخرى من الحاجات والدوافع الرئيسية عند الأفراد .

وعلى ذلك فسمات الشخصية لا تنشأ نتيجة لفنيات التنشئة كما توهم كاردنر ، وانما هى نتاج الصلات التى تنشأ بين الفرد والبيئة من الشخصية التى تعمل فى ظل نماذج وأنماط اجتماعية تسود المجتمع ، وهكذا تنتهى الى نمط العلاقة المثالية كتصور أساسى .

كذلك اتجه مورى وكلاكهون (٢) الى تحديد الشخصية بعناصر أوسع هى التكوين البدنى وعضوية الجماعة ، والدور ، والموقف ، ويشير التكوين البدنى الى الفطرة بينما تشير عضوية الجماعة الى العوامل الاجتماعية والثقافية ويعبر الدور عن وضع الشخص فى جماعته ، وأما الموقف فيعنى الخبرات الخاصة تلك التى يتخذ منها الشخص أسلوبا معينا فى سلوكه ، وليست هذه المحددات الأربع مستقلة بعضها عن بعض ، وانما هى زوايا أربع لتفسير الشخصية من خلال البيئة .

أى أن الشخصية الاجتماعية مفهوم بنيوى للوقائع فى صورة نمط كيفى تتشكل وفقا له الكيانات الفردية فى تجسيداتها المتباينة المتكررة وذلك على نحو يسمح لهذه الكيانات بأن تتكيف مع المجتمع الذى نعيش فيه .

وجانب الفكر من بين الجوانب الهامة فى الشخصية ، وشتراوس يحاول

---

(١) سيرد فيما بعد .

Kardinar, A. Prelle, E. The Studied man, Mentor books, 1963.

(٢) Murry, H., A., and Klackhohon, Personality in mature, Society culture, 1948,

الوصول الى معالم الشخصية عن طريق دراسة المنطق غير الواعي للعقل الانساني وذلك في كتـــابه الفـكر الوحشي أو الهمجي Pansée Souvage

وهو لا يعني بالفكر الهمجي عقلية الانسان البدائي كما بحثها ليفي بريل، وانما يعني المنطق غير الواعي للعقل الانساني بوجه عام ، أي قبل أن يتغير ويصبح فكرا اجتماعيا أو مصقولا أو مستأنسا Pensée domestique

ويطلق شتراوس هذه التسمية على الفكر السائد في الحضارات الراقية ان منطق الفكر الهمجي يشبه الطبيعه غير الواعية للغة ـ واذا كان اللغوى يبحث النظام اللغوى رغم كونه في اللاوعي ، في البيئة اللغوية ، فان الباحث الاثنولوجي يبحث ذلك المنطق الكامن في اللاوعي عند أصحاب الفكر الهمجي ٠

ان القول بان الفكر الهمجي (أي العقلية البدائية) غير منطقي يعتبر عند شتراوس غير صحيح ، فهو يرى أن الفكر الهمجي وكل ضروب الفكر عند الانسان قادرة على التجريد ، وأنه ينزع نحو المعرفة من أجل المعرفة كمـــا أنه يسعى الى تصنيف الأشياء ، ليوجد الترابط بين جوانب الحقيقة في العقل الانســـاني ٠٠ وثمة فارق كبير بين الفكر الهمجي والفكر المصقول عند ستراوس ذلك أن الفكر الهمجي قد خلق معنى كليا متكاملا للكون يتفق واتجاهاته الترتمية ، وتمســكه بالعينيات ، والعناصر اللا مادية أنه فكر يرى الأشياء متزامنة في وقت واحد ، ويخالف في هذا الجانب تمزيق الأشياء بنظرية تاريخية وبذلك فهو فكر متكامل٠

ويتسم الفــكر الهمجي عند ستروس بنزوع نحو حتمية كونيـــة ، وهذا ما يوضح الفرق بين السحر والعلم ، فالسحر يفترض مقدما وجود حتمية كونيه ووجود تكامل كوني ، بينما يفرق العلم بين الظواهر في مستويات مختلفة ويدرك الارتباطات العلمية بين الموضوع والآخر ٠

ان شتراوس يرى الدقة في الفكر السحري ، وفي طقوســه العمليـــة ، تعبيرا عن الادراك غير الواعي لحقيقته الحتمية التي يدركها الهمجي ، عن طريق الحدس وينفذ طقوسها عن ايمان راسخ وعقيدة ثابتة ٠

● الفصـل الثانى

التنشئة الاجتماعية وأثرها فى الشخصية

(ا) التنشئة الاجتماعية والتطبيع :

عمليــة التنشئة الاجتماعيــة هى أداة انتقال الكائن الحى من المســتوى البيولوجى عندما يستجيب لحاجاته الأولية الى المستوى الاجتماعى ليكون عضوا بين أفراد المجتمع ، يشبع حاجاته البيولوجيــة وفقا لنظم وأساليب يرضى عنها المجتمع ·

وتقوم بالتنشئة الاجتماعية منظمات اجتماعية تعتمد أساســا على قواعد تحقق دوافع الأفراد ، وحاجاتهم الضرورية ، وأهدافهــم المشتركة بمــا يضــمن استمرار قيام مجتمع ثابت مستقر ، مع ما ينطوى عليه من تفاعلات بين الأفراد ، تؤدى الى وجود بناء تركيبى متماسك ، ويعبر عن مشاعر الأفراد ، وتستجيب له تلك المشاعر وبعبارة أخرى يمكن لنا ان نقول ان المنظمة الاجتماعية هى مجموعة من المواصفات والمصطلحات والارتبــاطات التى تتصــل بحاجة من الحاجــات الاجتماعية فالأسرة منظمة اجتماعية ترتبط بحاجات اجتماعية (الزواج والطلاق) والنظم الاقتصادية هى أيضــا منظمات اجتماعية ترتبط بحاجــات ، اجتماعيــة (البيع والشراء) ، والنظم السياسية منظمات اجتماعية ترتبط بحاجات أساسية (السيادة ـ العلاقة بين الحاكم والمحكوم) وغير ذلك ·

والمنظمات الاجتماعية فوق كونهــا نظما وعلاقات وارتباطات اجتمــاعية فهى أولا وقبل كل شىء تجمع بشرى ، أى ترتبط بالانسان ، اذن فهى توفر مواقف سيكلوجية ·

والموقف السيكلوجى ذو أثر كبير فى العملية السلوكية ، أى فيما يتخذه الفرد من سلوك وما يصدره من أحكام ·

(وسنعود الى دراسة السلوك بعد قليل) ·

لو أردنا أن ندرس الشخصية المصرية من خــلال دراســة بعض مظــاهر الفولكلور المصرى فلا بد لنا من أن ندرس سلوك تلك الشخصية ، ولكن دراسة

السلوك يجب أن تكون مسبوقة بدراسة للنمو الاجتماعي ، والتنشئة الاجتماعية والتطبيع ، ثم بعد ذلك ندرس السـلوك ونعرض لبعض نظـرياته حتى نرى أن العوامل الثقافيـة في المجتمع تعتبر ذات أثر كبير في سـلوك الأفـراد وبلورة شخصياتهم •

نبدأ بدور التنشئة والنمو الاجتماعي والتطبيع •

عملية التنشئة والنمو الاجتماعي :

تبدأ من أول مراحل الطفولة عن طريق الأفراد المحيطين بالطفل أولهم الأم ، فعن طريق اشباعها لحاجاته البيولوجية وامداده بالمثيرات اللازمة لبقائه تمده بالتعليم والتدريب على أنمـاط السلوك المختلفـة التى تسـاعده على التكيف الصـحيح ، مع بيئـة الأسرة أولا ، لذلك فهى توجهـه الى ما تعتنق من مبـادىء وأساليب سلوكية قد تكون في جملتها متفقة مع قيم المجتمع وأساليبه الا أنها قد تختلف اختلافات (جزئية لتميز الأسرة بل الافراد عن غيرهم من الأسر والأفراد وفقا لشخصية كل منهم واتجاهاته ووفقا للاطار الثقافى الذى يحيطها • لذلك كانت عملية التطبيع متوقفة فى هذه المرحلة على مستوى الأسرة وثقافتها وأنماطها السلوكية وتصبح من ناحية أخرى مختلفة من أسرة الى أخرى بما يجعلها أكثر تشابها فى المستويات المنخفضة وأكثر اختلافا وتركيبا فى المستويات العليا ، اذن فكيف يمكن للفرد أن يسلك سلوكا بلا ماض ، ان فى ذلك حذفا لحياة الفرد السابقة وتركيزا على اللحظة الراهنة • ولا يمكن أن يتوقف تطبيع الأسرة للنشىء على قيم تتعلق بالأسرة وحدها بل لابد أن تتعداها لتكون هي القيم التى تسود المجتمع والتى تؤهل الطفل للحياة الاجتماعية الصحيحة وفقا لوجهة نظر الاسرة على الاقل • وكلما كانت معايير الأسرة مطابقة لمعايير المجتمع كان الطفل على قدر من القبول الاجتماعى ، فهناك علاقة طردية بين تطابق قيم الاسرة مع المجتمع ، ودرجة القبول الاجتماعى ، وبالتالي كلما قل التطابق بين معايير الأسرة والمجتمع ، بأن يفشل الطفل فى امتصاص معايير الجماعة كلما تعرض للخطر والعقاب الذى تفرضه ثقافة المجتمع لمن يحيد عنه أى ان سلوك الطفل ليس مستمدا من تاريخه القريب من وجوده بالاسرة ، بل من تاريخ المجتمع ومن خلال العصور • كذلك للمؤسسات الاجتماعية الاخـرى دور هام فى تكييف سـلوك الفـرد وتعديله وتطبيعه بما يتفق والنظام العام الذى يسـود الجماعة ، وأهم تلك المؤسسات المدرسة والنادى والمصنع والفريق أو الجماعة التى ينتمى اليها الطفل أو الشاب، فكثيرا ما يعدل الطفل من القيم والمعايير التى اكتسبها فى المنزل تبعا لما تتطلبه جماعة الأقران أو العصبة أو النادى الذى ينضـم اليـه • كذلك كثيرا ما يكون لهذه الجماعات تأثير مضاد على أعضائها ، عندما يتشربون خلقا أو قيما تتعارض مع التركيب الصحيح للمجتمع • ويحتاج التطبيع الى منـاخ اجتماعى منـاسـب يسوده التعاون ، والاسـتقرار الاجتماعى ، وانسـجام القيم والقوانين والنظـم

فيما بينها . أما اذا تعارضت تلك القيم ، فيما بينها كتفوق المصالح الشخصية على المصلحة العامة أو ظهور الاتجاه الذاتي وما يتبعه من افساد للنظرة الموضوعية، أو اذا كان ما يتلقاه النشيء من قيم ومبادىء يختلف اختلافا كبيرا ، عما يسود المجتمع من اتجاهات ، فان ذلك يؤدى الى صراع فى المجتمع يظهر فيما يحيق به من فوضى واضطراب مما يؤثر على شخصية الأفراد ويعوق عملية التطبيع الاجتماعى .

أى أن ثقافة المجتمع ذات أثر كبير فى تطبيع الأفراد ، لأنها انما تمثل نمط الحياة بوجه عام فيما بينها وبين أجزائها من علاقات سواء منها العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو القانونية .

ويقرر العلماء أن الثقافة انما توفر طاقات نفسية متنوعة تتسق مع ما تنشده من سلوك وأهداف فردية ، وتكون للتنشئة (كاتجاه ثقافى) أهمية كبرى فى عملية البناء والتشكيل التى تبدو واضحة الأثر فى الجانب النفسى منها وهو ما يسمى بالثقافة الضمنية .

أى أنه من وجهة نظر علم النفس يصبح تشكيل الشخصية هو عملية نقل المؤثرات والقوى الحضارية الخارجية الموضوعية التى تسود المجتمع لتصبح جزءا من ذات الفرد فتتحول الى قوى داخلية شخصية وانما الأمر يتوقف على عملية الامتصاص التى يقوم بها الفرد لتلك المؤثرات ومقدار الامتصاص والعوامل المساعدة أو المعوقة لعملية الامتصاص ثم ما ينجم عن كل ذلك من تفاعل بين مختلف تلك القوى والعوامل فيما بينها الواحدة والأخرى ، ثم فيما بين كل منها بالذات ، ثم فيما بينها وبين الذات ، على أننا نستطيع أن نتحرى مزيدا من الدقة ، فنقول ان هذه العوامل ذات تفاعلات مركبة بمعنى أن كل عامل لا يؤثر فى عامل واحد ، فحسب بل ان انضمام عاملين بعضهما الى بعض ، لابد أن يشكل تفاعلا يختلف عن تأثير كل منهما على حدة ، فاذا أضفنا عاملا ثالثا جاءت النتيجة مخالفة لتأثير عاملين فقط وهكذا ، أى أنه عن طريق التأثير المتبادل بين تلك العوامل تتضح معالم الشخصية وأنماطها ، وما بينها من خلافات وأوجه التشابه، فالمثلث البيوثقافى الذى تدور حوله الدراسات الأنثروبولوجية الذى يتألف من البيئة وعلاقتها بالانسان ، ثم الانسان وعلاقته بالانسان ، وما تحويه من نظم وقوانين وأخيرا علاقة الانسان بعالم الغيبيات أو ما يفوق الطبيعة .

هذا المثلث البيوثقافى هو ما يحدد لنا التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعى والتطبيع الاجتماعى ، يرتبط بارادة المجتمع وبظروفه الخاصة فيقدم للأفراد فى كل فترة زمانية مكونات ثقافية معينة تؤدى الى ظهور أنماط خلقية وسلوكية خاصة ، بما يستثير فيهم من نزعات واتجاهات وذلك باستخدام أساليب شبيهة بالتنحية والتثبيت فى عالم الوراثة وسبيله الى ذلك هو ما يصنع

من نظم وقوانين ، وما يظهر به من مواقف وظروف مادية واجتماعيـة يتأثر بهـا الأفراد • كذلك ما يقيم من مؤسسات للعلوم والمعارف والأعلام وما ينتشر فيه من ثقـافة متوارثة حفظتها هم الكبـار الذين يعيشون فيـه ويتعاملون بنـاء على ما امتصوه من أفكار ، وقيم ، استمدوها من الفكر الشعبى ممثلا فى الحكم والأمثال أو القصص والروايات أو حتى النكت والأغانى والمواويل •

اذن فالتطبيع الاجتماعى مبنى أساسا على الوسط الاجتماعى الذى يحيط بالطفل منذ ولادته وعلى مابين الذات والغير من علاقات وما تشيعه تلك العلاقات من نظم وقوانين فى العـالم الذى تعيش فيـه ـ فى الطبيعة ، وأخيرا العـلاقات الميتافيزيقية بين الانسان ، وما يخفى عليه أو يترقبه أو بعبارة أخرى علاقة الانسان بعالم الغيب وما لا يخضع للتجربة الحسية •

ونورد أمثلة من مجتمعنا تبين أثر التغيير الثقافى على الأفراد فمنذ وقت غير بعيد كانت القيم الرأسمالية هى المسيطرة فى عمليات التعليم والتنشئة والتطبيع الاجتماعى ، ولكن بقيام الثورة وما أوجدته من نظم وقوانين اشتراكيـة أصبح لزاما على المدرسة وأجهزة التعليم والاعلام أن تتبنى قيما جديدة تعتمد على فكرة العدالة الاجتماعية ، وتوزيع الثروات ، بما يحقق النظام الاشتراكى ، فاتجهت عمليات التنشئة والتطبيع الاجتماعى الرسمى نحو هذا الاتجاه •

وهنا يجدر بنا ان نشير الى نوعين من الثقافة وهما الثقافة الرسـمية التى تفرضها نظم المجتمع ، واتجاهاته المخططة ، ثم الثقافة غير الرسمية ، وهى تلك التى تشربها الناس فى عهود سابقة ، فأثرت فيهم بقيمها ومبادئها ووجهتهم وجهات قد تتعارض مع الثقافة الرسمية فى بعض المواقف •

وهذا النوع الثانى من الثقافة ، يشـمل ضمن مكوناته الثقافة الشعبية بما تحويه من فنون وآداب متوارثة •

أى أن مجتمعنا يتبع قيما متعارضة بين ما تمليه الأنظمة الجديدة وما انطبعت عليه الجماعة نتيجة لميراثها الطويل •

وهذا مثل آخر لأثر الثقافة على الفرد يتضـح فى ظاهـرة انتشـار الأمن والطمأنينة فى المملكة العربية السعودية ، وترك أصحاب المتاجر لمحالهم وبضائعهم دون اغلاق ليذهبوا فى أوقات الصلوات الى المساجد دون ما خوف أو قلق فالسرقة أصبحت ظاهرة غير موجودة فى المجتمع على وجه التقريب ، وذلك نظرا للتمسك بتعاليم الدين الاسلامى ، واقامة الحد على السارق بقطع يده ، وهنا تتضح عملية التطبيع الاجتماعى أشد تأثيرا من الاتجـاه الدينى الخالص الا أنهـا ترسبت ورسخت فى نفس الجماعة حتى أصبحت بحـكم العادة خلقـا اجتماعيا واضح المعالم ، أى أن ثقافة الجماعة أدت الى اتجاهات سلوكيـة معينة شكلت الأفـراد وطبعتهم بطابع خاص •

ولكن ما هو السلوك ؟ اننا لا نستطيع أن ندرس الشخصية دون أن نقدم دراسة موضحة ٠٠ ويرى بعض علماء النفس أن تفسير السلوك باعتباره متغيرا من فرد الى آخر ــ حتى ولو كان الموقف الموضوعى ثابتا ــ يكون ممكنا بالرجوع الى الفرد ذاته ، وما يتخذه ازاء موقف ما أى بالرجوع الى الموقف السيكلوجى وليس الى الموقف الموضوعى ٠

ويرى Levin نك (١) ان الموقف السيكلوجى هو الأساس الأول فى تفسير السلوك بحيث أنه يتعذر الأخذ بالموقف الموضوعى أو الطبيعى أو الموقف الاجتماعى ، ذلك أن الابحاث والمقاييس الموضوعية لا يمكن أن تصل الى تفسير السلوك ، دون الأخذ بالموقف السيكلوجى كمؤثر قوى فى العملية السلوكية ــ يقول اذا أردنا أن ندرس المشكلات المتعلقة بالجانب الديناميكى ، فى السلوك فيجب أن نبدأ بدراسة البيئة السيكلوجية الحقيقية للطفل ولا يمكن أن تعتمد مثل هذه الدراسة على القوى والعلاقات الاجتماعية الموضوعية كما يصفها عالم الاجتماع ، أو المشرع بل يجب أن تتخذ أساسا لنا فى الوصف ، الحقائق الاجتماعية كما تؤثر فى الفرد نفسه ، موضوع الدراسة ــ ، وهو يرى أن من الخصائص المثيرة لنظرية المجال فى علم النفس هى أنها تهتم بوصف المجال الذى يؤثر فى الفرد لا وصفا موضوعيا عن طريق ذكر خصائصه ، وأبعاده الطبيعية بل وصفه كما يتأثر فيه الفرد نفسه أو على النحو الذى يدركه ذلك الفرد وفى الوقت الذى يدركه فيه ٠

ومن ناحية أخرى نجد كوفكا وغيره من الجشتالتيين يفسرون السلوك على افتراض عوامل أو متغيرات ذات أثر فى عملية الادراك ، وذلك ما يعرفونه بالبيئة السلوكية ــ وبعضهم يضيف الى المعنى السابق مفهوما فسيولوجيا المجال السيكلوجى وآخرون منهم يتجهون نحو المجال الفينومينولوجى أو مجالات المخ ٠ ويتفق جميعهم فى أنهم يصفون المجال المحدد للسلوك وصفا يعتمد على ما يدور بداخل الذات أو بمعنى آخر يعتمد على التأمل الباطنى ٠ أى أن عملية الادراك هى ما يسبق النشاط السلوكى ، وما يحدده أيضا ، وما يعتبر أساسا له اذن دراسة السلوك تعتمد عند هؤلاء المفكرين على عملية الادراك كعنصر أساسى فى تحديد السلوك والاستجابة بوجه عام ٠

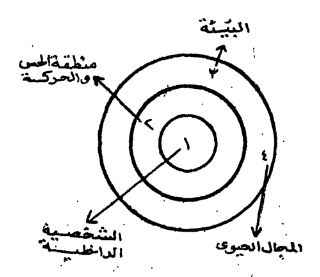
نظرية كيرت ليفين :

تعتمد نظرية ليفين كما قدمنا على افتراض وجود المجال الحيوى أو الحيز النفسى السيكلوجى ، وأن البيئة فى المجال الحيوى تشمل كل ما يخص الفرد ، من معارف وخبرات ، كما أنها تشمل ما مر به من تجارب سابقة متضمنة آلامه

---

(١) Levin K. Dynamic Theory of Personality, New York, Mc Grow-Hill, 1935.

وأمانيه وادراكه لمعنى الحرية ، كذلك تشمل اللغة والعلاقات الاجتماعية والذكريات المرتبطة بالمكان والزمان ، وأيضا القيم الاجتماعية التى نشأ عليها ، ثم ظروفه الاقتصادية ، وأخيرا المعوقات التى صادفته فى حياته فحالت دون تحقيق أهدافه . ومن كل ذلك يمكن القول عن ثقة ويقين تام أنه لا يمكن أن يشترك اثنان فى كل هذه الظروف مهما كانا متفقين فى النشأة والثقافة ، وكافة الظروف المحيطة بهما أى أن المجال الحيوى لشخصين حتى لو كانا توأمين لا يمكن أن يكون واحدا ، ذلك أنه بداخل كل منهما شخصية مختلفة عن الأخرى ، ومن هنا كان المجال الحيوى أو الموقف السيكلوجي لكل منهما مختلفا عن الآخر . ويمثل كيرت ليفين المجال الحيوى بدائرة فى مركزها دائرة صغرى هى الشخصية الداخلية للفرد تحيط بها دائرة أكبر منها قليلا هى منطقة الحس والحركة والمسافة الواقعة بين الدائرتين الكبرى والوسطى هى ما يعبر عن البيئة فى هذا المجال والفرد هو الشخصية + الحس والحركة يكونان مجموعة متحركة داخل المجال الحيوى .



اذن ما هو السلوك فى راى ليفين ؟

انه محصلة النشاط النفسى الذى يتم فى داخل هذا المجال ، ويمثل ليفين المجال بوجود فرد + هدف + جاذبية .. قد يتحدد الهدف بجاذبية ايجابية ، وقد تكون الجاذبية بالنسبة لهدف آخر سلبية ، كذلك يرتبط بوجود الهدف ، أما وجود عوائق تحول دون تحقيقه أو انتفاء وجود العوائق ، فتغلب الفرد على العوائق واستمرار الحركة (والحركة مظهر النشاط النفسى داخل المجال) وتوقف الفرد أو تغيير اتجاهه يتوقف على عوامل كثيرة أهمها :

١ ـ جاذبية الهدف •

٢ ـ الشعور بالحاجة لتحقيق الهدف •

٣ ـ التوتر الناتج عن هذا الشعور ـ قوته أو درجته •

٤ ـ درجة الاعاقة من حيث القوة والضعف •

٥ ـ وجود أهداف أخرى ذات جاذبية معادلة ـ أو أقل ـ أو أكثر •

ومن كل هذه العوامل يتحدد المحور الذى تتبعه الحركة كمظهر للنشاط النفسى ، داخل المجال ، فيتخذ السلوك المظهر ، الذى يتفق وهذا المحور ، ويكون تعبيرا عن شخصية الفرد •

ان نظرية المجال الحيوى قد فصلت تماما بين الادراك والسلوك الظاهرى، كذلك فصلت بين عمليات الادراك ، وتاريخ الكائن الحى وما مر به من خبرات وتجارب نتيجة لأحداث ومواقف مختلفة فى حياته بوجه عام •

ان المنهج الفينومينولوجى فى تفسير السلوك يقع كل اعتماده على الظاهرة السلوكية ، كوسيلة لتحقيق أهداف العلم عن طريق التفسير والتنبوء ، ويعتمد ليفين على الاستبطان كمنهج للبحث ـ يحدد به خصائص المجال وتركيبه سواء كان الاستبطان من جانب المجرب أو الافراد الذين تقع عليهم التجربة • فاذا كانت الاستجابة هى الألفاظ التى يصف بها الفرد ادراكه لموقف ما فان معنى ذلك أن ليفين يفسر السلوك بالاستجابة الادراكية وهى من ناحية أخرى سلوكية، أى أنه يفسر السلوك بالسلوك • مع أن الادراك هو أحد جوانب السلوك الكلى من جانب الكائن الحى ، تجاه موقف معين كنتيجة لتفاعله مع البيئة التى يعيش فيها الا أن ليفين قد فصل بين الفرد وتاريخه الماضى ـ بين سلوكه فى لحظة ما وما أفاده من معرفة وخبرات وتجارب من قبل ، حتى أنه سمى نظريته بنظرية لا تاريخية ولم يكن ليفين وحده فى هذا الاتجاه ، فقد كان لأصحاب نظرية الجشتالت نفس الاتجاه عندما قرروا أن القردة تتعلم عن طريق الاستبصار ، أى الادراك المفاجىء للعلاقات دون حاجة منها الى تجاربها السابقة ، وما قد تكون أفادته من قبل مع أن عملية الادراك تخضع لظروف موضوعية ، وأحداث ماضية فى تاريخ الكائن الحى •

ونهاية القول أن النظريات المجالية عندما تفسر السلوك بالادراك فانها لا تنجح فى تحقيق أهداف العلم ، ذلك أنها تستخدم منهجا ذاتيا يعتمد على التجربة الداخلية ، وهى مختلفة من فرد لآخر ولا يمكن التعبير عنها الا بايجاز أو بعبارات غامضة مثل المجال الحيوى والحيز والبصيرة وغير ذلك ـ ومن ناحية أخرى فقد تجاهلت هذه النظرية الخبرات السابقة وجعلت الادراك فى معزل عن ماضى الشخص ، وتجاربه واعتبرته عملية أولية وبذلك يصعب اكتشاف

العوامل الحقيقية المسئولة عن السلوك وبالتالى يتعذر ضبط السلوك أو التنبوء به ٠

ان دراستنا للتنشئة الاجتماعية والتطبيع والسلوك انما هى خطوات نحو الطريق الى دراسة الشخصية الاجتماعية ، وعلينا الآن أن نبدأ بدراسة الشخصية من وجهة نظر كنكريتية سيكلوجية ، ثم نتأدى الى دراسة الشخصية المصرية ، وبعد ذلك يمكن لنا أن نقرر ان كان من الممكن أن نوجد شخصية قومية ، وهل يمكن عن طريق دراستنا لبعض مظاهر الفولكلور المصرى أن نكتشف شخصية قومية ٠ نبدأ بالدراسة السيكلوجية للشخصية ٠

وكيف يمكن لنا أن نتجاهل التفاعلات المتبادلة بين الفرد والبيئة والمنظمات الاجتماعية وما تحويها من تأثيرات ثقافية تشكل اتجاهات الفرد وتدفعه الى اتخاذ سلوك معين فى وقت ما كما أنها فى الوقت ذاته تصدر عن الأفراد وتتشكل باتجاهاتهم وأفكارهم ٠

اذن فالسلوك يصدر عن الأفراد ، وهو من ناحية أخرى يوجه الأفراد ولا يمكن لنا أن نغفل هذه العلاقة المتبادلة فى حياة الانسان بين الانسان وما يحيط به من مؤثرات ٠

فحاجات الفرد السيكولوجية والاجتماعية ، تدفعه الى اتخاذ سلوك معين يعبر عنه فى كلمة أو اشارة أو ميل أو اتجاه ، وهكذا فتمسك الريفى بأرضه ورفضه لمغادرتها أو البعد عنها ، يجعله يستنكر بالتالى فكرة زواج ابنته خارج القرية لأن ذلك سيكلفه السفر اليها بين الحين والآخر ، مما يسبب له الخروج على قاعدته الأصيلة وهى الاستقرار فى القرية لذلك نراه يقول يا مجوز بنتك غريبة حضر لك حمارة وزكيبة ٠

كذلك قد يتضمن هذا المعنى تفضيل زواج البنت من قريب لها (ابن العم أو العمة أو الخال أو الخالة) حتى لا تكون غريبة ، أى أن الأفكار تحدد السلوك والسلوك يعبر عن القيم والمبادىء ، وهذه بالتالى تؤثر فى السلوك ، وتطبع الشخصية بصفات معينة ، وبعد فان دراستنا للتنشئة الاجتماعية ، والتطبيع والسلوك ، انما هى خطوات نحو الطريق الى دراسة الشخصية الاجتماعية وعلينا الآن ، أن نبدأ بدراسة الشخصية من وجهة نظر انثروبولوجية ، ثم نتأدى الى دراسة الشخصية المصرية ، وبعد ذلك يمكن لنا أن نقرر ان كان من الممكن ، أن توجد شخصية قومية وهل يمكن عن طريق دراستنا لبعض مظاهر الفولكلور المصرى أن نكتشف شخصية قومية ٠ ونبدأ بدراسة الشخصية من وجهة نظر علم النفس الاجتماعى ٠

الباب
الخامس

الدراسات السابقة
دراسة مقارنة للتنشئة الاجتماعيه والتطبيع خارج مصر وفى مصر

● الفصل الأول

دراسة بنديكت للشخصية اليابانية

فى دراسة علمية دقيقة تحاول روث بنديكت (١) أن تشرح البناء الحقيقى للشخصية اليابانية من تجارب الطفولة داخل الأسرة ، وقد تأثرت كثيرا بالشعور بالواجب والامتنان واحترام الأبناء للآباء كخاصية أساسية عند اليابانيين ، وبينما يعيش الأمريكيون من أجل أبنائهم ، فان الأطفال اليابانيين يعيشون من أجل آبائهم ، فحياتهم مخصصة لرد دين عليهم لآبائهم وأسلافهم ، وواجبات الأبناء هى أولا الطاعة التامة ، ثم العمل الدائم على عدم تدنيس اسم الأسرة ، وذلك بجانب القبول المطلق للرياسات المختلفة داخل الأسرة ، وفى المجتمع بوجه عام .

كذلك هناك خاصية أساسية فى الشخصية اليابانية وهى الافتقار المطلق الى ذاتية الفعل ، والشعور ، فكل حياة اليابانى مخططة بأحكام من أهله ، وسلوكه ، فى كل مناسبة مفروض عليه ، واذا لا حظنا من خارج نطاق الاسرة فاننا نرى أن حياة اليابانى تبدو كتتابع لانجازات طقسية ينفذونها على نحو آلى بدقة تامة ، وفقا لأساليب سلوكية صحيحة ، كما لو كان يمارس مهارات نوعية مثل القفز ، أو المصارعة أو أعمال الحديقة حتى يصبح هذا العمل كاملا ويؤدى آليـــا .

وهناك اتجاه ثالث يصعب تفسيره ، وهو أنه بالرغم من النظام الجامد واحترام الأبناء للآباء وطاعتهم ، وقبول نظام الطبقات ، الذى يحدد فيه مكان كل فرد ، تحديدا دقيقا ، فهناك تناقض ظاهرى ، فى الشخصية اليابانية نحو التلقائية يضفى عليها صـــفات الغموض والتناقض ، كما لا يمكن التنبؤ باتجاهها ، بينما النظام الذاتى ، والخضوع للترتيب الطبقى ، والاعتماد المطلق على الرأى العام ، هى الخصائص البارزة ، وقد يظهر أحيانا الغضب القاهر والعنف ، كذلك ، لهم ميل خاص فى شئون المطبخ ، وفى المتع الجنسية بالاضافة الى درجة عالية من الاهتمام بالنشاط الفنى .

---

(١) Ruth Benedict, The chrysanthemum and the sword., patterns of japaneese culture, Boston, M. : film Conq. 1946.

وتوضح روث بنديكت هذه التناقضات بأسس تربية الطفل عند اليابانيين فالأسرة منظمة تنظيما طبقيا وتحوى في العادة ثلاثة أجيال يعيشون معا فى منزل واحد ، وفى المرتبة الأولى رجال الجيل ، وفى المرتبة الثانية يكون الأب ، والطفل يرى منذ طفولته المبكرة الطاعة المطلقة من أبيه لجـده ، ويتعلم كيف يشعر بنفس المشاعر نحو أبيه ، وسلطة الاب لا يمكن منافستها حتى انها لا تحتاج الى أى صورة من صور الاجبار • فالطفل مطبوع على الطاعة التامة ، فأى تعبير من الوجه (كغمزة العين مثلا) تكفى لمنع أى عمل فى سلوك الطفل ــ هذا النظام القاسى لا يغرس فى الطفل منذ ولادته فحتى سن الخامسة أو السادسة تدلل الطفل أمه الى درجة كبيرة ، ويعبر عن ذلك تعويد الطفل على الطعام ميكرا ، وهى تناقض طريقة الأمريكيين فى اطعام الطفل حسب مواعيد محددة ، فثدى الأم يلبى طلب الطفل اليابانى فى أية لحظة ، وهو غالبا ما يستمر فى فترة الحضانة حتى بعد مولد الطفل الثانى ، حتى يصل الى الثانية ، أو الثالثة من عمره ، والأم تحمل للطفل نفس الشعور ، فالحضانة بالنسبة للأم اليابانية ليست عملية اجبار ولكنها تؤدى على نحو من السعادة ، والرعاية الطبيعية ، وتمرين الأطفال على تنظيم عملية الاخراج ، يبدأ مبكرا ، ولكن دون عنف فى التعليم ، كما لا يهدد الطفل عند اظهار ميوله الجنسية المبكرة ، كذلك الألعاب الجنسية عند الأطفال لا يؤبه بها ، وكذلك الحال فيما يختص بالميول الطفلية الجنسية الشـــاذة •

هاتان الفترتان المتتاليتان فى حياة الطفل اليابانى توضحان باقتناع تام طبيعة الشخصية اليابانية المتناقضة ــ فترة مبكرة يحصل فيها الطفل على حرية تامة تقريبا لا تظهر فيها معارضة لأى اشباع حسى ، تتلوها حياة صارمة تنظمها قوانين دقيقة ، والنظام الذى يتلو الحرية التامة ، لابد أن يكون قويا جدا حتى يبدو ذا فاعلية •

واليابانى يكتسب هذا التنظيم الذاتى المتطرف ولكن يحتفظ باتزانه العقلى بحصوله على فرص للتنفيث فى بعض فترات حياته •

ولكن كيف ولماذا تمت هذه الاتجاهات الأسرية ان معنـاها الاجتمـــاعى وأصلها توضحه بنديكت بشىء من الغموض فلا شك أن هذا النوع من تنظيم الأسرة ناتج عن انعكاس لنظام طبقى اقطاعى وجد فى اليابان على نحو ثابت قرونا طويلة حتى ثورة ١٨٦٨ وحتى بعد الثورة ، فان النظام الاقطاعى لم يقض عليه فيما يقول المؤرخـون ، ولكنه عدل تعديلات طفيفة فى اليابان الحديثة الصناعية •

والصناعة هناك كما هو فى ألمانيا لم يتبعها تحول ديمقراطى فتاريخ اليابان يمكن النظر اليه على أنه اتحاد تدريجى لوحدات اقطاعية صغيرة تنضم فى الأكبر ، وأخيرا فكل العناصر شديدة الولاء لسيدها تنضم فيما بينها الى

وحدة مركزية تدين بالولاء للامبراطور • وكل التقاليد الموضــوعة للأسرة اليابانية تعكس بوضوح الولاء من جانب الفرد لسيده الاقطاعى ، ومن الطبيعى أن الطاعة العمياء ، والتركيز على الشرف الشخصى مرتبطان بفضائل الحرب ــ وتعتبر الحروب الهدامة فى صميم كل مجتمع محارب اقطاعى هى محتوى الحياة القومية فيه وهناك ثقافات اقطاعية أخرى تظهر فيها اتجاهات مماثلة ، فقانون الشرف اليابانى Japanese Codeol Honor يماثل تمــاما نظام الفروسية والولاء عند فرسان الأسبان ، وكذلك فئة ال Ehere (١) الألمانية • ان الاجو الانفعالى للأسرة اليابانية لم يكن مخططا عن وعى ليكون أكثر فاعلية في انتاج عناصر موالية للسادة الاقطاعيين • ان تعود الطفل اليابانى مبكرا أن يتعلم الامتنان يعتبر عنصرا هاما فى جعله أقدر فيا بعد على احتمال كل أنواع القمع الاجتماعى الصارم بامداد الفرد بمخرج انفعالى يسمح له بالحرية ، التى تمكنه من تجميد أكثر الحاجات الغريزية حدة ، وبين هذه الاتجاهات ــ وعلى هذا النحو يمضى اليابانى حياته الاجتماعية تبعا لقواعد ونظام من حديد •

من كل ذلك يتضح أن تشكيل الشخصية اليابانية يمكن أن يتغير على نحو أوضح اذا ما حدث تغير فى البناء الاجتماعى ككل •

---

(١) مرجع سابق •

دراسة مارجريت ميد للشخصية الأمريكيه

بعد ان قدمنا مختصرا للشخصية اليابانية وانتهينا الى العوامل التى أدت الى تشكيلها على هذا النحو نعرض لتحليل مارجريت ميد (١) للخلق الامريكى التى تفسره بأنه نتيجة لتأثيرات الأسرة ٠ والخلق الأمريكى نظرا لعدة اعتبارات يظهر تباينا واضحا للخلق اليابانى ، ولا شىء أكثر وضوحا فى الخلق الامريكى من عدم التمسك بالشكليات ، والحاجة الى أساليب سلوكية متكاملة ، وما ينتج عن ذلك من قدرة على تبنى المبادىء ، والتطبيق التام للنظام الطبقى الاجتماعى ٠

فبينما الفضيلة عند اليابانى هى فى الملاحظة الدقيقة لكل تفاصيل القانون الذى وضع لكل حالة ، نجد أن أسمى الفضائل عند الأمريكى هى فى تحقيق ذاته ، اذ أن اليابانى يشعر دائما بأنه مدين للغير بحيث ينفق عمره كله فى رد هذه الادانة ٠٠ بينما الأمريكى يهتم بحقيقة أساسية وهى أنه لا يعمل الا لنفسه ، وأنه غير مدين الا لنفسه فقط ٠

واحترام الأبناء وطاعتهم لذويهم بالنسبة لليابانيين على نقيض تام لما يتبعه الأمريكيون بالنسبة لاحترام الجيل السابق ، وخضوعه لأساليبه التقليدية ، من حيث الفكر والعمل ، فاليابانى يجد الأمان فى تعلم واتباع القانون التقليدى ، بينما الأمريكى يجد الأمان فيما ينجزء بالتنافس الناجح مع الآخرين ٠ وبينما احترام الذات عند اليابانى على مدى تعايشه بنجاح مع قواعد احترام الأسلاف ، نجد أن احترام الذات عند الامريكى يعتمد على قدرته على التقدم فى اتمام ما قام به أسلافه ، ولكن يتضح الفارق بوضوح بين كليهما ، اذا تبينا أن الأمريكى بما له من قدرة على الاعتماد على الذات ، وافتقاره الى التزام القوانين والعادات ، كذلك نجد أنه فى سـلوكه الجنسى أكثر تحديدا من اليابانى ، ففى اليابان العلاقات الزوجية الاضافية تمارس علنا بينما هى ممنوعة بواسطة القانون فى الولايات المتحدة الامريكية ، وغير مرضى عنها بواسطة الرأى العام ، ولا تمارس الا فى الخفاء وبالتحايل ٠

---

(١) Meed, M. Reep your powder dry, New York Williams Meor-roWed, Co. 1942.

وبينما يجد الياباني مخرجا لغرائزه البيولوجية ، وسلوكه الاجتماعي خلوا من التلقائية الصادرة عن الذات ، ولكنه محدد بصرامة (بواسطة القوانين والتقاليد وغير ذلك) في حين أن الأمريكي يعطينا الصورة العكسية تماما لهذا الوضع ، فان غرائزه الأساسية منظمة تنظيما تاما في التعبير ، والابتكار ، والتلقائية عنده ، تجد لها مخرجا في الأعمال والنشاط الاجتماعي ، التي لا تحددها قوانين ، والتي تسمح بالمغامرة والعمل الفردي .

وعلينـــا الآن أن نرى كيف تتضح هذه الخصائص المتعلقة ببناء الأسرة الأمريكية وعاداتها ، وكما يشير بندكت ان أوضح اختلاف بين الطفل الياباني في التربية هي الأساليب القاسية لوظائف النمو عند الطفل الأمريكي في سن مبكرة جدا . فالأنظمة المتبعة في الطعام والعادات المتصلة بالاخراج تبدأ مبكرا . واعتراضات الطفل لا ينظر اليها مطلقا ، وبالتدريج يعطون الطفل حرية على نقيض ما هو متبع عند الأسرة اليابانية التي يحد فيها من حرية الطفل كلما كبر ، ويعتبر الطفل الأمريكي مركزا لحياة الأسرة ، ويسمح له بالتعبير عن دوافعه العداونية ، بل ان الضـــيوف الأجانب في البيت الأمريكي كثيرا ما يندهشون من جرى الطفل حول مائدة الطعام بما يحدثه من ازعـــاج لاسرته . وللضيوف ، وكثيرا ما تجرى منافسة للحصول على الجوائز بين أفراد الأسرة ، وكما تقول ميد ، ان حب الأم الأمريكية لأطفالها يرتبط بالظروف التي تمر بها الأطفال ، بل انه يتوقف على مدى ما يمكن أن يحققه الطفل من نجاح بالنسبة للأطفال الآخرين .

وفي المدرســة يكون الطفل أكثر نجاحا بين زمـلائه ، بقدر تقدمه في الدراسة ، وفي النشاط الرياضي ، وكذلك عند أمه يكون أكثر تقديرا .

ومن الدوافع الأساسية التي تحدد الشخصية الأمريكية القدرة على وزن الأمور ، واحراز التفوق ، وكذلك الحب والأمان يتوقفان على النجاح في حلبة السباق في مضمار الحياة .

وعلى وجه الخصوص فانه يبدو واضحا في الثقافة الأمريكية أنها تفتقر الى شيء من التحديد بين الطبقات الاجتماعية .

فالأمريكي يعيش في مجتمع مائع يتغير من جيل الى جيل ، وهذا واضح على وجه الخصوص في الأسر المهاجرة ، فالأب يكون في وضع لا يسمح له بأن ينال تقدير أولاده واحترامهم لثقافته هو أو الأم (زوجته) ذلك أن الأطفال ثم أولادهم بعد ذلك يعملون على الحصول على ثقافة جديدة مغايرة لثقافة الأسرة الأصلية ، كما أنهم لا يستطيعون أن يحترموا تقاليدها ، بل انهم يتجهون الى الخروج على التقاليد ، فيكون على الطفل في الجيل الثاني أن يعرف بنفسه كل شيء بمساعدة مدرسيه ، وزملائه ، ودون مساعدة أسرته ، وكما كانت الهجرة

حتى الوقت الحاضر تعتبر من المؤثرات الفعالة فى مسرح الحياة الأمريكية ، فان تأثيرها على الخلق الأمريكى لا يمكن المغالاة فى تحديده • فالدولة قد أقيمت على أساس الاحتجاج على العالم القديم ، وهذا الاحتجاج ظل من الصفات الخاصة بالعالم الجديد • وكذلك هناك ملامح أخرى فى الشخصية الأمريكية يمكن تفسيرها عن طريق الحقائق النفسية السسيولوجية (١) •

ان الخلق الأمريكى يظهر تناقضا جديرا بالملاحظة ، ذلك أنه رغم كل ما يحيط بشخصية الفرد من عناصر التوكيد ، فان هناك ميلا جليا الى الركون للمألوف ، فبعض المظاهر الخارجية للحياة ، مثل الملبس ، وتأثيث المسكن تعتبر ثابتة ، وبذلك تعتبر أساسا للضمان ، فى بلد تفتقر الى تقاليد ذات قداسة ، حتى تبقى على أساليب الحياة فى المجتمع ، اذ أن التسابق المستمر فى مجتمع رخو يكون فيه دور الفرد غير محدد ، يخلق الكثير من عدم الضمان ، وهذا بدوره يمد بقدر كبير جدا من القوة الدافعة لمزيد من العمل والنجاح ، وفى نفس الوقت يعمل التسابق بين الناس ، على تقدمهم ، وبذلك يخلق الرغبة المضادة وهى « الانتماء » هذه الحالة تعبر عن نفسها بما يعرف بالأخوة الأمريكية فى التنظيمات الاجتماعية العديدة ، والنوادى والجمعيات الأخوية ، والجمعيات النسائية ، التى تنبثق فجأة وتزول كرد فعل ضد التباعد الناتج عن التسابق المطلق ، فى الحياة الاجتماعية ، ولعل الأساس فى تعود الأمريكيين على عقد الكثير من الاجتماعات للجماعات المهنية مرجعه الى ذلك ، ففى هذه الاجتماعات يلتقى رجال الأعمال والفنيون ، مع ما بينهم من تنافس ، يلتقون كأصدقاء ويتبادلون التحية ومظاهر الكرم ، فيزول التباعد بين بعض الأفراد الذين قد يميلون الى العزلة ، بدافع من تدعيم مصالحهم الخاصة ، لذلك تؤدى هذه الاجتماعات الى اعادة الترابط بأن تدفع الانعزاليين نحو الجماعة •

(١) نفس المرجع •

التربية فى روسيا (١)

نظام التنشئة الاجتماعية والتطبيع خارج الأسرة وباشراف الدولة .

لقد نادى كبار الروس أمثـــال شاشكى وســلوف يوفا وكاليميكوفا وتيجييفا ، وشليجر ، وغيرهم فى مستهل القرن العشرين الى ضرورة العناية بدور الحضانة ، ورياض الأطفال ، ومع ما لاقوا من احباط لجهودهم قبل ثورة أكتوبر من أعوان القيصر ، فانهم لم يكفوا عن الدعـوة لهذا الموضــــوع ، حتى قامت الثورة فطرأ على نظام التعليم فى هذه المرحلة ٠٠ مرحلة ما قبل المدرسة تغيرات أساسية كبيرة ، وسرعان ما انتشرت فى ارجاء البلاد كافة دور الحضانة . ومنازل الأطفال والرياض ، كمؤسسات عامة تتولى الدولة ادارتها والاشراف عليها ، ووضعت لها نظما ومبادىء حازمة دقيقة ٠ وتبين الوثيقة التوجيهية الرسمية التى صدرت بعنوان « قواعد رياض الأطفال » الهدف من هذا النوع من التعليم وطريقة تنظيمه ومشكلاته ، ونورد أهم نقاطها فيما يلى :

« روضة الأطفال هى مؤسسة حكومية من مؤسسات التعليم العام لتربية الاطفال بين سن الثانية والسابعة ، وهدفها ضمان تربية الاطفال فى هذه المرحلة ، وتنميتهم نموا كاملا ، وفى الوقت نفسه فان هــذه المؤسسة تيسر اشتراك الأمهات فى الانتاج الصناعى والثقافى ، وفى الخدمات العـامة ، وفى شئون الدولة » ولتحقيق هذه الأغراض فان رياض الأطفال تقوم بما يأتى :

١ ــ ترعى صحة الأطفال ، وتعنى بسلامة نموهم الجسمى ، وقوة أبدانهم .

٢ ــ تنمى استعداداتهم وقواهم العقلية ، وقدراتهم على النطق ، وقوة الارادة والخلق ، وتهيىء لهم تدريبا فنيا ، وتعرفهم بالبيئة التى يعيشون فيها .

٣ ــ تغرس فى الأطفال الاعتماد على النفس ، عن طريق تعليمهم خدمة أنفسهم بأنفسهم وتنمى فيهم العقلية الصحيحة ، وتربى فيهم عــادات العمل السليمة .

٤ ــ تعلمهم حب أوطانهم ، وحب الشعب السوفيتى .

٥ ــ تعينهم على متابعة الدراسة المستقبلة بنجاح .

---

(١) ى ٠ ن ميد تشكى ٠ التعليم العام فى الاتحاد الســوفيتى ــ ترجمة ممدوح أباظة ــ تصدره الهيئة العليا للتعليم بموسكو سنة ١٩٤٥

وتضطلع بتنظيم رياض الأطفال ادارات التعليم العـــام ، فى المناطق المختلفة ، وكذلك المصانع والمؤسسات الصناعية ، ومجالس القرى ، والمدن ، والجمعيات التعاونية •

وتتسع رياض الأطفال لثلاث أو أربع مجموعات ، كل منها عدده (٢٥) طفلا يقسمون على أساس السن ، ويمكث الأطفال فى مدرستهم ٩ ، ١٠ ساعات ، أو اثنى عشرة ساعة ، وفقا لمدة عمل آبائهم كل يوم ، أو يبيتون بها ، لو تطلب الأمر ، وتقدم للأطفال ثلاثة وجبات من الطعام أو أربعة عند المبيت •

ويوكل أمر تربية كل مجموعة من الأطفال الى مدرسة متخصصة ، تعاونها مدرسة للموسيقى ، وطبيب ، وممرضة ، كما ينتخب من الآباء سنويا لجان للمعاونة فى عمل روضة الأطفال ، هذا ويختلف جوهر العمل وطريقته فى روضة الأطفال باختلاف سن المجموعة ، والصفات الجسمية والنفسية التى تصاحب كل مرحلة من مراحل العمر • والهدف الأساسى لروضة الأطفال هو ضمان النمو الصحى للأطفال ، وتعهدهم بتربية بدنية سليمة تؤدى فى الأماكن الملائمة لها صحيا •

وهى تسير على نظام دقيق ، ويعطى الطفل التغذية الصحية ، ويراعى تقوية جسمه ، وتطوير حركاته ، وتنميتها ، وتعويده العادات الصحية ، ويقضى الأطفال من ٣ الى ٤ ساعات يوميا فى الهواء الطلق •

والنمو العقلى للطفل هدف أساسى فى برنامج روضة الأطفال ، ومن ثم فهى تعطى تنمية الحواس عناية كبيرة ، وتعاون المدرسة الطفل على تنمية قدرته على التمييز ، والشغف بالمعرفة ، والادراك ، وتشجيعه على النطق السليم ، والقدرة على الحديث ، وعلى استعمال لغته القومية ، استعمالا صحيحا ، وعلى توسيع فهمه ومعلوماته عن الطبيعة والمجتمع •

ولا يقل عن ذلك اهتمام الروضة بالتربية الخلقية للطفل ، فيعلم فيهـا محبة الوالدين ، واحترام الكبار ، واللعب بروح الفريق والطاعة ، كما تنمى فيه قوة الارادة ، والشجاعة ، والمثابرة . وضبط النفس ، والصدق ، والتواضع وأداء واجباته تحت مسئولية الضمير •

وتعلم المربية مجموعتهـا حب بلادهم ، وطبيعتهـا ، وتنمى فيهم روح الاحترام والصداقة ، لجميع شعوب الاتحاد السوفيتى ، ولجميع العمال فى البلدان الأخرى ، وذلك عن طريق الأحاديث والحـــكايات الشعبية والأغانى والأناشيد وغيرها •

كذلك تهتم الروضة بالتربية الفنية ، وهذا يتحقق عن طريق تأثيث البيت بشكل ملائم ، وعن طريق الموسيقى والغناء ودروس الرسم •

ويتعلم الاطفال العمليات الحسابية البسيطة كالعد من ١ ـ ٣٠ وجمعها وطرحها من ١ ـ ١٠ وكذلك المعايير والمقاييس ، وأيام الأسبوع وقراءة الساعة ، وتدخل المدرسة عنصر العمل فى حياة الأطفال فتكلفهم باعداد المائدة للافطار ، والعشاء ، ويجمعون لعبهم وأجهزتهم التعليمية ، ويحفظونهـا فى أماكنها ، ويعنون بالثياب ، ويغذون الدجاج الى غير ذلك من الأعمال ، وهناك قواعد وضعت للتلاميذ يلتزمون باتباعها بدقة ، ويطلب من تلميذ المدرسة الابتدائية بنوع خاص أن يراعى ما يأتى :

١ ـ أن ينجح فى طلب العلم ، ويثابر عليه ، حتى يصبح مواطنا متعلما مثقفا قادرا على أن يفيد بلاده الى أقصى حدود استطاعته ٠

٢ ـ أن يتصف بالجد والاجتهاد ، وأن يواظب على الدراسة ، وأن يحضر الى مدرسته فى مواعيدها المقررة ٠

٣ ـ أن يعنى بملابسه ، وأن يكون نظيفا ممشط الشعر ٠

٤ ـ أن يصغى بانتباه تام الى شرح مدرسه فى الفصل ، والى اجابات اخوانه التلاميذ ، والا يشغل بالكلام ، أو بأى شىء خارجا عن موضوع الدرس ٠

٥ ـ أن يحتفظ بتسجيل دقيق ، لواجباته المنزلية فى مذكرة أو كراسـة تخصص لهذا الغرض ، وأن يعمل واجباته المنزلية بنفسه ٠

٦ ـ أن يحترم ناظر مدرسته ومدرسيها ٠

٧ ـ أن يكون مؤدبا مع من يكبرونه سنا ، وأن يكون سلوكه لائقا متواضعا فى المدرسة والشارع والأماكن العامة ٠

٨ ـ أن يعامل المسنين بشفقة ورفق ومجاملة ، وكذلك الأطفـال والمرضى والضعاف ، وأن يعاونهم فى الشـــارع ، ويتخلى لهم عن مكانـه فى السيارات العامة ٠

٩ ـ أن يطيع والديه ويساعدهما ويرعى اخوته وأخواته الصغار ٠

١٠ ـ أن يحافظ على نظافة المنزل ، وعلى أن تكون ملابسه وحذاءه وفراشه مرتبة ٠

١١ ـ أن يعتبر شرف المدرسة وشرف فصله ، هما شرفه الخاص ٠

وبعد ٠٠ ان أبناء الاتحاد السوفيتى يخضعون لنظام موحد دقيق يبدأ منذ الحضانة باشراف الدولة ، ووفق خططها ٠

ان هذا النظام الموحد الذى يجعل كل أطفال الاتحاد السوفيتى ينصبون فى قالب واحد ، لا يوجد بعد ذلك أدنى شك فى قيام اختلاف من حيث الثقافة أو العقيدة أو المستوى الاجتماعى أو غير ذلك ٠

انه من السهل أن ندرك أن مثل هذه التربية كفيلة بأن تخلق شخصية قومية ، تتسم بصفات متشابهة ، الى درجة جديرة بالملاحظة ، فالحياة الجمعية التى تحتضن الطفل منذ السنة الأولى من ولادته لا تدع مجالا كبيرا للاختلاف أو التفاوت بين الواحد ، والآخر الا بقدر ما تسمح به فروقهم الفردية ، وقدراتهم الخاصة •

كذلك لابد أن يوجد تأثير سيكلوجى للأسرة على الطفل ، الا أنه نظرا لقصر الفترة التى يقيمها الطفل بين أفراد أسرته ، بحيث تنحصر فى وقت النوم فقط من الواضح اذن أنه ربما لا تكون هناك فرصة كافية يتعامل فيها الطفل مع أفراد أسرته بما يسمح بحدوث المواقف الوجدانية أو الآثار الانفعالية بينهم ، ومن ناحية أخرى فان هؤلاء الآباء والأمهات قد نشئوا نفس النشئة التى يمر بها أطفالهم ، وخضعوا لنفس المؤثرات الثقافية والاجتماعية التى يستجيب لها أطفالهم •

هذا النظام فى التنشئة والتطبيع الاجتماعى كفيل أن يوجد شخصية عامة أو قومية تظهر بوضوح فى المجتمع السوفيتى متسمة بكل ما قدم لها من نظم وأساليب وقواعد للتربية والتفكير والعمل •

● الفصل الثانى

التنشئة الاجتماعية والتطبيع فى قرية سلوا بحرى

يدور التركيب الاجتماعى للقرية حول ثلاثة عناصر هى (١) :

١ ـ القرابة والنسب ·

٢ ـ الجنس والنوع ·

٣ ـ السن ·

وتتداخل هذه العناصر فيما بينهـا لتكون أنواعـا من التنظيمـات الاجتماعية التى تحـــدد العلاقات ، والمسئوليـات المتبادلة ، وتوزيع العمل ، ومطالبه ، ومواطن اتخاذ القرارات ومجالات ومواطن اتخاذ القرارات ، ومجالات الابتعاد والاقتراب والتنافس والتعاون ·

والمعيار القرابى للتنظيم الاجتماعى يحدد علاقات ومسئوليات معينة على الأفراد فدور الأب وســلطته يعكس دوافع التماسك الاجتماعى الذى يسمى بالعصبية على مستوى العائلة أو القبيلة ، كذلك تنعكس سلطة الأب فى مظاهر التفاخر والمباهاة والكرامة ·

كذلك عنصر الجنس أو النوع وهو العنصر الثانى من التنظيم الاجتماعى وهو ما يجعل هناك مجالين منفصلين فى الحياة العـامة داخل القرية ، مجال المرأة ، ومجال الرجل ، وليس ثمة التقاء بين كل منهما والآخر الا قبل البلوغ أو فى الشيخوخة ، ففى هاتين المرحلتين يجوز الالتقاء ، وتجنب اللقاء بين الجنسين من قيم الحشمة والأدب تصل الى حد الحجاب الكامل ، الذى تلف به المرأة جسمها حين تخرج الى الطريق ، ولا تشارك الرجل نهائيا فى أعمال الحقل · ومن علامات التجنب عدم ذكر اسم الزوج لزوجته أو الزوجه لزوجها فى مجال الحديث مع الآخرين ، كذلك فى اهمال تعليم الفتاة بالنسبة للولد ·

---

(١) د· حامد عمار ـ التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية ، سلوا · أسوان عن د· لويس كامل مليكة قراءات علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية ـ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥

والعنصر الثالث فى البيئة الاجتماعية هو السن ، فتنقسم القرية الى ثلاث مجموعات هم الصغار والشباب والكبار . ويظهر التجنب بين هذه الفئات حيث لا يختلط الصغار بالشباب ولا يختلط الشباب بالكبار اختلاطا طليقا ، مع مراعاة شروط الأدب ورموزه بين هذه المجموعات الثلاث .

وتتضمن التنشئة الاجتماعية عملية التأديب والتربية التى لا تقف عند حد الأبوين بل تمتد الى الأقارب من أهل الأب والأم ، والى الكبار بوجه عام ، حتى يعد أفراد المجتمع كلهم مسئولين عن زجر الطفل أو تشجيعه أو توبيخه فى المجالات العامة ، كذلك تبدو فى هذا المجتمع مظاهر من التستر والحذر التى ينشأ عليها الطفل فى داخل نطاق الأسرة الضيقة ، ويبدو هذا التستر والحذر وكأنه فى مقابل الانفتاح فى عملية النمو ، لأحداث التوازن اللازم فى عملية التنشئة ، فكلما تعلم الطفل المعاملة الحسنة ، والزيارات ، واللعب مع أقاربه ، يعلم أيضا الحذر ، وعدم المبالغة ، فى تكوين الروابط أو الزيارة الطويلة .

وتبدأ فكرة تنظيم العلاقات على أساس الرقابة بطريقة تتحدد فيها أنواع العلاقات المتبادلة ، وضرورة قيام نوع من التوازن ، والحرص الشديد ، على مراعاة هذا التوازن ، كذلك لوحظ أن تعلم الأولاد للحلف باسم الأب أو البنات باسم الأم أما الاهانة التى تلحق بالوالدين أو العائلة أو القبيلة فهى تعتبر من الاهانات البالغة ، التى تمثل معايير للالتزام والمسئولية ، وهذه التنظيمات القرابية تمثل فى دوائرها المختلفة المجالات التى يتحرك فيها الطفل كلما كبر ، فهو ينشأ فى البيت ويلعب مع أقرانه من أطفال الأسرة ثم يتجول بعد ذلك ليلعب مع أولاد القبيلة فى (المضرة) أوبجانب الخيمة وهما اسمان لمضيفة القبيلة ، ويعمل فى الحقل مع ابيه وأخوته ، ويشترك فى الأفراح والمآتم مع قبيلته وجماعته أو الأسره ، ولايشترك فى افراح القبائل أو الجماعات الأخرى الا بعد أن يتزوج ويصبح رجلا (١) .

أما عنصر الجنس والنوع فان الذاكرة والأنوثة تكون معيارا يزداد أثره فى الفصل بين خصائص النمو بين الجنسين مع كبر السن . وتكاد السمات الشخصية التى تميز كلا من الجنسين تمثل التضاد بينهما ، بحيث لا يسمح منذ البداية بأن يلعب الذكور ألعاب الاناث أو العكس . ولا يقبل من الأولاد والبنات والاختلاط أمام الناس ، كما تختفى المظاهر العاطفية بين الزوج وزوجته أمام أطفالهم أو أمام الغير .

أما عن السن ، فان دوره يبدو فى اشعار الطفل المستمر بالسلطة والمسئولية المستمدة من كبر السن النسبى ، ومن اعتماد الصغير على الكبير .

---

(١) نفس المراجع .

كذلك فان معيار السن هو الذى يحدد مستوى النضج الاجتماعى فى السلوك . والعمل ، وما ينتظر من الطفل أن يقوم به أو يدعه من الأمور ، ومرحلة البلوغ تكاد تكون حدا فاصلا بين الطفولة ، والشباب ، وبين الرجولة والأنوثة . ثم ان هناك حدودا فى الاتصال والاندماج بين الأطفال ، والشباب ، والكبار ، لا ينبغى تجاوزها أو تخطيها ، والتقاليد الاجتماعية ما هى الا توكيد للعلاقات بين الكبار والصغار ، على أساس أن الكبير هو مصدر السلطة وأن الصغير ، مكلف بالاستجابة مما يحدد قيمة السلطة منذ الصغر .

ولنستعرض الآن نوع التنظيم أو « التنميط » فى عملية التنشئة الاجتماعية فى هذه القرية لنستعين به فيما يمكن أن يترتب عليه من آثار ، فى تكوين مصطلحات معينة من السلوك أو تنظيمات معينة من سمات الشخصية تتواءم مع ثقافة القرية وبنائها الاجتماعى الذى تبرز فيه جوانب السلطة الأبوية . ممثلة فى القرابة أو الجنس أو السن .

وبوجه عام يمكن تقسيم المجتمعات الى الأقسام التالية :

١ ـ مجتمعات تبرز ثقافتها بالتساهل فى ضوابط السلوك فى مرحلة الطفولة والمراحل التالية .

٢ ـ مجتمعات تتميز ثقافتها بالتراخى فى ضوابط السلوك فى مرحلة الطفولة . والتشديد فى المراحل التالية .

٣ ـ مجتمعات تتميز ثقافتها بالتشدد فى ضوابط السلوك فى مرحلة الطفولة والتراخى فى المراحل التالية .

٤ ـ مجتمعات تتميز ثقافتها بالتشدد فى ضوابط السلوك فى مرحلة الطفولة والمراحل التالية .

ومع أنه يتعذر وجود نمط متميز تماما فى المجتمع من هـــذه الأنمـاط الأربع نظرا لتداخلها وتنوعها ، الا أنه يمكن القول بوجه عام أن هذه القرية تتبع النمط الثانى فى التربية ، حيث تكون ضوابط السلوك متجهة الى التساهل مع الطفل الى درجة كبيرة ، فهو يأكل عندما يشاء ، وينام عندما يشاء ، ويلعب كيفما يشاء ، وهكذا ، وذلك فى السنوات الخمس الأولى من عمره .

ولكن الطفل يخرج من هذه المرحلة فجأة الى المرحلة التالية ، الى عالم الكبار ، فتظهر قوة الضوابط أو شدتها فجأة فى الخامسة أو السادسة حيث لا يرضى الكبار عن لعب الأولاد وحيث ، يبـدأ الصـغير فى الالتزام بالآداب والمواصفات المطلوبة منه مع غيره من الناس ، ومع مسئولياته فى العمل بالحقل أو البيت ، ومع مجموعته عن الأقران فى نفس السن ، أو الجنس ، وقد تؤدى هذه النقلة المفاجئة فى تنميط الضوابط الى أثر سيىء فى شخصية الطفل يؤدى

الى تفسخها ، أو عدم استقرارها الا أن ما يلتزم به الطفل فى تلك المرحله من أعمال ، وما يسمح له به من انطلاق فى مجالات لم يكن يمارسها فى المرحلة السابقة كل ذلك يؤدى الى توازن الموقف ، وتلطيفه فهو يشعر بالمسئولية ويشعر انه أصبح كبيرا يوثق به ويعتمد عليه ـ الى حد ما ـ كذلك يسمح له بمخالطة أقرانه فى الحقل وفى المدرسة أو فى القرية كلها .

وألعاب الأولاد فى وقت الفراغ وبعيدا عن أسرهم تعبر عن الخشونة ، والعنف ، والمنافسة الشديدة ، والمبالغة فى اعـلان النقد من ناحية الغالب ، والنكاية بالمغلوب .

أما مشكلات المراهقة فى هذه القرية فهى تكاد لا توجد لأن دخول الطفل فى عالم الكبار منذ وقت مبكر لم يجعله يدرك أى تغيير أو تطور عند حلول مرحلة المراهقة .

وكما أن عملية النمو تتميز فى تنميطها بظاهرة تأكيد السلطة أو الخضوع، فانها تتميز أيضا بالمنافسة الشديدة بين الأقران ، وبين الجنسين ، وتبدأ هذه المنافسة بين الأخوه والأخوات ، وما ينشأ عنها من غيره ، وخاصة بين الصغير والكبير ، وقد يصحب ذلك بعض الأعراض المرضية كالاسهال أو سوء الهضم أو غير ذلك ، وهى فى نظرهم ظاهرة طبيعية بل صحية ، يجب أن تحدث حتى يبلغ الطفل مدارج النمو المنشودة .

وبعد .. فهذه المحاولة التى قام بها الدارس انما تدور حول أهميـــة الثقافة فى التربية كوسيلة لنقل التراث من جيل الى جيل ، وتكوين اتجاهات ، ومعارف وقيم ، لدى الأفراد تتمثل فى مؤثرات معرفية وسلوكية ، ونفسية ذات دلالة بالنسبة لشخصيات الأفراد ، واذا كانت التنشئة فى قرية سلوا بحرى بأسوان تقوم على جانب ثقافى فى حياة الجماعة كما قدمنا ، فانها لا شك تتأثر أكبر الأثر بعوامل ثقافية أخرى كثيرة منتشرة فى القرية ، يأخذ بها الكبار ، ويتناقلها الصغار ، وهى ذات فعالية عالية من حيث ، تكوين شخصيات الأفراد بما تحويه من قيم ومبادىء يتناقلها الناس عن طريق عمليات الايحاء ، فتؤدى الى توحيد الفكر والثقافة لا فى هذه القرية وحدها ولكن فى كافة البلاد ، وبين أكثر السكان ، بل جميعهم ، تلك هى مظاهر الثقافة الشعبية التى تعيش بين أهل القرية ، وفى كل قرية ، وفى كل مكان ، ويأخذ بها كافة الناس ، فيكون لها من الأثر فى فكرهم وسلوكهم ما يوحد بينهم ، فتبدو فى المجتمع شخصية قومية الى حد ما .

سمات الشخصية العربية والمصرية (١)

ان الشخصية العربية ذات أصول متعددة فهى تستمد كيانها من :

١ ـ قيم البدو الرحل التى أثرت فى الجماعات العربية ، والاسلام .
٢ ـ مطالب الدين .
٣ ـ تاريخ الاحتلال على طول الأجيال .
٤ ـ الفقر الشديد .
٥ ـ أساليب تربية النشىء .

فمن ناحية وهى تنبع من هذه العناصر السابقة وتؤثر فيها من ناحية أخرى من جيل الى جيل . فالأنانية والكرم والعداء من طابع الشخصية العربية .

يرى مورو برجر أنه مع ما مر بالعرب من أجيال طويلة يسودها الركود والتعاسة ، يكرهون فيها على اتباع أساليب الغزاة ، ومع ضياع جهودهم الكبيرة للسيطرة على شئونهم الخاصة ، وتوجيهها فانه يظهر من خلال ذلك تأثيران واضحان وهما الكبرياء الجريح للحصول على المناصب ، ثم الشعور بالاتهام . (سيتم التعليق فى نهاية الفصل) .

وهذا العامل الأخير هو ما يراه الغرب عن العرب دائما ، وذلك لعدم المام الغرب بالعلاقات التى تسود العرب فيما بينهم ، أما العامل الأول وهو الرغبة فى الحصول على المناصب ، فهو من السمات البارزة فى الوطنية العربية ، حتى انها اثرت فى وطنيات أخرى كثيرة كافحت للتعبير عن نفسها ، ضد قوانين عليا فرضت عليها من الخارج . ولكن مظهر تقدير الذات المبالغ فيه يمكن أن يرى فى سلوك الفرد العربى فى علاقاته اليومية بالآخرين بعيدا عن شئون السياسة والوطنية .

---

(١) من كتاب Moroe Berger, The Arab World to day A double day Anchor Book chap. 5, 19, 136.

وهو كتاب يدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

ويبدو أن العربي ينطوى على دافعين على أعلى درجة من التناقض وهمـا الأنانية والانقياد ، الأول يظهر في شكل توكيد الذات أمام الغير ، والكبرياء ، والحساسية نحو النقد • والثانى ينعكس فى الخضوع لبعض القيم الجماعية الخاطئة ، ثم عدم القدرة على توكيد الذات بما يناسب الفرد من الثقة أو الكفاية •

هذا التناقض يمكن أن يفسر بتفسيرين • التنافس الفردى الذى يتضح فى التفاخر والحساسية ، وهو ذاته متأثر بقيم الجماعة عن طريق الأسرة والعشيرة والقبيلة والجماعة الدينية ، أو الجماعة الوطنية ، التى ينتمى اليها الفرد ، فكل واحدة من هذه الجماعات لها ذاتيتها الخاصة بما يجعلها تختلف عن غيرها • ولكن كما هو هو الوضع حاليا لا واحدة منها استطاعت أن تجبر العربي على قدر كاف من الوفاء وقتا طويلا يكفى لتبديد العداء بين الجمـاعات الصغرى بداخلهـا •

لقد ظهر ذلك فى وقت قصير حين استطاع الاسلام أن يقضى على الصراع الذى كان يختفى دائما ، ولا يظهر الا نادرا بين الأسر أو القبائل فى الصحراء ، وفى المساحات الشاسعة ، أو حتى بين الجماعات البشرية أو الدول المختلفة فى العالم الاسلامى •

وحاليا فكرة العروبة يبدو أنها قدرت لتقوم بدور الهدوء الداخلى ، ولكنها لم تنجح بعد فى التغلب على الاختلافات القومية ، كما أنها لا شك بعيدة عن خلق الوحدة التى يمكن بها ايجاد الصراع والمنافسة على مستوى عامة الشعب فى الجماعة • وبذلك يكون الولاء للجماعة قد انتج عند العرب شعورا بالكبرياء يسهل جرحه •

وأكثر من ذلك فانه فى الأجيال الحالية نجد أن توكيد الذات عند الفرد العربى لا يظهر ضد الجماعات الأخرى فحسب بل ضد الفرد نفسه ، وهذا يعتبر صحيحا على وجه الخصوص فى الأسرة ، وهى الجماعة التى تؤثر بوضوح فى الفرد ، وفى القرى ، وفيما حولها بالمثل •

ومنذ وقت بعيد ظهـر التوتر فى المجتمع العربى بين المطالب الفرديـة ومطالب الجماعة ، ونظرا لعدم اكتمال التحرر فقد انطلقت مقاومة العربى فى نفس الاتجاه السابق وهو التفاخر ، والمبالغة فى التعبير عن قدراته ، ثم الميل الى اعتبار أقل تشكك من الغير على أنه اهانة كبرى ، أما الآن فان مقاومته للجماعة قد قوت خلقه الداخلى وحتى المناقشة التى نمتها الأسرة فى الفرد قد وجهت ضدها كما وجهت نحو الجماعات الأخرى والأفراد ، وعاصفة التغيير التى هدمت المجتمع العربى قد بددت الولاء وأصابته بالاضطراب ، بينما كان من الدعائم القومية فى المجتمع فى حالة عدم تغييره أو ثباته • والنتيجة أن الشعور بتوكيد الذات عند العربى ، أصبح من غير الممكن ضبطه بالأساليب

القديمة ، بل انه يتفجر فى أى اتجاه يميل الفرد الى الأخذ به سواء عن طريق التمهل والتبصر أو لا شعوريا دون علم بالدوافع الحقيقية ٠

وكنتيجة للمؤثرات التاريخية ، وطريقة التنشئة فى الطفولة ، والعلاقات الأسرية عند العربى ، يظهر فى سلوكه ما يمكن أن يسمى بالفردية السلبية ، وهى تعتبر ثورة ضد الجماعات التى ينتمى اليها أكثر مما تعتبر توكيدا لقدره ، انه رد فعل مفرط ناتج عن احباط الرغبة القومية فى الحصول على الحرية ، الا أنه لا يوجد الآن غير مجهودات ضئيلة فجة يبذلها العربى لتحقيق قدراته وتدعيمها ٠

والعربى يعبر عن فرديته على نحو فريد فى تقدير الذات ، وفى رغبته لتوكيد تقدمه ، وفى افتقار الى الوعى الاجتماعى ، والمسئولية الوطنية ، بروح الفوضى وعدم الطاعة للسلطات ، وفى عدم التعاون ، وعدم الثقة بالآخرين ٠ ودكتور (جميل صليبة) وهو من قادة التعليم فى دمشق يشير الى بعض المواقف الهامة للفردية العربية وصلتها بالنظام الوطنى ورغم أن السوريين واللبنانيين يفرطون فى الفردية ، الا أنهم يطالبون الحكومة بأن تقوم بكل الأعمال لهم ، فهم يطالبون حكوماتهم بأن تزرع لهم الصحارى بالتين والزيتون ، وأن تجعل آبارهم أكثر امتلاء لتحيى الأرض لهم ، وللمحافظة على حياتهم ، ولكن اذا استدعوا للمعاونة فانهم يعارضون ، وكل فرد يفضل العمل الفردى ٠ ان العربى لا يستطيع أن يدرك أن المصالح المختلفة يمكن أن تنسجم فيما بينها لينشأ عنها قانون عام للعمل يحقق مصلحته الخاصة ، وكما يرى (صليبة) فالعربى لا يقبل أى نظام يفرض عليه من الخارج ، كما أنه لا يلتزم به ، فكل ما يعنيه هو مصلحته الخاصة ، فهو أنانى فى أسرته ، فى عمله ، أو فى الجماعة السياسية التى ينضم اليها ٠ أما أن كل نظام يفرض من الخارج يرفض فذلك لأنه لابد أن يحتوى على ميولهم ، واتجاهاتهم ، ورغباتهم الفردية ، ان توالى الحكام الأجانب ، وشعور العربى بتعارض مصالحه مع مصالح هؤلاء الحكام جعله لا يثق فيما يقدمون من أحكام أو نظم ، لذلك فهو يرفضها ما لم تتفق ومصلحته الخاصة ٠

ويقول برجر ٠٠ ونظرا لأن العربى لا يستقل استقلالا تاما عن الجماعات التى ينتمى اليها ، فان ذلك يجعله فى حاجة دائمة الى الأمان الشخصى ، وذلك منذ تنشئة الطفل ، وهى تعتمد على الصدفة ، مع عدم استقرار الأسرة ، ثم القوانين المستبدة ، بالاضافة الى الفقر ، وعدم شعوره بالأمان يعبر عن نفسه فى كثير من الأعمال التى يؤديها مثلا :

١ ـ فى العلاقة بين كرم الضيافة ، والعداء ٠

٢ ـ وفى سوء الظن ٠

٣ ـ كذلك فى المغالاة التى تظهر فى بعض المواقف ٠

كذلك لا يمكن أن نفصل حالة العصاب الخاصة بالفضائل عند العربى فيما يؤديه من أعمال يومية فهى تلاحظ خاصة فى تقديس العربى لفنه ، وفى فنون الحياة ، كذلك فى الطعام • (سيتم التعليق فى نهاية الفصل) •

وبناء اللغة العربية جعل لها تأثيرا سحريا فى أبنائها ، ويقرر (جيب)(١) أن الشعور الجمالى عند العرب يعبر عن نفسه ، فى الكلمة ، واللغة ، اذ أن الكلام الفنى المنمق ذو أثر كبير على عقل العربى ، الا أن المضمون يعود على ماذا ؟ على اللغـة أم الكلمة •• ؟ واذا صـح فالكلام •• يحتاج الى ضرورة تمحيصه وفقا لأساليب الفكر والمنطق ويؤدى بلا شك الى ضعف اللغة أو ضياع تأثيرها • والبلاغة الشفهية ذات أثر كبير على المجتمع العربى قبل الاسلام ، وبعده ، يظهر ذلك فى الشعر (وغالبا ما يكون شـفويا) والخطب الدينية والأغانى وحتى فى الخطابات السياسية فى الوقت الحاضر • (سيناقش هذا بعد قليل) •

والاتصالات الشفهية ذات أهمية كبرى فى مجتمع فيه نسبة عالية من الأميين ، ولكن ولع العرب بالكلام الفنى المنمق والاغنية يمتد أيضا الى غير الأميين ، ولا يبدو أن التعلم قد قلل من تأثر العربى بسحر الخطب الدينية أو الخطب السياسية أو الأغانى الشعبية ، كذلك القدرة على الترتيل فى القرآن ذات قيمة كبرى ، وأيضا حفظه بالكامل •

وتمتاز اللغة العربية بكثرة ما بها من المترادفات ، وما تحويه من فنون البيان والبديع ، حتى أنه ليصبح استخدامها فى مجال العلم عسيرا بدرجة تحتاج الى كثير من الحيطة والحذر • فما لم يكن الكاتب مسيطرا سيطرة تامة على الفكرة ، وما لم تكن محددة تحديدا تاما فى ذهنه ، فانه يجب عليه ألا ينشر ما يكتب بالعربية ، لأنه اذا لم يكن كذلك ، فانه سيجد نفسه يكتب أفكارا لم يحلم بها اطلاقا (٢) (سيتم التعليق على هذا فى نهاية الفصل) •

وجاك بيرك وهو دارس فرنسى للشئون العربية ، والاسلامية ، قد لاحظ بحق أن الشرقى يفضل الكلمات على الأشياء ، كما يفضل القول على الفعل ، لأنه لم يسيطر على عالم الأشياء ، أما بالنسبة للغربى فان الطبيعة تحكمه • ولكن يمكن السيطرة عليها (٣) اذا فهمها الانسان ، أما بالنسبة للشرقى فان الطبيعة تحكمه فقط •

والانشغال بالطعام فى المجتمع العربى يبدأ منذ الرضاعة ، ويمتد الى مراحل الطفولة ، وجوهر الكرم هو فى منح الطعام • وفى الاسلام كما هو فى العبادات

---

(١) Gibb, Modern trends in Islam. p. 5. New York, 1936.

(٢) Salen, Forme and slistanee, pp. 17-19.

(٣) Jaque Berque. lecon Inaugurable, pp. 14-15.

السامية الأخرى الطعام مقدس ، ولكن الاتجاه الاسلامي نحو الطعام وهو الاتجاه السائد في الوقت الحاضر ، ينشأ عن مؤثرات أخرى منها الفقر الشديد المنتشر بين السواد الأعظم من الشعب ، مع الجوع الدائم ، ومنها أيضا البحث اللاشعورى عن الاطمئنان النفسي ، الذى فشلت الحياة الاجتماعية في تزويد الأفراد به •

وعمار (١) يسجل في كتابه اهتمام الأطفال الدائم بالطعام ، فهم دائما يأكلون ، أو يمضغون أشياء ، وقصصهم ولعبهم غالبا ما تتصل بالطعام ، والبالغون أيضا كثيرا ما يظهرون وهم يمضغون أو يدخنون أو يشربون ، سواء بين رفاقهم أو منفردين ، وأذكر احتفالا بالكريسماس اذيع من القاهرة في عام ١٩٥٣ حيث لم تلق خطب دينية ، أو مواعظ وانما كانت الاذاعة في أنحاء العالم توضح ما يؤكل في هذه المناسبة ، والدكتور طه حسين يذكر في كتابه الأيام عن طفل أعمى ما كان يصيبه من خجل وارتباك أثناء تناول الطعام بغض النظر عما يمكن أن يحدث له أثناء اللعب أو الجرى مع بقية الأطفال ، فهو يصف كيف أن الطفل الاعمى حاول يوما أن يأكل قطعة من الطعام بيديه الاثنين (والمعتاد هو استخدام يد واحدة) فسخر منه أخوته وانتقد أبواه هذه الحادثة التى أثرت فيه تأثيرا بالغا ، وملأت قلبه بالخجل ، ربما الى الآن ، ومن الصعب أن نتخيل مثل هذا الوضع أو نقارنه بما يحدث في منزل غربى •

ماذا يحدث لو تقابل شخصان مبالغان (متطرفان) ؟ انهما أما يصطدمان أو يجدان أسلوبا من التوفيق،ذلك هو التطرف في العلاقات الشخصية بين العرب، عداء متطرف يصحبه تأدب مبالغ فيه •

والأدب والكرم ، فضائل عرفت في العرب قبل ظهور الاسلام ، كما يقول أحد الكتاب « ان فكرة العرب الوثنيين عن الأدب والاستقامة ، تعبر عنها بكلمة المروءة ، وهى الرجولة والفضيلة ، وهذا يحوى أساسا الشجاعة والكرم ، وشجاعة العربى تظهر في عدد القتلى من الأعداء عندما ينهض للدفاع عن قبيلته، ولكن بمعاملة شريفة لأعدائه ، كما كان الحال في عهد فرسان العصور الوسطى ، وكرمه يظهر في استعداده الدائم للمشاركة في الحرب ، المشاركة في الفساد ، وفي استعداده لنحر جماله لاكرام الضيف ، والفقير ، وطالب المعونة ، وفي كونه راغبا في العطاء لا في الأخذ بوجه عام (٢) •

وهناك أسباب خاصة تدعو الى ظهور هذا النمط بين بدو الصحراء ، ولكن مثل باقى الفضائل فانها نفذت الى كل أوجه الحياة العربية • وففى

---

(١) حامد ـ لعب الأطفال في قرية من قرى الصعيد •

(٢) Moroe Berger — Arabs and Moslams.
History and Personality — Personality.
and values.

الصحراء يعتبر كرم الضيافة وسيلة لمساعدة من هم بحاجة الى الاستغاثة فى تلك الظروف العصيبة ، أما فى القرى والمدن فانه يصبح للكرم وظيفة مختلفة فهو تعبير عن العداء الدائم الذى يظهر بعنف فى أية لحظة ، والكرم المبالغ فيه ، والتأدب ، هما ردود أفعال للعداء المبالغ فيه على الأقل فى بعض مظاهره ٠

وحياة العربى مليئة بالتنافس الشخصى بين الأفراد ـ النزاع القبلى فى الصحراء ، والنزاع فى الأسرة ، والقرية ، فى المناطق المستقرة ، ثم العداء بين الجماعات فى المدن (مع كونه أكثر تسترا) ٠

والكتاب السياسيون من العرب لا يملون من التركيز على الأخوة العربية فحسب ، بل عن الخصومات العربية التى يهاجمونها هى والاستعمار ، وذلك بسبب فشل العرب فى الحصول على وحدة كاملة ٠ ان الفقر والكبت الجنسى، والاقتصادى ، والسياسى أيضا ، كلها صفات تنتشر فى المجتمع العربى ، حتى أن هناك قدرا كبيرا مما يمكن أ ن نسميه بالعداء الطافى المطلق Free Floating enemetiy والتأدب يعتبر وسيلة لابعاد الميول العدوانية من الظهور ، والكرم والسخاء هى أساليب لاظهار الصداقة التى تخفى وراءها ميولا عدوانية ٠ والشعور الفردى بأن العداء الصريح يصعب التغلب عليه فانه يتبع من أسلوب التأدب المبالغ فيه (كمظهر لتجنب العداء ، والكرم وهو مظهر من مظاهر الاستعطاف ولا يجافى الصداقة) وكلها صفات ضرورية اذا كان لا مفر من قيام حياة اجتماعية على أى نحو من الأنحاء ، والصراع يكاد ينشب دائما ، حتى أن العلاقات بين الأشخاص تكاد توجهها الرغبة فى تجنب أو ابعاد أى ميل يعبر عن الخلاف ، وهناك أساليب غير رسمية عند المناقشة الجادة للمبادىء المعارضة ، دون أن تظهر الميول العدوانية ، الا فيما بين جماعة المثقفين بثقافة عالية ، فان الناس لا يناقشون الخلافات أو أنهم يفعلون ذلك بحدة ومرارة قد وصلت فى الوقت الحاضر الى حد العنف أو زادت عليه ٠ ويبدو أن الناس يدركون بأن المنطق ميل للاختلاف الفعلى قد يؤدى الى خصومة عنيفة لذلك فهم يعملون على تهدئة المواقف حتى تمر بسلام عن طريق الوساطة أو الشفاعة ٠

وأغلب الزيارات بالمنازل هى مجرد فرص لعرض أساليب الكرم أكثر من أن تكون تبادل حتى لوجهات النظر فى أى موضـــوع ، سواء أكان جادا أو بسيطا ، فهم يجلسون ليتبادلوا الفكاهات ، وأخبار الناس بما بها من فضول ، ولكنهم يتجنبون ما يؤدى الى اظهار الغضب ٠

وقد قال عالم اجتماعى مصرى ان المجتمع العربى فى مجموعه يقف ازاء المشاعر الشخصية عند حد معين ، يجعل الفرد يتجنب اختلاف الرأى ، ويعتبر ذلك اهانة شخصية ٠٠ (وصليبية) يذكر تعليقا مماثلا على السوريين واللبنانين يقول أن العربى يتمسك برأيه بقوة ، ويحاول أن يفرضه على كل الناس واذا اختلف مع الناس ، فانه يحتال عليهم ويعتبرهم أعداء له ٠

ويقول مؤرخ عربى عن اللبنانيين والسوريين : ان التشكك والخوف والقلق والافتقار الى الثقة فى المستقبل ، والافتقار الى التوازن الاجتماعى والاستقرار ، هى الخصائص التى تتضح فى سلوك الناس ٠

وهناك دراسة أجريت على عينة من الطلبة العرب المسلمين ، فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، دلت على ارتفاع نسبة الشعور بالعداء بينهم ، عما هـــو فى جماعة مماثلة من طلبة كلية أمريكية ٠

وليس التشكك نتيجة لتجربة الفرد فى طفولته ، وما يليها من سنوات فحسب ، ولكنه أيضا ميراث من التاريخ العربى ، ان قرونا من الحكم الظالم المغتصب قد خلقت شعورا بالخوف من اظهار العوامل الشخصية ، التى قد تكون نافعة عند تقدير الضرائب ، أو عند تجنيد الشباب للخدمة العسكرية . ان المجتمع العربى يهتم كثيرا بتشجيع تقدير الذات ، والاعجاب بالذات فى المجال الشخصى ، بينما لا يشجع اظهار الملكية بصفة عامة ، مع أن هذه الملكية بالنسبة لصاحبها تعتبر الأساس فى الكرم ، والصراحة والصداقة ولها قيمة فى المجتمع العربى ، ولكن ذلك لا يمنع من التشكك وسوء الظن٠

وأجريت دراسة مقارنة للاتجاهات والميول ، بين طلبة الجامعة يمثلون عشرة دول فى مناطق مختلفة أظهرت أن المصريين بالذات يميلون الى التشكك ، وعندما طولبوا بذكر ثلاث حوادث أثرت فى حياتهم فان المصريين ذكروا أكثر من غيرهم تجارب أليمة سببت لهم عدم الثقة بالناس ، وفى اجابة على سؤال آخر يأتى المصريون بكل الأدلة التى تؤكد فكرة أن العالم يخضـــع للصداقة العمياء ، وأن الناس به أشرار خطيرون ٠

ويعبر الأنثروبولوجى حامد عمار ــ عما وجد من التشكك ، وعدم الثقة ، عندما درس القرية التى ولد فيها ومازال أهله بها ، فلم يتمكن من الحصول على تاريخ حياة الأفراد لشدة مقاومتهم لهذه العملية ٠ فقد كانوا شديدى القلق من عمل أى شىء يتصل بالبحث ، يكرهون الانضمام الى أى نشاط ، ربما يعتبر تدخلا خطيرا ، وخاصة عندما يسجل على الورق ، وقد يصل الدوائر الرسمية وهم يميلون الى أن المشاكل الشخصية يجب أن تخفى ، ولا تعرض على الآخرين وبالطبع هذا اتجاه عام ، فيما يختص بالأشياء التى يخجل الانسان من أن يكشف عنها ٠٠ ويشير بعامة الى أن السرية أتت من الخوف من الأحـــكام القاسية التى قد تصدر من بعض أفراد الأسرة على الآخرين أو تصدر عن الجيران ، الذين يسارعون فى العثور على الخطأ ، ومن الأقوال الشعبية التى تتصل بهذه السرية ما ذكره (حمادى) مثل (من يفعل عملا مشينا يجب أن يخفيه) لأن اظهار العيب عيب جديد) وقول آخر (الغلطة المدارية تلتين منسية) ٠ ٠ ٠

ولكن السرية والتحفظ يمتدان عند العرب الى الحقائق التى ليس من شأنها أن تسبب خجلا ، اذا أعلنت ، وقد وضع استخبار يجيب عليه كبار

موظفي الدولة في مصر سنة ١٩٥٣ وهي مجموعة ذات ثقافة عالية لا شك أنها أكثر علما ، بالبحث الاجتماعي عن طبقة الفلاحين ، وبعد ان وضح لهم الباحث طبيعة موضوع البحث في مقدمة خاصة ، واتبعت الطريقة المألوفة في الغرب ، من حيث تشجيع الفئة الباحثة على الاجابة باظهار أن اجاباتهم ستظل سرية بحتة ، وأنه لا يعني الباحث أن يعلن عن أفكارهم ، وانما الغرض الأساسي هو الحصول على بعض الحقائق عنهم ، وعندما اطلع بعض معاونيه على ما يكتب كتمهيد للبحث وجد أن وجهة نظرهم تعارض ما كان يظنه أمرا طبيعيا ، اذ أن المصريين لا يمانعون في ابداء رأيهم ، ولكنهم يرفضون أن يذكروا حقائق عن أنفسهم ، ذلك أن العرب يكرهون أن يعطوا بيانات عن أنفسهم للغرباء أو الرسميين ،فكأن الولادة ، والسن ، والوظيفة ، والأسرة والزوجات ، والأولاد كلها تعتبر ، أشياء خاصة بالنسبة لهم · لأنها تسبب لهم الأذى لان هذه الحقائق تعتبر جزءا من كيان الشخص ، ومعرفتها للغير ليس تدخلا أو تسهيلا لفرض الضرائب أو الخدمة العسكرية فحسب ، بل انه يعرض الشخص للعين الشريرة ، وأرواح الأعداء التي تحوم حولهم ، واللفظ العربي المستخدم للتغطية، هو الستر أو التستر ، ويستخدم في معان عدة فالمرأة اذا كانت عارية الوجه فهي مكشوفة ، واذا غطت وجهها فهي مستورة ، وكذلك الشخص اذا سأله أحد عن حاله يقول مستوره والحمد لله ، أي ليس مكشوفا ، ولا معروفا للآخرين ، أي أن من الفضائل عند العرب التستر ، وعدم اطلاع الآخرين على ما يهم الفرد ، ويورد (برجر) مثلا على الرغبة في التكتم ، الا أنه لا يوفق في هذا الاختبار ·· ويقول والنفور من الصراحة أكثر مما هو مألوف يظهر في مواقف تثير الضحك ، منها مثلا ما شهدته مع سائق تاكسي ، فراكب التاكسي لا يصرح للسائق بالمكان الذي يذهب اليه ، بل يوجهه هذا الاتجاه ، ثم ذاك ، حتى يصل الى قرب ما يريد ، ولعل تعليل ذلك يرجع الى :

أولا :

ان العنوان الدقيق لم يستخدم بانتظام وعلى ذلك يكون المكان غير معروف بعنوانه معرفة تامة ·

ثانيا :

ان الراكب كثيرا ما يخشى من السائق أن يحاول عمدا أو عن طريق الجهل الى ايجاد طريق أطول ، وبذلك يرفع قيمة الاجرة ، ولكنني أدرك دوافع أخرى تعمل بجانب ما ذكرت فالراكب يتردد في ذكر وجهته للسائق لأنه ان فعل ذلك، فانما يعطي السائق معلومات كثيرة عنه ، وبمعنى آخر يكون له نفوذ عليه ·

ومن وجهة نظرهم يرون أنه لا ضرورة لأن يخبر الغريب بمعلومات كثيرة عن أي شيء يخص الفرد ، والسائق غريب اذا فلا داعي لذلك · ومن ناحية

أخرى يمكن القول أن الراكب لا يستطيع أن يقطع الى أين هو ذاهب لأنه لا يمكن له التأكد ، من أن القدر سيسمح له بذلك ، وكذلك السائق يخشى نفس المشاعر ، ومنها تدخل القدر ، لذلك فهو حين يسأل الراكب يقول له الى أى مكان ان شاء الله (١) .

والآباء والأمهات لا يعنون بالأطفال على النحو العادي المألوف ، ولكنهم يلتفتون الى الطفل عندما يكثر من مطالبه والحاحه ، نظرا لاعتبارهم الطفل جاهلا لصغر سنه فهم لذلك لا يأبهون به كثيرا) .

فالآباء والأمهات ينتظرون حتى يصل الطفل الى السادسة أو السابعة ، لتبدأ تربيته ، بينما يكون الطفل قد اقترب من مرحلة البلوغ المبكر ، وبذلك ينتقل انتقالا مفاجئا من الحرية التامة ، الى الشدة ، والاستبداد ، بالنسبة لمعاملة والديه له ، وفى كلتا الحالتين فان تصرفات الوالدين نحو ما يعطونه للأبناء من رعاية تعتبر ضئيلة ، وغير منتظمة .

هذه السيطرة المستبدة من جانب الآباء تغرى الأطفال بتعلم أساليب لجذب الانتباه ، والاسترضاء والاستعطاف ، ليكونوا جديرين بالاثابة وتجنب العقاب ، الذى يصبه عليهم الآباء ، كأسلوب ضرورى لاخراج الاطفال من مرحلة الجهل ، ليكونوا أكثر نفعا .

ان قرونا من الحكم المستبد سواء بحكومات وطنية أو أجنبية ، قد أكدت هذه الاتجاه ، وهو ميكانيزم الاستعطاف ، هذه القوة الاستبدادية ، لم يكن من الممكن التقرب اليها الا عن طريق العلاقات اليومية ، ومع وجود كثير من العداوة ، الا أنها لم تصل الى حد الثورة .

من المعروف أن الذلة والخضوع ، ينشآن عن الاحساس بالتبعية ، لذلك فان تحقيق لاستقلال والحكم الوطنى ، فى الوقت الحاضر ، لم يغيرا هذه المشاعر الى الآن ، ولا يتم ذلك الا اذا تمكن العربى من أن يتكيف مع الحكم الوطنى كما كان يتكيف مع الحكم الاجنبى .

وجورج يوغ (٢) المؤرخ الانجليزى والدبلوماسى المحنك يرى أن قضية مصر الأساسية تظهر الأمة فى دور أنثوى تحارب بالاستعطاف والخديعة ، ممثلى الحكم الأجنبى فيها ، من يونان ورومان ، وعرب ، ومماليك ، وأتراك وألبان ثم الأنجليز .

فمصر هى الـ (الأنثى المستعطفة) ، وتاريخها يلخص فى قصة كليوباترة الأسيرة ، وأنطونيو ، أو قيصر الفاتح أو الغازى .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) دبلوماسى انجليزى امضى فى مصر فترة طويلة قبل الثورة .

وهناك مثل أو حكمة تعبر عن قيمة الاستعطاف وهو

« الخضوع عند الحاجة رجولة »

ومقدرة العربى على تنفيذ هذه الحكمة تتضح فيما يصفه (حمادى (١)) الى أن العربى لا يجد صعوبة كبرى فى تغيير ذاتيته من وقت لآخر فهو مع الآسيويين شرقى ، ومع الغربيين غربى ، ومع الجماعات القديمة رجل رجعى ، ومع الحديثة حديث ، أى أن العربى مستعد وقادر على أن يكون عضوا فى جماعة يكتسب ذاتيتها كفرد فيها ، ولو على أسس هزيلة تافهة .

فالعربى يتحين الفرص لخلق جو يسمح له بالانضمام الى جماعة ما تساعده على الوصول الى تحقيق أهدافه ، والنجاح فيما يرقى اليه أو تنفيذ خططه ، ومع أن هذه الصفات يختص بها التجار العرب فى المراكز التجارية الكبرى ألا انها تنطبق أيضا مع شىء من التعديل على العرب ككل .

(وحمادى) يشير الى الطريقتين المتبعتين للحصول على خدمة من الغير هما التدليس والتملق deluding and wheeding

وفى مجتمع تتسم فيه العلاقات الشخصية المتبادلة بالأنانية ، والعداوة وحب الظهور ، والتشكك اذن فلا عجب أن يظهر فيه التنافس بوضـــوح بين الأفراد والجماعات .

والأفراد يجاهدون ليتنافسوا مع الآخرين الذين يشغلون مراكز معينة ، كذلك الأسر والقبائل ، والعشائر ، فى كل الظروف وأساليب الحيـاة يبذلون جهودا ضخمة لاظهار تساويهم مع الآخرين ، أو أن أمكن تفوقهم عليهم .

ان المشاعر الوطنية عند العربى هى عبارة عن رغبة فى أن يرى قومه محترمين بين الأمم الأخرى ، وأن الدول العربية متفرقة أو متجمعة لها قيمتها الخاصة ، وانها جديرة بكل جديد فى مجال العلوم والفنون .

وفى المستوى الشخصى نجد أن العربى يهتم جدا باظهـــار مقدرته على البذل ، حتى أنه يقع فى الدين ، ليقيم حفل زفاف أو جنازة ، وخاصة فى الأقاليم ـ وفى المدن ينفقون جزءا كبيرا من دخولهم على المقاهى ، حيث يجدون الفرصة لاظهار الكرم ، بين عدد كبير من الناس ، ولما كان كل واحد منهم يعرف هذا الدافع عند غيره من الناس ، لذلك فكل منهم لا ينفق فحسب ، بل يكون مجبرا على تقبل كرم الآخرين ، والرفض قد يؤدى الى رفض الآخر لقبول أى شىء منه فيما بعد ، وهنا توجد أساليب معينة للتعامل بين الناس على هذا الأساس .

---

(١) كاتب مصرى معروف .

والتنافس حافز هام يستخدمه الأهل لحث ابنائهم على التقدم وتحمل المسئولية ، وهذا الأسلوب يمتد الى سنى المدرسة ، ثم الجامعـــة ، وفى أغلب العائلات يعتبر ارسال الابن أو البنت الى دور العلم تضحية كبرى وخاصة فى المرحلة الثانوية والجامعية ولذلك يكون الطلبة تحت ضغط شديد من المنزل ، ومن شعورهم بالاجبار ، ومن طموحهم للحصول على النجاح ٠

منذ أكثر من مائة عام لاحظ كلوت بك العالم الفرنسى الذى أوجد تعليم الطب فى مصر ، لاحظ هذه الصفة ـ الغيرة ـ وعبر عنها فى مذكراته حيث يقول « ان العرب شديدو الميل للتنافس ، ذوو كبرياء ، يســـهل اســـتثارة حماسهم ، وقد أفدت من هذه الميول ، وحركت هذه المشاعر بينهم ، اذ أقمت فى مدرسة الطب مناصب ودرجات وعلامات ٠ وكانت النتيجة مطابقة تماما لما توقعت ٠ ففى الامتحانات والمسابقات ، كان الطلبـة يقومون بمجهودات ، لا تقدر ، لكسب الترقية ، وحدث أن فشل طالب فى الوصول الى درجة مساعد، التى كان يعمل من أجلها فصرخ أمام الجميع ، قائلا كنت أفضل الموت على الرسوب والاهانة ، بل اننى سأترك المدرسة ، أما الذين نجحوا فقد أظهروا أقصى ما يمكن من الفرح ، وأخذ أصدقاؤهم يقبلونهم ويهنئونهم ، ويمنحون الهدايا من أسرهم ٠ ولا شك أن هذا المشهد ما زال يرى فى المدارس المصرية على مختلف مستوياتها حتى اليوم ٠

ويميل (برجر) الى الربط بين العداوة الشـخصية والاســـتعطاف ، والمنافسة ، مع أن هناك من الظواهر ما يؤكد أن المنافسة تتجه الى خلق روح التعاون والتقدم فى المجالات المختلفة . فما يتعارض مع العداوة الشخصية، ويصبح الاستعطاف على هذا النحو عديم الجدوى ، وهو يأتى بمثال لتوضيح فكرته مستخدما الدراسات المقارنة ، يقول :

وهناك أدلة من الوقت الحاضر تعتمد على المنهج التجريبى تكشف عن العداوة الشخصية بين الأفراد ، والتنافس والاستعطاف التى نتحدث عنها . منذ أعوام عديدة ويقدم برجر دراسة قام بهـا سيكلوجى مصرى (سرحان) لدراسة ميول واتجاهات (٧٠٠) تلميذ صغير فى مراحل مختلفة من سن ٥ الى ٨ سنوات ـ هـذه العينة التى درسها كانت تشمل الأولاد والبنات ٠ فى كل مستويات المدارس العلمانية بالقاهرة ، والأرياف ، وقارن نتيجة بحثه بمثيلتها فى المدارس الامريكية فوجد أن ثلث التلاميذ المصريين يعبر عن مشاعر مضادة نحو الناس وهى بنسبة ٣ : ٦ بالنسبة للتلاميذ البيض الذين ظهر فيهم هذا الميل من بين التلاميذ الذين أجرى عليهم البحث فى أمريكا ٠

ومن بين عينة من الاطفال السود فى الولايات المتحدة تقريبا ، النصف قد عبر عن مشاعر الكراهية التى ظهرت فى الاستجابات المصرية (١) ومن حيث التنافس فى المدرسة فبنسبة ٢ : ٥ فى التلاميذ المصريين وبنسبة ١٪ من التلاميذ الأمريكيين قالوا أن نشاطهم المفضل بعد المدرسة هو اعداد واجباتهم المدرسية ، والاستذكار للامتحان ، هذه الاستجابة المصرية لا تدل فحسب على روح التنافس ، بل الى حد ما على ميل الى اعطاء الاجابة ، التى يعتقد التلاميذ ، انها أفضل اجابة ، واذا كان ذلك اذن ــ فهى دليل آخر على صفة أساسية وجدها (سرحان) وهى رغبة كبرى بين الأطفال المصريين فى تنمية المزايا الاجتماعية بان يتابع السلوك الذى ترضى عنه الجماعة أو أن يتعلم الأدب والسلوك الحميد ، ومعنى هذا أن يحصل على كل أساليب الاستعطاف والغش ٠

وبين الأطفال المصريين ظهرت نسبة متناقضة تبدأ من أدنى الى أعلى الدرجات ، وبين تلاميذ الصف الخامس أظهر ٢٥٪ هذا الاهتمام ، أما بين السادس والسابع ظهر هذا الاهتمام فى ١٠٪ ٠ أما فى الثامن فقد ظهر هذا بنسبة ٤٪ و (سرحان) يفسر ذلك بأن الأطفال حين يصلون الى سن مرحلة البلوغ أى فى سن الثانية عشرة تتسع مجالات اهتمامهم وقد حصلوا على القيمة الاجتماعية ولا يعبرون عنها باهتمام ، لأنهم يوجهون انتباههم الى السؤال ، ولا يلتفتون الى القيم الاجتماعية التى حصلوا عليها مقدما ، الا أن (سرحان) لا يقدم لنا مادة تؤكد ذلك ولكن من الصحيح أن الأطفال فى المناطق الريفية المحافظة لا يظهرون ميلا شديدا فى الاهتمام ، بالقيمة الاجتماعية ، كما هو الحال فى القاهرة ، حيث توجد دوافع كثيرة للتشكك (أى أن الأطفال فى القاهرة لديهم دوافع كثيرة تشغلهم عن التمسك بالقيم ، ولذلك فهم يؤكدونها فى حديثهم حتى يعتقد الغير أنهم يتمسكون بها ، أما الريفيون فعلى العكس ، انها ثابتة فيهم لا تحتاج الى توكيد ٠

والتنافس نوع من الاتصال الوثيق بين الناس ، وبه لا توجد ظاهرة عدم الاهتمام ، نحو الآخرين ٠ وبين العرب ظاهرتا التدخل والتنافس تعتمد كل منهما على الأخرى (وصليبة) يرى أن السورى أو اللبنانى يميل الى التدخل فى شئون الآخرين ، وهو يميل الى معرفة حياتهم الخاصة ، وينتقد تصرفاتهم ، ويصحح أخطاءهم ــ هذا التدخل الذى يرمى ظاهريا الى تصحيح الخطأ هو فى أغلب الناس حقيقة ، نتيجة للحسد والكراهية فالسورى واللبنانى يحب أن يرى جاره سعيدا ، ولكنه لا يحب أن يراه ناجحا ، لذلك فهو يحاول أن

---

(١) نفس المرجع ٠

يسبب له الانحدار ، ويحط من قيمته حتى يصعد الى مكانه ، وقليلا ما نجد فى المجتمع الحالى أن الرجل الناجح يشجع المبتدىء ، ويساعده على التقدم والنجاح أو أن المبتدىء يعترف بفضل الرجل الناجح ويعلنه أمام الناس (١) ٠

ونظرا لوجود العداوة ، وسوء الظن موجهين نحو الأشخاص الخارجيين . فان مجتمع الأسرة عند العرب يظهر فيه التعاون بصورة خاطئة مع أنه فى الغرب أصبح من المألوف ، وخاصة فى القرن الأخير أن نجد تعاونا قائما على الاخلاص ، والنظام بين أفراد وجماعات ، لا تربطها صلات قرابة ٠ اننا نجد هذا التلاقى فى الحياة الاقتصادية ، بين الفلاحين والمستهلكين ، كما هو أيضا فى الحياة السياسية والدينية ٠ ولكن التعاون فى الشرق الأدنى مازال داخل محيط الأسرة ، وقليل منه يوجد خارج رابطة الدم (الأسرة) أو القرية ٠ والتعاون فى الشرق الأدنى ليس مجهودا واعيا من جماعة متباينة ، للوصول الى نفع مشترك ٠ بل هو نتيجة قيام كل فرد بدور كعضو فى أسرته أو فى جماعة أخرى ، ولا يوجد من الثقة بين الناس ما يكفى لأن يتعدى التعاون حدود الأسرة الى الجماعة بأكملها ، ويستمر وقتا ما ٠

والأب (غيروط) قد وصف القرية المصرية كمجرد مجموعة من الوحدات المجردة ، لا كوحدة منظمة ، بل ككتلة واحدة ، والفلاحون ليست لديهم مشاعر الفردية كما انهم لا يعملون متعاونين ، فهو يقول أن عدم وجود التعاون بين العناصر المتجانسة ، جعل القرية المصرية ، هى تماما كالجماعة الريفية ، فى دولة بدائية كتلة من البشر ينقصها النظام المادى ، والثقافى ، الذى يخلق فيها وحدة مترابطة ٠ وخلال خمسين قرنا ، حكومة تلو أخرى قد أبقت على هذا الوضع كما هو لأنه يساعد على تدعيم الحكومة المركزية ٠

وفيما بين جماعة متعاونة توجد نظم معينة ، لتبادل التعاون والخدمات ، بحيث يوجد نوع من الجدية فى التعامل ٠ بين أفراد هذه الجماعات يظهر فيه بوضوح تام المعاملة بالمثل كما يقول (حمادى) ان ذلك يظهر فى تعبير الناس حين يقولون أرجوك ألا تسرف فى الاكرام ، لقد جعلتنى مدينا لك حتى أن من يؤدى خدمة لغيره يعلنها أمام الناس لكى يعلم الجميع أنه فى انتظار ردها له ، ومن أديت له خدمة يظل مدينا حتى يستطيع رد هذه الخدمة ، فيعلنها أيضا وبعد ذلك يكون قد أحس بالراحة والحرية ، من عبء ما كان عليه من دين ، ولو أدبى ، واذا لم يستطع الوفاء بدينه أو أجله فهو لا يسلم من (المعيرة) وللكرم قيمة كبرى فى المجتمع ، وخاصة للمحتاج ، ولكن هذا الكرم يمتد فقط للأشخاص المرتبطين ، بالمعطى ، والذين يظهرون ارتباطهم به ، فقليلا ما يكون الانسان كريما مع من هم فى مستواه ، ولكن كثيرا ما يرغب فى مساعدة الضعيف حتى ولو كان يحتقرهم لأن الاحتقار يؤدى الى الشفقة ٠

(١) نفس المرجع ٠

ان العداء ، والكرم ، والتشكك . والاستعطاف ، والمودة ، والشكلية هذه المظاهر السلوكية تعبر عن التغيير السريع الذى يصل الى الأحقاد فى العلاقات الشخصية المتبادلة بين العرب ·

والعرب مع تكتمهم فى الأحداث الا أنهم سرعان ما يعبرون عن مشاعرهم، فالعربى يعبر عن حالته الانفعالية . بقليل من الحذر ، وخاصة فى حالات الألم أو الأسف ، وكما يقول (حمادى) ان الجمود التام الذى يميز الفرد يجعل تصرفاته فى الطرف النقيض اذا أتيحت له الفرصة فاذا سمح له بقدر من الألفة أو التهاون ، فانه سرعان ما يتخطى كل الممنوعات ، ويسأل فى أدق المسائل الشخصية ، ويكشف عن أفكاره ، ومشاعره وينتظر مزيدا من الخدمات ، والروابط بينه وبين الغير ·

وحتى من ينظر عرضا ، الى الجماعات فى شوارع المدن ، أو القرى ، فانه يلاحظ الصداقة والعداء ، متمثلين الى أقصى حدودهما ، فى الكلام والتعبير ، والمناقشات الحادة ، تبدأ فجأة ، ثم تنتهى فجأة أيضا مع ميل شديد الى استخدام العنف ·

والصداقة تكون أعمق اذا تبودلت الثقة ، وسمح بقليل من العلاقات الخاصة ·

ولكن مع وجود العقد ، وسوء الفهم ، تنقلب الى كراهية مطلقة ، وعداء ، وهناك حوادث طلاق متعددة ناتجة عن سهولة الأسلوب المتبع فى الطلاق ، وكذلك سوء الاختيار فى الزواج ، من جانب الآباء لأولادهم ، وكنتيجة لذلك فان الأطفال ينقلون من بيت لآخر ، ومن الأم الى زوجة الأب ، الأولاد فى السابعة ، والبنات فى التاسعة ، فانهم يأخذون من أمهم الى بيت الأب ·

وتعدد الزوجات مع أنه أصبح قليلا لازال يسبب تنافسا كبيرا بين الأطفال ذوى الأمهات المتعددة والأب الواحد · وحيث لا يوجد تعدد زوجات بالفعل ، فان الزوجة تفكر فى امكان حدوثه فلا تشعر بالثقة والاطمئنان · وكنتيجة لذلك فان الصداقة ذات قيمة كبرى بين الشباب العربى ، والرجال ، ولكن التشكك والكبرياء والحسد ، كثيرا ما تؤدى جميعها الى تحويل الصداقة الى عداء ، والمحبة الى كراهية ·

هذه التأثيرات ترتبط بتقاليد اقتصـــادية اجتماعية · فعدم الأمان الاقتصادى فى الصحراء ، والقرية ، والجماعات الريفية أصبح وباء بين جماعات الناس · وفى الصحراء ، والقرى على وجه الخصوص ، كانوا يحترمون القانون الوضعى ، الذى يصدر عن الحكومة المركزية ، وفى الوقت ذاته هناك قانون الدين الصادر عن القرآن · كذلك وجدت أساليب مختلفة يتخذهـا الناس لحماية أنفسهم ومنها عدم الاكتراث بما يأتيه الرؤساء من أعمال باطلة ، وعلى

وجه الخصوص فى مصر يغلق أهلها أبواب منازلهم فى المساء ، حتى يكونوا بعيدين عن أى شىء غريب أو معـــاد فى الخارج ، وفى المدن حتى الوقت الحاضر ، تبنى البيوت خلف جدران ، تسمح بشىء من الحرية فى الداخل (الا فيما يختص بعزلة حجرات النساء) ولكن عزلة تامة عن الخارج ·

والأمان الشخصى فى هذا المجتمع يعتمد على ثلاثة مصادر :

١ ـ رضا الأبوين ·

٢ ـ روتين الحياة اليومية ·

٣ ـ الطقوس والمذاهب الاسلامية ·

وقد رأينا أن الحاجة الكبرى الى رضا الأبوين تساعد على وجود الاستعطاف، وأن الأسرة ذاتها لا تخلو من التنافس والحسد · أما روتين الحياة اليومية مع أنه يتسم بالفقر الا أنه مصدر حقيقى للأمان ، الشخصى ، وخاصة فى القرية ، والصحراء حيث يعتمد عليه العربى ، مطمئنا من ناحية العمل ، والراحة ، تبعا لتغيير الفصول من جاف الى مطير ومن حار الى بارد ·

ولكن أهم مصادر الأمان الاجتماعى ، هو الاسلام ، والمعالم التاريخية للاسلام توضح الشخصية الاسلامية للفرد ، فالقوة والبساطة التى تظهر بها نظريات الاسلام ، تجعل من السهل تقبله كذلك ، تشمل تعاليمه كل أوجه الحياة الاجتماعية ، فهو يعطى المؤمن ثقة بحياة سعيدة مقبلة فى العالم الآخر دون أن يطالبه بأن يحرم نفسه من المتع ، التى أباحها له الدين فى هذا العالم ، فهو يمد الروتين ، والنظام المتبع فى الحياة اليومية بطقوس الوضوء والصلاة ـ وهى موضحة بتفاصيل كاملة فى الاسلام ـ وما ذكر فى الاسـلام عن السـلوك ، والتعامل يعطى المؤمن صورة خاصة عن حياته يوما بيوم ، وأخيرا فان الاسلام كباقى الأديان يعطى تفسيرا مقنعا عن مكانة الانسان ، فى العالم ، ثم تفسيرا لشرح أشياء تبدو غامضة للانسان ، ثم أنه قانون ، يمكن للفرد عن طريقه أن يرتبط بالآخرين لأنه وسيلة ارتباط هامة فى المجتمع ·

والاسلام فى حد ذاته قوى يتحمل التغيير ، فالدول الاسـلامية تمر بتغييرات ، ولكن الاسلام يظل صامدا لأن قيمته الكبرى للفرد ثابتة ، ذلك بالاضافة الى ما يمنحه من اطمئنان وسط مظاهر التفكك والظنون والفقر ·

وهناك نتيجتان هامتان بالنسبة لهذه القوة ·· وهما :

١ ـ هناك مقاومة كبرى لتغيير أى شىء يختص بأسلوب التفكير أو الطقوس وما لها من دور كبير فى أمان الفرد ·

٢ ـ ان الدول الاسلامية قد قاومت بعنف تأثيرات المجتمع الغربى التى قد تمس الدين مباشرة ·

يتمســك العرب بنظرية الطبــائع الأربع التى قسم اليها الفيزيولوجيون كل البشر وهى الدمــوى والصــفراوى والســوداوى والبلغمى وهنــاك شــخصية خامســة يضيفها العــامة وهى (العــادة) فيقولون انهــا طبيعة ثانية ، وأغلب كلام العرب مليء بمثل هذه الحكم ، من القرآن ، ومن الأمثال القديمة ، ومن الأقوال الشعبية ، وحتى فى الرسميات كالمرافعات أمام ساحة القضاء ، والقرآن معروف للمتعلمين والجهلة ، لأنه منذ قرون الكتاب الوحيد فى مدارس القرية ، وفى الخطب الأسبوعية بالمساجد ، وحتى المحادثات العادية تتضمن أقوالا من القرآن ، عن الله ، والنبى ، وآيات من القرآن ، والمقترحات والخطط والنصائح كلها تعتمد على القرآن ، والأمثال لتزكيتها ، ويمكن لاثنين من العرب أن يتبادلا التحية والمودة بأسلوب تقليدى الى فترة طويلة مثل هذا الحديث ذو وظائف عدة كما لاحظ الانثروبولوجى (ادوارد) ومستر (مارك) فى دراسته للعرب المغاربة باستخدام عبازات مصاغة وجاهزة يسهل بها أعمال الذهن ، والمعالجة للمواقف المختلفة ، على نحو تقليدى مألوف ، وذلك أيضا يظهر أهمية ، وسلطة التقاليد والعادات ، التى تجبر الناس على التحدث على هذا النحو . كذلك فهى هامة فى مجتمع تظهر فيه القيم من خلال الآداب العامة ، والرسميات ، فتكون للمتحدث كوسائل غير شخصية للرفض أو المعارضة أو النقد باستخدام الأمثال والعبارات التقليدية والآيات القرآنية .

١ ـ ويمكن للشخص باستخدامها أن يتجنب اظهار العداء ويمكن له أن يعبر عن الرفض والانكار بأقل قدر من الاحراج .

٢ ـ يرمى (برجر) الى ما اعتاد العامة استخدامه من عبارات وأساليب جاهزة ، للمناقشة ، والحديث ، والنجاح ، فهم كثيرا ما يستشهدون فى أحاديثهم بالأمثال ، والحكم الشعبية تأييدا لما يقولون .

فمثلا اذا كان الحديث عن تربية البنات فسرعان ما تسعفهم الذاكرة بمثل يقول « البنت زى التين تكسر لها ضلع يطلع لها اثنين » وهذا المثــل يقال فى مجال التربية بالشدة والعنف ، وفيه دعوة الى ضرورة اتخاذ موقف حاسم ، فى تربية الفتاة ، حتى لو استخدم الضرب كوسيلة لتربيتها فلن تضار بدنيا ، بل العكس ، فقد تستفيد .

كذلك يذكر فى مناسبة التربية قول آخر هو « ولدك على ما تربيه » أى أن الأبناء يشبون حسب العادات التربوية التى يستقونها من أسرهم .. يشبون عليها متأثرين بها ويتعذر عليهم أن يحيدوا عنها .

وهــكذا تكون الحــكم والأمثال بمثابة قوانين اجتمــاعية تمس كافة القيم

والمعايير ، ويخضع لها الجميع بصورة عامة ، بحيث يمكن باستخدامها أن يتجنب اظهار العداء لأنها من القوة والنفوذ بحيث يكون الرفض مبنيًا عليها كقولهم :

يا باني فى غير ملكك يا مربى فى غير ولدك ، أو أردب ما هو لك ما تحضر كيله أو « الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح » ، ومع أنها أحكام قاطعة صريحة ملزمة الا أنها تعبر عن الجمود والتزمت ، وهو ما يذكره (برجر) فى وصفة للشخصية الفردية ، ثم يضيف (برجر) الى ذلك صفات مبنية على ما سبق فيقول ٠٠ ان العرب يفضلون العلاقات التى تعتمد على التقاليد الثابتة ، لأنهم يفضلون أن تظل الأمور فى حدود المعروف المضمون ، والمجتمع يقاوم المضى فى عملية غير معروفة ، أو مجهولة النتائج ، والقرآن يحذر من اتباع أسلوب المخاطرة ـ ثم ما هى المخاطرة ؟ انها عدم اليقين ـ الحرية فى الفن والأدب ـ الاكتشاف العلمى ـ الجدل الفلسفى ـ مناقشة نظام الحكومة والسلطة ٠ انها جميعا قفزات نحو المجهول تؤدى الى صراع ، مع القدر ، مع ما وضعته سلطة الدين نحو كمال الدين وتمامه ٠ (سيتم مناقشة هذا الكلام فى نهاية الفصل) ٠

هـذا الاتجاه يتضح فى الاتجاه القدرى Authoritarianism ووجهة النظر العربية فى العالم الطبيعى الخارجى ، هى الايمان بالقضاء والقدر ، وكثيرون سجلوا رضا العربى بحظه أو بقدره ، (فعمار) يقول : ان سعادة الفلاح البادية عليه انما ترجع الى الرضا الذى يجعله يرى كل شىء على ما هو عليه ٠ هذا الرضى أساس الاقتناع بأن كل انسان يحصل على ما قدره الله له ، وهذه الفكرة تدعمها التقاليد ، وحتى وقت قريب لم يكن هناك مجال للمناقشة فى هذا النظام الموضوع من قبل الله ٠٠ والاعتقاد الشعبى قد أدى الى ما لا حظته الانثروبولوجية الفنلندية Helma Granguist فى تعبيرات كثيرة عن عرب فلسطين تقول : ان الوراثة تثبت الأخلاق بحيث لا يمكن تغيرها ، فطبيعة الفرد محددة من قبل مولده وهو يقوم بدوره المرسوم له من قبل طوال حياته ، والايمان بالقدر يعتبر طريقا للتخلص من خوف المجهول ، فالانسان لا يعجب من حدوث ما يتوقع ولكن اذا حدث ما ليس فى الحسبان ، فان الانسان يتجه الى القدر على أنه مكتوب ومقدر ، وفى النهاية لا يكون شيئا غير متوقع ، بل انه يمكن توضيح ما هو غير قابل للايضاح ورؤية ما لا يرى ٠

٣ ـ ونرى أن فكرة القدر لا يمكن أن تكون مستمدة من الدين وحده ، لأن الدين يحض على العمل ، والكفاح ، من أجل الحياة « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » (١) ٠ « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) (٢) ٠ وكثير من آيات القرآن الكريم توجه

---

(١) سورة التوبة (١٠٥) ٠

(٢) سورة الملك (١٥) ٠

الانسان الى اتخاذ دور ايجابى فى الحياة ، مع أنه لو كان الأمر متعلقا بالقدر وحده اذن لما كانت هناك حاجة الى التوجيه الالهى نحو العمل .

ولكن لا شك أن ظروف المجتمع ، وما مر به الأفراد من ضروب الظلم والاضطهاد ، والفقر ، أدى الى رواج فكرة القدر ، وانتشارها كوسيلة لاعادة الاتزان النفسى ، والتخفيف من حدة الاحباط والصراع ، فما دام الامر متعلقا بارادة عليا تلك التى لها العزة ، والجاه ، وقدرت لكل فرد نصيبه من الفقر أو الضعف ، اذا فنحن لا نقوى على رد القضاء والقدر ، وهنا تبدو عملية الازاحة كوسيلة للحصول على الاتزان ، والرضا النفسى .

٤ ــ والركود السياسى كان وجها آخر من أوجه السلوك التى عبر بها المجتمع العربى ، عن تشبثه بالرفض لمجابهة المجهول ، لتحدى القدر ، أو النظام المقــدر للأشياء ، وهو ما نسميه فى الوقت الحاضر بالتسلط . وكما يوجد التأثــير الاوتوريتارى فى النظرية الدينية ، كذلك فى الناحية السياسية أيضا ، ان الشرق الأوسط يعتبر أوتوريتارى سواء تحت الحكم الوطنى أو الأجنبى . وعندما سيطرت انجلترا وفرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر وبعد الحرب العالمية الأولى على مصر والعراق وسوريا ولبنان ، وما يعرف الآن بالأردن ، فقد ظهرت رغبة فى الحصول على نظام برلمان ، الا أن الأنظمة البرلمانية لم يكن فى وسعها أن تحل مكان الاوتوريتارينيزم ، وبخروج القوات الغربية بعد الحرب العالمية الثانيــة فشلت الحــكومات الوطنية الواحدة تلو الأخرى نظرا لأنها جميعا قد انقلبت الى حكومات عسكرية أو مدنية بيروقراطية ، دون أن تفيد من صور الديمقراطيات الغربية ، من الناحيــة الشخصية نجد ان التسلط يتضــح عند كل العرب من حيث مظهرهم العــام وشخصيتهم من الناحية الســلوكية Personal make up(١) وذلك دون شك يرجع الى حياة قرون طويلة فى ظل النظام الاوثوريتارى فى الحياة السياسية ، والأسرية .

وهناك دراسات قد أظهرت هذه الحقيقة فى الشخصية العربية ، مقارنة بالأمريكية ، فقد وضعت مجموعة من الأسئلة ، تبين تبعا لاجابات الفرد ، درجة القدرية فى الشخصية ، أى من حيث النظرة الى الحياة ، والاتصال بالآخرين . فى أحد هذه الدراسات كان المقياس الاختبارى يشمل ٣٣ عنصرا وجه الى ١٣٣ طالب عربى فى الجامعة الأمريكية فى بيروت بلبنان كان منهم ٧٠ مسيحيا وستون مسلما . من ٢٢ عنصرا من الاختبار ، هؤلاء الطلبة العرب أجابوا على نحو أكثر قدرية مما ذكره الأمريكان ، وفى كل العناصر ، الا واحد . كانت الاختلافات كبيرة جدا ، حتى أنه قد يكون من غير المحتمل أن تكون مجرد مصادفة ، كذلك تبين أنه من بين العرب كان المسلمون يظهرون نسبة أعلى نحو الميل للاعتقاد بالقضاء

---

(١) Authoritarianism.

والقدر عن المسيحيين • وفي دراسة أخرى أجريت على ٩٠ مسلما عربيا في الجامعة الأمريكية ببيروت ، ٩٧ طالبا بروتستنتينيا غير ملون (أبيض) في جامعتي كورنييل وكولجيت في الولايات المتحدة • وقد أظهر طلبة الشرق الأدنى نسبة أعلى من الأمريكان ، فكان الخلاف واضحا لا يمكن أن يعتمد على الصدفة ، ويعتمد على القدرية ، في الأوضاع ، والحياة السياسية ، والدين ، والأسرة ، والتعليم ، ثم الميول القدرية في الشخصية وقد عزز بعضها البعض الآخر •

ووجهات النظر العربية عن العالم الخارجي ، عالم الطبيعة ، والفن ، تمثل نفس الجمود والشكلية ، وعدم ميل الى النظر الى المجهول • ومؤرخ العلوم الراحل جورج سارتون ـ يقول في كتابه العلوم الاسلامية صفحة ٨٨ في العصور الوسطى كان القادة العرب يتوقون بشغف الى المعرفة والدكتور البهي وهو فيلسوف مسلم معاصر يذكر صحة حججه أن ـ الاسلام قد شجع على التقدم العلمي ، لذلك لا يمكن القول بأنه من المحتمل أن الاسلام قد فشل منذ وقت بعيد في تشجيع طلب العلم في هذا العالم (١) •

ويضيف الكاتب •• ولكن هناك بعض الشك في أن تكون هذه التفسيرات صحيحة ، ففي العصور الاسلامية المزدهرة كان المجتمع العربي الاسلامي مهتما بالعلوم كمنهج وكمفتاح لفهم العالم وكمطلب انساني ذي قيمة في حد ذاته ، واليوم يهتم باحياء هذه العلوم ، ولكن ذلك الاهتمام يتخذ مظهرا آليا في الناحية الفنية ، الصناعية ، كوسيلة لتنمية الاقتصاد القومي والقوة العسكرية • ولكن ماذا حدث فيما بين ذلك أي بين عصر النهضة الاسلامية ، والعصر الحاضر ، في القرون التي تفصل هذين العهدين • يذكر (جيب) أن نظرة الاسلام الى المعرفة هي اعتبارها وسيلة آلية لجمع ما هو معروف ثابت منذ القدم ، لا على أنها محاولة للخلق والابداع لكشف المجهول ، وقد نتجت عن ذلك مبادىء أساسية دمرت النشاط الفكري الحر ، وقضت على الرغبة في الحصول على المعرفة العلمية التي ظهرت في صدر الاسلام •

ووجهة النظر الرجعية أصرت على أنه لا يمكن لمعرفة أن تضاف الى معارف المسلمين أو تقبل في رأيهم دون أن تكذب ، لأنه لا شيء جديد يمكن أن يضم الى معارفهم ، الا اذا كان متمشيا مع ما هو معروف من قبل ـ هذا الاتجاه في رأي (جيب) أدى الى سيطرة المعرفة الاستدلالية التي تتبع المنهج القياسي بحيث لا يتحرك الذهن الا بين المتضمنات فلا يؤمن الا بالجزء المتداخل مع الكل ما دام الكل مقطوعا بصحته •

وحتى في العلوم فان العرب كانوا في حذر من الأفكار المجردة و (جيب)

---

(١) نفس المرجع •

(٢) Gibb — Modern trends in islam, pp. 64-65. New York 1950.

يقول ان اتجاه ذهنهم الى القول بالجوهر الفرد وهو الجزء الذى لا يتجزأ ، وعنايتهم بالتفصيلات والمحسوسات ، قد مكنتهم من التقدم بالمنهج التجريبى ، ولكن التساؤل الخيالى الشجاع عن طبائع الأشياء الذى يؤدى الى النظريات الأساسية التى تعتبر أصل التقدم التجريبى والتكنولوجى ظلت غريبة عنهم ، وكذلك فى الفلسفة العربية والفنون تظهر الشكلية أيضا مصحوبة بعدم القدرة على اتخاذ وجهة كاملة عضوية ، من التجربة الانسانية ، فيما عدا فترة قصيرة من تاريخها المبكر ، والحضارة العربية الاسلامية قد اهتمت بالبناء والاعادة ، وكمال فى التفاصيل بالنسبة للمعنى ، والاصالة ربط الأجزاء الى كل متماسك · وكما ان اللغة هى الرابطة الأساسية بين العرب فكذلك اللغة هى الأساس لأعظم عمل ثقافى بينهم وهو القرآن ، وكذلك العصور الوسطى وقصصهم والخرافات والفلسفة والسير ·

لقد بدأت فنونهم مرتبطة ارتباطات وثيقة بالثقافات المستعارة والأصيلة ، ولكنها سرعان ما اتخذت مظهر الجمود ، وعدم القدرة على التقدم ، اللذين جعلا للأشكال الأدبية عندهم تظهر بمظهر خاص ، يتسم بالجمود ، وعدم الحيوية بدلا من أن تكون مرتبة طيعة ، تعبر عن المشاعر والأفكار ، أو أن تكون كتفسير شامل للحياة الانسانية ·

واحترام القرآن ولغته العربية ، التى جاء بها الى المسلمين أدت الى حالة من الحصار بالنسبة للبناء الذى لم يتخلص منه المجتمع ، الا فى عهد قريب جدا ، عندما اقتبس الشعراء والكتاب والفنانون وطلاب العلم فى أواخر القرن التاسع عشر من الصور الجديدة والأفكار التى شاهدوها فى أوربا وأخذوا بها ·

« المثالى والواقعى »

بعد أن ناقشنا ولع العربى بالأفكار الصورية ، وكيف أنه يرتبط بها بوجدانه ، حتى لو أدرك أنها تناقض الحقيقة ، والتفرقة بين المثالى والواقعى ، توجد فى مجتمعات أخرى أيضا ، ولكنهم يحذرون من الثغرة التى قد تحدث بين الاثنين ، ويعتبر المثالى هو القاعدة التى على أساسها يحكم على الواقعى ، ولكن العرب يخلطون بين الاثنين فهم يعتقدون أن السلوك يصدر عن مثالية تطابقها التجربة الواقعية ، مع أن الحقيقة هى أن المثالية تشكل القانون الذى يحكم بمقتضاه على سلوكنا الواقعى ، ويذكر (ارسالى مسيحى) قصة تكشف عن ذلك فقد وضع أمام مستمعيه العرب سؤالا عن ابن فى قصة من قصص انجيل متى فقال أيهما أفضل انه اذا طلب الأب من الابن أن يفعل شيئا فيجيب بأنه سيفعله ثم لا يفعله أم أنه اذا طلب الأب من ابنه أن يفعل شيئا فانه يجيب بأنه لن يفعله ، ثم بعد ذلك يفعل ما طلب منه ، فكل العرب أجمعوا على أن الحالة الأولى هى الأفضل لأنه حتى لو لم يتمكن من عمل شىء ، فهو قد أجاب

بما يظهر احترامه لأمر أبيه فالاحترام عند العرب هو أن يصدر السلوك على نحو مثالى من الموافقة اللفظية ، لا أن يكون عملا حقيقيا يعبر عن الطاعة ٠

والخلط بين المثالى والواقعى يؤكده (صليبه) حينما يقول أن أهل سوريا ولبنان كثيرا ما يتخيلون الأشياء ، والمعتقدات كحقائق قائمة بالفعل ، لأنها تلائم مشاعرهم ، وأحلامهم ، بينما هى فى الحقيقة لا تخرج عن عالم الخيال ، وكأنما مشاعرهم هى مقياس الوجود ٠

ولعل الصورة الحديثة لهذا الولع تظهر فى تفضيل العرب وضع الخطط للتنمية الاقتصادية ، والاصلاح الاجتماعى ، وهكذا ، هى كثيرا ما تكون غير مرتبطة بمقدرتهم على تنفيذها ، أو ليسوا فى حاجة ماسة اليها بالنسبة لهم ، ولكن التخطيط يفتنهم فلا يستطيعون مقاومته ، اذ أن التخطيط يجب أن يكون شيئا كاملا كبعض فنونهم Calligraplic art التى تبدو كاملة ، صحيحة البناء ، متكاملة فيما بينها ، من ناحية المظهر لا المعنى ٠ كذلك الشعور بأنه لا ينبغى لفرد أن يفعل الا ما هو فى حدود التخطيط لأن الصورة المثالية تكفى ، بل انها من الناحية الجمالية تحقق مزيدا من السرور أكثر من الواقع المضطرب ، الذى يتعذر على الانسان القطع بصحته ، وهنا يمكن ادراك تأثير القدرية الدينية أيضا ، اذ أنه على الانسان باعتباره كائنا ميتا أن يتبع الخطط ، ولكن ليس عليه أن يصارع القدر ، هناك مثل معروف فى أنحاء العالم ، ولكنه أكثر انتشارا عند العرب وهو (العبد يفكر والرب يدبر) ٠

ومن الناحية التاريخية نجد أن الخلط الكبير بين المثالية والواقعية يمكن تتبعه فى ثلاثة مجالات :

١ ــ الخــــلافة ٠

٢ ــ العلاقة بين القانون والعادات ٠

٣ ــ الجهود التى تبذل فى الوقت الحاضر من أجل مسايرة الأمم للمدنية الحديثة ٠

فى صدر الاسلام كان خليفة النبى نظريا ، وفى الحقيقة هو زعيم المؤمنين ، ولكن فى منتصف القــرن الثــالث العربى (وهو القرن العاشر الميلادى) ، فقد أصحاب هذا المنصب سلطاتهم الدينية ، وتحولوا الى حكام زمنيين (أو غــير دينيين) ، قبضوا على زمام السلطة بالقوة ، ولكن أهل السنة أخذوا يدعون الى الاتجاه القديم وهو أن الخليفة كان قائد الجماعة الاسلامية ٠ كان من العسير أن تنتهى الخلافة بعد ما كان لها من قوة هائلة فى بداية الاسلام ٠ تنتهى الى لا شىء ، بل وأكثر من ذلك : نادى أهله السنة بأنه اذا انتهت الخلافة فان الجماعة الاسلامية تعيش فى خطأ ، فالحياة الصحيحة تتطلب وجود خليفة للرسول ولو

أن الخليفة كما يقول أرنولد (١) لا يستطيع أن يحكم خارج قصره ، وبعد ذلك أصبحت تستمد السلطة الزمنية من السلطة الدينية ، وحاليا تعثرت نظرية الخلافة ، ولكنها لم تمح بأن اعتبر المسلمون ان كل حاكم يجب طاعته •

يقول (برجر) :

لقد حاولت أن أوضح كيف أن التاريخ الاجتماعي ، والنمو الشخصي قد اشتركا فيايجاد مجتمعات فيالشرقالأدنى يظهر فيها العداء ، وعدمالطمأنينة، وسوء الظن ، والتنافس ، وتجد عوضا لها في الالتصاق التام بطقوس الدين ، وفي أساليب الاستعطاف ، والكرم ، والتعاون ، على نحو ما ، والربط بين هذه الصفات الحميدة مثل الكرم والضيافة والصفات الرديئة مثل العداوة والتشكك قد يبدو غير مألوف •

وهل يمكن أن تتغير الشخصية والقيم ؟ انها تتغير فعلا خلال فترات طويلة من الزمان اذ أنها ليست فطرية خالدة في أي مجتمع ، كما أن كل أفراد المجتمع لا يشاركون في كل تفاصيلها الكثيرة الانتشار ، ولما كان العرب يحاولون تغيير دساتيرهم بسرعة مما يدعو الى سرعة تقدم الحكام عن طريق نظرية جديدة ، وتقدم العرب عما كانوا عليه ، وما سيصلوا اليه ، وهذا التغيير بدوره يؤدي الى تغيير آخر في المعتقدات والسلوك •

والعالم العربي يعمل على رسم مستقبله بنفسه وهو قادر على ذلك ومن الجائز أن الروح الجديدة التي تســوده والتي تعتمد على الاقدام ، والعلاقات الشخصية والتهافت نحو الحرية والتي يعتنقها أقلية منه ستنتشر بين آخرين •

تعليق :

نرد على ما ذكره الغرب عن الشــخصية العربية الاســلامية المصرية ، وما وصفه بها من أوصاف تمليها نفس مشحونة بالغطرسة والعداء تجاه شعوب أمدت الغرب المتعالي بدعــائم الحضــارة التي يزهو بهــا الآن ، والحق أن (مورو برجر) لم يجد كبير عناء في تسجيل ما كتب بل انه استمد كل هذه الأوصاف والمعايب التي وردت في كتابه الذي لخصنا منه الفصــل الخامس الخاص بالشخصية العربية ، استمد ذلك من كتابات عرب يعيشون في الشرق العربي بل ومن أبناء الشرق العربي ولكنهم يكتبون ما يرضي نزعاتهم وميولهم نحو الغرب السيد فقد بذلوا قصارى جهودهم ليصفوا بلادهم بأوصاف لا يمكن أن ترقى الى مستوى التعميم العلمي الصــحيح ، بل انها لا تخرج عن كونهـا ملاحظات جزئية ، تخضع لظروف متغيرة بين بعض الأفراد في أماكن مختلفة

---

(١) نفس المرجع •

من الوطن العربى ، أى أن كتابات هؤلاء الكتاب مع تقديرنا ومعرفتنا التامة بهم جميعا لا تعبر عن حالات عامة كلية ، بل انها ملاحظات جزئية لا تتفق وأساليب البحث العلمى الصحيح ، وهى فى حقيقة الأمر تؤدى نفعا كبيرا للغرب حيث تقدم العرب والاسلام فى صورة رديئة مخالفة للواقع ، يفيد منها الأعداء أيما فائدة • اذن هى فى واقع الأمر دعاية رخيصة مغرضة ، يشترك أبناء الوطن فى نشرها وافساح المجال لها •

نقول تعليقا على ما قدمه مورو برجر ان دراسة الشخصية العربية تعتمد على أسس ثلاث هى الأنانية ـ والكرم ـ والعداء •

وما يتبعها من كبرياء جريح للحصول على المناصب وشعور دائم بالاتهام ، ثم الأنانية والانقياد •

ويفسر (برجر) الكرم عند العرب لا على اعتبار أنه فضيلة بل انه رد فعل للذلة والخضوع ، ورغبة فى التفاخر وتوكيد الذات مع استخدام أساليب تربوية ، ثم ان المؤلف يحاول البحث عن أسباب لكل ما يتصف به العربى من صفات ، أدت به الى التخلف والعجز ، فلا يجد الا الديانة الاسلامية يجعلها سببا وحيدا لكل ما ينبغى أن يتهم به العرب من نقائص •

وواضح أن الحروب الصليبية مازالت تسيطر على (مورو برجر) كما تسيطر على غيره من الكثيرين ، فهؤلاء مع جهلهم التام بالاسلام ومبادئه السمحة وما يحويه من نظم وتشريعات أنزلت من لدن عزيز حكيم ، لتكون ناموسا للعالمين ، انما يؤدى الى خير الانسان ، لا العربى فحسب بل الانسان بوجه عام •

ولكن الجهل والبغضاء والتعالى كلها تعمل لتجعل الباحث محدود الثقافة والفكر ، يعتمد على تفسير ظواهر اجتماعية بسبب واحد ، مع أنه من المعروف حتى للمبتدىء فى مجال البحث العلمى أنه لا يمكن تفسير ظاهرة بسبب واحد ، فلابد من تعدد الأسباب والا كان التفسير خاطئا لا يؤدى الى الوصول الى علم صحيح •

ولا يمكن القول بأن تأخر العرب انما يرجع الى الاسلام ، فالاسلام يقدم منهجا للتربية فريدا متميزا • بينما ترمى كل مناهج التربية التى وضعها الانسان سواء فى الشرق أو الغرب منذ أقدم الحضارات حتى الآن ، الى أن التربية تهدف الى اعداد المواطن لصالح ، فان الاسلام يرمى الى اعداد الانسان الصالح ـ الانسان كمفهوم كلى عام ، أى أن الاسلام لا يحصر نفسه فى دائرة ضيقة ، لاعداد مواطن ، بل هو يسعى الى خلق انسان عالمى صالح • « ان هو الا ذكر للعالمين » لا للعرب ولا لجماعة دون أخرى ، بل لكافة العالمين • « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا • ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فهى اذن دعوة لا تعرف حدود الوطن ، ولا القبيلة ولا الأسرة ، ولكنها دعوة عامة للبشر

أجمعين — انها دعوة حق وصدق وخلق وفضائل تسمو بالانسان الى مستوى الكمال ، وتتيح له فرص العمل والكفاح والنجاح ثم هى تضع له المبادىء والأسس الصحيحة التى يجب أن يسير عليها ويتبعها لا لكى يكون معتكفا تاركا شئون حياته ودنياه ، ولكن لكى يكون فردا عاملا مكافحا فى الحياة — لذلك حوى القرآن قوانين وتشريعات تنظم حياة الانسان ، فى شتى ضروبها ومسالكها منها ما ينظم العلاقات الاجتماعية بين الجماعات على اختلافها من الأسرة الى المجتمع الكبير بل الى المجتمع الانسانى بوجه عام ، ومنها ما يخص العلاقات الاقتصادية والتعامل المادى بين الناس ، ومنها ما يخص النظم والقوانين السياسية ، ومنها ما يوجه الى الفضائل والخلق الكريم ، الذى يهدف الى اقامة مجتمع انسانى متكامل سليم .

وبعد فلا شك أن الدين عنصر من عناصر الرقى والتقدم ان لم يكن أساس عناصر التقدم ، ولكن هناك عوامل أغفلها الغرب أدت بالعرب عامة الى ما وصلوا اليه من التأخر والتفكك ، وهى أولا وقبل كل شىء الاستعمار الأوربى فى الشرق وما نفثه من سموم فى شعوب آمنة وادعة مسالمة ، ثم ما يتبع ذلك من استنزاف لثروات تلك البلاد وتعطيل لحركة التقدم الاجتماعى ، واعاقة لحركة سيره الطبيعى ، مما أدى الى التخلف فى شتى مجالات الحياة .

كذلك وجه (مورو برجر) نقدا خاصا للغة العربية وهو ذم يشبه المدح فيما يقول الأدباء ، فاللغة العربية نظرا لثرائها الكبير واحتوائها على كثير من المترادفات ، وما تتضمنه من استعارات وتشبيهات وشتى ضروب البديع والبيان ، فان ذلك أدى الى كون اللغة العربية يصعب أن تكون لغة للعلم ، وكأنما اللغة العربية لا يمكن استخدامها الا — بالتورية والجناس ، وانه دون ذلك يتعذر الافادة منها فى الدراسة العلمية الموضوعية الخالصة .

وتلك وجهة نظر غير جديرة بالمناقشة ، وأن الدافع اليها هو ما سبق ذكره من عوامل نفسية وعنصرية ثم أنه يضيف الى ذلك أن أكثر الأخطاء التى يقع فيها العربى والعيوب التى تتسم بها عقليته انما ترجع الى العامل السابق وهو ثراء اللغة العربية ، مع أن ثراء اللغة يساعد على استخدام اللفظ الصحيح فى الوضع الصحيح بينما اللغة الضيقة محدودة المصطلحات تستخدم اللفظ الواحد فيها فى عدة معانى ، وهذا ما يساعد على اللبس والقصور فى المجال العلمى .

كذلك حاول (مورو برجر) مما قدم له من أوصاف لطبقة معينة فى المجتمع ، ولا أقول انها دراسات علمية صحيحة ، حاول أن يضع تصنيفات تنطبق على كل أفراد المجتمع ، متناسيا أنه فى ذلك الوقت لم تكن هناك شخصية قاعدية أو تنشئة قومية فى المجتمع نظرا لتباين ظروف أفراده من حيث الطبقة والكثافة والتنشئة والمستوى الاقتصادى وغير ذلك من العوامل التى

أوجدت خلافا كبيرا بين أفراد المجتمع المصرى ، أدى الى ظهور كثير من التناقض والتفكك وساعد على افساح المجال للنفوذ الأجنبى والاستعمار وما تخلف عنه من وجود طبقة خادمة للاستعمار أمينة على مصالحة ، فهى فى الوقت ذاته تتفق واياه فى الاتجاهات والمصالح • وأدى الى حدوث تفاعل جديد تكشفت عنه الصراعات التى أدت بدورها الى ايجاد سمات جديدة فى الشخصية المصرية ، وغيرت من النمطية التى يمكن أن تتصف بها الشخصية ، وهكذا تؤدى العلاقات الشبكية التفاعلية الى تغيير دائم فى الشخصية الفردية والشخصية القومية •

ونورد فيما يلى دراسة نمطية للشخصية المصرية •

سمات الشخصية المصرية

نورد فى هذا الفصل دراسات للشخصية المصرية والعربية لتوضيح معالمها.

لقد عالج بعض الباحثين المصريين موضوع الشخصية القومية فى كتاب (التربية ومشكلات المجتمع) (١) مفترضين أنه يمكن عن طريق تحليل الأمثال الشعبية ، الوصول الى قيم أخلاقية تســود المجتمع ، ويأخذ بها الأفراد ، على اعتبار أن تلك القيم تشكل اطارا عاما للخلق والعادات والعرف والتقاليد ونظرا لصعوبة هــذه العملية التى تحتاج الى جهــاز ضخم رأوا أنه يجب أن تسند الى هيئة عامة كالمركز القومى للبحوث ، واتجهوا الى الدراسة الاستنباطية عن طريق المشاهدة والتجربة الواقعية بعد أن استعرضوا الآراء الســابقة فى دراســة الشخصية ، وتبينوا أن كثيرين ممن تناولوا هذا الموضوع قد نسبوا للشخصية المصرية صفة التناقض .

فكان على مؤلفى التربية أن يحللوا صفة التناقض البادية فى الشخصية المصرية ، ليوضحوا أن النظرة العابرة السطحية غير الباحثة المدققة ، سرعان ما تحكم بالتناقض بينما عند الاختبار والدراسة العلمية ، تتضح صفة التماثل والانسجام فى الشــخصية ، ويبدو التكامل بين أجزائهــا ، وذلك عن طريق افتراض طبع أصيل للشخصية القومية ، ثم طبع اصطنعته الشخصية لتواجه به المواقف التى فرضــت عليها ، فقد عاش المصرى ثلثى عمره الحضــارى خلال خمسة آلاف عام ينعم بالحرية والسيادة ، ثم قدر له أن تحتل أرضه كاملة على يدى الفرس ، وهو منذ ذلك التاريخ بين سيد ومسود ، يتشكل ويتلون تبعا لمقتضيات الظروف والأحوال .

ومن هنا كان لابد له أن يتخذ قناعا يختلف باختلاف المواقف . ولكنه لا ينسى أبدا أنه مصرى يرتدى قناعا من صنعه ، يتقى به شر الأعداء ، ويكسبه

---

(١) الهادى عفيفى وآخرون — التربية ومشكلات المجتمع — الأنجلو ١٩٧٣ .

المرونة والكياسة عند الحاجة ، فاذا ما خلا الى نفسه فانه ينزع عن نفسه القناع ليعود مصريا صافيا نقيا طيب القلب سمحا كريما .

انهم يلتمسون فى هذا الازدواج أو التناقض ، وسيلة وقائية أو دفاعية تسمح للمصرى بالذود عن حماه وأن هذين النمطين اللذين يصطنعهما انما هما دليل على ذكائه ، وقدرته على التصرف ورغبته الصادقة فى البقاء والتغلب على العقبات مما يصادفه من جور الحكام ، أو صروف القدر .

ولقد خلط المصرى بين الأضداد والمتناقضات فخرجت شخصية ذات نمطين كل منهما يحوى جملة سمات .

أما النمطان فقد سماهما واضعو (التربيــة ومشكلات المجتمع) باسم ابن البلد ، والفهلوى ، وأكدوا على أن هذه القسمة انما هى ظاهرة وظيفية مصطنعة وأنه لا يوجد حد فاصل بينهما تماما ، فالمصرى غالبا ما توجد فى طيات شخصيته سمات النمطين معا وتتداخلان ، وكأنما يريد أصحاب (التربية ومشكلات المجتمع) ان يضعوا ابن البلد والفهلوى على طرفى نقيض بينهما أوساط تقترب بين القطبين ، أو تبتعد عنهما وفقا للظروف المحيطة بهم وأرجعوا تلك الظروف الى عوامل أساسية هى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، فكلما تحققت تلك المبادىء ، كلما أدى ذلك الى ظهور شخصية ابن البلد وتتلاشى شخصية الفهلوى .

شخصية ابن البلد .. تتألف من ثلاث مجموعات من الخصال المركبة :

« المجموعة الأولى »

وقد أطلقوا عليها اسم (الجدعنة) ، والجدع هو الناصح الذكى الكريم الشجاع ، وصفات هذه المجموعة هى :

١ ـ الايمان بالعمل ممثلا فى (الأيد البطالة نجســة) (تراب العمل ولا زغفران البطالة) (اعمل بقرش وحاسب البطال) (الشغل عبادة) .

٢ ـ الايمان بالعلم ممثلا فى (يموت المعــلم ولا يتعلم) (العــلم بالشىء ولا الجهل به) (اطلبوا العلم من المهد للحد) (الخسارة اللى تعلم مكسب) .

٣ ـ له صفات مصاحبة تعينه على العلم والمهارة ، منها الذكاء وسرعة الفهم والبديهة وقوة الذاكرة .. يرفض التبعية والتواكل وان استلزم ذلك الحد من مطالب الحياة (على قد حصيرتك مد رجليك) و (واللى يحتاجه البيت يحرم على الجامع) (حمارتك العارجة ولا سؤال اللئيم) .

« المجموعة الثانية »

وهى ما سميت (ابن نكتة) انه شخص ضاحك ، مشرق الوجه ، وذلك لأنه شديد الشغف بالنكتة والمرح ، حتى فى وقت الشدائد يتدخل العامل الدينى فيرضى بما قدر له ، ويأمل فى رحمة ربه حتى يأتى الفرج ومن هنا يقول (شىء أهون من شىء) (تبات نار تصبح رماد ، لها رب يدبرها) (ربك يفرجها) (ان تن العود اللحم يجود) (احينى النهاردة وموتنى بكره) ومع ما يبدو بين المثلين من تناقض تتضح فيها روح التفاؤل والأمل فى المستقبل والرغبة الصادقة فى أن يستمتع الفرد بحياته وبيومه تاركا للقدر دوره الذى يرجو الله أن يكون مصدر خير وسعادة ٠

هذا حس جمالى ذواق خصب الخيال له قدره على الابداع والخلق والابتكار فقد شيد المعابد والمساجد وأبدع نقوشها وتماثيلها وقبابها ومآذنها :

صدوق ودود يؤمن بالصداقة ويقدسها (خدلك فى كل خطوة صديق ولا فى كل بلد عدو) (اعمل المعروف وارميه البحر) (من القلب للقلب رسول) (اللى يريدك ريده ومن خيرك زيده) (القلوب عند بعضها) ـ (لاقينى ولا تغذينى) ٠

يقول د٠ حسين فوزى فى (سندباد مصرى) انه شعب فيلسوف مسالم يتكلم بالكناية ٠

« المجموعة الثالثة »

انه انسان طيب ، ومعنى ذلك أنه :

(أ) متدين فهو يصدر عن عقيدة ومبادىء وردت فى الكتب السماوية التى يستمسك بها ، لذلك يظهر لفظ الجلالة ، فى كثير من أحاديثه « ان شاء الله ـ باذن الله ـ باسم الله استغفر الله الحمد الله » ، وسائق التاكسى يكتب على سيارته سيرى بأمر الله وبعض من الناس يزينون بيوتهم بالآيات القرآنية ٠

والتدين يؤدى الى التمسك بفضائل الدين كالعدالة والجدية والبعد عن الآثام (امشى عدل يحتار عدوك فيك) ويقول (يصلى الفرض وينقب الأرض) (يفتى على الابرة ويبلع المدرة) أى أنه لا يرضى بالدين ، كمظهر غير مطبق فى حياة الناس فهو لذلك ينقد نقدا لازعا من يبدى الاستقامة مع انه فاسد ، ومن يضيع وقته فى النصح والارشاد بخصوص أشياء تافهة ثم يستبيح لنفسه اغتصاب الكثير ٠ (مال الناس كناس) ٠

(ب) كريم مضياف محسن ، كما تصوره الأمثال (لقمة هنية تكفى مية)

(جحر ديب يساع ميت حبيب) لاقيني ولا تغديني) (حبيب ماله ، حبيب ماله ، عدو ماله ، عدو ماله) ٠

(ج) صبور قانع يقول (الصبر مفتاح الفرج) (طولة البال تهد الجبال) ، ما تجيبه الريح تأخذه الزوابع ، فهو لا يرضى بالمال الذى يأتيه دون عمل وعناء ٠

يقول د٠ حسين فوزى شعب علمه (ظالموه الحذر وصون اللسان كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المتسترة ، فما عرفت والله شعبا فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى قدرته على التلاعب بالألفاظ) ٠

(د) يهتم بالمخبر ولا يهمه المظهر فيقول (ولا كل من ركب الحصان خيال) (نشفت البركة وبانت زقازيقها) ـ (يا متبع الزول يا خايب الرجا) (من بره الله الله ومن جوه يعلم الله) ٠

والنمط الثانى كما جاء فى (التربية ومشكلات المجتمع) هو مايعرف بالفهلوى وهى تسمية استخدمها د٠ حامد عمار فى كتابه (بناء البشر) ويرى ـ عمار أنها تصلح للشخصية القومية بوجه عام ، بينما يرى مؤلفو التربية مشكلات المجتمع أن هـذا النمط يوجد بجانبه نمط ثان هو ما قدمناه (ابن البلد) ، و (الفهلوى) يعبر عن الشخصية غير الأصيلة بالنسبة للمصرى ، ولعل هذه التنشئة ترجع الى العصر الذى احتل فيه الفرس مصر الفرعونية والأصل فيها بهلوى ، ولكنها حرفت الى فهلوى وسمى الشخص ذو الصفات التى تعارض صفات المصرى الأصيل بهذا الاسم ، وكان طبيعيا أن يسمى المصريون القدماء الفرس عندما يتعاملون معهم باسم بهلوى فهو تعبير عن الفارسى القديم كما سمى المصريون فى العصر الحديث الأجانب المحتلون باسم الافرنج نسبة الى الفرنسيين ، وكذلك أطلقوا الاسم على من يتملق الفرس وينافقهم ، ثم استمرت الكلمة لتدل على كل من يتملق الحكام ٠

وتتكون شخصية الفهلوى من مجموعات أربع ذات خصال مركبة لكل منها ملامح تتبعه ٠

المجموعة الأولى :

كنتيجة للطغيان ، والبطش ، من جانب الحكام ، وظهرت الزلفى والاستكانة من جانب المحكومين ، وظهر ذلك فى أقوالهم (آخر خدمة الغز علقه) (العين متعلاش على الحاجب) (حكم القوى على الضعيف) (يبنى قصر ويهدم مصر) ٠

وظهر عن ذلك خلق يتفق وظروف الحياة يعتبر من سمات هذه الشخصية مثل :

(أ) الانتهازية يبدو فى (اللى تغلب به العب به) (اتمسكن لما تتمكن) (حلال كلناه حرام كلناه) (ياكل ويشرب ووقت الشغل يهرب) (اشهد لى بكحكة أشهد لك برغيف) ٠

(ب) النفاق (الخضوع عند الحاجة رجولة) (طاطى لها تفوت) (ان عبدوا العجل حش وارميله) (أبعد عن الشر وغنى له) ٠

(ج) الأنانية (آردب ما هولك ما تحضر كيله) (ما ينفعك الا نفسك وقرشك) (ما يبكى على الميت الا كفنه) ٠

(د) الحقد (يدى الحلق للى بلا ودان) (زبال وماسك ورده) ٠

(و) اللامبالاه (زى فار المركب عامت يقرقش غرقت ينط على البر) (حمله على ظهر غيره) (اللى له ظهر ما ينضربش ع لى بطنه) ٠

(ز) السخرية ، لقد تعلم المصرى بعد أن تبين له أن الحياة على هذا الحال أصبحت تافهة لا قيمة لها ، بعد أن فقد صفاته الأصيلة ، وأصبح لا يأبه لشىء ، فتحولت ابتسامته الى سخرية لاذعة يوجهها سهاما فتاكة ضد أعدائه من الخارج والداخل ، فقد أصبح يؤذى نفسه ، عن طريق تلك السخرية اللاذعة ، مما يسبب له الحيرة والقلق ، ويجعله أقرب الى الحزن والاكتئاب ٠

(ح) الحزن ، وهى صفة ملازمة للسخرية ، ويتضح فى كثير من المواويل الحزينة ، والأساليب التى تتبع فى مناسبات الوفاة ومظاهر الوفاة ، تبدو كما لو كانت حزنا اجباريا ، يفرضه الشخص على نفسه بدافع لا شعورى ، لا يمكن أن يفطن اليه ، ويتبع الوفاة بالجنائز والسهرات الحزينة ٠٠ ويقيم المصريون فى أغلب المستويات ثلاثة أيام (للحزن) وهذه التسمية وحدها كفيلة بتوضيح المكنونات اللاشعورية التى تهيمن على الموقف وتفرضه فرضا على الانسان فى تلك الظروف ٠

كذلك الخميس فكل خميس يعتبر عزاء مستقلا ، ثم الأربعين ، ثم ما بين تلك ، من زيارات ، للقبور ، فى المواسم والأعياد ، ثم خاتمة السنة ، وكلها مناسبات اجبارية للحزن ، وزرف الدمع ، كذلك تظهر رغبة عارمة فى الاتجاه الى الحزن ، والأسى فى الموال المصرى (وقد أوضحنا ذلك عند الكلام عن الموال) ٠

« المجموعة الثانية التواكيلية »

وذلك لاعتماده على البخت ، والحظ ، والقدر ، والمكتوب ، والقسمة والنصيب ، وكلها اتجاهات دعمتها ظروف الحياة ، وشجع على الأخذ بها ، والايمان بصحتها بلا جهد ، ولا عمل ـ المستعمر وأتباعه ، مما كان يضاعف لهم فرص الكسب فى غفلة من المصرى ، وانصرافه الى الايمان بالبخت ، والقدر ، دون سعى أو اجتهاد •

ومن هنا ظهرت أقوال مثل قيراط حظ ولا فدان شطارة (اجرى جرى الوحوش غير رزقك لا تحوش) •

« المجموعة الثالثة ـ العاطفية المتزايدة »

تبدو فى ملامح الفهلوى نزعة واضحة الى الاسراف فى الأفراح ، والأحزان نظرا لسرعة تأثره ، ولعدم قدرته على الانضباط الانفعالى ، لذلك نجد من المشاهد الغريبة فى جنائز هذه الطبقة ما لا نراه عند غيرها ، فالنساء تصبغ وجهها بالنيلة ، أو بالطين ، وكذلك تضع على رأسها ، وتسير حافية الأقدام ، وتلطم الخدود ، وتشق الجيوب • وفى الأفراح يبدون من مظاهر الابتهاج ما يكون سببا فى ايذاء من حولهم من الجيران . نظرا لكثرة الضجيج . ولاستخدام مكبرات الأصوات ، والسهر حتى الصباح ، وكلها أساليب لتوكيد الذات ، مع عاطفية مرتجعة ، واضطراب وجدانى ، يعبر عن الخواء ، وعدم الاتزان ، وحتى فى تعامل تلك الطبقة ، نرى الثورة ، وسرعة الانفعال ، وعدم القدرة على ضبط المشاعر •

« المجموعة الرابعة ـ المظهرية »

وهو اتجاه يعبر عن قصر النظر ، وخواء الفكر ، والبعد عن جوهر الحياة ، والتمسك بقشورها ، ومن الأقوال المشهورة (كبر الكوم ولا شماتة العدا) حتى فى العبادة (بركة يا جامع اللى جت منك ولا جتش منى) فهو يتظاهر بالرغبة فى التعبد ، ولكنه يسر عندما يجد المسجد مغلقا •

وبعد اننا لا نستطيع أن نفصل بين نمط ابن البلد ، ونمط الفهلوى ، فظروف الحياة ، تحتم وجود كل واحد ، منها فى وقت معين ، ولكن هناك عامل هام يجب الا نغفله ، وهو المستوى الثقافى والقيم ، التى يربى عليها الفرد ، والتى استحالت اطارا مرجعيا ، لخلقه وسلوكه ، والتى يصدر عنها فى أحكامه وعلاقاته بالناس وبالأشياء • ان ظروف المجتمع وحدها عند (أصحاب التربية ومشكلات المجتمع) لا يمكن أن تكون هى الدوافع الى التخلى عن القيم والمبادىء •

أننا نرى أنه بجانب العوامل الاجتماعية ، وظروف الحياة يجب ألا نغفل الثقافة والخلق ، والقيم ، والتنشئة ، والبيئة الاجتماعية • بالاضافة الى العوامل النفسية والفروق الفردية •

حتى اننا لنرى بين أفراد الطبقة الكادحة ، من تمسكوا بقيم رفيعة ومبادىء خلقية كريمة ، جعلت سلوكهم ، يتسم بالاصالة ، ويعبر عن سمات المصرى • وتؤكد بلاكمان (١) فى دراستها لفلاحى مصر العليا « ان عطفهم وتعاونهم خاصة فى وقت المصائب ، ملاحظ تمام الملاحظة ، وكقاعدة عامة يمكن القول ، **بأن الانسان مهما تكن درجة فقره ، فهو على استعداد دائما لأن يشاركه الناس فى طعامه ، ومأكله ، وأن يمنحهم كل معونة ممكنة ، ان هذا الجانب النبيل فى شخصيات المصريين ليبين كم يمكن أن يصير هؤلاء الناس نبلاء أو أحسن اعداد المرآة » •**

---

(١) Winifre J.S. Black man The Fallahine of Upper Egypt. Their relig. Social indus — life to day. George Harrap. adco. T.T.D. London 1948, p. 46.

دور الأسرة المصرية فى عمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع من وجهة النظر السيكلوجية

مراحل النمو وما يتسم فيها النشء من صفات :

لا تقتصر مسئولية الأسرة على مجرد حماية الصغار ، من الأخطار ، وامدادهم بالطعام ، للابقاء على حياتهم ، بل أن هذه المطالب البيولوجية ، ذات صلة وثيقة بشخصية الفرد ، وانها عملية تهدف الى تنمية شخصية الطفل ، بقدر ما تهدف الى نموه البدنى ، وتبدأ هذه العملية من ولادة الطفل ، وتستمر الى نهاية مرحلة الطفولة المبكرة ، فيما يقول بعض علماء النفس ، أو الى الطفولة المتأخرة ، حيث يمكن أن تحدث تغيرات أساسية فى الشخصية فى فترة المراهقة ، أو غير ذلك ـ فالرعاية والحماية ، وظيفتان تربويتان أساسيتان فى حياة الأسرة ، مهما كان مستواها الثقافى والاجتماعى والاقتصادى والدينى ، الا أن مظاهر كل منها تختلف من أسرة الى أخرى وفقا لاختلاف تلك المستويات ، مضافا اليها التجارب الوجدانية والانفعالية ، التى تمر بها الأسرة ، فطريقة حماية الأسرة لصغيرها ، أو رعايتها ، له ذات آثار عميقة فى شخصيته ، وبذلك تتضح بعض عوامل الاختلاف فى التنشئة الاجتماعية ، والتطبيع داخل الأسرة المصرية ، فالطفل بعد أن ترك حياته ، التى تقوم على التبادل الكيميائى مع الأم ، يبدأ حياة أخرى تقوم على التبادل الاجتماعى ، ومن خلال هذا التبادل والتفاعل الاجتماعى ، تنشأ ، وتزداد قدراته المختلفة تدريجيا ، فنمو شخصيته وفقا للأوضاع ، والنظم الحضارية ، التى تتفاعل معها داخل الأسرة ، بالاضافة الى استعداداته الفطرية ، وذكائه ، وقدراته ، ولتناقش موقف الأسرة عند حماية الطفل ورعايته ، واشباع حاجاته ، عن طريق الأخذ والعطاء ، فهنا يظهر الاختلاف الواضح بين أسرة وأخرى فى أساليب التنشئة ٠

فالاندفاع فى حماية الطفل من الخطر ، الى حد المبالغة يسبب له القلق والاحباط ، وعدم القدرة على مسايرة البيئة المادية ، من ناحية أخرى نجد الأهمال فى حماية الطفل ، قد يؤدى أيضا الى مشاعر القلق ، والخوف الدائم ،

من اهمال الغير له ، وكذلك ، فان سياسة تحقيق كل مطالب الطفل بقصد ارضائه ، دون ما ترو أو تعقل بالنسبة للمواقف المختلفة ، تعتبر سياسة ضارة ، مثل التقصير في حماية الطفل ، واشباع حاجات الطفل ليس عن طريق عمليتي الأخذ والعطاء ، ان صح لنا استخدام هذا التعبير ، فيكون الأخذ هو الارضاع والعطاء هو الاخراج ، الا أن العملية الأولى ، الارضاع ترتبط بالمرحلة الفمية ، وأثرها يتضح فى ظهور الخلق الفمى عند الطفل • بينما العملية الثانية الاخراج ترتبط بالمرحلة الشرجية وأثرها •• يتضح فى ظهور الخلق الشرجى •

فاذا كانت عملية الأرضاع استجابة لرغبات الطفل ، كلما بكى ، دون تنظيم أو توقيت ، كما يحدث عادة فى الأوساط الشعبية ، وفى الريف ، فان ذلك يحدث للطفل لذة كبيرة ، ويظهر أثره على الخلق فيما يلى :

١ ــ ظهور اتجاه تفاؤلى نحو الحياة (فى مراحل النمو التالية حتى بعد تمام النضج) فتتسم شخصيته بالطمأنينة والهدوء ، لأن كل شىء سيسير سيرا حسنا ــ ويميل أيضا الى الأخذ دائما(١) •

٢ ــ الاسراف فى الأرضاع ، كنتيجة للعطف الشديد من الأم غير المثقفة ، يجعل الطفل مفتقرا دائما الى العطف ، والاعتماد على الغير ، وكثيرا ما نلاحظ تلك الظاهرة فى الشعب المصرى ، وقد لا يقوى على القيام بأى جهد حين يسند اليه أى عمل ••

أما اذا تمت عملية الارضاع على نحو لا يحقق للطفل ، اشباعا كافيا ، فان الطفل ينشأ غير قانع ، مفتقرا الى الصبر ، متشائما ذا ميول مادية واضحة ، ترضيه القسوة وانزال الالم بالغير ، كما هو الحال عند ترك الصغير للمربيات والخدم فى حالة انشغال الأم بأعمال خارج المنزل •

والمرحلة التالية فى النمو هى المرحلة الشرجية وتعتمد على :

١ ــ الجهاز العضلى وقدرته على أداء وظيفته بدقة •

٢ ــ الصراع الناشىء من هذه العملية فبعض الأسر الريفية فى مصر لا تهتم كثيرا بأسلوب الاخراج ، والنظافة بينما بعض الأسر ذات الثقافة الراقية تعطى تلك العملية أهمية بالغة ، وتدرب الطفل منذ الأسبوع الأول على أدائها بما يحقق النظافة والانتظام ، ونوع التدريب ، بين الكبير ، والطفل يؤثر فى شخصيته مستقبلا فكلما كان التدريب مبكرا وقاسيا واجباريا ، فانه

(١) سيد المغربى ــ الكتاب السنوى فى علم النفس والشخصية السنوية مع دار المعارف بمصر ــ سنة ١٩٤٥ •

يؤدى الى الشعور بالفشل ، والهزيمة ، والرغبة فى العصيان ، نتيجة لعــدم الثقة بالنفس ، مما يؤدى الى محاولة جديدة للارضاء يبذلها الطفل كعملية دينمية تتم لا شعوريا لاعادة الاتزان وذلك عن طريق رضــوخ أو ادعاء بالقدرة والاستقلال بما يفوق الحقيقة ٠

وينتج عن كل ذلك ــ القدرة على أو الفشل فى ــ الضبط فتكون عند الطفل مشاعر التعاون والاستقلال والتمرد ٠

ومشاعر التعاون مع الاستقلال تؤدى الى اعتبار الذات والكرامة ٠

ومشاعر التمرد مع الاستقلال يصحبها الاحساس بالشك والخجل ٠

والخلق الشرجى يتضح فى النزعة الى ، الترتيب الشديد ، والنظافـــة المفرطة ، والدقة البالغة فى أداء الواجبات ، على نحو وسواس ، قهرى ، وذلك نتيجة للدقة والتنظيم الشديدين لعملية الاخراج ٠

٣ ــ البخل الى حد التقطير ، واكتناز المال ، كنتيجــة للامســـاك ، والاحتفاظ الطويل بمواد الاخراج ، وقد لا يفوتنا الاستعمال اللغوى للفــظ للتعبير عن البخل فيقال ٠٠ فلان ممسك ٠٠ كتعبير عن البخل على أنه يرجع الى ادراك لا شعورى لتلك الحالة ٠

٤ ــ النزعة الاستقلالية ، والتعالى ، مع الاعتقاد بتملك قدرة فائقة ، كنتيجة للتدريب المبكر على الضبط ٠

٥ ــ الاستهتار والسلوك الهدام ، كنتيجة للاهمال فى عمليات التدريب والضبط ، والمرحلة الشرجية ذات أثر كبير فى اكساب الطفل خلقا يؤثر فى شخصيته ، فكما أنه يتعرض لأزمات وأضرار الا أنه أيضا يستمد القدرة على الاحتمال ، والمثابرة ، والدقة ، والنظام ، والقيادة من خصائص لا شعورية مكتنزة منذ طفولته المبكرة ٠

٦ ــ والمرحلة الثالثة من مراحل النمو هى مرحلة المبادرة ضد الأثم ، وتبدأ من الثالثة ، وتتحقق بالتلازم الذى يحدث بين النمو النفسى والنمــو الجسمى ، وتظهر فيها الرغبات الطفلية ، والأخيلة الجنسية ، الا أنه وفقــا للبيئة ، التى ينشأ فيها الطفل ، ومستوى الأسرة ، والمربين على الخصوص ، وما يهدفون اليه فى تربية الصغار ، بالاضافة الى أهداف المجتمع ، يختلف مظهر النمو من طفل لآخر ، الا أن المبادأة الذكرية والأنثوية تظهر فى هــذه المرحلة فى وضوح ، فالطفل يمارس المنافسة ، والغزو ، والهجوم ، ويتضح ذلك فيما يميل اليه الأطفال من العاب فالأولاد يلعبون (عسكر وحرامية) (وقد ترقى الى مستوى الكراسى الموسيقية) وكذلك فريق الكرة ، أو اللعب بالمسدس ، أو الجرى فى مسابقات ، والبنت تتعلق بالعرائس ، وتشترك مع مثيلاتها فى (لعبة الستات) أى أنها تتأهب لا شعوريا ، لكى تكون مثل

أمها ، وكثيرا ما تختفى الطفلة الى داخل حجرة أمها لكى تعبث بكل ما تراه من أدوات التجميل ، فتتزين كما تفعل أمها على نحو طفلى ، فالطفلة فى هذه المرحلة تمارس ما تجعلها محبوبة وجميلة ، وتؤدى عمليات الزجر والعقاب الى الاحباط والصراع مما يسبب شعور الطفل بعدم الثقة ، وافتقاره الى العطف .

وذلك يحدث وفق علاقة الطفل بأبويه ، أو بالمربين ، ويشكل شخصية الطفل تبعا لتلك العلاقة .

وتؤدى الاخيلة والرغبات الطفلية ، فى تلك المرحلة الى مشاعر الاثم مما يجعل الطفل ، فى موقف الآثم ، والقاضى فى وقت واحد ، فهو يتخيل الآثم ويتخيل أيضا العقاب على رغباته الجنسية المحرمة ، وعملية انزال العقاب ، ولو أنه وهمى انما ترجع الى تكوين الضمير ، عند الطفل ، فهو يحاسب نفسه ويشعر بالخجل على آثام لم يرتكبها ، ولكنه كان يتمنى ممارستها . وهنا يظهر الشعور الخلقى عند الفرد ، على أن الاحساس الخلقى المرهف وما يتبعه من يقظة مسرفة فى الضمير ، يؤدى الى نتائج عكسية ، فالتأنيب الدائم والشعور بالاثم والحاق العقاب ، مما قد يؤدى الى المرض النفسى ، ويدفع الشخصية بالقسوة والتمرد والمقاومة ، أو بالكف ، أو أظهار الطاعة العمياء ، حتى تتحلل شخصيتهم ، ويقضى فيهم على روح المبادءة ، وتلك صفات أدت بكثير من أبناء الشعب الى الانصراف ، عن مشاكل بلدهم ، وتركها لقمة سائغة للغاصبين ، وفى الأوساط الشعبية ، قد يكون للأم تأثير بسيط على أبنائها ، نظرا لضعف مركزها ، كامرأة ، ولأن الوالد يمثل السلطة العليا للطفل ، فانه لا يسلم فى هذا الموقف من توجيه الكراهية اليه ، فهو الذى كون لدى الطفل هذا الضمير القاسى ، فقد أصبح الطفل فى موقف يشعر معه أن أباه ، لم يكن يرمى الى خير واصلاح بالنسبة له ، عند تنشئته ، وتطبيعه وانما كانت من وجهة (نظر الطفل) رغبة والديه فى اظهار القوة والاستبداد ، مما يؤدى به الى الحقد ، والكراهية والرغبة فى الانتقام . وكلها مظاهر لا شعورية أوديبية تتحين الفرص للتعبير عن ذاتها .

واذا كان المجتمع ، هو السلطة التالية بعد سلطة الأب ، فان الطفل عندما يصبح رجلا ، ينتقم لنفسه من هذا المجتمع القاسى المستبد ، أى أنه يحيل كراهيته وحقده على الأب ، الى أبيه الأكبر ، وهو المجتمع ، فتتحلل الروابط الاجتماعية ، ويشقى الفرد ، باضطراب نفسى يحرمه الحياة الاجتماعية الصحيحة ، ويظهر ذلك فيما يبديه بعض الأطفال داخل الأسرة من النفور والعصيان والتمرد .

وفى المرحلة الرابعة من مراحل النمو تتخذ التنشئة الاجتماعية والتطبيع، فى مصر مظهرا ذا أثر كبير فى شخصية الطفل وحياته فها هو الطفل قد التحق بالمدرسة الابتدائية ذات الطابع التقليدى فى بلدنا ، حيث يكون الطفل

سلبيا يتلقى المعلومات دون أن تتاح له حرية الحركة والتعبير والافصاح أو أن يترك للعب التافه غير الهادف الذى لا يخضع لاساليب تربوية أو تخطيط صحيح وهو فى كلا الأمرين لا يحصل على فرصة صحيحة لاكتساب الخبرات وكشف مواهبه ، والتعبير عن ميوله ورغباته ، بالاضافة الى التمرين على ضبط النفس والدقة والجدية والنظام ٠

والطفل فى هذه المرحلة تنتابه ، رغبة قوية فى العمل أى عمل ليؤكد ذاته ووجوده ، ويحظى بالتقدير والاعجاب من الكبار فيبعد عن نفسه الشعور بالنقص لذلك نراه يرغب فى المشاركة ، فيما يقوم به والداه من أعمال حتى يقنع نفسه بانه أصبح كبيرا قبل أن يكون كذلك من الناحية البيولوجية ٠

الا أن قصور الطفل عن تأدية العمل كالكبار ، قد يصيبه بمشاعر عدم الكفاية ، والنقص والافتقار الى المقدرة ، وقد يكون شعور الطفل بالقصور أو الفشل بسبب تثبيط ، من الوالدين أو المدرسين فيؤدى ذلك الى الاحباط ، بينما الطفل يحتاج الى التشجيع والحفز ، ومن هنا كان لكل من المدرسة والأسرة دورها الخطير فى شخصية الطفل ، ازاء هذه المشكلة وما ينبنى على ذلك فيما بعد ، كذلك تتضح فى الطفل فى هذه المرحلة ، اتجاهات قوية نحو العدالة والمساواة والحق ، فاذا وجد أنه فى المدرسة يحصل على أكثر مما يستحق من ثناء وحفز نظرا ، لأنه ابن فلان أو غير ذلك ، من الاعتبارات ، التى كثيرا ما نراها تبرز فى المدرسة ، على أنحاء مختلفة ، فانه يدرك ان قيمته ليست مستمدة من ذاته ، بل من عوامل خارجية مما يفقده الثقة بذاته ، ويؤدى به الى مشاكل متعددة تظهر فى المراحل التالية من نموه ، فالشاب عديم الثقة بذاته لا يستطيع أن يقيم علاقات ودية مع الآخرين ، بينما المجتمع يعتمد فى تكوينه على الأشخاص الأصحاء وجدانيا ، ونفسيا ، بحيث يستطيعون أن يقدموا الصداقة والحب والعمل النافع لهم ولغيرهم من الناس ٠

ومن جملة ما يتلقى الفرد ، من تربية وتنشئة صحيحة بمنأى من الصراع والأحباط تتكون لديه اتجاهات صحيحة نحو الدين ، والسياسة والنظام الاقتصادى فى بلده ، فيقوى على النهوض بدوره فى المجتمع قادرا على تحمل المسئولية والقيادة ٠

هذا ولا يمكن لنا أن ننسب للأسرة وحدها كل تبعات التنشئة والتربية ، وأن نجعل للمدرسة دورا ثانويا فى هذا الموضوع ، بل لا بد لنا أن ندرك أن هناك بجانب الأسرة مؤثرات اجتماعية كثيرة ذات فعالية دينامية تهيمن على عملية التنشئة الاجتماعية فى داخل مجتمعنا المصرى ، فهناك العامل الدينى والعامل الاقتصادى والعامل الاجتماعى ، والعامل الثقافى ، والأوضاع الحضارية ، تتفاعل فيما بينها لتخرج كائنا واحدا متأثرا بهذه العوامل جميعا ، وفى

آن واحد .. ويعود تأثيرها من ناحية أخرى على طريقة التنشئة والتطبيع التى تتبعها الأسرة مع أبنائها .

فالتأثير الدينى يتضح فى التعليم الأزهرى ، وكان هو النمط الغالب فى الثقافة والتعليم ، حتى الثلاثينات ، وكان يتسم بالقدرية ، والغيبيات بالاضافة الى استخدامه لأساليب رجعية فى التعليم ، تحقق سلبية التلميذ ، وتحرمه من النقاش والفهم الموضوعى الصحيح .

وكان التعليم فى القرية يعتمد على الكتاب ، ويشرف على الكتاب (عريف أو فقى) وهو من تلاميذ الأزهــر ، الذين لم تتح لهم فرص تكملة الدراســـة به اكتفى بقدر من التعليم هناك ، وعاد الى قريته شيخا فقيها ليعلم أبناء القرية القرآن ، عن طريق الحفظ الآلى دون أدنى محاولة لفهمه أو تفسيره ، وكذلك يعلمهم مبادىء الحســـاب ، وهو يستعين فى ذلك بأســـاليب لا تربوية تفقد ، الطفل شخصيته ، وكيانه ، فهو موضع رعب ورهبـــة بالنسبة للأطفال وقاس لا يعرف التعليم الا عن طريق الضرب بالفلكة ، وهى وسيلة من وسائل التعذيب فى المدرسة القديمة .

وحتى المدرســـة الالزاميـــة فى ذلك الوقت لم تكن على قدر أكثر ارتفاعا من التطور والنضج ، فمدرسوها كانوا من أنصاف المتعلمين من خريجى دور المعلمين القديمة ، وممن درسوا القشور فى التربية ، وعلم النفس فلم تثبت فى عقولهم ، ولم تتأثر بها نفوسهم ، لذلك كانوا يعبرون عن تطور مظهرى لا حقيقى بالنسبة للعملية التعليمية ، ويستخدمون أساليب الضرب كما هو الحال فى الكتاب ، وكان التعليم فيها بالمجان مما جعلها تقتصر على أبناء غير القادرين ، فى مقابل المدرسة الابتدائية التى حـــرم فيها الضرب بقانون من وزارة المعـــارف فى ذلك الوقت ، فقد كان التعليم فيها بمصروفات واقتصر على أبناء القادرين .

أى أن العامل الاقتصادى كان يؤثر على نوع التعليم ، والتنشئة والأساليب النفسية والاجتماعية فى التربية .

وفى سنة ١٩٢٣ عندما وضع أول دستور لمصر وأصبح للبلاد ملك ظهر أثر ذلك فى مناهج التعليم بأن ادخلت مادة التربية الوطنية ضمن مناهج الدراسة فى المرحلتين ، الابتدائية ، وما يماثلها والثانوية ، وما يماثلها وكانت تتضمن حقوق الانسان ، وواجباته والعلاقة بين كل منها تم دراسة الدستور والسلطات فى الدولة ، وجهاز الدولة الادارى مما أيقظ فى الطلاب روح الوطنية وحفزهم الى التحمس للجهاد .

وفى المدرسة الثانوية كان التعليم يعتمد على السرد والالقاء وكان يتجـــه فى الأغلبية الى الدراسة الأدبية ، مع افتقار الى التعليل والتفسير والنقد ذلك

أن ما فرض على التلميذ منذ بدء حياته عندما الزم بالطاعة العمياء لمن هم أكبر منه سنا ما يزال يسيطر عليه فى تلك الفترة فى المدرسة الثانوية ، فقد كان غير مطالب بالمناقشة أثناء الدرس أو ابداء الرأى وحتى اذا كان لا يفهم الدرس فقد لا يستطيع أن يفصح عن ذلك لأنه خجول ولأنه سلبى ٠

ومن ناحية أخرى فقد كان المعلم على مستوى ثقافى وتربوى لا يسمح له بخوض المناقشات أو السماح بها للتلاميذ ٠

اما من حيث المناهج فقد كانت تعبر عن التخلف الثقافى ، والمظهرية الواضحة فى تخريج حملة للشهادات ، مما يحقق رغبة الاستعمار التى افصح عنها لورد كرومر بقوله « ان أهمية التعليم بالنسبة لنا فى مصر هو ان نحصل على صغار الموظفين الذين يساعدون الاستعمار فى ادارة دفة الدولة » اذن لم يكن الغرض من التعليم امداد النشىء بطاقات فكرية تحقق له التقدم والرقى بل مجرد عملية شكلية مظهرية أصابها الجمود والتخلف ٠٠ كما أنه اتجه الى العلم النظرى منصرفا عن التطبيقات العملية والتعليم الصناعى أو الفنى حتى لا تتاح للمصرى فرص العمل والتقدم التكنولوجى وأدى ذلك الى اغفال الدراسات الفكرية وأساليب التفكير ومناهج البحث حتى أدخلت دراسة مبادىء الفلسفة ، والمنطق وعلم النفس فى التعليم الثانوى سنة ١٩٣٨ بفضل الجهود التى بذلها مصرى مخلص هو المرحوم الاستاذ الدكتور طه حسين مما كان له أثر فى تطور الفكر المصرى وتوجيهه وجهة علمية تجريبية ، موضوعية تؤدى الى قدر من الدفع فى المجتمع ٠

ونورد فيما يلى دراسة ميدانية لاحدى قرى الوجه البحرى ٠

دراسة ميدانية

لقرية كفر حجازى (غربية)
توضح أثر العوامل النفسية والاجتماعية فى تكوين الشخصية

بعد ما قدمناه من عوامل نفسية تتصل بمراحل النمو ، وتؤدى الى ظهور صفات مختلفة بين الأفراد ، ومن عوامل اجتماعية تتفاعل فيما بينها ، متأثرة بتلك الصفات السيكلوجية التى تظهر بين الأفراد ، بعد هذه الدراسة يمكن لنا أن نتجه الى قطاع محدد من المجتمع المصرى ، لنلقى تلك الأضواء عليه ، ونحاول تحديد ملامحه ، هذا القطاع هو قرية كفر حجازى .. من أعمال محافظة الغربية مركز المحلة الكبرى :

وصف عام للقرية :

عدد السكان	١٢ ألف نسمة
المساحة	٦٠ ألف فدان
الثقافة العالية	الثقافة الدينية
نوع التعليم بالقرية	الكتاب والمدرسة الالزامية
الخدمات الطبية	لا يوجد غير مزين الصحة وطبيب واحد من أبنائها
موقعها بالنسبة للمدينة	على الضفة الأخرى من أحد فروع النيل فى مقابل مدينة المحلة الكبرى (١)

المستوى الاجتماعى : توجد بها ثلاث أسر متقاربة من حيث المستوى الاقتصادى والاجتماعى والثقافى وتتولى الحكم ، فى القرية بالتناوب وتخضع لنظام اجتماعى ، يختلف عما هو متبع فى القرية من حيث النظام الأسرى ، وحجاب المرأة وتربية الأولاد والعمل فى الحقل بحيث

---

(١) هذه الدراسة تمثل القرية فى سنة ١٩٤٠ .

تتميز تلك الأسر الثلاث عن بقية أهل القرية بأن يكون هناك فى القرية طبقة الفلاحين ، وطبقة الأسياد ، وهم أفراد الأسر الثلاث ٠

المستوى الاقتصادى : باستثناء الأسر الثلاث يكون متوسط الملكية بين الفلاحين فى هذه القرية من ٣ الى ١٠ أفدنه للفرد ٠

أعلى مستوى اقتصادى : لعدد قليل لا يزيد ملكية الواحد منهم عن ١٠٠ فدان ٠

أدت هذه المؤثرات الاجتماعية السابقة الذكر الى ايجاد مجتمع ذى طابع دينى متماسك ، متعاون خلو من الأحقاد والشرور ، يسود أهله علاقات طيبة تظهر ، فى تبادل الزيارات والتعاون فى المناسبات الخاصة كالأفراح والمآتم ٠

وتنشئة الطفل فى القرية اعتمدت على الحرية والمحبة ، وتلبية رغبات الطفل فى حدود المعقول مع عدم السماح بالزجر أو التأنيب فكثيرا ما نرى الأب يصحب طفله أو ابنه الصغير الى حيث يجلس مع أصدقائه الرجال ، ويتاح للطفل فرصة الحديث وسط الكبار دون ما خجل ٠ كذلك تكلف البنت برعاية أخوتها وأخواتها الصغار وتتخذ منهم موقف الأم ويكون لها قدر كبير من الاحترام والتقدير بين أفراد الاسرة ولا يسمح للبنات باللعب مع الأولاد بعد سن السابعة بل يفرض عليهن الحجاب والبقاء فى الدار الا عند الخروج للمدرسة الالزامية عند الخاصة من بنات القرية والعمل فى الحقل عند الطبقة الثالثة ــ العمال الزراعيين ــ ولا تحرص الأم على فطام أطفالها أو ترتيب مواعيد الارضاع وخاصة فى السنتين الأولى والثانية من أعمارهم ، حتى يتعلم الطفل كيف يأكل بمفرده ، وعندئذ تتوقف عملية الارضاع بعد سن الثانية من عمره ٠

ويشارك الولد أباه فى أعمال الحقل منذ سن الخامسة أو السادسة ، ويسند اليه تدريجيا مسئوليات لا يستطيع مثله فى المدينة ان يؤديها ومن هنا يظهر الفارق بين الطفل فى القرية والمدينة ٠

وتخضع الأسرة لكبيرها ، وهو الأب أو الجد وتتكون من الأبناء والأحفاد ، ان كانت الجدة أو الأم هى المسئولة عن ادارة المنزل والعناية بالحاصلات الزراعية التى تجلب من الحقل ، وتخزن فى الدار ٠

وكذلك المنتجات الحيوانية من ألبان وطيور ومواش وغيرها ، مما أكسبها نفوذا ، وسطوة بين أبنائها ، وزوجاتهم وأكد شخصيتها بين الرجال فى داخل الأسرة وأتاح لها فرص الحصول على قدر من الثروة نتيجة لتربية المواشى واستثمار المدخرات وما يتصل بذلك من ضرورة الاشراف على عمليات التنمية الاقتصادية الخاصة بها ٠٠ مما حقق لها مزيدا من الشعور بالاستقلال الذاتى والثقة بالنفس ، وقد أدى ذلك الى تخلص المرأة فى هذه القرية من مشاعر النقص أو القصور أو الافتقار الى الرجل واتضحت تلك المشاعر فى تربيتها

لأبنائها فشبوا على قدر واضح من الاباء ، والاعتداد بالنفس ، والثقة ، والتفاؤل، فسلكوا سلوكا ايجابيا بعيدا عن العقد والانحرافات ، ووضح ذلك فى انتشار الأمن والطمأنينة ، والهدوء داخل القرية فحتى عام ١٩٤٠ لم تسجل أوراقها الرسمية جريمة واحدة ، ولم تزد مشكلات الافراد عن مجرد مخالفات يستطيع عمدة القرية أن يفرض العقاب على مرتكبيها بطريقته الخاصة ، فينصرف المتنازعون وقد زال ما بينهم من خلاف وانصلحت الأمور فى القرية ٠

كذلك كان للقرية نشاط دينى يظهر فيما يقيمه الأفراد من احتفالات فى بعض الأمسيات ـ يجتمعون فيها لتلاوة القرآن والاستماع الى القصص الدينى ، مما أضفى على القرية روح التماسك والمحبة والتعاون ، ولكن فى حدود تتفق وما يتبع فى اذهانهم من أفكار وقيم ٠ أما التعاون من أجل فكرة تعرض عليهم من الخارج فقليلا ما يلقى النجاح كالتعاون من أجل تمهيد طريق يؤدى الى القرية أو حتى بداخلها ، فان هذه الفكرة قد فشلت طوال سنوات عديدة ، ولم تنفذ الا بعد ان أجريت عمليات توعية وإيحاء وتوجيه للرجال والنساء على السواء ، وقد كان للتأخر الحضارى أثره الكبير فى صرف أهل القرية عن الإستجابة لعملية تمهيد الطريق بينما فى الوقت الحاضر عندما وجد سكان القرية أنه يمكن لهم الحصول على التيار الكهربائى نظير دفع مبلغ معين تقدمه القرية للمحافظة فأسرعوا بجمع المبلغ المطلوب وحصلوا على التيار الكهربائى قبل غيرهم من القرى المجاورة ، أى أن سمة التعاون وحدها لم تكن هى ما يفتقر اليه سكان القرية ، ولكن الاقتناع بالفكرة التى تؤدى الى ظهور التعاون بين الأفراد ولعل من عوامل التماسك الاجتماعى فى القرية تشابه المستوى الاقتصادى والثقافى بين سكانها ، وانعدام وجود رأسماليات زراعية كبيرة بداخلها مما أدى الى التقارب والوحدة والاستقرار النفسى داخل القرية وبين الأفراد ٠

مقارنة وتعليق

بعد أن عرضنا للتنشئة والتطبيع فى اليابان وأمريكا وروسيا ومصر ، ولاحظنا وجود فوارق واضحة وسمات متباينة فى كل بلد عنها فى الآخر ، شكلت الشخصية فى كل منها بعلامات خاصة مميزة نجملها فيما يلى :

« ففى اليابان » :

الشعور بالواجب ـ الامتنان ـ احترام الأبناء للآباء ـ ارتباطهم الروحى بآبائهم كانما يعيشون من أجلهم ويردون لهم الجميل ـ الطاعة ـ العمل الدائب ـ الخضوع للرياسة ـ اتباع نظام ثابت فى الحياة مخطط مقدما ومفروض على الفرد .

وذلك تبعا لتفسير روث بنديكت يرجع الى التنظيم الطبقى فى المجتمع وداخل الأسرة حيث تحوى ثلاثة أجيال فيتعلم الطفل الطاعة المطلقة من أبيه لجده ويتفحص نفس المشاعر لأبيه ومن هم أكبر منه .

ويبدأ هذا التطبيع فى الخامسة أو السادسة أما قبل ذلك فالطفل يدلل الى درجة كبيرة ويظهر ذلك فى تلبية رغبته للارضاع والطعام دون اتباع مواعيد ثابتة كما هو عند الامريكيين وتظل فترة الحضانة والارضاع الى العام الثانى أو العام الثالث والأم تؤدى دورها على نحو طبيعى تجاه الأسرة وعليها ان تبذل الطاعة والحب للجميع .

والتناقض الواضح فى فترتى التربية يفسر بوجود النظام الطبيعى الاقطاعى الذى لم تقض عليه ثورة ميجى وقيام الطاعة لم تحدث تحولا ديمقراطيا كما هو الحال فى ألمانيا بل ظلت اليابان محتفظة بنظامها الاقطاعى والولاء من جانب الفرد لسيده الاقطاعى كذلك تظهر الطاعة العمياء والاهتمام بالشرف الشخصى . فنظام الأسرة الطاعة العمياء بداخلها يسمح باحتمال كل أنواع القمع الاجتماعى الصارم بامداد الفرد بمخرج انفعالى يسمح له بالحرية والقدرة

على تجميد أكثر الحاجات الغريزية حدة وهكذا يعيش اليابانى وفق نظـــام من حـــديد ٠

« وفى امريـكا »

عدم التمسك بالشكليات ، واتباع أساليب سلوكية متكاملة ٠ مع القدرة على تبنى المبادىء والتطبيق الذى يحقق للفرد ذاتيته ٠٠ الامريكى يعمل لنفسه ، ولا يشعر بأنه مدين لوالديه بل لنفسه فقط بعكس اليابانى مع قدرة على وزن الأمور واحراز التفوق مما يجلب له الحب والأمان ٠

ونظرا لأن المجتمع فى تغير مســتمر ، فان ذلك يؤدى الى الشعور بعدم الأمان مما يدفع الفرد الى مزيد من العمل والنجاح والتســابق وهو ما يؤدى الى صراع بين النـــاس ومن هنا نشأت فكرة الأخوة الأمريكية باقامة التنظيمات الاجتماعية الكثيرة فى شتى مجالات الحياة والعمل للحد من التباعد ، والالتقاء كاصـــدقاء مما يدفع الانعزاليين نحو الجمـــاعة ويعمـــل على اعادة الترابط بين أفرادها والأمان عند اليابانى فى اتباع القوانين واحترام الكبار ٠ وعند الامريكى فى انجاز العمل بالتنافس الناجح ٠

اليابانى غرائزه محددة وسلوكه الجنسى حـــر علنى منذ طفولتـــه بينما الامريكى يحترم العلاقات الزوجية ، والقانون يمنع الحرية الجنســية والأسرة الأمريكية تتبع أساليب قمع قاســية فى التربيـــة ، ولا يلتفت الى اعتراضات الطفل ، ثم بعد ذلك يعطى الطفل حـــرية تدريجيـــة ويســـمح له بالتعبير عن دوافعه العدوانية ويتصرف بحرية داخل البيت أيضا ٠

وفى قرية سلوا بحرى بأسوان التركيب ، والعلاقات الاجتماعية تنشأ عن القرابة والنسب ـ الجنس والنوع ـ السن ٠

فالقرابة والنسب تحدد علاقات ومسئوليات على الافراد ٠

فسلطة الأب تحدد التماســك والعصبية كمـــا تبدو فى التفاخر والمباهاة والكرامة ٠

أما الجنس والنوع فهما يوجدان مجالين متفاوتين داخـــل القـــرية مجال الرجل وحياته وحرمانه والمرأة واحتياجاتها وواجباتها ٠

أما السن فهو أســـاس احترام الصغير للكبير والتعامل وفق حدود معينة نظرا لاختلاف السن ٠

والتربية والتأديب للصغير من حـــق من هو أكبر ســـنا ، غير الوالدين والأقارب أو المتصلين بالأسرة ٠٠ وتبدو فى مظاهر التسنر والحذر مما يجعله

يتصرف فى حدود معينة من حيث تكوين الروابط أو اداء زيارات للاصدقاء فلا تكون خارجة عما ينبغى (فلا تطول مثلا) والطفل يختلط باقرانه من أفراد الأسرة أو القبيلة كلما كبر ولا يتعدى تلك العلاقات الى خارج القبيلة الا بعد أن يتزوج ومرحلة البلوغ تفصل بين الطفولة والشباب وبين الرجولة والأنوثة .

والتنميط المتبع فى عملية التنشئة الاجتماعية فى هذه القرية يتجه الى التراخى فى ضوابط السلوك فى مرحلة الطفولة والتشدد فى المراحل التالية ، وبذلك تظهر الضوابط فجأة على الطفل فلا يرضى الكبار بلعب الأطفال بعد سن السادسة ويلتزم بالآداب والمواصفات المطلوبة منه ليكون عضوا فى مجتمع الكبار ، وقد تؤدى هذه النقلة المفاجئة الى نتائج سيئة فى شخصية الطفل كالقلق والتفسخ فى الشخصية الا انه يصبح مسئولا عن أعمال لم تكن تسند اليه ويعطى بعض الحرية فى نواحى أخرى فيشعر انه موثوق به ومعتمد عليه ، مما يلطف حدة النقلة المفاجئة بالنسبة للطفل .

والعاب الأطفال تعبر عن الخشونة والعنف والمنافسة وقسوة النقد وتقوى المنافسة بين الأخوة والأخوات وتتحول الى غيرة مصحوبة بأعراض مرضية بسيطة والمنافسة والغيرة غير مكروهة بل يستحثون الصغار عليها حتى يدفعوهم الى التقدم ، واذا اعتبرنا أن قرية سلوا بحرى بأسوان لا تختلف كثيرا فى عاداتها وتقاليدها عن أغلب قرى مصر من حيث التمسك بهذا النمط من القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية باستثناء بعض التغييرات الطفيفة التى حظيت بها القرى القريبة من المدن أو التى اشتغل أهلها بالصناعة بجانب الزراعة مما أدى الى ظهور تغير اجتماعى فى كثير من الاتجاهات الا أن هذا التغيير أيضا يعتبر الى حد كبير تغيرا مظهريا ولكن الحقيقة السيكلوجية والمضمونات اللا شعورية تعتبر هى لا تتغير .

اذا اعتبرنا أن أساليب التنشئة الاجتماعية المتبعة فى هذه القرية هى السلوك النمطى بالنسبة للاغلبية العظمى من الشعب المصرى أمكن لنا ان ندرك الفوارق بوضوح بين التنشئة فى كل من مصر وأمريكا واليابان وروسيا .

فعنصر الدين ـ ذو أثر واضح فى الشخصية المصرية وعنه تتشكل أغلب القيم والعادات الاجتماعية التى تعبر عنها وعنه تصدر التعليمات الخاصة بالانفصال والعزلة بين مجتمع النساء ومجتمع الرجال كذلك احترام الصغير للكبير وسلطة الكبير على الصغير . هذا المظهر مظهر احترام الصغير للكبير يتضح أيضا فى الشخصية اليابانية الا ان يتبع من أصل مغاير لأصله المصرى فهو فى اليابان صدى للنظام الطبقى الاقطاعى وأساليب الخضوع المتصل بالنسبة للياباني ازاء سيده الاقطاعى .

أما الشخصية الأمريكية فهى فى منأى عن مظاهر احترام الصغير للكبير فهم

بعيدون عن الاتجاه الاثوريتارى الذى يفرض نفسه على كل من المجتمعين المصرى والياباني .

ويتفق المجتمع المصرى مع الأمريكى فى عملية القمع الخاصة بالاتجاهات الغريزية عند الأطفال وهى فى المجتمعين ترجع الى سلطة الدين ، بينما فى المجتمع اليابانى يحظى الطفل بحرية كبيرة فى هذا الاتجاه فلا تظهر سلطة الدين .

كذلك يتفق المجتمع المصرى مع المجتمع اليابانى فيما يكفله للطفل من حرية ، وتلبية لرغباته ، غير الرغبة الجنسية فى مصر ، فى فترة الطفولة المبكرة، ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة الى مرحلة الالتزام ، بالقوانين ، وتحمل المسئولية على نحو مفاجيء فهو يفارق الحرية مع الطفولة ويخضع اجباريا لحياة مرسومة بدقة ولا سبيل الى الاختيار .

ويظهر اتفاق آخر بين الشخصية اليابانية والمصرية فى الموقف المتبادل بين الأسرة والطفل فالأسرة تعطف على الطفل وتمنحه الحب والحنان كاسلوب طبيعى للتنشئة ولا يشعر فيها بالحرمان وعندما يشب يصبح مدينا للاسرة يمضى كل حياته فى رد ذلك الدين الى الوالدين ، هذه السمة بالنسبة للشخصية المصرية مستمدة أيضا من الدين ، بينما هى فى اليابان مستمدة من التدرج الطبيعى الاجتماعى الذى يبدأ بالأسرة وينتهى بالاقطاعى ، ثم الملك الاله المعبود (ميكادو) ويتصل بهذا النظام الدقيق المفروض على الطفل طوال حياته أن يفقد التلقائية ويعمل كآلة تؤدى كل وظائفها فى ترتيب وتوال يكسبانه النظام والطاعة والهدوء .

هذه الآلية المسرفة التى تبرز فى المجتمع اليابانى لا تظهر فى المجتمع المصرى لذلك كانت القوانين رخوة واحترام الفرد لها يسير على نحو من الليونة والتذبذب وخاصة بين طبقة العامة التى لا تستطيع ان تصل الى فكر مجرد يجعلها فى مأمن من الشكلية والسطحية والجمود وتلك سمات تظهر بوضوح فى الشخصية المصرية استدل عليها بعض البحاث الغربيين من مظاهر اجتماعية كثيرة الانتشار بينما الكرم المغالى فيه والتمسك بالمظهر دون الجوهر فى كثير من اتجاهات الحياة فالفرد يؤدى واجباته الدينية ولكنه لا يمتنع عن مخالفة الدين فى العلاقات الاجتماعية أى الدين بالنسبة لكثير من العامة هو مجرد فرائض تؤدى بلا مغزى ولا هدف بينما الجانب الجوهرى البراق الذى يؤدى الى اقامة مجتمع صحيح يكون موضع اغفال عند هؤلاء الناس فالمساجد تمتلىء بالمصلين ، ولكن ليس ثمة ما يمنع ان يخرج المصلى ليدبر مكيدة أو سرقة أو غير ذلك لغيره من الناس اذن فهو يغفل التطبيق والممارسة الصحيحة للدين بينما الشخصية الامريكية تتسم بالذاتية والقدرة على العمل عن فهم واقتناع لا مجرد مظهر للطاعة أو السلطة .

وقد يتفق الجميع في ظاهرة التنافس ودفع الأسرة لأبنائها للحصول على مزيد من النجاح الا ان عملية التنافس في أمريكا تلك التى من شأنها ان توجد انعزالا بين أفراد المجتمع تؤدى فى الوقت ذاته الى اقامة الكثير من التنظيمات الاجتماعية التى تساعد على جمع الأفراد وازالة ما بينهم من توتر أو تصدع فى العلاقات ومواصلة الحياة الاجتماعية بمزيد من الثقة والتفاهم مما يساعد على ابراز روح التعاون بين الافراد والجماعات وما يسهل عليه التطبيع الاجتماعى بينما المجتمع المصرى يفتقر الى روح التعاون الحقيقية التى تؤدى الى تغيير كثير من اتجاهاته القديمة فالتعاون فى مصر بل فى كثير من البلاد العربية لايعدوان يكون ظاهرة فردية اذا كان الغرض منه اظهار روح جماعة فسرعان ما ترى التخاذل والتميع فى كل موضوع يطلب له التعاون الجماعى وذلك بدافع من الانانية والتنافس فكل واحد من أفراد الجماعة يتمنى لنفسه ان يكون هو الرئيس المرموق ولما كانت الرياسة لا توكل الا لفرد واحد أو لمجموعة صغيرة فان باقى الافراد سرعان ما ينالهم الحقد وينصرفون عن الموضوع ودافع المظهرية هو المسئول عن كل تلك الاضطرابات في العلاقات الاجتماعية وقد وجدت من الأمثلة الشعبية كثرة هائلة تعبر عن المظهرية ذكرنا بعضها فى موضعه مع شرح وتعليق ·

وهكذا يمكن لنا أن نرى فى وضوح أن العوامل الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى مجتمع تتسم شخصية أفراده بسمات خاصة تعبر عنها فى آدابها وكتابتها وفكاهاتها وحتى فى أغانيها وشتى فنونها ·

اما فى الاتحاد السوفيتى فواضح أن التنشئة الاجتماعية والتطبيع تتم بدرجة عالية خارج نطاق الأسرة وباشراف الدولة مما يكفل صب الأفراد جميعا فى قالب واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض الا من حيث الذكاء والقدرات الخاصة والميول والانفعالات ، والجهاز العصبى الخاص بكل منهم ، أما من حيث الثقافة والتنشئة والتطبع فتكاد تكون واحدة مشتركة بينهم جميعا ومن هنا يبدو امكان وجود شخصية قومية فى مثل هذا المجتمع تتضح معالمها أكثر من أى مجتمع آخر ·

● الفصل الثالث

العوامل السيسيو نفسية التى تشكل الشخصية المصرية

(ان فترة الانتقال التى تمر بها البلاد وماتحويه من مؤثرات نفسية اجتماعية اقتصادية سياسية تزيد على ما يتلقاه الفرد من الأسرة أو المدرسة أو المجتمع فى ظروفه العادية ذات أثر كبير فى تشكيل شخصية الفرد) .

بعد ان درسنا المؤثرات الثقافية والحضارية والاجتماعية التى أوجدت الشخصية المصرية ، وعرضنا لأساليب التنشئة والتطبيع بأمثلة من المجتمع ، نقول أن هناك عوامل سيكلوجية تؤثر تأثيرا واضحا وتظهر فى صور مختلفة .

فهناك الأزمات التى تعانيها الشخصية المصرية ، والتى تتضح فى ما تعتنقه من مبادىء وما تردده من حكم وأمثال وغيرها من الفنون الشفوية ، ويتضح ذلك فى النزعات العصابية ، وما يحويه المجتمع القديم من تناقضات تنعكس فى شكل صراعات يعيشها الافراد ، فهناك تناقض يتضح فيما بين اعتناق مبادىء تدعو الى الحرية والعدالة الاجتماعية ثم عملية الاعاقة التى كان يفرضها المجتمع على الافراد حتى تتعذر الممارسة الواقعية للحرية فى الحياة . كذلك التناقض الصريح بين الدعوة المثالية الى التعاون وما يختمه الواقع من تنافس يبلغ حد الانتهازية والوصولية .

وهناك تناقض بين ما يحث عليه الدين من حجاب واحتشام وتمسك بالفضائل وبين ما يسود المجتمع من اتجاهات غريبة عصرية تعوق التنفيذ الصحيح لتعاليم الأديان .

وأخيرا فهناك تناقض ما بين اثارة المجتمع للرغبات ووسائله المختلفة فى الإعلان والاغراء ، وما بين احباطه الواقعى لها بما يدفعه من أجور هزيلة لا تحقق الضروريات .

ولا شك ان تلك التناقضات نجد لها حقلا خصيبا فى النظام الراسمالى على وجه الخصوص حيث تبدو فرص العمل والنجاح ميسرة للجميع الا أنها فى الواقع لا تسمح الا لقلة ضئيلة بالقياس الى عدد سكان المجتمع المصرى بالتسلل

وصعود درجات السلم الاجتماعي حتى ان النظام الديمقراطي الذى وجد فى مجتمع ما قبل الثورة انما كان يعبر عن شكلية زائفة قوامها الرشوة والفساد وشراء الاصوات ٠

هذه التناقضات قد انعكست فيما يعيشه الأفراد من صراع وما يغلب على شخصياتهم من سمات ، وكان من العسير التوفيق بين تلك التناقضات بالنسبة لكل فرد في المجتمع مما ادى الى وجود قلة سوية ذات ظروف ميسرة من الطبقة المتوسطة ذات المطامع المحدودة والثقافة الصالحة تستطيع وحدها ان تجد الحلول الفردية التى تسمح لها بالتغلب على تلك التناقضات اما غالبية الشعب غير من أشرنا اليهم من الطبقة المتوسطة فأنها لا شك تعانى الكثير من جراء قيود قديمة فرضتها عليها نظم اجتماعية بائدة وتشكلت فيها بصور عادات بالية فهى عن طريق ميكانيزم التثبيت مكرهة على تكرار استجابات قديمة لا تتكيف مع الوضع الراهن ٠ ومن ثم يعجزها الجمود عن اعادة التكيف حتى تساير ركب الحياة فتزول عنها التناقضات ٠

هذه النزعات العصابية التي نشهدها فى وضوح بين غالبية أفراد المجتمع انما تبدأ بذورها عند الطفل ، حين يستشعر بالضعف والسلبية وما يناله من الجماعة من قسوة ومجافاة وتحطيم لكبريائه مع تعسف فى الحكم عليه أو توجيه التربية الصالحة اليه وكأنما هو يعيش فى عالم مشحون بالعداوة والبغضاء لا يستطيع فيه فهم نفسه ولا فهم الآخرين من حوله وبذلك يكون قوام نشأة الطفل وحتى بعد ان يصبح رجلا هو القلق القاعدى (١) الذى يستجيب له البعض بحركة ضد العالم والبعض الآخر بحركة عن العالم والبعض الأخير بحركة نحو العالم أى انه وفقا لرأى هورنى وفروم تستند النظرية النفسية الاجتماعية فى تفسيرها للشخصية والتنشئة الاجتماعية على الأسلوب الدفاعى الغائى الذى يفسر نوعية الموقف الاجتماعى ٠

ومن خلال هذا البحث تظهر المحاولة الجادة التي تعمل على تحقيقها وهى الربط بين الشخصية والثقافة على غرار ما قامت به روث بندكت فى مجتمعات أخرى (٢) مع الافادة من النظرية الفرويدية فى النمو النفسجنسى وما أورثته مارجريت ميد فى أبحاثها عن المجتمعات كما قدمنا ، وعلى اعتبار ان العقدة الأوديبية لم تعد شيئا ينتمى الى اللا شعور الجمعى ، فقتل الأب المستبد العنيف ثم محاولة الاستيلاء على نسائه ثم فشل الأبناء فى اتخاذ تلك الزوجات ، وأخيرا مشاعر الندم على تلك الخطيئة الفادحة واحياء ذكرى الاب بذبح الحيوان ثم تقديسه بتقليد صوته وحركاته وإقامة الحفلات ـ كل هذا

(١) د٠ لويس كامل : سيكلوجية الجماعات والقيادة ، الجزء ٣ ز ، العالم العربى ٠
(٢) ورد ذكرها سابقا ٠

الأتجاه الفرويدى الذى اعتمد على دراسة روبرت سن سميث للمجتمعات البدائية قد وجد عند مارجريت ميد اتجاها جديدا نحو تحويل هذه العقدة الأوديبية من صورتها الفرويدية الى صور جديدة تختلف فى كل مجتمع وفقا لثقافته ٠

وقد لاحظنا فى هذا البحث ان الثقافة ممثلة فى الفنون الشعبية فى مصر تلعب دورا كبيرا فى تكييف الأفراد وتنشئتهم مما أدى الى اعتبار تلك الفنـون أنماطا ثقافية ثابتة ذات أثر هام فى تنشئة الأطفال فى المجتمع ، وفى تشكيل الشخصية المصرية فهى تعتبر أسلوبا ثابتا للتنشئة النوعية فى داخل المجتمع الواحد فى كل مجتمع على حدة مما يبرز سمات عامة لكل مجتمع تسمح بوجود شخصية قومية ، ثم سمات خاصة بكل فرد تميزه عن غيره من الأفراد وذلك وفقا لما يميل اليه من اتجاهات الفنون الشعبية المختلفة فهناك من الناس من ينتقون من الحكم والأمثال ما يصدرون عنه فى سـلوكهم ومعاملاتهـم وآدابهم الاجتماعية بينما يختلف أخرون فيما يأخذون به من تلك الحـكم والامثـال ٠ وهناك يظهر الفارق بين الشخصية الاولى والشخصية الثانية وفقا لما يبين كل منهما من اختلاف وكأنما تلك الحكم والامثال قوانين مفروضة عليهم تملى مبادىء وقيما لا يمكن للفرد ٠٠ تجاهلها أو التحلل من قيودها ٠

لقد كان كاردنر محقا عندما عدل الفرويدية على نحو ما نرى فى نظريته فبدل أن تكون الأنماط الاجتماعية نتاجا مباشرا للدوافع اللبيدية ، **فانه رأى أن وسائل التنشئة فى المجتمع بوصفها خصائص ثقافية تضطلع بتشكيل الشخصية** وذلك عن طريق فنيات التنشئة الا انه أهمل الجانب السيكلوجى فى حياة الطفل وعلاقته بوالديه وموقف الاسرة منه ومن هنا كان الرأى الذى قدمناه يتفق تماما مع ايريك فروم والذى أوضحه فى منهجه النفسى الاجتماعى فعنده أن الشخصية الاجتماعية تمثل نمط البيئة العامة للشخصية وهو النمط الذى يتحقق فى جميع الافراد المنتسبين الى ثقافة بعينها والذى يميزها عن أفراد الثقافات الأخرى مع وجود الشخصية الفردية متميزة بخصائصها الذاتية لتميز الفرد عن غيره من الأفراد ضمن الثقافة الواحدة مثال ذلك بالاضافة الى ما أوردته بالنسبة للاخذ بالحكم والأمثال هو ما نراه فى الشخصية المصرية فى الصعيد بالنسبة لاهل مصر عامة من تمسك الفرد هناك بالاخذ بالثار فتنشئتهم وأنماطهم السلوكية هناك وتكرار تلك الأنماط خلال أجيال وأجيال أدت الى وجود عادات اجتماعية خاصة بهم مع كونها لا تنتشر بين كل أفراد المجتمع المصرى ، ولكن بالرغم من ذلك أيضا فنستطيع أن نلاحظ انه حتى مع وجود شخصـية نمطيـة ذات طابع خاص فى الصعيد فانه وجد استجابات فردية مختلفة بالنسبة للظاهرة الواحدة تتدخل فيها عوامل نفسية يجب أن نتنبه اليها لهمها الرغبات السادية ومركبات النقص وما تعكسه من مشاعر العظمة والغرور والرغبة فى فرض السلطة ذلك بالاضافة الى المستوى الاجتماعى والثقافى للفرد ٠

أى أن سمات الشخصية المصرية تنشأ نتيجة للصلات القائمة بين الأشخاص والأشياء ، أو بعبارة أخرى بين الفرد وما يحويه المجتمع من قوانين ونظم وثقافات وآداب وعلاقات اجتماعية واقتصادية وكلها تكون نماذج وأنماطا اجتماعية ذات أثر كبير فى نفسية الفرد ونشأته وتوجيهه وتشكيله فى صورته الخاصة التى نسميها بالشخصية ٠

هذا الرأى الذى اتجهنا اليه خلال البحث يتفق تماما مع ما نجده عند اريك فروم الذى يوضح الشخصية القومية ونوجزه فيما يلى :

« يرى اريك فروم »

ان الشخصية القومية تعتمد أساسا على العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فهى ليست دراسة لشخصية الانسان الفرد ، ولا هى دراسة لسيكلوجية الشخصية لأننا لن نتناول العناصر التى تشكل شخصية هذا الفرد أو ذاك ولن نعنى بالخصائص التى تجعل كلا منهم يختلف عن الآخر ولكن ما يهمنا فى هذه الدراسة هو الجانب المشترك بين غالبية أفراد الجماعة حتى نصل الى وصف ملامح الشخصية القومية ٠

وبعبارة أخرى فان هذه الدراسة تنصب على النواة الجوهرية (١) لمكون شخصية معظم أعضاء الجماعة التى تطورت نتيجة للتجارب الرئيسية ونمط الحياة المشترك فى الجماعة ، ولا يمكن لنا أن نقرر وجود تطابق تام بين شخصيات كل أفراد الجماعة ، بل لابد من وجود انحرافات ، تكون شخصيات متباينة ذلك أن مكون شخصية معظم أعضاء الجماعة إنما هو تنويعات لهذه النواة تحدث بسبب الظروف المختلفة التى يمر بها الفرد خلال حياته ٠

ان مفهوم الشخصية القومية يتضح عن طريق تناولنا للعمليات الاجتماعية ، فالشخصية بالمعنى الدينامى لعلم النفس التحليلى هى ذلك الشكل النوعى الذى تتشكل فيه الطاقة البشرية عن طريق التكيف الدينامى للاحتياجات الانسانية مع النمط الخاص للوجود فى مجتمع ما ٠

ويضيف اريك فروم أن الشخصية تحدد تفكير ومشاعر ومثل الأفراد ، مع أن الاعتقاد السائد هو أن التفكير فعل عقلى مستقل عن النسيج السيكلوجى للشخصية ، ومع أن الافكار هى العناصر المنطقية لعملية التفكير الا انها تتحدد لتكون شخصية الفرد المفكر ٠

---

(١) ايرك فروم ـ الخوف من الحرية ـ ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد المؤسسة المصرية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٢ ٠

فكل اتجاه فكرى وكل مذهب له قوام انفعالى أو عاطفى يكمن ضمن مكونات شخصية الفرد .

وليس التفكير والشعور وحدهما هما اللذان يتحددان بمكونات شخصية الفرد بل يتحدد أيضا سلوكه فاذا كانت شخصية الفرد تتطابق تماما بشكل أو بآخر مع الشخصية الاجتماعية أو الشخصية القومية فان الدوافع السائدة فى شخصيته تقضى به الى عمل ما هو ضرورى ومرغوب فيه فى ظل الضرورة الاجتماعية الخاصة لمجتمعه مما يحقق له نجاحا اجتماعيا وشعورا بالراحة والسعادة النفسية وذلك انه حقق رغبة نابعة من شخصيته اذا كان هذا العمل ضمن مكونات شخصيته فاذا فرض عليه العمل من الخارج واقتضت ضرورات الحياة وخاصة فى الوقت الحاضر أن يعمل كل انسان ويجد فهل تنشأ هوة واسعة بين ما يجب أن يفعله الانسان وما يحب أن لا يفعله . كما يؤدى الى الحط من القدرة على العمل ويقلل من فاعليته .

ان الشخصية السوية لا تسمح لصاحبها بالوصول الى هذا المستوى فى العمل بل عن طريق التكييف الدينامى من جانبها وفقا للمتطلبات الاجتماعية فتتحول الطاقة الانسانية وتتشكل بدلا من أن تؤدى الى وجود هوة فبدلا من أن يكون الانسان الحديث مرغما على أداء عمل وأن يكون ذلك الارغام مفروضا عليه من الخارج فانه عن طريق ارغام باطنى وسلطات داخلية هى الضمير والواجب فيعمل الفرد ويكد بل ويحب ذلك العمل حتى تصبح تلك السلطات أكثر فاعلية فى السيطرة عليه من أية سلطة خارجية توجهه أو تدفعه الى العمل أى أن الشخصية الاجتماعية تبطن الضرورات الخارجية ومن ثم تسخر الطاقة الانسانية من أجل نظام اقتصادى واجتماعى معين ومن هنا كان للتربية دورها الخطير فى تشكيل الشخصية الاجتماعية داخل بلد ما فالوظيفة الاجتماعية للتربية هى تعديل شخصية الفرد بحيث يمكن له أن يؤدى الدور الذى يختص به فى المجتمع بحيث تقترب شخصيته من الشخصية القومية وتتطابق مع ضروريات الحياة الاجتماعية ومن هنا وجدت علاقة متبادلة بين التربية وبين الحتمية البنيوية الاجتماعية فصرح البناء الاجتماعى تشيده ضرورات وهى فى الوقت ذاته تترتب على وجوده ولا يمكن تفسير شخصية أعضائه بالعملية التربوية وحدها بل عن طريق التفاعل بين تلك الضرورات الاقتصادية وبين الاتجاهات التربوية من ناحية ثم الدينمية السيكلوجية من ناحية أخرى .

فالتربية على هذا النحو تمثل الميكانيزم الذى يشكل الفرد حسب الصورة المطلوبة لمجتمع معين فى وقت معين وهى من ناحية أخرى نتاج هذا المجتمع ووظيفة من وظائفه .

وعملية التربية تبدأ بالتنشئة والتطبيع والأسرة هى الوكيل السيكلوجى للمجتمع ازاء هاتين العمليتين فالوالدان يمثلان الشخصية الاجتماعية

لمجتمعهما ـ بغض النظر عن الاختلافات الفردية ـ فينقلان الى الطفل ما يمكن أن نسميه بالبيئة السيكلوجية أو روح المجتمع ·

هذا التكييف الذى تناله شخصية الفرد لتتحول الى شخصية قومية لا يمكن أن يكون أبلا حدود فالحاجات البيولوجية والخصائص السيكلوجية الموروثة كل منهما تحتاج الى اشباع · كما تؤدى تلك الحاجات السيكلوجية الى الاضطراب والصراع اذا احبطت ·

ان الشخصية القومية تتكون نتيجة لعوامل اجتماعية اقتصادية وايديولوجية وعوامل سيكلوجية تتفاعل فيما بينها على نحو ما أوضح ايريك فروم كما يلى :

الانسان يرد على المواقف الخارجية المتغيرة بتغييرات داخله وهذه العوامل السيكلوجية تساعد بدورها على تعديل العملية الاقتصادية والاجتماعية ان العوامل الاقتصادية فعالة ولكن يجب أن تفهمها على انها ظروف موضوعية وليست دوافع سيكلوجية · والقوى السيكلوجية فعالة ولكن يجب أن نفهمها على انها هى نفسها مشروطة تاريخيا وكذلك بالنسبة للافكار فهى فعالة ولكنها كامنة فى كل عنصر يكون الشخصية القومية · وبالرغم من تداخل هذه القوى فان لكل منها استقلاله وفاعليته على حده على اعتبار انه يكون الضلع البارز فى المثلث الاقتصادى الايديوسيكلوجى ·

وبعبارة أخرى يمكن لنا أن نقول ان الشخصية القومية تنبع عن التكيف الدينامى للطبيعة الانسانية مع بناء المجتمع ويترتب على تغير الظروف الاجتماعية تغير فى الشخصية القومية فالظروف الاجتماعية تؤثر فى العوامل الثقافية والايديولوجية من خلال تأثيرها فى الشخصية والشخصية بدورها ليست نتيجة التكييف السلبى مع الظروف الاجتماعية بل نتيجة التكييف الدينامى على أساس العناصر التى هى أما موروثة بيولوجيا فى الطبيعة الانسانية أو قد أصبحت موروثة نتيجة للتطور التاريخى ·

وأسوق مثلا يوضح ما نقول بمجتمعنا المصرى من حيث احتوائه لثقافات متباينة أدت الى تباين فى الاتجاهات ·

لقد كان مجتمعنا المصرى يعج بثقافات متعددة تنتشر فى آن واحد وتختلف باختلاف مصدرها الأصلى. فهناك الثقافة الاسلامية الأصيلة ومنبعها الأزهر والثقافة العلمانية ، ومنبعها التعليم العام الذى تشرف الدولة على مناهجه وخططه وفق حاجتها ونظمها ، ثم التعليم الفنى ، ونظرا للتأخر الفنى والتكنولوجى فى بلدنا فقد كان هذا النوع من التعليم على مستوى من الجمود والتأخر والسطحية حتى أن الاقبال عليه كان قليلا جدا والتخرج منه كان لا يفيد صاحبه لا ماديا ولا فنيا · وأخيرا هناك التعليم الأجنبى وهو منبعث من الارساليات والجماعات الدينية الأوربية والأمريكية ·

هذه الضروب المختلفة من الثقافة التى زود بها أفراد المجتمع الواحـــد أدت الى تباين كبير بين هؤلاء الأفراد ـ تباين من حيث الفكر والاتجـــاه والمشاعر والأحاسيس ، بل انها أثرت فى دوافع الانسان الفرد وأبرزت اختلافا كبيرا فى الاتجاهات ، مما أدى الى تفكك المجتمع ، لا من حيث التعليم والثقافة فحسب ، بل أيضا ما يرتبط بذلك من مشاعر جمعية وفكر عام ، واتجاهات أصبحت تختلف باختلاف ميول الأفراد وآمالهم ، فانفصمت عرى الوحدة بين أبناء المجتمع واصابه من التخلخل والتنافر بين أجزائه ما سمح بوجود النفوذ الأجنبى ، ثم سيطرته التى امتدت فترة من الزمان ، أكسبت هذا المجتمع تأثيرات ثقافية جديدة وقيما ومبادىء تتناسب مع ظروف وجودها ومبرراته ٠

ولولا النزعة الدينية القوية التى تبدو ذات أثر كبير فى السيطرة على فكر الفرد ، وسلوكه وقيمه ، وما ينتج عن ذلك من قدرة ، على تفهم المواقف وتفسيرها ، لولا ذلك لأدت هذه الظروف العصيبة التى مرت بالمجتمع المصرى الى تغيير كبير فى شخصية أفراده ٠ الى صور من الانحلال والانحراف تؤدى الى نتائج خطيرة لا نراها فى مجتمعنا فى الوقت الحاضر ٠ وهناك من المجتمعات التى لقيت من الظروف الاجتماعية والسياسية ما مر بمجتمعنـــا الا عنصر الدين فلم يكن واضح التمثيل بينها ولا نفوذ له يعادل ما هو قائم بمجتمعنا المصرى ٠

مثل هذه المجتمعات تخطت الأزمات ، ولكن بايغالها البغيض فى الاتجاهات المادية ، واستبدالها قيمها الأصيلة بقيم غربية هزيلة دمرت معنويات أهلهـا ودفعتهم الى اتباع أساليب يستعينون بها ضد الصراع والاحباط ٠ فاهتزت شخصية الفرد وأصبحت مائعة باهتة لا لون لها ولا تقوى على الصمود ٠ ثم انها بعد ذلك ، لم تفد كثيرا مما أخذت به من قيم مستعارة ، وثقافات غريبة عنها الا انها أصبحت كحائر يقف وسط سلم طويل لا يراه الناس من فوقه ولا من تحته فاذا هى دائما على شفى الافول والضياع ٠

ان الظروف العسيرة التى مرت بمصر خلال القرون الطويلة لم تقـو على ابتلاع الشخصية المصرية ، أو محوها أو حتى تغيير كثير من ملامحها بل كانت تلك الشخصية الأصيلة العريقة قديرة دائما على اذابة كـــل غريب ، وتحويله الى عناصر مماثلة ، وهذا هو نابليون الذى اقتحم الأزهر بجنده وخيله انه خرج من مصر هاربا وسط الظلام بعد أن تحطمت فيها آماله وأحلامه ، ولم يقم له امبراطورية واسعة كما رسم له الخيال ٠

تلك هى الشخصية المصرية ـ انها شخصية قوية صامدة حزينة فكهة متدينة تعرف الله ، ولا تحيد عن الايمان ٠

الفنون الشعبية قوة ايجابية هى دعامة التطبيع والمطاوعة

يتوحد المجتمع ويتم الترابط بين أفراده بناء على وجود نزعات فطرية عامة عن طريقها يقلد الصغير الكبير ويشارك الفرد أخاه فى الافراح والاتراح ويتأثر بفكره فيسير على نهجه ، ذلك هو الدور الذى تؤديه النزعات الفطرية العامة من تقليد ومشاركة وجدانية وايحاء ولعب انها دعائم فطرية لقيام مجتمع انسانى مترابط متماسك ومن هنا يمكن لنا أن ندرك أثر الفنون الشعبية فى الشخصية المصرية على اعتبار أنها تمد المجتمع بعمليات ايحاء جماعية فهى تسوق اليه الأفكار والقيم والمبادىء فى صور منغمة طريفة محببة فلا يقوى الا على امتصاصها وتقمصها .

انه ايحاء يأتى عن طريق مباشر أو غير مباشر ، ولكنه ذو فاعلية مؤثرة فى سامعه وراويه . فتتوفر فيه كل العناصر التى تساعد على اكتمال عملية الايحاء فهناك فى القرية حين تعقد حلقات السمر التى يشهدها ، جمع غفير من الناس وتدار اقداح الشاى على الحاضرين ويصدح الفنان الشعبى بالاغنية ، أو الموال مع ما يتردد بينها من حكم شعبية ومأثورات فى هذا الجو الذى يجمع بين المرح والطرف والفكاهة والجدية ويفيض بالآهات والوجدانات ، يكون للفنان الشعبى دوره الهام فى التأثير على الجماعة ، وبث أفكار تمتصها دون نقد أو تمحيص ، وما يتبع ذلك من تسليم واقتناع ثم ما ينتج عن ذلك من آثار نزوعية تظهر فى تقييم الفرد للمواقف المختلفة ، وسلوكه ازاءها ، أى أنه يصدر فيما يأتى من أحكام أو أفعال عما امتصه من ايحاءات من البيئة الاجتماعية ، وما بها من آثار ثقافية وأهمها تلك الفنون التى تفرض نفسها على المجتمع وخاصة فى القرية ، وفى اطراف المدينة وبين ذوى الثقافة المحدودة أو الأميين فعمليات الايحاء تكون أقوى أثرا اذا كانت من الأعلى الى الأسفل ومن الأكثر الى الاقل ومن الصحيح الى المريض كما أن أثر الايحاء يكون أوضح وأقوى بين الجماعة ، فالفرد بين الجماعة يكون اميل الى قبول ما يوحى اليه به أكثر مما لو كان منفردا فكل ما تؤيده قوة الجماعة أو العرف يكتسب قوة تستميل الفرد الى

قبوله أو الخضوع له • ومن ناحية أخرى فان تأثير المشروب أو ما يقبلون عليه فى هذه الجلسات من (كيوف) ذو فاعلية كبيرة فى تعطيل عمل المراكز العصبية العليا واضعاف القدرة على الضبط والحكم والتمحيص فيصبح الفرد فى حالة تسمح له بقبول الأفكار وسرعة الاقتناع •

هذه الايحاءات الشعبية تكون فى مجموعها نظما فكرية أو فلسفات شاملة فتنشأ عنها القيم التى تتحكم فى سلوك الفرد وتقديره للمواقف المختلفة ومع أن هذه الاتجاهات المعيارية تختلف من شخص الى آخر وفقا لعوامل كثيرة أهمها المستوى الفكرى والاجتماعى والاقتصادى ، الا انه توجد نظم مشتركة للقيم داخل كل مجتمع تعمل « كاطار مرجعى مشترك(١) » فى مواقف متعددة بحيث توثق بين الاتجاهات المختلفة فى نظام متكامل •

ومما يساعد على نجاح عملية الايحاء عن طريق الموال أو القصة الشعبية هو أنها تعبر عن التوترات الانفعالية التى يعانى منها الأفراد وتشرح فحواها فتوحى لهم بأسباب لما يعانونه من حرمان وان لم تكن أسبابا واقعية الا أنها عن طريق الازاحة تساعد على التنفيس والتخفيف من التوتر كما أنها عن طريق اسقاط القلق ، والتوتر على العالم الخارجى تجعل الانسان يدرك انه ليس وحده فى المأساة بل هناك كثيرون مثله مما يخفف عنه عبء الآلام والضغوط الانفعالية •

وكذلك عن طريق ميكاينزم الاسقاط غير المباشر بما تتضمنه من شرح لمشاعر الفرد ، يكون مقبولا بالنظر الى السلوك الذى يصدر عن أبطال القصة الشعبية أو الملحمة •

كذلك يؤدى الاسقاط المباشر الى التحرر من الشعور بالذنب واراحة الضمير فعندما يقتنع سامع القصة الشعبية بمسلك البطل فهو أنما يؤكد لنفسه أن مسلكه المماثل ليس خطأ أى أنه حين يتقبل الايحاء من القصة بما تحويه من سلوك شائن أو قيمة غير مترفعة تبدو كتعبير عن الهو فى ميوله ورغباته المتخفية وتؤدى بالفرد الى التخلص من شعوره بالذنب وما يعتريه من توتر وصراع وقلق فيعيد الى ذاته ما لا تفتقر اليه من انسجام ، وتكامل كعاملين هامين لتوفر الصحة النفسية •

ومن ناحية أخرى فانه عن طريق هذه المؤثرات الثقافية الايجابية المتوارثة عبر الأجيال يتخذ التطبيع الاجتماعى ، صورا ثابتة لا يحيد عنها فهو يتبع ، مفاهيم انتقلت اليه من أجيال سحيقة مكتسبة بمسوح الخلود والقداسة •

---

(١) مخيمر ـ سيكلوجية الشخصية ـ الانجلو ـ مرجع سابق •

ان شخصيتنا القومية قد تأثرت أبعد الأثر بهذه الأنماط الثابتة المصاغة مقدما ومنذ آلاف السنين بحيث تصبح من القوة والفاعلية لا كاطار مرجعى مشترك فحسب بل كعصاب يسيطر على الشخصية فيدفعها الى الاتجاه الذى يرسمه لها دون تفكير أو تمحيص ومن هنا تظهر قوة الايحاء في :

١ ـ الربط بين الماضى والحاضر ، وخلق عقل جمعى يوفق بين الاتجاهات المختلفة فى نظام متكامل ٠

٢ ـ تأجيل عمليات التغيير الاجتماعى ، وما يجب أن تتضمنه من تقـــدم ثقافى يوازى التقدم الحضارى فى العالم ٠

هل تتحقق شخصية قومية ؟
.. المطاوعة والتصلب

ذكرنا فيما سبق أن عمليتى التنشئة الاجتماعية ، والتطبيع انما تهدفان الى تشكيل مجتمع ذى أهداف واتجاهات ، الا انه لكى يتم التكامل الاجتماعى ، فتتضح للمجتمع شخصية قومية ، لا بد من مطاوعة شخصيات أعضائه ، وذلك بقدرتهم على اعادة النظر فى مواقفهم ، واعادة تشكيل أنمـــاطهم السلوكية بالتخلى عن اتجاهات ، وعادات معينة ، أظهـــرت خبرات الحياة اليومية عدم كفاءتها ، واكتساب اتجاهات وعادات أخرى أكثر ملائمة لمقتضيـــات الموقف الاجتماعى .

ومهما اتخذ المفكرون من أسباب وعوامل تتدخل فى بناء الشخصيـــة لتحدد مقدار طواعيتها للتكيف والتكامل الاجتماعى ، فلا بد لنا أن نقرر ان هناك درجات متفاوتة للاستجابة والتشكل فى كل جانب من جوانب الشخصية ومن ناحية أخرى يصعب معرفة درجة الفعاليـــة ، التى تتم بين البيئة فى جوانبها المختلفة وبين الجوانب المختلفة للشخصية . ومعنى هذا أننا لا بد أن تسلم بأن الطفل يولد على درجة كبيرة من الطواعية بحيث يسهل التأثير فيه وتشكيله عن طريق تنشئته وتعليمه(١) وفقا للاتجاهات التى ترسم له وهـو ما تؤيده وجهات النظر القائلة بأن الطفل يولد ، مزودا بقدرات وجدانية توجه سلوكه مستقبلا على خلاف ما عرفه الأقدمون عن السلوك من حيث أن الطفل يمتلك انفعالات ثلاثة هى الخوف ـ والغضب ـ والحب ، على انه يجب علينا الا نغفل أثر العمليات الكيميائية العضوية التى تتم داخل الفرد بالاضافة الى تأثير الغدد الصماء وكيمياء الدم ، فان هذه العمليات الكيميائية العضوية فى الفرد لا تقتصر على ابراز الصفات الوراثية بل أيضا خصائص الحياة الاجتماعية التى يعيشها الفرد وأثرها عليه وتأثيرها فيه ومقدار استجابته لها بالسلب أو الايجاب ، وما تحدثه في داخله من انفعالات سارة أو مؤلمة ، وما يتبع ذلك من راحة نفسية واستقرار أو احباط ، وتوتر وقلق واضطراب ، ثم أثر تلك العوامل

---

(١) ورد ذكرها سابقا .

الداخلية على بقية أجزاء الشخصية وعلى الفرد ، بوجه عام وما يترتب على ذلك عند استجابته لموقف من المواقف ، فكم يرى الانسان منظرا جميلا فى بعض الأحيان ثم يكاد لا يلتفت اليه أو يتأثر به فى وقت آخر تبعا لحالته المزاجية والنفسية وكذلك الحال بالنسبة للأغنية أو النكتة ، فقد تثيرنا نغمة معينة أو مقطع معين من أغنية فى بعض الأوقات ، بينما لا نتنبه اليها فى وقت آخر لأنها لا تؤثر فينا ولا تثير انتباهنا ، وكذلك قد نضحك بقوة على نكتة أو قول بارع فى وقت ما بينما لا يؤثر فينا نفس القول فى وقت آخر ، وهنا يتضح أن التغيير الانفعالى وما يصحبه من تغيرات بيولوجية هو المسئول عن اختلاف الإستجابة بين موقف وآخر أى أن الطواعية للاستجابة ليست واحدة على الدوام ٠

وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية يؤكدون أهمية الجماعات والنظم الحضارية المختلفة فى تحديد نمط سلوك الفرد واتجاهاته ، وعلماء التحليل النفسى أكدوا أهمية البيئة العائلية فى الطفولة بوجه خاص ، وكورت ليفين والجشتالتيون بوجه عام يقدمون المفاهيم العلمية التى من خلالها يمكن معالجة التفاعلات الجارية بين الشخص والبيئة ، مؤكدين ضرورة المزج بين العوامل الذاتية والموضوعية لفهم السلوك ٠

ولما كان الفرد الواحد بحكم حياته فى المجتمع عضوا فى عدة جماعات لكل منها نظمها وقوانينها ومبادئها وأفكارها ومصالحها واتجاهاتها فهو عضو فى أسرته وعضو فى فرقته وعضو فى مدرسته وعضو فى جماعة اللعب أو جماعات اللعب المختلفة التى ينتمى اليها ، وعضو فى جماعة دينية أو فى جماعة ذات نشاط اجتماعى أو ذات أهداف سياسية أو اقتصادية أو ترويحية أو ثقافية أو غير ذلك وهو فى كل تلك الجماعات يخضع لنظم ومبادىء ، واتجاهات قد يبدو بينها التعارض واضحا ٠ مما يعرضه للصراع الاجتماعى ، ولا يحقق له درجة كافية من الاستقرار الاجتماعى ، وهذه الظاهرة تلاحظ بوجه خاص فى المراحل الانتقالية بالمجتمعات النامية على وجه الخصوص ٠ لذلك كان لا بد له من قدر من الطواعية يجعله مسايرا لكل ما تفرضه عليه تلك الجماعات دون أن يقع فى الصراع ٠

كذلك تبدو طواعية الشخصية وقدرتها على التشكل تبعا لمؤثرات البيئة الاجتماعية عندما يتضح لنا الارتباط بين بعض عناصر الشخصية والبيئة الاجتماعية مثلا كالعلاقة بين الذكاء والناحية الاقتصادية ، أو الذكاء والوضع المهنى ، فأبناء الأسر الممتازة اقتصاديا أو مهنيا على قدر أعلى من الذكاء ، وهذا بدوره يؤدى الى مزيد من القدرة على الطواعية فى بعض المواقف (ولكن قد يؤدى الى العكس فى مواقف أخرى) وبتوفر درجة فائقة فى الذكاء تساعد على

قوة الاستبصار مما يؤدى الى حدة النقد والتمرد على الوضع القـــائم ومعنى هذا أن جانب الذكاء أقل جوانب الشخصية مطاوعة ٠

اذن ٠٠ فطواعية الشخصية تسـاعد على التلاؤم مع النمط الحضـارى السائد ، وقد أوضح ذلك كل من كاتس وشانك فى مجتمعات الاسكيمو فى جريتلند ، والماورى فى نيوزيلنده والزونى فى نيومكسيكو (١) وما أوضحته روث بندكت فى بحوثها فى مجتمعات هنود السهول وغيرها(٢) ٠

وعلى ذلك لا بد لنا أن نعترف بوجود تفاوت كبير بين جوانب الشخصية فى تأثرها بعوامل البيئة الاجتماعية وينبنى على ذلك أن تكون دراسة الشخصية لسست وقفا على العوامل التى تؤدى الى تحقيق المطاوعة فحسب بـــل أيضا العوامل التى من شأنها ان تبرز التفاوت الكبير بين قدرة كل جانب من جوانب الشخصية على التأثر بعوامل البيئة الاجتماعية وهذا ما يمكن لنا أن نسميه بدرجة الاستجابة فى الشخصية ، فاذا كان التغير المعيارى كبيرا بين أفراد الجماعة دل ذلك على مقدار التشتت وعلى انخفاض درجة الاستجابة الشخصية وأدى الى وجود قدر كبير من التصلب فى مقابل الطواعية ينبنى عليه صعوبة تقبل الأفكار وقيام الوحدة والانسجام بين الأفراد مما يؤدى الى تعذر ظهور شخصية سائدة فى المجتمع مهما كانت عوامل التطبيع والتنشئة الاجتماعية موحدة ومنتشرة بين الأفراد ٠

وفى دراستنا الميدانية لأثر بعض الظواهر الفلكوريـــة على الأفراد (٣) تبينا :

١ ــ ان هناك فارقا كبيرا بين درجة الاستجابة بين كل من سكان المدن وسكان الريف ٠

٢ ــ ان درجة استجابة سكان الريف ليست واحدة ، كما انها تختلف باختلاف المؤثر ، فأهل القرية أكثر تأثرا بالأغانى الشعبية والحكم ٠٠ بينما الشباب يثيرهم الموال فيحفظون منه الكثير ويبرعون فى سرد النكت وقصص البطولة ٠

٣ ــ ليس ثمة فوارق واضحة بين سكان المدينة من حيث درجة الاستجابة الا عند أطراف المنحنى المعيارى ٠ ففى أوساط المدينة هناك تشابه ، ولكن بين الأوساط والأطراف يتضح التشتت ، ففى القاهرة الأحياء الشعبية

---

(١) Kats and Schank, R. L. Social psychology. New York, Wiley, 1947.

(٢) Dancodict, R. Potterns of Culture. New York Mentor Books, Books, 1954.

(٣) أجريت هـــذه الدراسات على مجموعات متفرقة من الأفراد عن طريق المقابلة الشـخصية والاستقصاء الشفهى ٠

ترتفع فيها درجة الاستجابة بنسبة ملحوظة عن الأحياء المتوسطة ، وفى الأحياء الراقية قد لا تتحقق الاستجابة بالنسبة لبعض الفنون الشعبية الا بدرجة ضئيلة ٠

٤ ـ مع وجود اطار حضارى قومى ، الا أنه يوجد بداخل هذا الاطار تفاوت ملحوظ يجب الا نغفله هو حالة التشتت بين الأطراف فى المنحنى المعيارى ، وهو علة وجود اختلاف فى الاستجابة المتغيرة بالنسبة للجوانب المختلفة فى الشخصية ٠

اذن تكون طواعية الشخصية من العوامل الهامة فى التكامل الاجتماعى بحيث يمكن للمجتمع ان يتخذ له شخصية الى حد كبير تتفق والانماط الثقافية والحضارية التى تسود فيه وتكون لتربية النشىء أكبر قدر من الأهمية فى تحقيق عملية التطويع بالنسبة لسهولة تلقين المبادىء والقيم التى يخططها المجتمع لتسود بين الأفراد ٠

وبعد ، اننا مهما أدعينا أن أفراد المجتمع الواحد يؤلفون وحدة متكاملة بناء على اشتراكهم فى ظروف تاريخية واحدة وتأثرهم ببيئة جغرافية واحدة واتباعهم أنماطا سلوكية متشابهة ثم تأثرهم بعوامل ثقافية دينمية وحدت بين أفكارهم الى درجة جديرة بالملاحظة والتقدير وجعلتهم يطربون ويتألمون لبواعث البهجة والألم على نمط مشترك بينهم جميعا ٠

اننا مهما أدعينا أن أساليب التنشئة الاجتماعية والتطبيع القومى كفيلة بأن تخلق بين أفراد المجتمع الواحد شخصية قومية فاننا لا بد ان نصطدم بحقيقة كبرى وهى انه من خلال تلك الوحدة الظاهرة لا بد أن توجد أجزاء وأجزاء وان كل جزء من هذه الأجزاء يتصف بصفات ذاتية تسمح له بالفردية والتمايز مما يدعم التكامل الاجتماعى ويزيد الأفراد قوة وترابطا فيما بينهم ، الا ان فكرة الشخصية القومية تصبح غير ذات موضوع حقيقى ٠

ان الفروق الفردية تجعل المطاوعة ذات درجات متفاوتة بين الأفراد فالبعض يمثلون الجانب الايجابى من الخلق القومى والشخصية القومية بينما آخرون يفتقرون الى التكيف الاجتماعى الصحيح ٠ وحياة الأفراد وما تحويها من تناقضات وتعارض بين المصالح تؤدى الى ابراز التصلب والانسلاخ من الجماعة بل واصطناع أساليب قد تتعارض والاتجاهات العامة ٠

وذلك لأنها تتأثر بمواقف الحياة المختلفة التى يجتازها الشخص كمواقف الاحباط الشديد والتوتر المتلاحق مما يؤدى تكرارها الى تهديد أمن الشخص بما توحيه من حرمان ٠

يقول سويف (١) « تضييق نطاق الحركة الحرة وتصلب البيئة الاجتماعية بوجه عام وعدم استقرارها والصراع العميق بين قيمها من شأنها جميعا ان تقلل من حظ الشخصية من المطاوعة والقدرة على التكيف • وعلى هذا الأساس نستطيع ان نفهم قول فرويد ان العصاب يجعل فريسته غير اجتماعية •

ذلك أن البيئة التى تتمثل فيها هذه الصفات أو بعضها هى أخصب البيئات لاستثارة الأعراض العصابية •

كذلك تضيف هورنى أن التناقضات السيكلوجية التى تزخر بها حياة الأفراد هى من ابرز الصفات الحضارية فى كل مجتمع • كذلك هناك عوامل كثيرة تغص بها مجتمعاتنا تسبب ضغوطا فائقة على الأفراد تؤدى الى وجود التفكك الاجتماعى كالتنافس والقلق والعدوان والسلطة والمركز الاجتماعى نتيجة لتعارض المصالح مما يبرز صفة التصلب فى المجتمع وما يؤدى اليه ذلك من صعوبة تحقق شخصية سائدة ذات وحدة دينمية فى المجتمع •

ويرى البعض أنه من اليسير أن تظهر شخصية قومية فى مجتمع يفرق فى البساطة والاندماج ولكن مجتمعنا المعاصر متعدد الاقطاب كثير التنافر مختلف الأجناس والسلالات يتعذر ان تظهر فيه شخصية قومية بالمعنى الصحيح • ولا ندعى اننا وصلنا الى القدرة على تفسير كل شىء بل اننا لو حاولنا ذلك فانما نفسر زاويتنا لهذا الشىء أى اننا قد نتحول من الاتجاه الموضوعى الى وجهات نظر ذاتية خطيرة الأثر على البحث العلمى •

بل علينا ان نتجنب الخلط بين مجال الرصد الذى قد يكون راسخا ومجال التفسير الأقل رسوخا والا نجعل الأول متعلقا بالثانى •

واخيرا علينا آن نؤمن بفكرة حكيمة ، وهى ان الشعب اكثر من حصيلة وأنه عبقرية مبدعة انه على الأقل ارادة تأكيد الذات ، انه ذو شخصية واضحة متكاملة تشكل وحدة يغلب عليها الاتساق من ناحية والتمايز من ناحية آخرى•

---

(١) د• سويف مصطفى ــ الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى ــ دار المعارف سنة ١٩٦٠ •

مقارنة وختام

بعد أن انتهينا من دراستنا للشخصية المصرية عن طريق دراســـة بعض مظاهر الفولكلور المصرى مستخدمين فى ذلك منهج الملاحظة والمقارنة والاحصاء نستعرض ما وصلنا اليه من نتائج ٠

لقد افترضنا أنه عن طريق الدراسة الهرمينيطيقية للظواهر الفولكلورية نستطيع الوصول الى صفات عامة مشتركة بين أبناء مصر يتألف من مجموعها ما يمكن لنا أن نسميه بالشخصية المصرية ٠

وقد أعترض البعض من قبل على أنه يصعب أن توجد شخصية قوميــة لبلد ما وأوردنا بعض الاعتراضات التى يراها أصحاب هذا الاتجاه وأهمها أن المجتمع فى تعقده وتعارض مصالح أفراده يتعذر ان يظهر فيه طابع موحد لهؤلاء الأفراد وان الصفات العامة المشتركة انما تكون سمة للمجتمع البدائى البسيط ٠ ومن ناحية أخرى فان العوامل النفسية التى تؤثر فى الأفراد تختلف باختلاف المجال الحيوى الذى يعيشه كل فرد من أفراد الجماعة وانه يترتب على ذلك ان تكون هناك آثار نفسية تتبعها استجابات مختلفة من فرد الى آخر مما يؤثر فى عمليات القبول والرفض ويبرز اتجاهات المطاوعة والتصلب ـ الى غير ذلك من الاعتراضات التى نرى انها جديرة بالنظر ٠

لقد قررنا منذ بداية البحث أن تقارن بين النتائج التى وصل اليها من درسوا الشخصية المصرية عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع أو عن طريق قياس الاستجابات التى يعبر بها الفرد عن قبوله أو رفضه لقيم معينة كما هو فى الأبحاث التى عرضنا لها بالشرح أثناء تقدمنا فى دراسة هــذا الموضـــوع ٠

لقد افترضنا فى بداية البحث أنه عن طريق دراسة بعض مظاهر الفولكلور يمكن لنا أن نلمح صفات عامة تكون تعبيرا عن الشخصية التى انتجت هــذا الفولكلور وقررنا كما هو واضح فى المدخل وفى المقدمة ان نقارن ما وصل اليه من سبقنا من البحاث بما وصلنا اليه من نتائج حتى نرى ان كان هناك تطابق

بين الاتجاهين لنقرر في النهاية أن دراسة الشخصية المصرية يمكن ان تعتمد على دراسة الفلكلور المصرى وانها ذات صفات معينة يتألف من مجموعها ما يسمى بالشخصية المصرية .

ومن ناحية أخرى فقد رأينا أن نقدم دراسة للشخصية المصرية عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية والتطبيع وأثر البيئة والثقافة والعناصر المادية والمؤثرات النفسية فى تلك العملية واتبعنا ذلك ببحث ميدانى على قرية كفر حجازى بمحافظة الغربية كما قدمنا دراسة احصائية لاستجابات الأفراد تجاه بعض القيم الاجتماعية ممثلة فى بعض الأمثال الشعبية الشائعة وكان هدفنا من كل ذلك أن نصل عن طريق التفسير السمنطيقى للمادة الفولكلورية الى النتائج التى نقابلها بنتائج المنهج الوصفى الذى اتبعه البحاث من قبلنا .

الا أنه من الواضح أن دراسة المعنى والدلالة ــ وهى التفسير السيمنطيقى ــ لا بد ان تؤدى الى نتائج أعمق وأدق بكثير من مجرد استخدام المنهج الوصفى فى البحث . لقد سعينا الى الكشف عن خبايا اللا شعور بعد ان وصلنا الى ما يذخر به من معانى ومفاهيم وقيم احتبست فى طياته قاصرة عن التقدم خطوة واحدة أمام سلطان العقل الجمعى وقوة الضمير ممثلا فى الذات العليا وما تتخذه من أوامر ونواه وما تعرضه من قيم ومعايير حتى اذا استطاعت تلك المعانى اللاشعورية ان تفلت فى صورة أغنية أو نكتة أو موال متشحة برداء الفن فانه يجوز لها الخروج الى النور والحياة ملتزمة بشريعة الذات العليا ومبادىء الضمير من ناحية ومعبرة عن ذاتها بالرمز والكناية من ناحية أخرى فيباركها العقل الجمعى ويضمن لها البقاء والخلود .

لقد اكتشفنا الكثير من الصفات التى تذخر بها الشخصية المصرية واضحة ممثلة فى كل ضرب من ضروب الفنون الشعبية التى درسناها فوجدنا فى الموال تعبيرا عن المازوكية بما تحويه من مشاعر الألم والتأوهات والنزعة التشاؤمية ومركب النقص الذى يدفع بصاحبة الى السعى نحو البطولة ليؤكد ذاته ويرد لها اعتبارها كما انه يعبر عن الكثير من صفات الوفاء والاخلاص والتفانى وتحمل الصعاب والحفاظ على الشرف والاهتمام بالأصل ــ وكذلك تشترك الأغنية الشعبية فى كثير من معانيها واتجاهاتها مع الموال فهى تعبر أيضا عن الانفعالات الأليمة والشكوى والأنين وتردد غدر الزمان وظلم الناس وهى فى ذلك تعبر أيضا عما يتصف به الشعب من ارهاف وجدانى وميول عاطفية صريحة ، لقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته ان شعب مصر سريع الانفعال يميل الى البهجة والطرب مع تطرف فى التعبير عن أفراحه وأحزانه ونسب ابن خلدون تلك الصفات عامة الى سكان البحر الأبيض وها نحن نرى من أغانينا الشعبية ما يؤكد تلك الصفات انه يغنى للطرب ولكنه يردد فى أغانيه غدر الزمان وظلم الناس ويتصور النواح حتى من الساقية التى يجلس بجانبها فصوت المياه المتدفق

فى رقة وحنان وازيز حركاتها يوحى له بأن آلامه انما تثير الطبيعة والجماد لذلك فهى يسعى الى طلب المعرفة وكشف الأستار عن طريق البخت والتنجيم وهى عادات متأصلة فى المصريين كما انها تتفق واتجاهات العقلية الخرافية التى لم ترق بعد الى مستوى التفكير المنطقى والمنهج العلمى الصحيح ٠

وكثير من الأغانى الشعبية تعبر عن الجانب المأساوى فى حياة المصريين وتصور ما يسيطر عليهم من انفعالات وتوتر وصراع نتيجة للاحباط وما يؤدى اليه ذلك من ظهور الميول العدوانية والتفكك بين الناس فيصعب تحقيق التوافق الاجتماعى ويظهر التشكك والشعور بالاضطهاد ، أن كثير من الأغنيات الشعبية تردد هذه المشاعر اللاجتماعية مما يجعلنا ندرك أثر عمليات التنشئة فى مراحل الطفولة الأولى وما تكسبه للأفراد من صفات نفسية اجتماعية تعبر عن الجانب الايجابى فى حياة الجماعة أو تجعلهم ينشئون نشأة غير صحية فتنطبع شخصياتهم بتلك الصفات السلبية التى تبدو فى كثير من الأغانى الشعبية ، ومن هنا ظهرت الطبقية ممثلة بوضوح حتى فى الأغانى الشعبية فبجانب تلك الأغانى التى تعبر الآلام والظلم والقسوة هنــاك أغــان تنطق بالسعادة والحب والهناء وتعبر عن الرضا والبهجة والفراغ وتمثل الخلق المصرى فى صفائه وسماحته ورقة مشاعره مع اتجاه وجدانى يميل نحو اشباع النوازع الطبيعية للشباب فى حياء وتستر فهو يدرك قسوة المجتمع وسلطان التقاليد لذلك فهــو يرضى ميـــوله وغرائزه ولكن على نحو لا يجلب عليه سخط المجتمع ٠

أما الفكاهة فهى تعبير عن ذلك الخلق الذى يتصف به غالبية الشعب المصرى وهو المرح والرضا وخفة الظل فكثيرا ما نرى العامل يشقى ويكد ولكنه لا ينسى النكتة تسرى وتجلب الى نفسه ومن معه البهجة والسرور كذلك تعتمد النكتة على صفات كثيرة الظهور بين عامة الشعب وهى الذكاء وسرعة البديهة وحدة الفهم واليقظة والصراحة ٠ ولعل انتشار النكتة بين كثير من أبناء مصر من أهم العوامل التى جعلتهم يتسمون بالبساطة وصفاء السريره والبعد عن التوتر والصــراع وحيــاة الريفى تعبر عن تلك البساطة ويســودها المرح والرضا والهدوء ٠٠ فبعد يوم شاق فى الحقل يمضى الريفيون الى الجلسات المسائية البريئة على « المسطبة » حيث يجتمع الشــباب يمرحــون ويسرون عن أنفســهم بالنكتة والأغنية الشعبية ــ هذه الجلســات الريفية السمحة قبل ان يكون لها ما يماثلها فى بلاد أخرى لأنها تعتمد على الاخوة والكرم وصفاء القلب وكلها صفات تتضح فى الشخصية المصرية فى استواء أفرادها وسلامتهم بعيدا عن العقد والتوترات التى قد تبرز من خلال سلوك بعض الأفراد معبرة عن آثــار مراحل الطفولة الأولى وما اتسمت أثنــاء عمليات النمو غــير الصحيح فألقت بظلالها القاتمة على حياة البعض عندما يتعاملون كأعضاء فى المجتمع أو داخل الأسرة أو حتى عندما يخلون الى أنفسهم بعيدا عن الآخرين ٠

ان التنشئة الأولى بما تكسبه للأفراد من خلق فى كل مرحلة من مراحلها الفمية والشرجية وما بعدها ـ ذات أثر لا يمكن تغافله فى حياة الفرد والجماعة وفى ابراز سمات معينة للشخصية قد تحيد بصاحبها عما تتصفه الجماعة فيبدو سلوكه فى صورة فردية غير مطابقة تماما للاطار العام الذى رسمته الجماعة لنفسها • ولا ينفى ذلك وجود خلق قومى يتمثل فى الأغلبية العظمى من أفراد الشعب هم الجماعة السوية ذات الصفات والملامح المتشابهة المعبرة عن الخلق المصرى الاصيل •

وهنا نجد النقاء واضحا بين ما اتجه اليه اصحاب (التربيه ومشكلات المجتمع) وبين ما وصلنا اليه عن طريق دراسة الفلكلور وربطها بالتأثيرات السيكلوجية لعمليات التنشئة والتطبيع ، فقد فطن أصحاب (التربية ومشكلات المجتمع) الى وجود نمطين للشخصية المصرية هما ـ ابن البلد والفهلوى ـ (كما ورد سابقا) وهم يقررون ان ابن البلد يمثل الشخصية المصرية الأصيلة أما الفهلوى فهو يمثل ما يصطنعه الناس من خلق لمواجهة المواقف العسيرة التى تفرض عليهم • بينما نرى ان هذين النمطين انما يرجعان الى التنشئة الاجتماعية الصحيحة وغير الصحيحة وما ينشأ عن كل منها من آثار واستجابات تصدر عن الفرد فى المجتمع أى أنهم يرجعون مشكلات الفرد الى المجتمع فحسب الى العوامل السيسولوجية بينما نرى ان العوامل السيكلوجية تلعب الدور الأول فى حياة الفرد وانه بناء على تفاعلاتها فى المجتمع تنشأ صفات الحياة الاجتماعية للفرد أو الأفراد •

وتتضح فى القصص الشعبى صفات البطولة والشهامة والكرم والذود عن الوطن والجماعة وحماية الضعيف والمرأة •

كذلك تعبر القصة حتى ولو كانت تصف معارك حربية ـ تعبر عن رقة المشاعر وصفاء القلب والتهاب الوجدان والقدرة على تحمل المشاق وتلك جميعا صفات تبرز فى الخلق القومى وتتمثل فيما وصف به الباحثون الشخصية المصرية مما عرضنا سابقا •

الا أنه من خلال القصة نلمس حياة كاملة تنبض بالحيوية والمشاعر وتعبر عن أصالة يصدر عنها نظام بنيانى للحياة فالتماسك الاجتماعى والعلاقات بين الأفراد وقيام عادات وتقاليد وعرف له أصوله كقانون عام أدت جميعها الى وضع قيم ومعايير ثابتة بين أفراد الجماعة وشكلت اطارا مرجعيا لسلوكهم وآدابهم وأحكامهم وكل ما يتعلق بحياتهم فعبروا عن كل ذلك فى الأمثال الشعبية التى تستخدم اسلوب الشعب ولغة الشعب ومن الناحية المنطقية جامعة مانعة صاغتها عقلية الشعب فى دقة وبساطة فجاءت من الناحية الأدبية سهلة ممتعة مع انه شعب تغلب عليه الأمية ولم يتلق قسطا وافرا من الاتجاهات العلمية بمعناها الدقيق الا انه شعب عريق أصيل فطر على صحة الحدس والنظرة الصائبة

لذلك صاغ كل شئون حياته فى حكم وأمثال هى الدوافع والموانع التى وضعها لنفسه كقانون عام ملزم لا يحيد عنه ، انها اللوجوس الذى يضعه الشعب لنفسه ليعيش فى اطاره حتى يكون فى مأمن من الانحراف واتباع النزوات · لذلك عبر عنه الباحثون الانثروبولوجيون الأجانب بأنه شعب معتدل يتمسك بالدين والفضائل ·

ومع ان الحكم والأمثال تحوى الجانبين ــ السلبى والايجابى الا انها تتخذ أساس الحياة هو الجانب الايجابى وتجعل السلبى تذكره وتقويما للهدف والتوجيه الراشد السديد وهى تحوى صفات الخلق المصرى فى دقة ووضوح فهى تحث على الاعتماد على النفس والاكتفاء الذاتى والتروى ، والحيطة وحساب المستقبل والصبر والجلد والاتزان والمثابرة كما انها تعبر عن كثير من النقائص كالبخل والجشع والانانية والاسراف ولكنها يلحق بكل منها ما يشعر الفرد بأن هذا ليس هو الطريق الصحيح ·

انه خطاب موجه من الذات العليا الى الأبد الى اللا شعور ليرده عن اتجاهاته الغريزية الى المستوى المثالى الفاضل ــ انه ليس خطابا فحسب بل هل فصل الخطاب فهو قانون طبعته الحياة فى قلوب الشعب ليعيش فى كنف الفضائل مستمسكا بالدين ·

وبعد فهناك شخصية مصرية وهناك خلق قومى يشترك فى ملامح عامة كثيرة نتيجة للتنشئة الاجتماعية التى تبدو واضحة الأثر كلما ارتفت الجماعة حيث تسهم جميع المنظمات فى عملية التنشئة الاجتماعية والتطبيع ولا تنفرد بها الأسرة وحدها ·

وكلما ارتقى المجتمع فى سلم الحضارة (١) ازدادت الشخصية الاجتماعية وضوحا فكلما ارتقت الجماعة المنظمة والمتعاونة كلما أمكن لها ان تقدم المزيد من الخير والنفع الى أعضائها الذين يبلغون النضج فى كنفها وكلما عظمت هذه القدرة على النمو ازدادت حاجة هؤلاء الأعضاء الى خدمات المجتمع لأن مثل هذه القدرة تعنى ان الفرد انما يصطنع أساليب تناسب المجتمع تشربها عن طريق التعلم واكتساب العادات ومعنى ذلك ان يزداد اعتماد الفرد على المجتمع وتتحقق فرديته فى ظل المجتمع ·

ولا يسعنا هنا الا ان نبدى ملاحظة هامة وهى أنه قد يظن البعض ان

(١) ر·م ــ ماكيفر ــ الجماعة دراسة فى علم الاجتماع ــ ترجمة محمد على أبو زيده ــ ولويس اسكندر (الألف كتاب) ودار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ ص ٢٧٨ وما بعدها ·

الشعوب البدائية أشد تماسكا وأقوى تنشئة من الشــعوب المتمدنة وان الروح الاجتماعية والخلق القومي أكثر وضوحا بينها بسبب بساطة العلاقات الاجتماعية وخلوها من التعقيد عندهم الا اننا لو عدنا النظر فى هذه القضية لتبينا ان فردية العضو لا تتضح فى المجتمع البدائى لأنه أكثر تجانسا فى أجزائه وتشابها فى أنواعه فلا يتحقق فيه شخصية مستقلة بذاتها تعبر عن وجودها الاجتماعي فالعضو فى الجماعة النامية المتنوعة أقوى وأكثر احتياجا الى الحياة الاجتماعية من العضو فى الجماعة البدائية التى لا تنوع فيها بين الأفراد ٠

ومن ناحية أخـرى فان استجابة الأفـراد لعوامل التنشئة الاجتماعيــة والتطبيع تتوقف على مدى ما يقدمه المجتمع من خدمات لأعضائه أى أن هذه الاستجابة تتناسب تناسبا طرديا مع ما يحققه المجتمع لأفراده من خدمــات وكلما ارتقى المجتمع كلما ازداد اعتماد الأفراد عليه وكلما قل اعتماد الكائن على الغريزة زاد اعتماده على المجتمع ، وهنا تظهر الشخصية الاجتماعية معبرة عن صفات مشتركة يتسم بها الشعب فى مرحلة معينة من مراحل نموه لذلك لا يمكن لنا ان ننكر وجود الشخصية المصرية كما لا يمكن لنا ان تثبت وجودها بصفة عامة مشتركة يتحقق فيها التطابق التام بين الأفراد فهناك مرحلة تالية من مراحل النمو الاجتماعي ترتبط بالمستوى الفكرى للفرد فتجعله ينبذ ولو الى درجة معينة بعض الصفات العامة للجماعة بل ويثور عليها وهنا يتضح عامل المطاوعة والتصلب الذى يؤثر فى تقبل الأفكار أو رفضها بين أفراد الجماعــة فتبدو ملامح الشخصية القومية ولو من بعيد ٠

ومن هنا يمكن لنا أن نقرر وجود شخصية قومية تتضح معالمها باستخدام المنهج السيمنطيقى فى دراســـة بعض مظـــاهر الفولكلور المصـــرى كتعبير عن الشخصية المصرية وان هذه الشخصية لا يمكن ان تكون شخصية فرعونية ولا هى شخصية عربية خالصة ولكنها تركيب دينمي من عناصر متعددة اختلطت وتالفت وفق أنماط معينة حتى انتهت الى شكل خاص ذى حدود بنيوية متكاملة هو ما نعبر عنه بالشخصية المصرية أو الشخصية القومية ٠

واذا كان بعض الكتاب المعاصرين قد فكر فى تلك الشخصية وكيف انه عن طريق ميراثها الطويل عن عناصر الثقافة خلال الأجيال قد اتخذت صفات معينة ربما كان بعضها من عوامل التصلب والاعاقة وطالب هؤلاء الكتاب ان تدرس الملامح التى تؤلف تلك الشخصية حتى يمكن ان يقوم المختصون بعملية اعادة بناء لها لدفعها الى النهوض والتقدم ٠

أقول اذا كان بعض المفكرين قد اتجهوا هذا الاتجاه فمن الواضح اننـا سبقنا الى هذا التفكير راجين ان يكون لتحليل صفات الشخصية المصرية وايضاح

معالمها وما تنطوى عليه من عوامل بناء وأخرى معوقة للتقدم أثره فى عملية اعادة البناء وفقا لمنهجى التحليل والتركيب وما تتطلبه العملية من تغيير للاتجاهات الفاسدة واحلال اتجاهات صالحة محلها حتى يمكن لنا ان نلحق بركب الحضارة فى عصر امتاز بالتغير السريع والحضارة الشامخة .. والله ولى التوفيق .

ملحق
الفكاهة والنوادر بأنواعها الثلاث

ملاحق تمثل أنواع الفلكلور المختلفة
أمثلة الفكاهـــة بأنواعها المختلفة

نوادر الذكاء والحكمة :

١ ـ حمل جحا الى الأمير أوزة مشوية ، وغلبه الجوع فأكل رجلها فلما قدمهـا للأمير سأله عن رجلها فأجابه بأن أوز هذه البلد كله برجل واحدة وطلب جحا من الأمير أن ينظر الى الأوز الواقف بجوار بركة الماء فى الحديقة وكان يقف على رجل واحدة • فأمر الأمير حارس الحديقة بأن يهش الأوز بعصاته فاذا هو يجرى على رجليه فقال جحا (مهلا أيها الأمير ، لو شـــد أحد على انسان بهذه العصا لجرى على أربع) •

٢ ـ وسأله تيمور لنك الطاغية « أين يكون مثواى فى الآخرة » فأجاب جحا وأين ترضى أن تكون ان لم تكن مع جنكيز خان والاسكندر وفرعون والنمرود •

٣ ـ وسأله تيمور لنك وقد أخذه معه الى الحكام وخلع ملابسه الا مئزرا يديره على وسطه قائلا بكم تشترينى الآن لو عرضت عليك فى السوق يا خوجة نصر الدين ـ فقال تيمور ، ويحك ان ثمن هذا المنذر خمسون دينارا ـ فرد جحا وهذا هو الثمن الذى حسبته •

٤ ـ وسئل أيهما أفضل السير خلف الجنازة أم السير أمامها قال : لا تكن فى النعش وسر حيث تشاء •

٥ ـ ولقيه أحد معارفه فى الطريق فقال له : انى رأيت الساعة رسولا يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر •

فقال جحا ـ وماذا يعنينى ؟

فقال صاحبه ـ انهم يحملونه الى بيتك •

فقال جحا ـ وماذا يعنيك ؟

٦ ـ وسكن فى دار فشكا الى صاحبهـــا انه يسمع فرقعة فى السقف ، قال صاحب الدار لا تخف انه يسبح الله • فرد جحا وهذا الذى أخشاه تدركه رقة فيسجد علينا •

٧ ـ وعرض عليه رجل كتابا بالفارسية وطلب منه قراءته فتعلل برداءة الخط وقال صاحب الكتاب حانقا وعلام إذن تضع هذه العمامة على رأسك كأنها الرضى . فخلع العمامة ووضعها جانبا وقال له « دونك العمامة فاسألها فانها صاحبة العلم الذى تبغيه . »

٨ ـ وجاء الشرطى الى القاضى وجحا فى مجلسه يشكو له رجلين اصطحبهما لأنهما القيـــا بالأقذار فى عرض الطريق وادعى كل منهما ان زميله ملزم بازالتها فأحال القاضى الحكم الى جحا رغبة فى أن يسخر منه ـ فسأل جحا الشرطى أن يطلب ممن توجد الأقذار بالقرب من داره بأن يزيلهـــا فأصر الشرطى على انها توجد فى الوسط تماما بين الدارين فقال جحا انما يزيلها اذن مولانا القاضى لأنها فى الطريق العام ومولانا القاضى هو المسئول عن المدينة .

نوادر الحماقة والبلاهة :

١ ـ مضى جحا وفى منديله فاكهة فسأله بعضهم عما فى المنديل فقال لا أجيب ولكن من يعرفها أعطيه أكبر خوخة ؟ فقال أحدهم انه خوخ ، فرد جحا أى ملعون أنبأكم بأمره وهو مصرور .

٢ ـ رأى البعض أن يمتحن جحا فقال له ان عرفت ما معى أعطيتك واحدة منه تكفى لعمل عجة مليحة . فقال صفه لى ولا تذكر اسمه ، فقال صاحبه انه أبيض وفى وسطه صفار . فرد جحا ، الآن عرفته انه لفت حشوتموه جزرا

٣ ـ وسألوه أيهما أنفع . الشمس أو القمر فأجاب مسرعا القمر ولا مراء ـ فسألوه ولم ؟ قال لأن الشمس تطلع فى النهار حين يستغنى عنها الناس أما القمر فلا يطلع الا فى الظلام على حين الحاجة اليه .

٤ ـ وكان يشارك على دار فباع نصفهـــا الذى يملكه ليشترى بثمنه النصف الآخر وتخلص له الدار بغير شريك .

٥ ـ وســـألوه ما طالع نجمك فقـال ولدت والشــــمس فى برج التيس قالوا لا يوجد هذا البرج فى الســــماء ولعلك تعنى برج الجدى فأجـــاب أفمن مولدى الى اليوم لا يصبح الجدى تيسا .

٦ ـ وانطفأت شمعة فى داره فطلبت منه زوجته أن يناولها اياها من يمينه ، فقال لها يا حمقاء وكيف أعرف يمينى من شمالى فى هذا الظلام .

٧ ـ ورأوه يوما وهو يغنى ويجرى فسألوه عن السبب فقال أحب ان أسمع صوتى من بعيد .

٨ ـ وسألوه لماذا ينتشر الناس فى جوانب الأرض ويذهبون ذات اليمين واليسار

كل صباح فتأمل قليلا ثم قال لو ذهبوا الى ناحية واحدة لمالت بهم الأرض وانكفأت بهم فى هاوية ليس لها قرار ·

نوادر التحامق والتباله :

وهى نوادر تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة نورد منها ما يلى :

١ ـ صعد جحا على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب البستان وسأله ماذا تفعل ؟. فقال انه بلبل انتقل على الأغصان ـ فقال صاحب البستان اسمعنا اذن من غنائك أيها البلبل العجيب فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه التغريد فقال صاحب البستان ما هذا بتغريد بلابل فرد جحا بل هو تغريد البلبل العجيب ·

٢ ـ نظر تيمور الى المرآة فتأثر من قبح منظره فهداه وزيره بقوله إن له من القوة والبأس والسلطان والجاه مالا يجعله يبتئس من الافتقار الى الجمال ففرح تيمور ونظر الى وزيره فوجده يبكي وينتحب فسـألـه عن السبب فأجابه أن المصيبة تقع عليه هو لأنه ينظر اليه فى كل لحظة فكيف لا يبتئس

٣ ـ دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه فحمل هو بقية الأثاث حتى دخل وراء اللص فى داره ونظر اللص فرآه وقال له من أنت يا هذا · فقال أنا صاحب الدار الذى نقلتنا اليها ·

٤ ـ طلب من ابنته الصغيرة أن تملأ الجرة وحذرهـا من كسرها وأنذرها ان كسرتها ليصفعها هكذا وصفعها صفعة قوية فبكت فنبهه أحد أصدقائه على ذلك فرد قائلا انما أضربها لتعرف ألم العقاب فتحذره واما بعد كسر الجرة فما فائدة الضرب ؟

٥ ـ وذهب الى قريته فمر بدكان حلوى تعرض فيه أصناف الفطائر والحلوى والفاكهة المسكرة الشهية فأهوى عليها يأكل بلا استئذان وأهوى صاحب الدكان بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه فتغابى جحا وراح يثنى عليه وعلى أهل قريته ويقول يا لكم يا أهل قرية من قوم كرام تطعمون الناس بالعصا والكرباج ·

٦ ـ ولبس حذاء جديدا فأراد بعض الفتية أن يحتالوا عليه ليسرقوه فتراهنوا معه على أن يصعد الشجرة ويأتى بثمارها فاتفق معهم وأخذ حذاءه وصعد الى أعلى الشجرة فقالوا له ماذا تصنع بالحذاء على الشجرة فرد « اذا ألقيت اليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء أما أنا فلعلى أجد لى طريق سـفر من الشجرة فأذهب ولا أعود اليكم » ·

« بعض الأغاني الشعبية »

هذه المجموعة من الأغاني وردت في كتاب أغـاني مصر الشعبية تأليف السيدة / بهيجة صدقي رشيد وقد الهمتها أصالة حبها للفن الشعبي أن تحفظ أغانيه مكتوبة منغمة خوفا عليها من الضـيـاع كما انهـا ترجمتها الى اللغة الانجليزية مع المحافظة على اللحن والقافية ٠

١ ـ الحنة الحنة :

الحنـة الحنـــة يا قطر النـدى ... يا شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوا

يا خوفي من أمك تسألني عليك ... لاحطك في عيني واكحل عليك

يا خوفي من أختك تدور عليك ... لاحطك في شعري ياعيني واضفر عليك

وان جتني العـواذل تسألني عليك ... لاحطك في صدري ياروحي واللولي عليك

٢ ـ تفتة هندى :

بفتة هندى بفتـــة هندى ... شاش عريض يا بنات

افتحـــوا لى يا صـــبايا ... ولا اخش من الشباك

افتـــحى لى يا صـــبية ... عندى بضـــاعة للستات

عنـــدى حراير وســـتاير ... وتنتـــلا للبنـــات★

افتـــحى لى يا بنيـــه ... خليـــنى أخش أبـــات

فتحت لى دى الصـــبيه ... وقالت لى اتفضل بات

٣ ـ برهوم يا برهوم

برهـــوم يا برهـــوم ... يا بو زيد هـــلال

تحت الثوب تاج صغير ... تركب غـــالى ليـــه

أى والله ـ تركب غالى ليـــه

برهـــوم في حارتنـــا ... بيـــاكل كمثـــرى

والواحدة بتكله آه يعيني ... والواحـــدة بتـــكله

أى والله والواحـــدة بتـــكله

برهـــوم في العـــالى ... والعـــالى الله

لأدبح جوز حمام صـــغير ... واعـــزم خلـــق الله

أى والله واعـــزم خلق الله

(★) أغنية الأميرة أسماء ابنة خمارويه وشهرتها قطر الندى عندما تزوجت من الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨٢ هـ ٠

برهــوم فى الســطوح والشــاعر بينــوح
والقلب مجروح يا عيــنى جــرح الســكين
أى والله جــرح ســكين

٤ ــ يا بنات اسكندرية :

يا بنــات اســكندرية مشــيكم على البحر غيــة
يلبســوا الكشــمير بتلى والشــفايف ســكرية
يا بنــات جوا المدينــة عنــدكم أشــياء ثمينــة
يلبسوا الشــاهى بلولى والقلادة على النهد زينــة
يا ملاح خافــوا من الله وارحموا العاشــق لله
حبــكم مكتــوب من الله قــدرة المــولى عليــه

★ ★ ★

يا شــيخ العــرب يا سيد تجمعنى على خلق الليله
وان جاى حبيب قلبى بعمل له الكشــمير خليله
كامل الأوصــاف فتــنى والعيون الســود رمــونى
من هواهــم صرت اغنى والهــوا زود جنــونى
جمعــوا جمع العــوازل عن حبيــبى يمنعــونى
والله أنا ما أفوت هواهــم بالســيوف لو قطعــونى
قم بنا يا خلى نســكر تحت ظل الياســمين
نقطف الخوخ من على أمه والعــوازل غــافلين

٥ ــ عطشان يا صبايا :

عطشــان يا صــبايا دلونى على الســبيل
عطشــان يا صبايا دلونى على الســبيل
واســجونى من بيتكم لكنها من بحر النيل
عشان يا صــبايا دلونى على السبيل
واســيوط بجت مدينــة ترسى عليهــا الغــلايين
عطشــان يا صبايا دلونى على الســبيل
واشــمعنى عيونك حلوه وأنا عيــونى مغمضــين
عطشــان يا صبايا دلونى على الســبيل

عطشـــان يا صبايا دلونى على السـبيل

عطشـــان بطلب ميـــه   والنهـــر بعيد بعيــــد
مشـــــتاق للحـــرية   مشـــــتاق للأجـــويد

عطشـــان يا صبايا دلونى على السـبيل

٦ ـ بنت الشلبية :

بنت الشـــلبية حـــلوة   لوزيـــة بحلال وصلك يا نور عنيى
لبســـت البينى وقلعت البيــنى   تعـــالى جانبى يا نور عيــنى
لبســـت البيجى وقلعت البيـــجى   ناوية تخبينى الحلوة الشلبيـــا
لبســـت رصاصى خلعت رصاصى   يا ما قلبك قاسى ما تحنى على
لبســـت قطيفة قلعت قطيفـــة   يا ما انتى لطيفة ما تردى على
بنت الشـــلبية عيونها عســـلية   تمشى تتمخطـــــر بالجلبيــــة

٧ ـ اتمخطرى يا حلوة يا زينة :

(زفة العروســـة)

اتمخطرى يا حلوة يا زينـــة   يا وردة من جـــوا جنينـــة
يا عود قرنفل يا عروســـة   والورد ضـــلل علينـــا
اتمخطـــرى وتعـــالى جنـــبى   يا حلوة فى البـــدلة التبنى
يا عـــود قرنفل يا لعنـــدى   والورد ضـــلل علينـــا
اتمخطـــرى وتعـــالى لهنـــا   يا بت ســـيدنا وســـيدنا
يا بت شـــيخ العلمـــا   يا عقـــلة وكاملة المعـــنى
تمخطـــــرى لعريســـــك   كل البلاد على كيســــك
حزامك فضـــة بميت ريال   يا أم العيـــون العســـلية
يا طالعـين القصـــر لفـــوق   يا نازلين ســـلموا لى
على غزال وعيـــونه ســـود   والعنـــق أبيـــض بنـــورى

٨ ـ على بياعين العنب :

عـــلى بيـــاعين العنب   والنبى حتة يا بتـاع العنب
جاب لى اللبة فيـــه جبـــه   روح رجعها وهات لى العنب
جاب لى الخلخال على قدى تمام   روح رجعـــه وهـات لى العنب

على بيـــاعين العنب والنبى حتة يا بتاع العنب

جاب الشبشـــب يقر ويكتب روح رجعه وهات لى العنب
جاب الشبشمـــب يقـرا ويكتب روح رجعه وهـــات لى العنب

على بيـــاعين العنب والنبى حتة يا بتاع العنب

جاب لى الخلخـــال على قدى تمام روح رجعهـــا وهـــات لى العنب
جاب لى الكردان على قدى تمام روح رجعـــه وهات لى العنب

على بيـــاعين العنب والنبى حتة يا بتاع العنب

٩ ــ بستة ريال يابا جوزنى :

بستة ريال يابا جوزنى

القرش مركون والحـــلة على الكانون من قلة الصـــابون يابا جوزنى

بستة ريال يابا جوزنى

والنبى ياما تقـــولى لبويـــا بســـتة ريال يابـــا جوزنى

١٠ ــ تعالى لى يا بطة :

تعـــالى لى يا بطـــة	وأنا مـــالى هـــه
تعـــالى لى ع المحطـــة	وأنا مـــالى هـــه
وشـــيلى لى الشـــنطة	وأنا مـــالى هـــه
تعـــالى لابـــوك	وأنا مـــالى هـــه
تعـــالى لاخـــوك	وأنا مـــالى هـــه
تعـــالى لامـــك	وأنا مـــالى هـــه
تعـــالى لاختـــك	وأنا مـــالى هـــه
تعـــالى لعريســـك	حاضـــر جيت أهـــه

١١ ــ آه يا ليمونى يا ليمونى :

آه يا لمونى ظلمونى

آه يـــا ليمونى وأنـــا احب الجفى	آه يا ليمونى وأنا اكلى الحفى
آه يا ليمونى والى احبـــه من مصر	آه يا ليمونى على فين يجيبولىياعيونى
آه يا ليمونى وأنا احب القرفـــة	آه يا ليمونى على شرب القرفـــة
آه يا ليمونى والى احبـــه واخفه	آه يا ليمونى على فين يجيبولىياعيونى

١٢ ـ ما فيش كده أبدا يا عروسة :

ما فيش كده أبدا يا عروسة ولا فى الملك يا عينى
جبنـــا جهـــازك من مـــالك وربنا عدلهـــا لك
أبـــوك واقف قـــدامك يزوق لك فى العربة
عريســـــك واقف قـــدامك يعد ميه على ميه

١٣ ـ يا طير يا غريب يا مسوح :

يا طير يا غريب يا مســـوح يا عزبه سيبنى خلينى أروح
يا طير يا غريب يا قمـــرى بعـــد الحبـــايب جنـــنى
يا طير يا غريب يا مسكين ده أنا فى الغربة بقالى سنين

١٤ ـ مرمر زمانى :

مرمر زمانى ما ســـقانى مرمر قلبى تواع فى هواك يا أسمر
يا رايحة البستان خدينى معاك أحملك الســلة واسير وياك
وان كان أبوك ما عطانى اياك لأعمل عمايل ما عملها عنتـــر
يا داخلة الحمام خدينى معاك أشيلك الشنطة وأسير معـــاك
وان كان أبوك ما عطانى اياك لاعمل عمايل تنكتب فى الدفتر
مرمر وســـقانى حبيبى ســـكر نصف الليالى على المدامة نســـكر
نـــدرا على وان آتى محبـــوبى لاعمل عمايل ما عملها عنتـــر
يا بنت ملك داب وبـــانت ايديك وأخاف عليك من سواد عينك

١٥ ـ يا هوا يا سيسى :

يا هـــوا يا ســـيسى نشـــف لى جميـــصى
لامى تضـــــربنى وابويـــا يدبحـــــنى
والبقـــرة تنـــطحنى والجاموسة تجوشـــنى
يا هـــوا يا ســـيسى نشـــف لى جميـــصى

١٦ ـ منـــديلى :

منديلى آه يا نينـــه دا وقع فى الحارة
بالذمـــة ما افوتـــه أبدا دا حرير وخسارة
منديلى يا نينة بمبى باربط بـــه جنـبى

واللي احبه يا نينة اهو عندي ... واخطف منديلي
منديلي يا نينة رصاصي ... باربط به راسي
واللي احبه يا نينة دا قاسي ... واخطف منديلي

١٧ ـ روق في القناني روق :

روق في القناني روق ... عين برق الخزام واسقيني
وان جاني محبوبي الليلة ... لاعمل له على القصة جنينة
وأسيب العجين ع العيلة ... وانا اقوله يا قلبي اتهنا يا عيني
وحبيبي اللي حبيته ... من وسط الجدعان وناديته يا عين
بليت له الشربات وسقيته ... وانا اقول يا زين الرجال تعالى لي
قلت لها يا شبه أوريان ... على شعرك وفرجيني يا عيني
قالت لي روح يا مسكين ... وأنا شعري سلب جمال يا عيني

١٨ ـ يا منورة القصر العالي :

يا منورة القصر العالي من غير فنيار
كتبنا كتابك يا عروسة وانت لسه صغار
في وسط بيتك جنينة تطرح رمان
يا تمر حنة وشمينا رحنا اسطمبول
جبنا جهازك وجينا والعبد سرور
وسرور يخدم علينا سنتين تمام

١٩ ـ يا أحمد يا شربتلي :

يا احمد يا شربتلي ... يا نص محرمتي
املا وشيلني ... اوعى تميلني
يروح الخبر لامي ... أمي تعدرني
وأبويا يدبحني ... والبقرة تنطحني

٢٠ ـ يا نخلتين :

يا نخلتين في العلالي ... يا بلحهم دوا
يا نخلتين على نخلتين ... والاربعة طرحوا سوا

يا نخلتين في العـــلالي — يا بلحهم دوا
يا نخلتين على نخلتنـــا — صبحوا الثلاثة فى حتتنا
يا نخلتين فى العـــلالى — يا بلحهم دوا
لما شافتهم عروستنا — طرحوا البلح من غير نوى

٢١ ـ جانا الفرح جانا :

(أغنية عروس ريفية)

جـــانا الفرح جانا على كيد عـــدانا
جا العريس وجال لى ربنا تعـــدنى
أهـــو السـمن عندى بلاليــص ملانـــة
جـــا العريس وقال لى افرحى وتاحنى
أهو الجمع عنـــدى غـــراير ملانـــة

٢٢ ـ آه ياعزيز عينى :

آه يا عـــزيز عيـــنى — وأنـــا بدى أروح بلدى
بـــلدى يـــا بنـــلدى — وأنا بدى أشوف ولدى
آه يا عـــزيز عيـــنى — وأنـــا بدى أروح بلدى
آه يا عـــزيز عيـــنى — والغربة هدت حيـــلى
يا عـــزيز بـــلدى — والسلـــطة أخدت ولدى
آه يا عـــزيز عيـــنى — وأنا بدى أروح بـــلدى
أشوف عزيزة بنـــتى — ومحمـــد كامل ولدى
آه يا عـــزيز عيـــنى — وأنا بدى أروح بـــلدى

٢٣ ـ يا بهية خبرينى :

يا بهية وخبرينى يا ابوى على اللى قتل ياسين آه يا عينى على اللى قتل ياسين

قتـــلوه الســـودانيين يا ابوى — من فـــوق ظهر الهجين آه يا عينى
وياسين سايح فى دمه يا أبوى — وخايف منه الحكيم آه يا عيـــنى
يا بهية البـــوابة يا أبوى — قول لى ست السراية فين آه يا بوى
ست السراية بهيـــة يا ابوى — شدت واحد وكيل آه يا عينى
احكم بالعدل يا قاضى أيا بوى — قـــدامك مظـــاليم آه يعينى
عوج الطربوش على ناحية يا ابوى — وحكم باربع ســـنين آه يا عينى

وحكم باربع سـنين

وأتيني في الزنازين

٢٤ ـ آه يا لالي :

آه يا لالي يا لي آه يا لي يـا ليـل
آه يا دلع يا دلـع حلوة في الدلع يا زين
لما شاف طولك يا حلوة قايس وقلخ يا عيني

آه يا لالي يا لي عشق محبـوبي فتني
أبدا ولا لك على أهل المحبة لوم يالا لي
ان طلب وان ماطلت يا ليل مافيك نوم يالي

٢٥ ـ صلاة النبي :

صـلاة النبي على قصـتك وعنيـك
جبنـا الحرير وجينا نطل عليك
لقينا عريسك زى القمر حواليـك
صـلاة النبي على قصـتك وعنيك
جبنا الحبايب وجينا نطل عليك

٢٦ ـ قمرة يا قمرة يا قمورة :

قمرة يا قمرة يا قمورة يا محنى ديل العصفورة
ان كنت خايف من ابويـا ده ابويا عدى المنصورة
وان كنت خايف من أمي ده أنا أمي على ستورة
ان كنت خايف من اختي دى أختي بيحبوها بالطورة
وان كنت خايف من البواب ده أعمى ورجله مكسـورة

٢٧ ـ حالي حالي ع البدوية :

حالي حالي ع البـدوية غريب باتاع البـدوية
لما قالوا لي يا سليمان لم الفوطة وتعالى قوام
والله لو أرجع يا جدعان لاعمل عزومة واعزم الجيران
واجيب فيهـا الآلاتية والنبي ياما ع البدوية

٢٨ ـ آه يا زين :

آه يا زين آه يا زين آه يا زين العـــــابدين
آه يا ورد آه يا ورد مفتح بين البســـاتين
النـــوم حرم آه يانا أجفانى لمـا لمـــا حبيبى جفـــانى
وصوت كلامك آه يادى العزول أوالى وإلى جرالى يكفـــانى
دخلت يـــوم أنا أنـــا بتفـــرج على على جنينـــة بحـــرية
لقيت غزال وعيونه عيونه سود هو هو اللى ســـبب جنانى

٢٩ ـ يمامة حلوة :

يمامة حلوة وميتى اجيبهـــا طارت يا نينة عند صاحبها
وخطفها البلبل وطار وياهـــا قصده يا نينة يعرف لغاهـــا
تطير وتجينى قاصدة تســـليني لاحلف بدينى لاطير وياها
شعرها يهفهف وعليها يرفرف وأنا بدى أعرف مطرح ما هى

٣٠ ـ وجننتينى يا بنت يا بيضة وجننتينى :

وجننتينى يا بنت يا بيضـــة وجننتينى شـــوفوا المحاســـن شـــوف
عليهم يغنى العين والحاجب عليهم يغنى
شـوفوا العجـــايب شـــوف
شبيه الخوخة طالعة من الحمام شـــبيه الخوخة
والبوسة منها آه
معهـــا للدوخة والبوســـة من لخدود للدوخة
عود يا زمانى عود

قولوا لعين الشـــمس ما تحماشى لحســـن غزال البر صـــابح ماشى
يا تعزبنى ويا شبكنى فى حبك وما بى كـــلام النـــاس
وبعد حبيبى آلعود يا زمانى عود
قبل ما يودعنى ســـالت دموعى والزمن لوعنى ســـالت دموعى يا نـــاس
بعد ما ولعتنـــا يامـــا أصـــعب الفرقـــة
صبحوا فاتونى يا ناس

٣١ ـ يا حمامي :

يا حمامي ياما يا حمامي عينه ماحت
طلعت فوق السطوح أشكي الهوا لله
لقيت ثلاثة بيقروا في كتاب الله
قالوا تخدى ابن عمك قلت لا والله
قالوا لى تخدى ابن خالك قلت حد الله
قالوا لى تخدى الغريب قلت شرع الله

يا ساقية الحب سواقك ضنا حالى
وكل ما افوت عليك ينشغل بالى
روحوا اسألوا الميلى ولا تسألوش خالى
روحوا اسألوا الثريا والسبع نجمات
ونجمة الصبح تنبيلكم على حالى
طلعت فوق السطوح انى أشوف طيرى
لقيت طيرى بيشرب فى قنا غيرى
زعقت من عزم ما بى وقلت يا طيرى
قال لى زمانك فرغ دور على غيرى

٣٢ ـ ياما حلوة يا ريه

ياما حلوة يا ريه ياما حلوة يا ريه
زرع البنات البيض أخضر بلا ميه
نجم السما العالى نجم السما العالى

آه يا مرسى يا بو العباس يابو مقام عالى
خاين يا زمانى خاين يا زمانى

وديت جبايبى فين خاين ولا تقوللى
وبعت لهم جوابين ولا جواب جانى
على حسب وداد قلبى وأنا اقول للزين سلمات
وى عيون حبيبى يا ناس سودة وعجبانى
طرق الهوا على الباب قلت الحبيب جانى

والود عاد تانى

اتاريك يا باب كداب تتهز بالعانى يا ابوى

٣٣ ـ ننـا ننـا :

ننـا ننـا نـام ننـا ننـا هـو

دى حبيبة وأنا أحبهـا وأحب اللى يحبهـا

وأحب الورد الاحمـر اكمنـه بلون خدهـا

يا ربى تنام يا ربى تنام وادبح لك جوزين حمام

باضحك عليك يا دى الحمام بس عشان حبيبتى تنـام

يا حبيبـة يا حبيبـة . ما جوزكيش غريبـة

اجوزك فى البيت عندى لجل ما تبقى قريبـة

يا حبيبى من زمان وانت فى برج الحمـام

والسـنة دى الحمد لربى فى حضـن امك تنـام

لما قالوا دا غـلام اتشـد ظهرى وقـام

عملوا لى البيض المحمر وعليه السـمن عـام

لمـا قالوا دا ولد اتشـد وسـطى وانسـند

عملوا لى البيض مقلى ولموا لى سمن البـلد

لما قالوا دى بنيـه قلت الحبيبة أهى جيه

تكلمنى وتحـدثنى وتملا لى شـوية ميه

٣٤ ـ الحما ياما من الحما :

الحمـا يامـا من الحمـا ولو كانت ملكة من السـما

برده حمـا

خلتنى جاعدة فى الحمـام رجعتنى عشـرين كف تمام

يرزقها بعفـريتين جـوام ولا يفرح فيهـا الا أنـا

الحما ياما من الحما

خلتنى جاعدة أغسـل راسى دلجت عليـك البـلاص

يرزقهـا الله بعفريت جاسى ولا يشـمت فيها الا أنا

الحما ياما من الحما

٣٥ ـ على بلدى :

على بلدى وبـلد أمى يا واد على بـلدى بلد الأحبـاب

تضـربنى وأنا ايـه ذنبى يا واخـد روحى وقـلبى

وحط ايده على شعرى وقلت له شيل ايدك حط ايدك فرفشنى ياواد

على بلدى وبلد أمى يا واد

٣٦ - فروانة العدس :

فراونـــة العــــــدس بردت وأم العروســـة هربت
وأبوهـــــا ما خنشــــاشى خد بنتـــه وتنـــه ماشى
والا كلت ولا شـــــربت أم العروســـة هربت

٣٧ - ما تسيب قميصى .

ما تســـــيب قميـــصى يا ولد ما نتـــاش عريسى باجولك
بيـــاع الحرير ما هو عندك ما تروحى تجيب وأنا مـالى
ما تســـيب شـــــومارى يا ولد ما انتـــاش خيــالى باجـــولك
لبســـت البـــدلة البـــمبى قلعـــنى البـــدلة بمـــبى
صـــبحت أجول آه يا جنبى من اللى جـــرالى من أمـــك
لبســـنى البـــدلة الرصاصى قلعـــنى البـــدلة الرصاصى
صبحت أقـــول آه يا راسى من اللى جرالك من أمك

٣٨ - الكهربائية - الكهربائية

الكهربائيـــة الكهربائيـــة طلعت تجرى على المنشـــية (١)
الكهربائيـــة ماشـــية كويس وقفوهـــــا عنـــد خميس
وخميس واقف متيـــس كب الباميـــة على الملوخيـــة
والكهربائية نحاس فى نحـــاس وقفوهـــا عنـــد اليـــــاس
واليــــاس واقف محتـــاس كب الباميـــة على القلقـاس

٣٩ - يا ليلة بيضـــا

يا ليلة بيضا يا نهار ســـلطانى يا حمامى ياما عدى ولا جانى
بجنـــاحه الفضة وعيون مرجانى يا شيله عيونه ياما ياضنين حالى
يا حمـــامى ياما عدى المنشية بجناحه الفضة وعيون عسـليه
كلمتـــه يا نينـــه لم رد على يا شيله عيونه ياما يا ضنين حـالى

٤٠ - خدنى فى جيبك :

خـــدنى فى جيبـــك بقى بين الحـــــزام والمنطقـــة
لالبس بمـــبى واخلع بمـــبى واخدك على جنبى يا واد بقى
لالبس قرفـــة واقلع قرفة واخد الخفة على البيت بقى

(١) هذه الأغنية تؤرخ تسيير أول عربات الترام فى الاسكندرية وذلك فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٦ م .

٤١ ـ قوالوا لى قولوا لى :

قولوا لى قولوا لى ع البيضـــا أم لولى
والله ما اقـــولك ولا أجيـــلك لعنـدك
لما أشـــوف اللى قالك على عرضى وطولى

٤٢ ـ سالمة يا سلامة :

ســـــالمة يـــا ســـــلامة رحنـــا وجينـــا بالســـلامة

القصص الشعبى
سيرة بنى هلال

الهلالية : قصة شعبية تختلف اختلافا كبيرا عن سائر القصص التى نعرفها فسيرة بنى هلال ليست سيرة فرد بل جماعة وحوادثها الرئيسية وقعت فى غربى العالم الاسلامى لا فى شرقيه ـ فى شمال افريقية حيث العنصر الفينيقى السامى والبربرى الأفريقى ، ذلك الشعب صاحب التاريخ القديم والأثر البعيد فى حضارة البحر الأبيض المتوسط والذى كانت تربطه بروما الى جانب الروابط السياسية روابط ثقافية لاتينية ، لذلك لا غرابة اذا رأيناه يتطلب من العرب المسلمين معاملة خاصة تختلف عن سائر المعاملات التى خضعت للاسلام والمسلمين ، فتاريخنا يحدثنا أن أمور تلك البلاد اضطربت اضطرابا خطيرا عقب وفاة فاتحها وقاهرها عقبة بن نافع ونحن نعلم أيضا أن قبائل بربرية كثيرة ارتدت عن الاسلام بعد ان اعتنقته حتى أن الوليد بن عبد الملك اضطر الى اعادة فتحها باسناد أمورها الى موسى بن نصير وبالرغم من بطشه فى حكم البلاد الا أن العروبة والاسلام كانا فى كفاح دائم يختلف حدة وضعفا باختلاف العصور مع البربرية والوثنية ولعل أجمل صورة من صور هذا النزاع هى تلك التى تقدمها لنا سيرة بنى هلال فى أسلوب القصص الشعبى لا التاريخى العلمى الذى تركته لأمثال ابن الأثير وابن خلدون ـ فسيرة بنى هلال وان لم تكن فى حجم بعض السير الطويلة الا انها تعتبر من كبريات القصص العربية الشعبية ويمكن لنا أن نقسم هذه القصة الى حلقات ثلاث :

الحلقة الأولى : وهى التى تعالج بنى هلال منذ ظهورهم فى الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو والحلقة الثانية : تحدثنا عنهم وقد رحلوا الى نجد .. بينما الثالثة يطلق عليها تغريبه بنى هلال اهتمت بحروبهم وأعمالهم فى الغرب

الحلقة الأولى : ـ فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم فهى تقول ان هلال بن عامر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى الى المسلمين معاونة قوية حتى أن النبى أسكنه وادى عباس وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم ورزق بولد دعاه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده واحترف الفروسية وقام بكثير من أعمال السلب والنهب ثم تعرف الى الأمير (مهذب) وتزوج بابنته (هذبا) ومضت على زواجهما عشرة أعوام ولم يرزق منها بطفل فقرر الزواج بأخرى ورحل الى بلاد (السرو وعبادة) حيث تزوج بابنة الملك الصالح . واسمها

(عذبا) وبعد ذلك نرى السـيرة تحدثنا أن (هذبا) وضعت له جابرا كما وضعت (عذبا) جبيرا ولم يمض على ولادة الطفلين زمن طويل حتى نرى الغيرة تدب بين الاثنتين ونرى كلا منهما تريد شرا للأخرى ولابنها ، وهنا تعرض لنا السيرة هذه الناحية من نواحي الحياة الشرقية الاجتماعية عرضا جميلا وينتهى الأمر بطلاق عذبا ورحيلها مع ابنها جبير الى نجد . ومن نسل جابر وجبير انحدرت الينا رجالات بنى هلال ونساؤهم الذين قاموا بالأدوار الهامة فى مختلف فصول السـيرة فجابر ولد له عامر وثامر وهشام وحازم . ومن نسل هؤلاء انحدر رزق والد أبى زيد وسرحان والد السلطان حسن . أما جبير فقد ولد رباح وحنظل والنعمان ومن ذرية رباح دياب . ومن ذلك يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر وانما دياب من ذرية جبير .

وبعد قصة جابر وجبير نقرأ خبر زواج (رزق) بخضراء وكيف أنه رزق منها بفتاة تدعى (شيما) وفتى يدعى بركات وكان الولد أسود اللون لذلك اتهمت خضراء فى عرضها وانتهى الأمر الى رحيلها وابنها الى بلاد الأمير الزحلان عدو بنى هلال فيكرم الأمير وفادتها ويعنى بها وبتربية ابنها ويوكل أمر تعليمه الى خطيب كان يشرف على ابنيه (منعم ونعيم) ويحدث أن يهاجم الهلالية فى بلاد الزحلان فيتصدى لهم بركات ويأخذ والده أسـيرا ويعترف له الهلاليون بشجاعته ويطلقون عليه سلام ويعجب به الزحلان ويزوجه بابنته (غصن البان) وتعلو مكانة سلام فى أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته آخذة فى العلو لذلك أطلقوا عليه منذ ذلك الوقت أبو زيد الهلالى سلامة وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين مع الزحلان تنتقل الى سرحان وتحدثنا عن خبر تعرفه بشما ووقوعهما فى أسر الافرنج ونجاتهما بحيلة لطيفة ثم تسجل لنا بعض الأغانى الشعبية التى نرى ما يشابهها وزنا وقافية فى أغانينا الصعيدية الحديثة التى يسهل حفظها ويحلو ترنيمها مثل :

ربى عطـــاك هنا	والكـــف منحـــنى
انظـــر لشامتهـــا	هـــذى علامتهـــا
انظـــر لقامتهـــا	شـــبه الرونبـــة
والشـــعر مثل الليـــل	كأنه ســـباسب خيل
والوجه مثل الســـيل	وعيـــون هنديـــة

ويقول لها سرحان :

شـــما قلقتـــينى	بحبـــك جننـــتينى
قـــومى واســـقينى	من فـــوق شبر ميـــه
قـــومى آتى دورك	وهلكت من جـــورك
بالليـــل أنا أزورك	وهـــالوقت شـــويه

وقبل أن تنتهي الحلقة الأولى من السيرة نقرأ شيئا كثيرا عن اعمال الهلاليين في اليمن والهند ٠

أما الحلقة الثانية : فتبدأ برحلة السلطان حسن وابي زيد من بلاد السرو الى نجد حيث تعيش قبيلة زغبة وذرية خيبر اعني الامير غانم وابنه دياب وسبب هذه الرحلة القحط الذي حل ببلاد السرو وفي طريقهم الى نجد نقرأ فصلا طويلا عن حروبهم مع يهود خيبر وانتصارهم عليهم وفي نجد يتزوج السلطان حسن (نفلة) أخت دياب بعد ان يعده بأخته (نور بارق) أي الجلزية وفي هذه الفترة نجد وصفا للمعارك التي قامت بين الهلالية والعقيلي وحنظل والهيدبي ثم تنتهي الى الاصطدام بين ابي زيد ودياب ولا تنتهي هذه الحلقة الا بعد أن تطيل في الحديث عن بطولة العرب عامة والهلالية خاصة وانتصاراتهم على الافرنج ٠

والحلقة الثالثة : تغريبة بني هلال تعنى بأعمال الهلاليين في الغرب خاصة في شمال أفريقية وهذه الفترة من فترات التاريخ الاسلامي الصحيحة لا شك فيها كما أن بني هلال عرفتهم الجاهلية وعاشوا في الاسلام وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر في سبيل العمل على تعريف تلك البلاد جنسا وثقافة فابن الاثير يحدثنا في كتابه الكامل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج في العام الرابع للهجرة من احدى بنات بني هلال ثم يذكرهم مرة عند الحديث عن غزوة هوازن في مناسبات أخرى كثيرة أما خروجهم الى أفريقيا فقد ذكره كثير من المؤرخين منهم ابن خلدون في الجزء الرابع من تاريخه ما نصه ! كان المعتز بن باديس قد انتقض دعوة العبيديين بافريقية وخطب للقائم العباسي وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة ٤٤٠ هجرية فكتب اليه المستنصر يتهدده ثم انه استوزر الحسين بن علي التلزوري بعد الجرجري ولم يكن في رتبته فخاطبه المعز دون ما كان يخاطب من قبله ، فحقد ذلك وأغرى به المستنصر ٠

وأصلح بين زغبة ورباح من بطون هلال وبعثهم الى افريقية وملكهم كل ما يفتحونه وبعث الى المعز ! اما بعد فقد أرسلنا اليك خيولا وحملنا عليها رجالا فحولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا ٠

وبينما نجد التاريخ جافا في تصوير هذه الحملة اذ بالسيرة تعرضها عرضا وافيا مستفيضا فهي تخبرنا أنها أعدت كأحسن ما تعد حملة اليوم فنحن نقرأ خبر إرسال العيون الى البلاد أولا لكي يستطلعوا اخبارها ومعرفة قوتها وأحسن الطرق الموصلة اليها وكان هؤلاء الجواسيس من خيرة أبناء الهلاليين من مرعي ويونس وابن زايد ويقع جميعهم في قبضة العدو ولا يفرج الا عن أبي زيد الذي عاد وجهز الجيوش لفتح تونس ٠ ويسير أبو زيد مع بني زحلان وحسن مع بني دريد ودياب مع بني زغبة ويؤتى بالجازية من مكة

لتكون فى الطليعة . ثم نقرأ قصصا كثيرة حول هذه الجيوش والتقائها بالخفاجى عامر والملك الغضبان والخزاعى رشبيب المنبعى والبردويل بن راشد وأشهرها هى قصة بنى هلال مع القاضى حاكم صعيد مصر وما كادت تتحرك هذه الجيوش لملاقاة الزناتى خليفة حتى زودها أبو زيد بخططه الحربية الخطيرة فهو يضلل جواسيس العدو مرة ويستولى على عيون الميـــاه مرة أخرى ويأتى بحيل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب الحالية وقد أطلق مرة المنـــادى ينادى فى العرب (كل من كان عنده ناقة والدة يبعد ابنها عنها ، أو فرس والدة يبعد لا ابنها عنها وكل من كان عنده خصان طلوقا يجيبه عند فرس شايع ويلحقونا على عين الحظيرى . وتجلى العرب كلهم يدقون طبولهم فى نزولهم على العين فســمع الزناتى حنين المهارى وصــــهيل الخيل وحسن الطبول فينكسر قلبه قبل ما يجىء لنا الحرب) . كما انه كثيرا ما استخدم النساء للتسرب الى داخل البلاد والقيام بأعمال السلب والنهب لايقاع الذعر بين الأهلين والتمهيد لدخول الجيوش وكان تنفيذ هذه المهمة يوكل عادة للجازية التى كانت تقوم بها خير قيام فاسمعها مثلا تتحايل على منصور أحد بوابى تونس وتمنيه وتغريه بمختلف المغريات !

افتــح لا تخـــالف انك رجل عـــارف

وانظر دى الوصـــــايف لرية وســـارة

وشوف نجلة المليحة مع حسن الرجيحة

حين ترضى المســـيحة مع طراف الخمار

تنصب لك علامة ما بين الغـــراما

قل يالله السلامة فى هذا النهـــارا

وبعد حديث طويل نجد الجازية تتغلب على منصور ويفتح لها ولمن معها من نســـاء ورجال الباب ويتمكن الهلاليون من اطلاق سراح مرعى ويونس ثم تدور الدائرة على الزناتى فيقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سعدة التى شغفت بمرعى عندما كان فى سجن أبيها فهى التى أشارت على الهلالية بارسال دياب الى أبيها ومنازلته لأن ديابا أقدر الفرسان لمنازلة الزناتى خليفة .

خلا الجو للعرب فى تونس واستولوا على عروش الغرب السبع وشرعوا فى تقسيمها بينهم كما أخذوا فى الاســـتعداد لغزو مراكش وهنا نجد النزاع الذى كان قائما بين العرب فى الجزيرة أعنى بين اليمنية والقيسية ينفجر مرة أخرى فى افريقية فيمثل أبو زيد القيســـية ودياب اليمنية وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد فهى فى جدول الانسان الذى ســـاقته من قبل جعلت ديابا ينحدر من فرع تجرى فى عروقه دماء حمير فهو دياب بن غانم بن رباح بن خميرى رباح بن خيبر فذكر حمير هنا لم يأت عبثا ، وانما تمهيدا لسائر الخصومات التى قامت بين أبى زيد من ناحية ودياب من ناحية أخرى ، وهو يعلل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبى زيد فيما بعد .

أدت هذه القبائل القيسية رسالتها فى شمال أفريقية وجعلته عربيا جنسا وثقافة ودينا حتى يومنا هذا ، وبعد ذلك نقرأ خبر انتقال دياب الى السودان والحبشة ويقتل دياب ويتولى ابنه نصر الدين الزغبى حكم بلاد الغرب وتنتقل بعض القبائل القيسية الى صعيد مصر ثانية ، فأعالى النوبة، فالخرطوم ، فدارفور حيث نسمع عن وجود قبائل عربية مثل الرزيقات نسبة الى رزق والد أبى زيد وقبيلة سليم نسبة الى بنى سليم وهنا تؤيد السيرة أبحاث المؤرخين ورجال اللغات السامية فهم مجتمعون على أن لهجة صعيد مصر ومالطة وشمال افريقية وأعالى النوبة وكردفان وجنوب الخرطوم ودارفور لهجة واحدة لها مميزاتها الخاصة التى تميزها عن سائر اللهجات العربية ٠

الا أن بعد هؤلاء العرب عن الجزيرة العربية لم ينسهم بلدهم الأصلى حتى انه جاء فى شعرهم ذكر لنجد كقول مرعى معبرا عن حبه لنجد مخاطبا سعدة بنت خليفة :

يا سعدة نجد العريضة مرية ربيت بها أهلى وكل جدود
بلدى ولو جارت على مرية وأهلى ولو شحت على تجود

ملحق الحكم والأمثال الشعبية

١ ـ آخر المعروف ضرب الكفوف .
٢ ـ أبرد من مية طوبة .
٣ ـ البرميل الفارغ يرن .
٤ ـ بصلة المحب خروف .
٥ ـ البطيخة القرعة لبها كتير .
٦ ـ البطيخة ما تكبرش الا فى بيتها .
٧ ـ البطن ما تجبش عدو .
٨ ـ بطينه ولا غسيل البرك .
٩ ـ بعد امى وأختى الكل جيرانى .
١٠ ـ بعد الجوعة والقلة بقاله حمار وبغلة .
١١ ـ بعد ما كان واتكا قال دا ريحته مستكة .
١٢ ـ بعد ما راح المقبرة بقى فى حنكه سكرة .
١٣ ـ ابطى ولا تخطى .
١٤ ـ ابليس ما يخربش بيته .
١٥ ـ ابن آدم فى التفكير والرب فى التدبير .
١٦ ـ ابن الحاكم يتيم .
١٧ ـ ابن الحرام مخلاش لابن الحلال حاجة .
١٨ ـ ابن الديب ما يترباش .
١٩ ـ ابن الصائغ اشتهى على أبو خاتم .
٢٠ ـ ابن الهبلة يعيش أكتر .
٢١ ـ ابن الوز عوام .
٢٢ ـ ابن يومين ما يعيش ثلاثة .
٢٣ ـ ابنك على ما تربيه .
٢٤ ـ أبو ألف حسد أبو ميه .
٢٥ ـ بدال اللحمة والبدنجان هات لك قميص يا عريان .
٢٦ ـ بدال ما تقول للعمدة يا سيدى أقضى حاجتى بايدى .
٢٧ ـ بدال ما تعمل توب بفرحة هات لك توب وطرحة .
٢٨ ـ بدال ما تغشه قول له فى وشه .
٢٩ ـ بدال ما تقعد وتتجسطن اكلم واتوسطن .
٣٠ ـ البدرية علمت أمها الرعية .
٣١ ـ البرطيل شيخ كبير .

٣٢ ـ البركة فى كتر الأيادى ٠
٣٣ ـ بركة يا جامع اللى جت منك ما جت منى ٠
٣٤ ـ أبو جعران فى بيته سلطان ٠
٣٥ ـ اتبع البوم يوديك الخراب ٠
٣٦ ـ اتبع الكداب لحد باب الدار ٠
٣٧ ـ اتحدث فى المجلس واللى يكرهك يبان ٠
٣٨ ـ اتعب جسمك ولا تتعب قلبك ٠
٣٩ ـ اتعلم البيطرة فى حمير الاكراد ٠
٤٠ ـ اتعلم السحر ولا تعملوش ٠
٤١ ـ اتغدى بيه قبل ما يتعشى بيك ٠
٤٢ ـ البانى طالع والفاحت نازل ٠
٤٣ ـ بتاع الناس كناس ٠
٤٤ ـ البحر يعوز الزيادة ٠
٤٥ ـ بختها معها أين ما تمشى يتبعها ٠
٤٦ ـ أحضر أردبك يزيد ٠
٤٧ ـ أكل ومرعى وقلة صنعة ٠
٤٨ ـ آكلة ليلة قريبة من الجوع ٠
٤٩ ـ آكلو الهدية وكسروا الزبدية ٠
٥٠ ـ اكمن أبوك جندى داير تهز وسطك ٠
٥١ ـ اكمن أبوك سنجق داير فى حل شعرك ٠
٥٢ ـ الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح ٠
٥٣ ـ باب مردود شر مطرود ٠
٥٤ ـ أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة ٠
٥٥ ـ اكتم سرك تكتم أمرك ٠
٥٦ ـ اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لأمها ٠
٥٧ ـ احيينى النهاردة وموتنى بكرة ٠
٥٨ ـ أخته فى الخمارة وعامل امارة ٠
٥٩ ـ الخرس وعامل قاضى ٠
٦٠ ـ اخلص النية وبات فى البرية ٠
٦١ ـ ادلعي يا عوجة في السنة السودة ٠

٦٢ ـ ادى سرك للى يصونه ٠
٦٣ ـ ادى العيش لخبازينه ولو يكلو نصه ٠
٦٤ ـ ادينى عمر وارمينى البحر ٠
٦٥ ـ اذا اشتد الكرب هان
٦٦ ـ اقبل عذر اللى يجيلك لحد باب الدار ٠
٦٧ ـ اذا كان فيه خير ما كانش رماه الطير ٠
٦٨ ـ اسأل مجرب ولا تسأل طبيب ٠
٦٩ ـ اعز الولد ولد الولد ٠
٧٠ ـ اعمل حاجتى بايدى ولا أقول للكلب يا سيدى ٠
٧١ ـ اعمل الطيب وارميه البحر ٠
٧٢ ـ اعمل المعروف مع أهله وغير أهله ٠
٧٣ ـ أعمى وعامل منجم ٠
٧٤ ـ افتكر لك ايه يا بصلة وكل عضة بدمعة ٠
٧٥ ـ اشترى الجار قبل الدار ٠
٧٦ ـ اضرب الطينة فى الحيطة ان ما لزقت علمت ٠
٧٧ ـ اضرب عصاتك واجرى وراها ٠
٧٨ ـ اطعم الفم تستحى العين ٠
٧٩ ـ أطلب لجارك الخير ان ما نلت منه تكتفى شره ٠
٨٠ ـ اصباح الخير يا جارى قال انت فى دارك وأنا فى دارى ٠
٨١ ـ اضرب الأرض تطرح بطيخ ٠
٨٢ ـ اصرف ما فى لجيب يأتى ما فى الغيب ٠
٨٣ ـ اضرب ابنك واحسن أدبه ما يموت الا لو فرغ أجله ٠
٨٤ ـ أردب ماهو لك ما تحضر كيله تتغبر ذقنك وتتعب فى شيله ٠
٨٥ ـ ارميه البحر يطلع وفى بقه سمكة ٠
٨٦ ـ اكسر للعيل ضلع يطلع له اثنين ٠
٨٧ ـ الأكل فى الشبعان خسارة ٠
٨٨ ـ اجرى ومد دا شيء يهد ٠
٨٩ ـ البايرة اولى ببيت أبوها ٠
٩٠ ـ الباطل مالوش رجلين ٠
٩١ ـ بات كلب وأصبح سبع ٠

المراجع

١ ـ أحمد رشدى صالح — الأدب الشعبى مكتبة النهضة عام ٥٥

٢ ـ أحمد شوقى عبد الحكيم — أدب الفلاحين دار الكتاب العربى بمصر

٣ ـ أحمد محمد الحوفى — الفكاهة فى الآدب مكتبة نهضة مصر

٤ ـ أحمد أمين — قاموس العادات والتقاليد بالقاهرة عام ٢٨

٥ ـ أحمد سليمان حجاب — نافذة على الأدب الشعبى

٦ ـ أرسطو — ترجمة عبد الرحمن بدوى فن الشعر الانجلو

٧ ـ اندروز. ت. ج. — مناهج البحث فى علم النفس ١ ، ٢ دار المعارف

٨ ـ ابن الاثير — الكامل فى التاريخ طبعة القاهرة ١٣٠٢ هـ (على بن أحمد بن أبى الكرم) .

٩ ـ جمال الدين عبد الرازق — علم النفس فى الحياة مكتبة مصر ٤٨

١٠ ـ جون فيفر — العقل البشرى ترجمة م. عيسى النهضة .

١١ ـ جمال حمدان — شخصية مصر دراسة فى عبقرية السكان .

١٢ ـ جوستاف لوبون — الحضارة المصرية القديمة ترجمة عادل زعيتر الحلبى سنة ١٩٤٨ .

١٣ ـ حنا الفاخورى — الحكم والامثال دار المعارف بمصر

١٤ ـ حسين فوزى — سندباد الحصرى ـ جولات فى رحاب التاريخ الانجلو .

١٥ ـ حسين فوزى النجار — لطفى السيد والشخصية المصرية ـ المعارف .

١٦ ـ ديركايم ترجمة حسن انيس — علم اجتماع وفلسفة ـ الانجلو

١٧ ـ سعد المغربى — ظاهرة تعاطى الحشيش ـ المعارف

١٨ ـ سعد جلال — علم النفس التربوى الرياضى ـ المعارف

١٩ ـ سهير القلماوى — ألف ليلة ـ النهضة ٥٥

٢٠ ـ سليم حسن — ديانة قدماء المصريين القاهرة ٣٦

٢١ ـ سليم حسن — على هامش التاريخ المصرى القديم القاهرة ٤٠

٢٢ ـ سيد أحمد عثمان وأبو حطب — التفكير دراسات نفسية ـ الانجلو

٢٣ ـ سيد عويس — الخلود في التراث الثقافى المصرى ـ دار الشعب

٢٤ ـ سيد عويس — من ملامح المجتمع المصرى المعاصر ـ ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى ٦٥ دار الشعب ٠

٢٥ ـ صلاح مخيمر وعبده رزق — سيكلوجية الشخصية ـ الانجلو ٦٨

٢٦ ـ عز الدين اسماعيل — التفسير النفسى للأدب

٢٧ ـ فوزى العنتيلى — الفلكلور ما هو دار المعارف ٦٥

٢٨ ـ فاروق خورشيد ومراد ذهنى — السيرة الشعبية دار الثقافة العربية

٢٩ ـ فريدة أحمد — صناديق النذور فى مساعدة أولياء الله

٣٠ ـ لويس كامل مليكة — سيكلوجية الجماعات والقيادة ١ ، ٢ ، ٣

٣١ ـ ليفارت تريل ترجمة أحمد القصاص — العقلية البدائية ـ مكتبة مصر

٣٢ ـ محمد عمادالدين‌اسماعيل — المنهج العلمى وتفسير السلوك النهضة المصرية

٣٣ ـ محمد محمود الجوهرى — محاضرات فى علم الفلكلور تحت الطبع

٣٤ ـ محمد حسن ظاظا — محاورة جورجياس الهيئة المصرية للتاليف والنشر ٧٠ ٠

٣٥ ـ محمد خلف الله — الطفل من المهد الى الرشد المطبعة الرحمانية

٣٦ ـ مصطفى زيور — تعاطى الحشيش كمشكلة نفسية المركز القومى للبحوث ٦٢ ٠

٣٧ ـ مصطفى فهمى — سيكلوجية الطفولة والمراهقة مكتبة مصر

٣٨ ـ مصطفى فهمى — الانسان وصحته النفسية الانجلو

٣٩ ـ المقريزى — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار القاهرة ١٣٧ هـ ٠

٤٠ ـ نعمات أحمد فؤاد — مصر شخصية قاهرة الدار العربية

REFERENCES

1. Buttler, A.J. The Arab conquest of Egypt and Middle East London 1932.
2. Barnett, Personal struggle and cultural change London 1946.
3. Brown, J. E. Psychology and the social order, McGraw Hill 1936.
4. Boas, F. Mythology and folklore, Boston, Heath 1938.
5. Boas, F. Primitive art. Haward Univ. Press, Cambridge 1927.
6. C.L. Strauss. Le Flotemism aujourd'hui La presse Universitaire de France 1963.
7. C.L. Strauss. Le Cru et le Cuit, Paris, Plon, 1964.
8. C.L. Strauss. Du miel aux cendres, Plon, 1967,
9. C. L. Strauss. L'Origine des maniers de table 1968.
10. Diehl, H. S. and Laton, A.D. Health and safety for youth McGraw Hill, London 1945.
11. Erikson, E. H.Growth and crises of the healthy personality, — nature, society and culture, Cluckhon and Murray, 1953.
12. Franz, Alex. Sociological considerations; Fundamental of psycho-analysis, Norton and Co. New York. Chap. VI.
13. Freud, S. Civilization and its discontents, London, Hogarth press, 1930.
14. Freud, S. Totem and Tahoo, McGraw Hill 1913.
15. Freud, S. Wit and its relation to the unconscious.
16. Freud, S. The Ego and the London, 1916. Mechanisms of defence, Hagarth pr., London, 1937.
17. Freud, S. Group psychology and the analysis of the ego, Hogarth Press, 1949.
18. Gibb, Modern trends in Islam, New York, 1950.
19. Hall, C S.. Lendsey, G. Theories of personality, John Willey.

20. Horney, K. Ou rInner Conflicts, Norton, N Y., 1945.

21. Jaque Berque, Lecon Inaugurable. Paris, 1939.

22. Jones, E. Applied Psycho-Analy — London, Int., Psycho, anant Press.

23. Kris, E., The Psychology of caricature International J. Psychoanalysis, 17.285 1936.
1935.

24. Lewin, K. A Dynamic theory of personality McGraw Hill 1935.

25. Liddell, R. A treatise on the novel Jonatan Cape, London, 1947.

26. Luwig, Eidelberg, A contribution to the study of wit, London 1945.

27. Mead, M. And keep you powder dry, New York, Williams Mc graw and Co. 1942.

28. Moroe Berger, The Arab world today, A Double day Ancor book chap. 5 and 6.

29. Robert Redfield, The Folk culture of the Vacation, Chicago, Illinois, 1950.

30. Ruth Benedict, The Ckrysan the mum and the sword, Patterns of Japanese culture, Boston, Mifflin Co., 1946.

31. Simon, H.A., Models of Man, social and rational, New York, 1937.

32. Stock, D. and H.A. Emotional dynamics and group culture, New York, Univ. 1959.

33. Taylor N. Flight from reality, Sloan and Pearce, 1949.

34. Wisdom, J. A law of Joke formation Mage of psychology. Cairo. 1946.

35. Child, G., Man makes his self. London 1936.

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٨٠/١٩٨٤
ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٤٠٦ ـ ×

هذا الكتاب « دراسة فى الشخصية عن طريق دراسة بعض مظاهر الفولكلور المصرى » يعتبر بحثاً جاداً فى أصول الشخصية المصرية والعوامل التى أدت إلى تشكيلها على نحو يجعلها تبدو واضحة متميزة ، وذلك بناء على وجود متغيرات يعتبر السلوك محصلة لها هى العوامل الطبيعية والفزيولوجية والبيئية والاجتماعية والنفسية .

مع تركيز خاص على العوامل النفسية والنظريات المختلفة التى ساعدت على تفسير الظواهر التى تؤدى إلى تكوين الشخصية المصرية والشخصية القومية . وعلى اعتبار أن المؤثرات البيئية والاجتماعية ـ كما تتضح فى مظاهر الفولكلور المختلفة ـ تؤثر وتتأثر بالناحية النفسية للفرد والجماعة أيضاً ، أى أن هناك علاقات متبادلة بين العوامل النفسية والمؤثرات الفولكلورية تؤدى إلى تكوين الشخصية بوجه عام .

٢٢٥ قرشـــاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب